تاريخ

دانيال وولف

تاريخٌ موجزٌ للتاريخِ

تدوين التاريخ كونياً منذ العصور القديمة وحتى اليوم



ترجمة

حيدر عبد الواحد راشد



تاريخ موجز للتاريخ

تدوين التاريخ كونياً منذ العصور القديمة وحتى اليوم

تاريخ موجز للتاريخ

تدوين التاريخ كونياً منذ العصور القديمة وحتى اليوم

دانيال وولف

ترجمة: حيدر عبد الواحد راشد

A Concise History of History

By Daniel Woolf

Translated by Haider Abdul Wahed Rashid

الطبعة الأولى: سبتمبر - أيلول، 2021 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *تاريخ موجز للتاريخ*، بالإتفاق مع دار النشر التابع لجامعة كامبردج، المملكة المتحدة.

This Translation of *A Concise History of History*, has been Published by arrangement with **Cambridge University Press**, UK



بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN 978 - 9922 - 643 - 70 - 0

دانيال وولف

تاريخ موجز للتاريخ

تدوين التاريخ كونياً منذ العصور القديمة وحتى اليوم

ترجمة
حيدر عبد الواحد راشد



www.daralrafidain.com

لذكرى غيورغ غ. إيغرز (1926 ـ 2017)

وهايدن وايت (1928 ـ 2018)

... قد يكون التاريخ عبودية،

وقد يكون حرية...

ت. س. إليوت، (1942) 'Little Gidding'

من مجموعة **أربع رباعيات Four Quartets**

الفهرس

مقدمة المترجم

في أعقاب العقدين الأعنف في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، اللذين لم يتركا حجرا في بلدانه دون تقليب، ربما كانت الكلمة الأكثر ترددا على ألسنة المتعلمين والعامة على حد سواء هي «تاريخنا مزور.. يكتبه المنتصرون.. لا أساس للثقة في التاريخ!».

وفي حين قد يعتبر ذلك استجابة نفسية مبررة لبعض أسوأ الأمثلة على تسخير التاريخ والتراث الديني لخدمة مصالح راهنة وتحريض قطاعات كبيرة من شعوب المنطقة ضد قطاعات أخرى، فهو يشير إلى فجوة كبيرة في الإدراك الجمعي العربي تتعلق بالتعامل مع العلوم الإنسانية.

بل يحق لنا، لو أرجعنا البصر كرتين، أن ننظر إليها كأزمة مرضية في النظر إلى العلم بنحو أعم. فثقافتنا السماعية التي اعتادت الإبقاء على واسطة بشرية بينها وبين أي نص مكتوب، مقدسا كان أو دنيويا، تشربت على مر الأجيال فكرة أن النص المدون عصي على التغيير، لم يدون إلا لغرض التثبيت والتخليد. أما الاستدراك والتعقيب والتصحيح فهي مفاهيم كثيرا ما ترادف في أذهاننا أمورا كالانتقاص والإهانة وحتى القذف الصريح.

وهنا بالضبط يتضح مدى الحاجة إلى المنهج ويستبين دوره في إدارة المعرفة؛ فالمنهج ما هو إلا موقف مفصل من المعطيات يقصد به ترتيبها في نسق معين أو تقييمها بحسب انطباعات محددة، وهو أمر غائب تماما عن عقلية القرون الوسطى التي ما زالت شعوبنا الناطقة بالعربية تحتفظ بها، حيث تتعامل مع التاريخ (كقصة مقدسة) تتحدث إما عن انتصارات تتخللها الهزائم بالنسبة للأكثرية، واضطهادات يتلوها بعض الانفراج بالنسبة للأقلية.

الماضية. وهو أمر يجعل الإفصاح عن خلفية المؤرخ ومنهجه حاجة ملحة للغاية في هذا العصر الراهن، حيث لم يعد الحياد موقفا ممكنا بحق، ولا يجوز للمؤرخ تقمص دور الفضائي الناظر من عل إلى ما يجري في الكوكب الأزرق.

فمعلوماته وانطباعاته وحتى تحيزاته قد تنير - أو تظلم - نظرته إلى سير الأحداث أو حكمه على الفاعلين فيها، وقد يستحيل بدوره إلى شخص متفاعل مع التيارات السائدة ويؤثر فيها ويتأثر بنحو مفيد أو مضر، كما هو حال المؤرخين الماركسيين في بريطانيا ومفكري الحوليات في فرنسا.

ولكن ربما يصح انتقاد المؤلف من ناحية تتعلق بالميول الأكاديمية الحديثة نحو اليسار الراديكالي، وخاصة الأسطورة التي تعرف (بتمكين الأقليات). فهو في حين يحاول مجاراة التيار الهادر الذي ينادي بمنح النساء والأعراق الأخرى مكانة مكافئة للذكور البيض في التمثيل والتغطية التاريخية، نراه لا يخصص لأي من هذين الصنفين مساحة أكبر مما يتطلبه (إسقاط الفرض).

وقد يكون تفسير تلك الظاهرة أن الفروع التاريخية التي أقيمت لاسترداد دور القطاعات المهمشة ونصرة (سياسات الهوية) ما تزال حديثة العهد أولا، ولم تقدم من النتاج ما يجوز أن يقارن بالمؤلفات الشاخصة في التاريخ على مر القرون ثانيا. ثم إنها من حيث المنهج ما تزال عيالا على علم الاجتماع والسياسة اليسارية ولم تخط لنفسها مسارا مميزا في تدوين التاريخ ثالثا.

ولعل هذا التفاوت بين مساحة القول وواقع الفعل قد يصنف كتفنيد عملي، لو آثر المؤلف ألا ينتقد تلك السياسات المهيمنة بنحو صريح قد يكلفه منصبه الرفيع. وهذا رغم كونه ليبراليا مخلصا يلتزم الخط الرسمي ضد تيارات كاليمين القومي والتاريخ التنقيحي، وغير ذلك مما قرر الغالبون في الحرب العالمية الثانية اعتباره من شياطين الفكر والرأي.

مع صعوبة ادعاء أن الكتاب قد أحاط بكل ما يمكن الإحاطة به من معالم تدوين التاريخ في مجلد واحد، فإني كمترجم مهتم بالتاريخ كعلم ومنهج أرى أنه قد أدى دورا في غاية الأهمية والتمكن، واستطاع ربط خطوط واتجاهات متناثرة من خلال

تشخيص علاقات التقارب والتنافر بينها حينا، والتنويه بملامح الشبه والتناظر بينها حينا آخر. وهي مهمة لا يستطيع تأديتها إلا مؤرخ خبير بمكانة المؤلف، الذي شغل منصب نائب رئيس جامعة الملكة في أونتاريو، كندا لعشرة أعوام بين 2009 ـ 2019، وكرّم بعدها بدكتوراه فخرية في القانون نظرا لجهوده في مجال الأبحاث التاريخية والتعليم العالي.

آمل أن يكون هذا الكتاب إضافة قيمة بحق إلى مكتبة أي قارئ مهتم، ويوفر بفضل قائمة مصادره الوفيرة مفتاحا لتفهّم التاريخ ودراسته بوعي وحكمة وكثير من التأني، ومن يدري: فلعله قد يوقظ في مراهق متحمس ما شغفا بسلوك التاريخ كمجال بحثي رئيس أو ثانوي، ليصبح من ثم مؤرخا عربيا في عداد الأفذاذ مثل جواد علي وخير الدين الزركلي وسليم حسن.

وذلك أننا في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المنطقة بتنا أحوج ما نكون إلى تقييم موضوعي جاد وملتزم لأسباب الصراع ومآلاته، ودواعي الانهيار وتداعياته. ومثلما لا يبخل المرء على نفسه بزيارة الأطباء المهرة حين يشعر بعارض صحي خطر، فإن المشكلات الاجتماعية والثقافية التي أفضت إلى حروب أهلية ضخمة وموجات هجرة وتشريد لا مثيل لها في التاريخ منذ غزو المغول، جديرة باهتمام يتناسب مع حجمها حقا.

ثبت المصطلحات

حيث لا توجد إشارة بين قوسين إلى اللغة، كالعربية أو الألمانية، أو الثقافة، كالهندوسية، فالمصطلح إما انجليزي أو كلمة وافدة باتت شائعة في الاستخدام الإنجليزي. قلة من المصطلحات الواردة هنا لم تذكر بالتحديد في هذا الكتاب، ولكن القارئ قد يعثر عليها في موارد أخرى.

adab — **أدب** (عربية). دراسة اللغة والآداب؛ تمتاز من **الحديث**.

Altertumswissenschaft — (ألمانية) حرفيا: ‹علم› العصور القديمة. مصطلح فضفاض يصف معرفتنا عن العصور القديمة، دون الإشارة إلى المنهج. وبوصفه منهجا ‹علميا› (بمعنى الكلمة اللاتينية *scientia*)، فهو يرتبط بكتاب **هوميروس** لـ ف.أ. وولف، ومن بعده بـ ب.غ. نيبور وعلماء الكلاسيكيات اللاحقين بهما. وهو مصطلح يعتبر تقليديا أوربي المحور جدا من حيث تقيده باليونان وروما حصرا بوصفهما الثقافتين المؤسستين للتقدم الغربي الحديث، مع إقصاء الشرق الأدنى القديم، وكذلك الشرق الأقصى. انظر أيضا *Wissenschaft, Hilfswissenschaft* & *Geschichtswissenschaft*.

amátl — (ناهواتل) تسمية للسطح الذي تنقش عليه الرموز المرسومة، تكافئ كلمة *biblos* (يونانية) أو البردي، وكلمة *codex*،*scriptum* (لاتينية) أو *vuh* (مايا، وهو لحاء الشجر في العادة).

antiquitates — (لاتينية) صنف من تاريخ العاديات والآثار القديمة؛ أكثر من مجرد البحث في الأثريات والتحف *antiquarianism*؛ ازدهر بالخصوص في عصر أوائل الحداثة، حيث كان بديلا عن تراث السرد *narratio* أو التاريخ السياسي.

bunmeishi — (يابانية) تعني ‹دراسة التاريخ› عند فوكوزاوا يوكيچي.

Dichtung und Wahrheit — (ألمانية) حرفيا ‹الشعر [أو الخيال] والحقيقة›؛ مصطلح صاغه غوته، لكنه مفيد لوصف التجاذب بين الجانب الإبداعي والواقعي في التاريخ.

diplomatic

(لاتينية) علم الوثائق: مبحث ثانوي مخصص لدراسة وتصنيف الوثائق الرسمية كالمعاهدات، مع تركيز خاص على تخطيطها ووسطها المادي، وعلى العادات والصيغ والتحايا التي يمكن أن ترشدنا إلى أصل الوثيقة وعصرها حين لا تتوفر أدلة صريحة (أو تكون الأدلة محل شك، كما في الوثائق المزورة) في النص الفعلي للوثيقة.

epigraphy

دراسة النقوش، خاصة في الوسائط ‹الصلبة› كالجدران والمسلات والنصب.

Erklärung

(ألمانية) الإيضاح. يمتاز في فلسفة التاريخ منذ ي.غ. درويسن وڤيلهلم ديلتي عن *Verstehen* ، الفهم.

fangzhi

(صينية) ‹فهارس محلية› منظمة تاريخيا، كثيرا ما تتضمن معلومات تاريخية محلية.

Geschichtlichkeit

(ألمانية) التاريخية، أن يكون الشيء تاريخيا. كثيرا ما ترتبط بالخصوص، في استخدامها الألماني، بفكر مارتن هايدغر.

Geschichtsbewusstsein

(ألمانية) الوعي التاريخي.

Geschichtswissenschaft

(ألمانية) حرفيا، علم التاريخ؛ مصطلح صيغ أول مرة في أواسط القرن الثامن عشر، لكنه بات أكثر استخداما وشيوعا بعدما وظفه ليوپولد فون رانكه. انظر أيضا *Wissenschaft* // *Hilfswissenschaften*.

Guoshi

(صينية) التاريخ القومي. قارنها مع *kuksa* (كورية) و*kokushi* (يابانية)؛ تستخدم الكلمات الثلاث نفس الزوج من الرموز الصينية، مما يدل على أصلها المشترك.

hadith

حديث (عربية) رواية عن شخصية دينية، وعن النبي بالخصوص. عنصر أساس في علوم التاريخ والدين الإسلامية المبكرة. انظر أيضا *isnad* // *matn*.

hikayat

حكاية (مالاي) خرافة، قصة، سيرة حياة، أو نوادر مروية من الماضي.

Hilfswissenschaften

(ألمانية) حرفيا: ‹العلوم المساعدة›؛ أي المباحث الثانوية في المعرفة.

histoire croisée

(فرنسية) ‹التاريخ المتشابك›، أي تواريخ لعدة شعوب تركز على التشابكات والتلاقحات والتلاقيات في الماضي بين أمم أو مناطق مختلفة.

historia — (لاتينية، يونانية) التاريخ. كان اللفظ اليوناني يعني حرفيا التحقق، التحري، أو الجرد، دون صلة ضرورية بأحداث الماضي.

Historikerstreit — (ألمانية) النزاع بين المؤرخين عموما؛ ويشير خصوصا إلى الجدل الذي ثار في أواخر عقد 1980 وأوائل عقد 1990 بخصوص المحرقة اليهودية. لا يخلط بينه وبين سابقه *Methodenstreit*.

Historische Hilfswissenschaften — (ألمانية) العلوم المساعدة للتاريخ. تتضمن أمورا مثل علم الخطاطة (*Palaografie* or *Schriftkunde*)، علم الوثائق (*Urkunden*) والتوقيت التاريخي (*Chronologie*/*historische Zeitrechnungslehre*). انظر أيضا *Wissenschaft & Geschichtswissenschaft*.

Historismus — (ألمانية) التاريخية أو التاريخانية. مصطلح استخدم أصلا لوصف توجه ألماني بالخصوص إلى البحث التاريخي، يؤكد تفرد العصور أو الحضارات المعينة، وواجب التاريخي أن يعالجها جميعا بوصفها ذات قيمة. وقد توسع استخدام هذا اللفظ في القرن العشرين كي يشير إلى التراث المهيمن الأوسع في الفكر والبحث التاريخي الأوربي. وأسيء استعماله أحيانا (كما فعل الفيلسوف كارل پوپر) للإشارة إلى رؤية أن التاريخ محكوم بقوانين ويتكون من عملية أو عمليات متراكمة تقود إلى حصيلة معينة.

huehuenonotzaliztli — (ناهواتل) تعبير يستخدم للإشارة إلى سرد شفهي للماضي يرويه رجل عجوز أو هرم (*huehue*). انظر أيضا huehuetlatolli، وهو حوار قديم يلقيه الشيوخ ويتضمن الحكمة، يستخدم لتعليم الصغار.

isnad — **إسناد** (عربية) أحد قسمي **الحديث** في العادة؛ يشير إلى سلسلة الرواة والمشايخ الذين نقلوا النص (أو **المتن**).

istoria — (إيطالية) التاريخ (كما استخدمه فلاڤيو بيوندو). وفي العادة *storia* فحسب. لاحظ الصلة اللغوية القريبة بين ‹*story*› و‹*history*›.

itihasa — (هندية) حرفيا: ‹هكذا كان›؛ مصطلح من التراث السنسكريتي يقارب التاريخ بشدة، لكنه يتضمن أمورا كالخرافات، التراث الشفهي، والشعر الملحمي. انظر أيضا *purana*.

Jahrhundertrechnung (ألمانية) ممارسة احتساب الزمن بالقرون؛ وبمعنى ثانٍ، فكرة تدوين التاريخ عن القرن بوصفه وحدة زمن ذات مغزى. وأحد أقدم الأمثلة على الفكرة الثانية هو **قرون ماغدبورغ**، تاريخ بروتستانتي من القرن السادس عشر.

kagami (يابانية) مرآة.

Kaozheng xue (صينية) التعليم من الأدلة.

khabar **خبر** (عربية). حرفيا ‹إخبار› أو ‹قصة› من الماضي، لكنها كثيرا ما تستخدم بمعنى ‹التاريخ›، رغم أن التاريخ عادة ما كان تجميعا لعدة **أخبار**. وكان من يكتب أو يجمع أو يروي **الأخبار** يسمى **أخباريا**. انظر أيضا *ta'rikh*.

ki (يابانية) سجل أحداث.

kokugaku (يابانية) ‹التعليم الوطني› كما في عنوان **مدرسة التعليم الوطني**.

kokushi (يابانية) التاريخ الوطني، بنحو يمتاز من تاريخ سائر أجزاء العالم. انظر أيضا *toyoshi*.

maghazi **مغازي** (عربية). غزوات وسرايا النبي محمد؛ وكذلك اسم للكتب التي تدور حولها.

matn **متن** (عربية). النص الفعلي **للحديث** الذي يلي **السند**.

Methodenstreit (ألمانية) الخلاف حول المنهج في التدوين التاريخي الألماني أواخر القرن التاسع عشر، الذي يركز على التاريخ الثقافي عند كارل لامبريخت ومحاولاته إدخال مناهج العلوم الاجتماعية في التاريخ. وقد هوجم لامبريخت بنحو واسع في ألمانيا، التي تمسكت بالتاريخ السياسي التقليدي، لكنه حاز شهرة أوسع بكثير في الخارج، كما في فرنسا والولايات المتحدة.

Nachleben (ألمانية) الحياة اللاحقة، للنص خاصة وكذلك للتقليد أو العادة.

Nihonshi (يابانية) تاريخ اليابان.

numismatics علم النميات/ النقود. مبحث ثانوي مخصص لدراسة العملات والمداليات القديمة، يراد منه استخدامها كأدلة تاريخية.

origines gentium	(لاتينية) ‹أصول الشعوب›؛ ثيمة في تدوين التاريخ، ارتبطت في العادة بتدوين التاريخ الأوربي منذ العصور القديمة وحتى القرن التاسع عشر، وخاصة بكتاب أواخر الأنتيك وأوائل العصور الوسطى، الذين حاولوا تفسير أصول العديد من الممالك ‹البربرية› التي ظهرت على أطلال الإمبراطورية الرومانية الغربية، أو في الشرق أيضا.
palaeography	علم الخطاطة. مبحث ثانوي (انظر *Hilfswissenschaften*) يختص بتعرُّف خطوط الكتابة وتصنيفها؛ وإلى جانب كونه ضروريا لقراءة الوثائق من عصور ما قبل الحداثة، فهو يستخدم أيضا لتطوير تصانيف زمنية للخطوط (كما في الخط ‹الكارولنجي الدقيق› من أوائل العصور الوسطى أو خط ‹السكرتير› من القرن السادس عشر). عادة ما يرتبط بعلم الوثائق.
purana	(هندوسية) حرفيا ‹يعود للعصور القديمة› أو الزمن البعيد، في الثقافة الهندية، ويكتب عادة بالسنسكريتية. ألفت هذه النصوص بشكل عام بين القرن الرابع ق.م. ونهاية الألف الأول ب.م. انظر أيضا *itihasa*.
Quellenforschung	(ألمانية) ‹تحقيق المصادر›؛ شكل من النقد يركز بالخصوص على انتقاء مصدر تاريخي بعينه (عادة ما يكون من كتابة مؤرخ سابق) تعرُّف **مصادره**، كما في محاولة وتعرُّف التواريخ أو سائر المصادر التي ربما استخدمها ليڤي أو تاسيتوس.
Quellenkritik	(ألمانية) حرفيا: نقد المصادر. في الغرب ‹الحديث›، كثيرا ما يرتبط بمبدأ الفيلولوجي (عالم أصول اللغة) ب. غ. نيبور القائل بأن حتى روايات المؤرخين الأقدمين ينبغي ألا تؤخذ بحسب الظاهر. ولكن هذه الطرق قد استخدمت من قبل في الغرب (فهناك شواهد على ذلك من العصور الوسطى والعديد منها في أوائل الحداثة).ثم إن لها نظائر غير غربية، كما في المؤلفات الكونفوشية الصينية.
quipu	(كيچوا) حبل معقود استخدم كنظام للتوثيق في جبال الأنديز قبل الاستعمار الإسباني، عادة ما ينضم إلى تراث يستذكر ويردد شفهيا.
Rekishi monogatari	(يابانية) صنف من ‹الحكاية التاريخية› على هيئة ملحمة (*monogatari*)، ألف بين القرن الحادي عشر والرابع عشر، ويتضمن ملحمة إيغا *Eiga monogatari* وكذلك أعمالا لاحقة من تراث ‹المرآة› مثل *Okagami*.

Rikkokushi (يابانية) التواريخ الوطنية الستة.

Sattelzeit (ألمانية) حرفيا (فترة السرج) أو (فترة الجسر). لفظ استخدمه راينهارت كوزيليك لوصف الفترة بين 1750 ـ 1850 في التاريخ الفكري؛ وأحيانا يشير بنحو أخص إلى الفترة بين 1790 ـ 1830 في الأدب الألماني، أي الرومانسية المبكرة.

sejarah (مالاي) تاريخ؛ حوليات؛ معرفة بأحداث سابقة.

shi (صينية) تعني في الأصل مؤرخا وبمعنى أدق (كاتبا)؛ لكن الكلمة أصبحت تشير لاحقا إلى نتاج عمل المؤرخ، أي التاريخ.

shilu (صينية) السجلات الصادقة لحكم الإمبراطور، التي تؤلف في نهايته؛ وثيقة انتقالية تستخدم بعد انتهاء سلالة ما لتلخيص تاريخها؛ ظهرت خلال سلالة التانغ.

sira سيرة (عربية). (سلوك مثالي) لشخص يقتدى به، وللنبي خاصة؛ وبنحو أوسع: قصة حياة شخص كهذا؛ وكذلك عنوان أعمال بعينها في هذا الصنف.

subaltern التابع. لفظ اشتق أصلا من كتابات الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، وهو الآن يرتبط أساسا بمدرسة (الدراسات التابعية) من التاريخ الهندي بعد الاستعماري، التي أسسها راناجيت گوها وباحثون هنود آخرون، والمنشورات التي ظهرت تحت ذلك العنوان. يقصد بالتابع تلك الجموع الواسعة أو طبقة الفلاحين المهملة في الهند؛ أو أحيانا يراد بها المقاومون أو المتمردون. وبوصفها فكرة محورية في الفكر بعد الاستعماري، فإن حركة الدراسات التابعية تعد ردة فعل ضد مؤرخي القومية الهنود النخبويين بقدر ما هي ضد تدوين التاريخ الاستعماري على يد القوى الإمبريالية الكبرى، كما جسد ذلك غ.ڤ.ف. هيغل وجيمس مل.

symploke (يونانية) تشابك الأحداث؛ فكرة استخدمها پوليبيوس في تشكيله لأول تاريخ (عالمي). فقد رأى پوليبيوس في عام 217 ق.م. ومؤتمر ناوپاكتوس بداية لعملية **تشابك** عالمي. انظر أيضا *Zusammenhang*.

tabaqa **طَبَقة** (عربية). صنف أو رتبة من الناس. والجمع **طبقات** يشير إلى مجموعات من السير تخص هؤلاء الناس.

ta'rikh **تأريخ** (عربية). كلمة تشير إلى التاريخ عموما، على أنها كثيرا ما تعني بالخصوص التاريخ المنظم حسب السنين، أي حولياً. وتستخدم أيضا بمعنى السيرة التي توفر تاريخ ولادة ووفاة الشخص المعني. انظر أيضا *khabar*.

toyoshi (يابانية) ‹تاريخ الشرق›، أي الصين بنحو الرئيس، وكذلك كوريا، منغوليا، التبت، ووسط آسيا، بخلاف تاريخ اليابان أو تاريخ الغرب.

tung shi (صينية) تواريخ سردية متصلة، وتعني في العادة بالأخص التواريخ الوطنية منذ القرن التاسع عشر. يمكن اعتبار كتاب سيما غوانغ *Zizhi Tongjian* (المرآة الشاملة لمعونة الحكومة) من القرن الحادي عشر مثالا مبكرا على ذلك، وكذلك **الشيجي** *Shiji* لسيما چيان، لأنهما تجاوزا حدود السلالات.

Tyche (يونانية) الحظ أو الصدفة؛ تصبح لأول مرة ‹شخصا› أو فاعلا في التاريخ عند پوليبيوس، حيث لا تمثل حوادث عشوائية فحسب بل هي أمر أشبه بالقدر، الذي يرشد روما نحو الهيمنة على العالم. مكافئة بنحو إجمالي للفظ اللاتيني *fortuna*.

umma أمّة (عربية). جماعة المؤمنين بالإسلام، التي تتجاوز التقسيمات القومية أو الإثنية؛ بخلاف **الأمة العربية**، التي تقتصر على الناطقين بالعربية.

vamsas (پالية) تقاليد تاريخية بوذية سريلانكية تعود إلى القرن الرابع وحتى التاسع عشر.

Verstehen (ألمانية) حرفيا: الفهم؛ كثيرا ما تستخدم في تواريخ التدوين التاريخي بنحو ذي صلة بفكر ي. غ. درويسن وڤيلهلم ديلتي؛ وهي مصدر لنظرية ر. ج. كولنغوود عن ‹الاستحضار *re - enactment*›. انظر أيضا *Erklärung*.

Volksgeist (ألمانية) الوحدة الروحية أو الفكرية للشعب أو ‹الأمة›. انظر الفكرة المكملة له في *Zeitgeist*.

Volksgeschichte (ألمانية) نمط عرقي من التاريخ، كان شائعا في ألمانيا في فترة ما بين الحربين في الأساس.

Wissenschaft
(ألمانية) العلم، ولكن ليس بمعناه الضيق في الإنجليزية اليوم؛ بل هو أقرب إلى *scientia* اللاتينية أو *science* الفرنسية؛ بات لفظ *Geistewissenschaften* (الذي يختص بالتاريخيين مثل ڤيلهلم ديلتي) يضم اليوم العلوم «الإنسانية» أو «الخلقية»، كالفلسفة والتشريع واللاهوت. وكلمة *Wissenschaft* نفسها يمكن أن تترجم إلى مبحث، دراسة، أو تعلم (ولكن انظر أيضا كلمة *Verstehen*، الفهم). كثيرا ما تستخدم بالاتصال مع التاريخ، كما في *Geschichtswissenschaft*. انظر أيضا *Hilfswissenschaften & Altertumswissenschaft*.

xiuh – amátl
(أو *xiuhamtl*؛ *xiuhapohualamoxtli*) (ناهواتل) لفظ فسّره الباحثون الأوربيون بعد فتح المكسيك بوصفه مكافئا للحوليات.

Zeitgeist
(ألمانية) «روح» العصر أو الزمان أو بنحو أدق «عقله». انظر أيضا *Volksgeist*.

Zeitgeschichte
(ألمانية) تاريخ العصر الذي يعيش فيه المرء؛ كان ذلك شائعا في العصور القديمة. أما التاريخ الأقدم الذي يشتمل عليه عمل كهذا، فهو عادة ما يستند (قبل القرن الثامن عشر) إلى كتاب سابقين ألفوا في تاريخ عصورهم.

Zusammenhang
(ألمانية) «الانسجام» أو «الترابط»، فكرة شبيهة بالتشابك *symploke* عند پوليبيوس؛ وهي ثيمة متكررة في كتابات رانكه في القرن التاسع عشر.

تمهيد

هذا الكتاب نسخة منقحة ومختصرة من عملي المنشور عام 2011 بعنوان **تاريخ عالمي للتاريخ** A Global History of History (GHH). كان ذلك الكتاب يطمح إلى تغطية تاريخ الفكر والكتابة التاريخية ـ وكذلك التمثيل التاريخي بأشكال غير كتابية وشفهية ـ وإن لم يكن موسوعيا في استيعابه، فسيظل عالميا في مقصده. لقد كان مطولا للغاية، وموجها لسوق القراء الأكاديميين أو طلاب الدراسات العليا. وقد ظهر في الوقت ذاته الذي شهد صدور **كتاب تاريخ أكسفورد للكتابة التاريخية** The Oxford History of Historical Writing (2011 ـ 2012)، وهي سلسلة من عدة أجزاء عنيت عموما بتحريرها، وكرست لذات الموضوع وكان توجهها عالميا بالمثل. ولكن أيا من الكتابين لم يكن مناسبا بالخصوص لطلاب الجامعات المبتدئين، الذين هم أحوج ما يكون إلى استعراض موجز لتاريخ التاريخ ـ ولأجلهم أقدم هذا الكتاب.

في تمهيد GHH كتبت ما يلي، وما زلت أرى أنه مناسب تماما لإيضاح الهدف العام من كتابة كتاب كهذا:

> إن عدة أعوام من تدريس مساقات جامعية حول تدوين التاريخ، والتوصية بعدة كتب دراسية شتى للطلاب في تلك المساقات، أوصلتني إلى قناعة بالحاجة إلى عمل أوسع من ذلك... فهناك عدة كتب تغطي أحقابا زمنية طويلة للغاية، واحد أو اثنان منها ذوا أفق عالمي، ولكن ليس في الإنجليزية أي كتاب يفي بكلا الأمرين على حد علمي. وهكذا فإن القناعة بأن على الطلاب أن يطلعوا على «الثقافات التاريخية» لحضارات سوى حضارتهم قد أثرت في اختياري للموضوع؛ ثم إن الشعور القوي بأن هناك قصة ينبغي روايتها حول تطور الفكر التاريخي، الكتابة التاريخية، والمنهج التاريخي الحديث، وكيف ترتبط بنحو مباشر ببعض الحركات الكبرى في التاريخ العالمي (وبالأخص بالتفاعل العالمي لشتى الشعوب والثقافات طوال آلاف السنين)، هو ما يوفر «الحبكة»، إذا صح القول بأن عملا يدور حول تدوين التاريخ قد تكون له حبكة.

لم تتغير نظرتي الإجمالية منذ ذلك الحين، رغم أن تفكيري حول مؤرخين ومفكرين تاريخيين بأعيانهم، وحول الصلات بين الثقافات التاريخية، قد تطور بلا شك مع اتساع قراءاتي، خاصة لأعمال لم تكن قد ظهرت قبل أواسط عقد 2010 حين دفع *GHH* إلى الطبع (مثل دراسة فريدريك س. بايسر الموسعة لأصول وتطور التاريخية الألمانية، والسيرة الفكرية التي كتبها ديبش چاكرابرتي للمؤرخ الهندي جادونات سركار، وكذلك عدة أعمال حديثة عن التاريخ العالمي)، أو لم أكن على دراية بها من قبل. ثم إن عملية اختصار الكتاب كانت مفيدة لي أيضا (مع أنها كانت تحديا صعبا عامة الوقت) في اختيار أي جوانب وأمثلة أبقي عليها وأيها أحذف، وفي مراجعة أو تهذيب نقاط معينة ذكرتها في عملي الأكبر. ومع أن هذا الاختصار يظل ذا مدى عالمي، فهو أقل شمولا عن عمد من كتابي السابق، وكان لا بد لبعض التراثات التاريخية التي نوقشت بشكل مطول في *GHH* أن تطرح بأسرها جانبا، أو تذكر بنحو عابر فقط. لكن أملي أن القراء الذين يثير هذا التاريخ الموجز فضولهم قد يميلون إلى الاستعانة بشقيقه الأكبر والأقدم لمزيد من التفصيل.

ومع ذلك فهذا ليس مجرد اختصار. فقد انتهزت الفرصة في الكتاب الحالي، الذي يقارب طوله 60 في المائة من طول *GHH*، لإعادة ترتيب محتويات معظم الفصول وإعادة تنظيم الكتاب بأسره. وهكذا ففي حين تظهر العديد من المقاطع هنا حرفيا دون تغيير عن العمل السابق، فهناك العديد من الأقسام التي أعيدت كتابتها جزئيا أو كليا، وعلى وجه الخصوص غُيِّرَت الفترات التي تغطيها فصول معينة. كان الفصل الافتتاحي عن العصور القديمة هو الأقل تغييرا، مع أنه بات أقصر، أما فيما تلاه فقد أدمجت فصول من الكتاب السابق، وقُلِّصَت بنسبة كبيرة، وفي العديد من الحالات أعيدت كتابتها مع مراعاة فترات مختلفة، وهكذا فقد أصبح أول فصلين عن الحداثة من *GHH* فصلا واحدا؛ وبات الفصل الخاص بالقرن الثامن عشر يمتد عبر الفترة الثورية ومن بعدها الرومانسية وحتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر؛ وأصبح الفصلان المعنيان بالقرن التاسع عشر في *GHH* فصلا منفردا يمتد من الثلث الثاني من ذلك القرن إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. والأهم من ذلك أني قمت بمراجعة الفصلين الأخيرين بشكل كبير وأضفت مواد عن التطورات الحديثة والمرتقبة مستقبلا في هذا المجال،

التي شعر قلة من قراء *GHH* أني أوليتها اهتماما أقصر مما كنت أنوي (رغم أن العديد من الجمل حتى هنا كانت مكررة حرفيا من الكتاب السابق). وقد أفادتني عملية إعادة التدوير هذه فكريا بقدر ما كشفت عن بعض الاستمراريات والتحولات التي لم تظهر بوضوح في الكتاب السابق، وكانت أقسامها أكثر تقليدية بقليل.

حرصا على الإيجاز وسهولة الوصول، تخليت أيضا ـ مع شيء من الأسف ـ عن بعض سمات الكتاب السابق التي لقيت استحسانا، مثل ‹مربعات الموضوعات› المتخصصة (وهي أشرطة جانبية حول موضوعات معينة مذكورة في النص الرئيس)، ‹مربعات النص› ذات الإزاحة الواسعة التي تحتوي على أمثلة للكتابة التاريخية (خاصة من العديد من الثقافات غير الأوربية)، والرسوم الإيضاحية، التي تعتبر ‹أمرا رائعا› لا ضرورة. ومع ذلك فقد احتفظت بميزة ‹الجدول الزمني› لكل فصل (الذي قُلِّصَ وأُعيدَ ترتيبه ليعكس إعادة تنظيم الفصول)، رغم أني غيرت اسمها هنا إلى ‹المحطات›. سردت فيها تواريخ هامة لتطورات أو أعمال معينة في تاريخ الكتابة التاريخية. وقد أضفت، كمساعدة للقراء، مسردا انتقائيا للمصطلحات التي يحتمل أن تكون غير مألوفة لدى كثير من القراء. وأخيرا، فقد كنت انتقائيا إلى حد ما في تقديم تواريخ الميلاد أو الوفاة في النص، خاصة في الفصل السادس والسابع حيث لا يزال العديد من المذكورين فيهما أحياء. ولكن العديد من الذين ذكروا في الأساس كمؤلفين لأعمال ثانوية في تدوين التاريخ لم يحظوا بإيراد تواريخ حياتهم، وهو أمر آثرت فيه توفير المساحة لكنه لا يعكس مدى امتناني لما استخلصته من عملهم.

اختصرتُ قسم ‹المزيد من القراءة› المطول في ختام *GHH* إلى عدد قليل من الاقتراحات (ترتبط بأقسام محددة ضمن الفصول) باتت الآن تظهر في نهاية كل فصل، من دون حواش سفلية أو تعليقات ختامية. وفي معظم الحالات التي يستعان فيها باقتباس مباشر، يذكر الكتاب أو المؤلف المقتبس في قسم القراءة الإضافية ذي الصلة دون إحالة محددة إلى الصفحة. أما الاقتباس الدقيق للعديد من هذه الاقتباسات فيمكن العثور عليه بشكل أدق في *GHH*؛ وبالنسبة للبعض الآخر، أرجو من القارئ أن يتسامح معي بالنظر لأنها مأخوذة من أعمال يسهل الوصول إليها بنحو معقول. (أما الاقتباسات من المصادر ‹الأولية› للكتاب، والمؤرخين أو المفكرين التاريخيين

العظماء السابقين، فيذكر بين قوسين تاريخ الطبعة والإحالة إلى الصفحات بعد المقتطف مباشرة.) لم أُدرِج أعمالًا بلغات أخرى غير الإنجليزية ما لم تشمل، كما يفعل البعض، مقالات أو فصولا باللغة الإنجليزية. ولكن يمكن العثور على ثبت كتب أكثر اكتمالاً (على أنه يخلو بكل وضوح من أي أعمال نشرت في السنوات الثماني الماضية) في *GHH*. أما الأعمال المدرجة من قبل في قسم قراءة إضافية فلا يعاد ذكرها مجددا في هذا الفصل حتى لو كانت ذات صلة بالأقسام اللاحقة؛ ومع ذلك، فقد يعاد تصنيفها في فصول لاحقة إذا كانت ذات صلة.

حيث كانت رغبتي هي أن هذا الكتاب قد يكون مفيدا في سياق فصل جامعي، فقد أضفت ـ لمنفعة المدرسين ـ شيئا غير موجود في *GHH*، ألا وهو سلسلة من الأسئلة للمناقشة الصفية أو واجب كتابة مقالية. إن علم تدوين التاريخ ليس بموضوع سهل التدريس، حتى من قبل المتخصصين، وآمل أن تثير هذه الأسئلة بعض الحوارات حتى لو لم تستنفد بأي حال جميع الموضوعات التي يجب أو يمكن مناقشتها.

التواريخ

لقد استخدمت شعوب مختلفة العديد من التقاويم على مدار خمسة الآلاف سنة الماضية. إن الامتثال الكامل للمبادئ غير المركزية لهذا الكتاب من شأنه أن يقترح تسجيل التواريخ مثلما ذكرها المؤلفون، كما في استخدام السنة الهجرية في التقويم الإسلامي. ومع ذلك فقد يكون هذا مربكا أكثر من كونه مفيدا. ولكن يبدو لي أن الحل الوسط الذي يستخدم مصطلحات الحقبة الشائعة Common Era (CE) وقبل الحقبة الشائعة Before Common Era (BCE) ما هو إلا تكرار للتقويم الغربي التقليدي تحت اسم مختلف. ولذلك، وكما فعلت في *GHH*، فقد تمسكت بـ *BC* و*AD* [بالعربية: ق.م. وب.م.، أو م. للاختصار].

ترد تواريخ الولادة والوفاة (إذا كانت معروفة) لمعظم المؤرخين ـ فضلا عن الكثير من غير المؤرخين الذين كان لهم دور ما في السرد ـ ضمن النص الرئيس. وفي بعض الحالات، تُستَخدَم تواريخ بديلة إما نظرا لعدم إجماع الأبحاث على تاريخ واحد، أو لأن التاريخ نفسه في بعض الحالات مرتبط بنظام زمني معين يعد غامضا في حد ذاته.

وفي الفصول الأخيرة، كان لا بد من مراجعة تواريخ معينة للأسف، بسبب وفاة أفراد كانوا على قيد الحياة حين ذهب الكتاب الأول للطباعة.

إليك اختصارات معينة للتواريخ قد استعملها:

و. = ولد؛ في حالة المؤرخين الذين ما زالوا أحياء حتى منتصف عام 2018.

حُ. = حوالي؛ العام التقريبي لحوادث لم يتم لها المعرفة أو الاتفاق على سنة ثابتة.

ق. = قرن أو قرون.

ت. = توفي؛ يُستخدم عندما يكون هناك سنة وفاة مؤكدة (أو تقريبية، وفي هذه الحالة يُشار إليها بالحرفين (ت. ح.)).

ز. = ازدهر؛ يستخدم بشكل عام مع المؤلفين الذين تكون تواريخ ميلادهم وموتهم غير معروفة تماما أو غامضة للغاية، ويشير إلى فترة نشاطهم.

م. = ملك، حكم؛ حين يتعلق الأمر بالملك، تذكر سنوات حكمه بين قوسين، لا سنوات الولادة والوفاة.

المقدمة

إن المؤرخ، قبل أن يشرع بكتابة التاريخ، هو نفسه نتاج للتاريخ.

— إ. هـ. كارّ، **ما التاريخ؟**

يُكتب «التاريخ» ويُقرأ اليوم فقط لأن البشر يملكون القدرة الحيوية والعصبية على تذكر الأشياء، وخلق علاقات ذات طابع سببي أو رمزي حول تلك الأشياء التي تذكروها. ويدين بوجوده أيضا لكوننا كائنات اجتماعية كان بقاؤها معتمدا بشكل عام على الصلات التي تربطنا بسائر أفراد نوعنا. وهكذا فمعرفة الماضي بنحو ما هي أمر مشترك بين كل البشر، رغم أن المعرفة **التاريخية** تحديدا (التي تتعدى الذاكرة القريبة وأيام الأمس الشخصية) قد لا تكون كذلك. في كتاب ذائع الصيت بعنوان **كتابة التاريخ** *The Writing of History*، لاحظ النفساني والفيلسوف الفرنسي الراحل ميشيل دو سيرتو (1925 ـ 86) Michel de Certeau أن المجتمعات تجهّز نفسها بالوقت الحاضر عبر الكتابة التاريخية، حيث تفصل الماضي باطراد عن الحاضر، وتمنح الحداثة معرفة حول وجودٍ «آخر» زمني وأحيانا جغرافي. والكتابة تسمح لذلك الآخر، الذي أهمل في عصور سابقة بوصفه كسرة غير مهمة أو «مقموعة»، بأن يعود للظهور مجددا ـ ودون استدعاء أحيانا.

ولكن القدرة على التذكر، والفضول الذي يدفعنا للبحث في واقع لم يعد حاضرا إلا في آثار طبيعية أو بشرية، ليسا كافيين لخلق الظروف اللازمة لصناعة التاريخ. فالبشر هم النوع الحيّ الوحيد الذي يستطيع تشكيل ذكريات طويلة الأمد (بنحو أبعد من مجرد استحضار كيفية تأدية المهام أو العثور على موقع مألوف محدد) **وكذلك** يستطيع التواصل. فهذه الوظيفة الثانية هي التي تسمح بتناقل هذه الذكريات، وسائر المعارف، إلى سائر البشر سواء في الحاضر أو المستقبل. لقد كان التواصل المكتوب تحسينا

تقنيا مذهلا في الحفاظ على المعلومات وإيصالها عبر مسافات طويلة أو خلال فترات مديدة من الزمن، تعود أقصاها لعدة آلاف من السنين إلى أقدم الألواح المسمارية في بلاد الرافدين، والرموز الهيروغليفية في مصر، ونقوش العظام في الصين. أما قبل ذلك فقد اتكل البشر على اللغة المنطوقة لغرض التواصل، ونحن نعرف أن الثقافات العريقة في القدم استخدمت الشعر والأغاني لتخليد صنيع الآلهة والأبطال في ماضيها. أما اليوم فالتاريخ يقدم لنا بلا شك، وبنحو لا مفر منه، في عدد هائل من الأشكال: مكتوبة، شفهية، مرئية، وإلكترونية. والسبب في ذلك يعود جزئيا إلى أن الماضي نفسه بات محيطا بنا بنفس القدر، ويخيم على حياتنا اليومية حتى حين لا نعير ذلك بالا ـ وكما قال الروائي الأميركي ويليام فوكنر ذات مرة: «الماضي لم يمت؛ بل إنه لم يصبح ماضيا بعد». وكذلك فإن عدة قرون من التطور البشري قد جعلت الاهتمام بالماضي، وكذلك السعي إلى تضمينه في الحياة اليومية (وبشكل غير واع في العادة)، من لوازم الحداثة. وذلك يصح بشكل محير حتى في ثقافة كثقافة اللحظة الراهنة، التي يبدو أنها شديدة التركيز بنحو يومي على رؤية للمستقبل تتقلب بين الأمل واليأس.

‹الثقافة التاريخية› تتضمن بالطبع أشياء أكثر بكثير من التاريخ المكتوب، ولا يعد التاريخ الأكاديمي ‹المحترف› المهيمن في القرنين الأخيرين إلا تطورا حديثا للغاية منها. وكما لاحظ بيتر لامبرت وبيورن وايلر في مقدمتهما لمجموعة أبحاث نشرت مؤخرا، فهناك أشكال مختلفة من التعامل مع الماضي (وبعضها قائمة منذ قرون) تقع خارج التعريف الضيق للكتابة التاريخية، وهي ليست من اختراع الحداثة (فضلا عن الحداثة الغربية). وما نسميه اليوم ‹بالتاريخ› (الصنف المكتوب) ينبغي أن يُفهم ضمن الثقافة التاريخية الأوسع ـ أي الباقة الأكبر من أشكال التعامل مع الماضي ـ التي أنتجته.

إن كلمة ‹تاريخ *history*› كما ترد في الإنجليزية (بالمعنى الضيق للرواية المكتوبة للماضي) تقابلها عدة أسماء مختلفة في اللغات الأوربية وحدها: فهي ***histoire*** في الفرنسية، ***Geschichte*** في الألمانية، ***storia*** في الإيطالية، ***dzieje*** في البولندية. وقد طورت العديد من الثقافات الآسيوية أشكالها الخاصة من تسجيل وتذكر الماضي، وباتت بدورها تملك أسماءها الخاصة: ***tamnan*** و***phongsawadan*** في سيام (تايلند حاليا)، ***pangsavatar*** و***thamaing*** في بورما، ***babad*** في جاوة، ***hikayat*** في سومطرة،

itihasa _ *purana* في الهند القديمة. وكثيرا ما كان التاريخ يُتصوّر بأنحاء قد نعدها اليوم غريبة، بل و(غير تاريخية). ونظرا لأن هذا الكتاب مدون أصلا بالإنجليزية، فسأستخدم مصطلحات مثل (تاريخ)، (فكر تاريخي)، و(معرفة تاريخية) بكثرة، ولكني خلال ذلك سأطوي تحت جناح هذه المصطلحات المألوفة كل أسماء الجمع العالمية التي تصف طرقا لتنظيم العالم وتمثيله.

تتطلب خياراتي للكلمات المستخدمة في هذا الكتاب مزيدا من التفصيل، فقد تبنيت لأجل الوضوح هذه الممارسات التالية: إن كلمة (التاريخ)، حين تستخدم بالإنجليزية دون مزيد من التفسير أو الإيضاح، ينبغي أن تؤخذ بمعانٍ مختلفة: الأشكال التي يسترجع بها الماضي، يفكر فيه، يتحدث عنه، ويدون وفقه (وليس الأدلة المستخدمة في تشكيله)؛ ومن بينها فهناك صنف خاص من الكتابة التاريخية، التي تنشأ كنثر متدفق (بنحو مستقل عن أشكال أخرى كالحوليات أو سجلات الأخبار التي كانت واسعة الاستخدام في العصور الوسطى الأوربية)؛ أو بالأخص في الفصلين الأخيرين، فهي تعني دراسة (منهج) التاريخ بالنحو الذي تطور به منذ أواسط القرن التاسع عشر.

هناك أيضا استخدام شائع آخر، منحنا إياه التنوير الأوربي (كما سنرى في الفصل الرابع)، لا يعد فيه التاريخ مجرد سجل أو ترداد للتاريخ، بل هو الأحداث الفعلية ذاتها، التي تُفهم كنهر متلاطم من الأحداث والأسباب والآثار التي تقودنا إلى العصر الحالي. ستكون هناك مناسبات للإشارة إلى التاريخ بهذا المعنى أيضا؛ وفي هذه الموارد، فإن مصطلح (التاريخ التقدمي *History*) (أي نمط الأحداث التراكمي عند من يعتقدون بأن نمطا كهذا موجود، وأن التوصل إليه ممكن) سيوضع بحروف كبيرة كي يميز عن سائر المعاني العادية. وهناك ظاهرة ناضجة معاصرة واقعيا لهذا التطور الفكري، كانت أقل شيوعا فيما مضى: ألا وهي التفكير حول كل من (التاريخ التقدمي) و(التاريخ) بوصفهما موضوعا للتخمين الفلسفي ونمطا معرفيا، على الترتيب. وقد أثار ذلك بدوره سجالات أخرى، منذ أواخر القرن التاسع عشر فصاعدا، حول طبيعة العلاقة بين المعرفة بالماضي والمعرفة بالله أو الطبيعة.

كلمة أخرى ستظهر في موارد كثيرة، ومن المعروف أنها كثيرا ما ترهب الطلاب

وتشعر بعض الأساتذة بالإزعاج، هي ‹تدوين التاريخ *historiography*›. وفي حين تملك هذه الكلمة أيضا عدة معانٍ، فهي تشير أساسا في هذا الكتاب لما قد نسميه بالمستوى ‹البعديّ *meta*› من العمل التاريخي: أي تاريخ كيف كُتب التاريخ نفسه أو روي أو فكّر فيه طوال آلاف السنين وعند شتى الثقافات. وقد كانت هناك أيضا توجهات مختلفة لتدوين التاريخ بوصفه تاريخا للتاريخ أيضا، وتصورات مختلفة عن متى بدأت الكتابة التاريخية ‹الحقة› بالضبط ـ فكما قال جوناثان غورمان، من الممكن أن نقارن بين تواريخ تدوين التاريخ ومن ثم نوغل لمستوى أعمق من ذلك، فنخلق عمليا تدوين تاريخ لتدوين التاريخ. ولذا فإن كتابنا هذا لا يعنى بتدوين التاريخ بمعنى ‹تاريخ التاريخ› ولا بسجالات محددة مثل ‹تدوين تاريخ الثورة الفرنسية› أو ‹تدوين تاريخ العبودية في أميركا›. ثم إنه يدعي أنه سيرسم، فضلا عن أن ينافح عن، زمرة من ‹المناهج التاريخية› ـ إلا بالنظر إلى تلك العناصر المتكررة، والمثيرة للجدل، في النقاشات حول كيف ينبغي استرداد الماضي ووصفه.

[استطراد: لست ممن قد يعتبره فيلسوف تدوين التاريخ أڤيعيزر تاكر ‹مدون تاريخ باطنيا› يرى أن المرء لا يمكن أن يعلّم المناهج والممارسات اللائقة، وأنها يجب أن تكتسب عبر الممارسة حصرا. لكني أعترف بأني أجد الأعمال التي تعد دورها تعليما للمناهج التاريخية ـ وخاصة المناهج التي تقصي كل التوجهات الأخرى ـ آلية بشكل ساذج، مهما بدت مريحة للطلاب الجدد. ثم إنها تميل لأن تكون مفرطة الجفاف، أشبه بكتب التعليمات لإصلاح سيارة معينة، أو أوصاف لآلية تعدين وصهر وتنقية.]

وقد استخدمت كلمة ‹تدوين التاريخ›، في بعض الثقافات الماضية، كمرادف للتاريخ نفسه (كصنف أدبي مكتوب). وستصادفنا مناسبات لن نكتفي فيها بمناقشة المؤرخين (الذين ألفوا أعمالا في التاريخ تعد مهمة نظرا لجودة كتابتهم، دقة إدراكهم، وأحيانا مجرد تمكنهم من الأسلوب والإنشاء) بل ومدوني التاريخ، النقاد الأدبيين، وكذلك بعض فلاسفة التاريخ، الذين لم يكتب سوى قلة منهم شيئا في التاريخ لكنهم تركوا أثرا عميقا في تفكيرنا إما في معنى الماضي نفسه، أو حول الأشكال والطرق اللائقة لتمثيله. سيكون هذا ما سنفعله سواء كان الكاتب أو المفكر المعني قد ظهر في أوروبا، الأميركتين، أفريقيا، أو آسيا.

ينبغي أن تفهم الجملة السابقة بوضوح من البداية. (فالغرب) لم يخترع التاريخ ولا احتكر صناعته. ولم يكن التاريخ ملكا حصريا حريزا لكهنة التاريخ، أو الأكاديميين الذين يعملون أساسا في مؤسسات التعليم العالي. بل الواقع أن عددا وافرا من الحضارات المختلفة التي سكنت هذا الكوكب قد تصورت الماضي بطرق مختلفة، وصاغت أفكارا متباينة عن علاقته بالحاضر، وطورت مصطلحات متمايزة ـ وإن لم تكن مقابلة بنحو مباشر لتلك التي نستخدمها في الإنجليزية ـ لتشير إلى تمثيله. ينبغي أن تقيم الثقافات التاريخية السابقة وفق ميزاتها ويحكم عليها بمعاييرها، وليس وفق الافتراضات الضيقة نسبيا للمؤرخين المحترفين المعاصرين. وباختصار، فعلينا أن نتحاشى ضيق الأفق الجغرافي والزمني معا.

ومع أن العديد من أشكال التاريخ قد نبعت بشكل معزول عن بعضها، فإنها لم تظل كذلك. فمثلما كان تاريخ العالم (جزئيا) قصة من اللقاءات، الصراعات، والفتوحات بين شعوب مختلفة، فكذلك يثبت تاريخ التاريخ نفسه أن الأنماط المختلفة لمعرفة التاريخ قد تلاقى بعضها ببعض وأثر بعضها بلا شك في بعض. وقد كانت هذه اللقاءات محدودة نسبيا حتى أوائل العصر الحديث (كما نوقش في الفصل الثالث) ولم تتضح تداعياتها الكلية قبل القرن التاسع عشر الذي قد يبدو عنده، بفضل النظر إلى الوراء، كما لو أن شتى تيارات التفكير التاريخي التي شهدها العالم إما سُدّ طريقها أو حُوِّلَ مسارها نحو البحيرة الكبيرة نسبيا للتاريخ المحترف، الذي بني على الممارسة الأكاديمية الأوروبية وخاصة الألمانية، التي حكمت الماضي منذ ذلك الحين. لكن هذه النتيجة لم تكن محتومة بأي حال، ولم تكن بالضرورة (فتحا) فكريا، حيث إن الممارسات الغربية كثيرا ما تُبُنيت بشكل إرادي، بل حتى اتُّبِعت بحماسة شديدة، على يد مصلحين اجتماعيين في بلدان أخرى، كانوا يبحثون عن بديل للأعراف المحلية المخضرمة، التي كانت في نظرهم معطلة ومعيقة للتقدم، في وصف ماضيهم الوطني.

وفي حين لا يخامرنا شك في أن التاريخ الغربي قد أصبح النموذج المهيمن (في عصرنا هذا)، فقد تأثر بدوره بلقاءاته مع أشكال أخرى من المعرفة التاريخية، ولو بمجرد صقل التعريفات لما يجب وما يجب أن يكون عليه التاريخ، عبر مقارنته (بالآخر) الغريب ولكن (الأقل شأنا). لا شك في أن الكتابة التاريخية الإسبانية في

القرن السادس عشر كان لها أثر هائل في كيفية كتابة تاريخ الأميركتين المكتشفتين حديثا، لكن المبشرين الذين كتبوا هذه التواريخ في أوائل الحداثة كان عليهم أن يكيّفوا كتاباتهم مع المصادر المتوفرة في الممارسات الشفهية والمدونة صوريا عند الشعوب الأصيلة. سأناقش لاحقا كيف أن هذه اللقاءات، والوعي المتصاعد بوجود أنماط بديلة «للتاريخية» (التي تعني بهذا المعنى القدرة والإرادة للحفاظ على جوانب من الماضي أو استردادها وتمثيلها)، قد ألزمت الأوروپيين بصنع قرارات حول من اعتبروهم «ضمن نطاق» التاريخ الحق، وحول أولوية السجل المكتوب للماضي على ذلك الشفهي أو المدون صوريا. وقد عبّد ذلك الطريق لتصلّب المواقف الأوروپية في القرن السابع عشر والثامن عشر، وتقسيم العالم إلى الذين لهم تاريخ والذين هم (بحسب الظاهر) بلا تاريخ. وقد أعدّ هذا بدوره المائدة لتحقيق الهيمنة الغربية على التاريخ، التي فصلت لاحقا في الفصلين الرابع والخامس.

باختصار، فإن هذا الكتاب يخطط معالم التراثات العالمية الرئيسة للكتابة التاريخية، ومن ثم العملية التي حقق بها التوجه الأوروپي هيمنته، وولد من ثم «منهجه» الخاص الضابط لذاته، وتكيف أحيانا أو تصرّف فيه كي يندمج مع ثقافات مختلفة جدا أو إيديولوجيات منافسة (يمكن فهمها بدورها على أنها معتقدات مختلفة حول المكانة الأخلاقية، الاقتصادية، والسياسية للحاضر إما بإزاء ماضٍ يستذكر بحنين أو مستقبل يظل حلما).

ولم يكن تحقيق هذه الهيمنة بلا ثمن، كما لاحظ بعض النقاد المعاصرين لهذا المنهج، وهي نقطة سنمر عليها في فصول لاحقة. وبالأخص، فإن تقديس سلطة تدوين التاريخ عند المجتمع الأكاديمي، رغم أنها تمنحنا صرامة ونظاما أشبه بالمعمل (أي تشبيهنا السابق عن التعدين والصهر والتنقية، وهو يطبق الآن على البشر) لإنتاج ذريتها الأكاديمية، يمكن أيضا أن ينظر إليه كقيد للإبداع. ثم إنه يُدخل فاصلا بين المؤلف والقارئ لم يكن معروفا قبل أواسط القرن التاسع عشر. لقد علق سيرتو بدقة، في كتاب **كتابة التاريخ**، على الهوة التي انفتحت بين المؤلفين التاريخيين والجماهير الأوسع، حيث لم تعد قيمة العمل مقررة من عموم القراء (كما كان الحال في أوروپا خلال القرن الثامن عشر ومعظم التاسع عشر) ولكن عبر نظام تصديق الأقران ***peer***

approval، الذي كثيرا ما تكون معاييره مختلفة للغاية عن معايير الشخص العادي. فمجرد وجود هذا النظام (الذي يعد المؤلف الحالي نتاجا له) يمنع المؤرخين عن الانحراف بعيدا عن قواعد (الوثاقة) في هذا المنهج، وكذلك يفرض عقوبات حرفية على شكل المراجعات السيئة للكتب، رفض التثبيت في الجامعات، والإحراج في العلن. وفي الوقت ذاته، فمع أن المؤرخين المحترفين وطلابهم يبحثون عن زوايا جديدة وتوجهات جديدة، وشيء أصيل ما كي يقولوه حول مناطق مطروقة بكثرة (ولو أنهم يفعلون ذلك معظم الوقت ضمن الممارسات المقرّة أكاديميا)، فإن النظام يقودهم نحو حيز رؤية أضيق وأضيق، كثيرا ما يدور حول موضوعات شديدة الضآلة، أو كثيرة الترداد، بحيث لا تلفت أنظار أحد سوى ثلة صغيرة من أصحاب هذه المهنة.

وهذا يثير إشكالا آخر، فمع تمتع (تاريخ العالم) ومن بعده التاريخ (الكوكبي) تدريجيا بقبول الأكاديميين ومناهج التدريس في العقود الأخيرة، بات واضحا أن أنبل الخطط من أجل الاستيعاب كثيرا ما تنحرف نحو مضائق المركزية الأوروبية. وكما لاحظ الناقد الثقافي الفلسطيني إدوارد سعيد ذات مرة، فإن العالمية المزعومة لمجالات منهجية شتى، يذكر من بينها تدوين التاريخ، هي (أورو ـ مركزية لأقصى حد، كما لو كان للثقافات والمجتمعات الأخرى قيمة أوطأ أو متجاوزة)، وهي رؤية متحيزة نسب سعيد أصلها (دون تحري الدقة) إلى فكر عصر التنوير. يمكن للمرء أن يتجنب مأزقا كهذا عبر التزام موقف يعامل كل ثقافة تاريخية بوصفها فريدة وقيّمة. ولكننا، من جهة أخرى، لو اكتفينا بترديد عدد من التواريخ الموازية للتاريخ، في الشرق والغرب، فسنغامر بفقدان وجهة النظر السليمة؛ حيث سنضيع (الصورة الكبرى) وكذلك الشعور بالحجم والأهمية والعظمة النسبية لدى ضروب شتى من التاريخ. ثم إننا سنخاطر بأي أمل في إطلاق تعميمات ذات مغزى، أو العثور على تشابهات وروابط. فهنا يمكن للمقارنة الصريحة أن تفيدنا، بالإضافة إلى الانتباه إلى الأنحاء التي كانت بعض الثقافات التاريخية واعية عبرها لوجود بعضها الآخر على الأقل، لفترة أطول بكثير من مدة تفاعلها.

يجدر بنا أيضا تذكر أنه خلال القرنين الماضيين، كانت التراثات التاريخية ترتبط بدول قومية بعينها، لكن الحال لم يكن كذلك دوما. فمن حيث التنظيم السياسي لا تعد

الدولة القومية ـ التي لعبت دورا رئيسا في تشكل المناهج التاريخية الغربية ‹الحديثة› خلال القرن التاسع عشر ـ أكثر من ومضة في تاريخ المجتمع البشري. فقد كانت المدن والإمبراطوريات (في الوقت ذاته أحيانا) هي الشكل المسيطر من البنى السياسية خلال معظم التاريخ البشري؛ وكانت الإمبراطوريات في العادة متعددة القوميات واللغات، مما يقود إلى درجة من التفاعل ‹الداخلي› بين الثقافات ـ وما التقبل المغولي لأشكال الكتابة التاريخية عند الصينيين والمسلمين خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر إلا مثال على ذلك. ثم إن الدول القومية ذاتها، رغم ابتنائها على أساس تصورات الماضي المشترك (وأحيانا ‹التقليد المخترع›)، نادرا ما تكون أكثر انسجاما مع الإمبراطوريات التي انبثقت منها، كما يوضح لنا سجل دامٍ من الاضطهاد القومي والعرقي خلال القرن الماضي. ولهذا فإن مصطلحات مثل الكتابة التاريخية ‹الفرنسية› (أو الإنجليزية، التركية، الصينية، إلخ) ينبغي ألا تُفهم في هذا الكتاب على أنها ترمز دوما للدول الحديثة التي تحمل هذه الأسماء، على الأقل قبل القرن التاسع عشر، وحتى في تلك الحالة فيفترض ألا ينظر إليها ككيانات متصلبة.

كان المؤرخ البريطاني ج.هـ. پلامب (1911 ـ 2001) J.H. Plumb محقا بالتأكيد في قوله إن التاريخية الصينية القديمة لا تشبه تلك الغربية الحديثة (بل كما سنرى، حتى التاريخية الصينية بعد القرن التاسع عشر)، كما كان محقا في الإشارة إلى الفروق بين الدوافع الأخلاقية والتعليمية التي تحرك قدرا كبير من تدوين التاريخ ‹الغربي› (وهو لفظ يستخدم للإشارة إلى أوربا وفروعها الاستعمارية المباشرة) منذ عصر الأنتيك وحتى 1800، وكذلك التاريخ الأكاديمي الذي تلاه وكان أقل صراحة في طابعه الوعظي. ولكن هل يعني ذلك أن الحداثة وحدها ـ وأعني شكلها الأوربي ـ هي ما أنتج تاريخا ‹بحق›؟ هذا أمر من الأمور التي يستكشفها هذا الكتاب. فقد صاغ تدوين التاريخ الغربي نفسه مرارا، وأحيانا بنحو دفاعي، كي يخفي نقاط ضعفه الداخلية وشكوكه الفكرية، ردا على أنواع أخرى من التاريخ تلاقى معها خلال الحرب، التجارة، وسائر أشكال الاتصال. والمفارقة الكبرى هي أن هذا الشكل الغربي من المعرفة، بعدما بنى نفسه كشيء مختلف عن أنداده ‹الشرقيين› و‹اللاتاريخيين› كما يفترض، قد أصبح بحلول القرن التاسع عشر راقيا بما يكفي، واثقا من مناهجه وواضحا في أهدافه

(المرتبطة في ذاتها بالتفوق الاقتصادي والتقني الغربي) لدرجة أنه يستطيع الزحف بسهولة نسبية ـ وأحيانا بدعوة صريحة ـ إلى تلك الأجزاء من العالم التي كانت تملك فيما مضى أفكارا مختلفة عن ماهية الماضي ولماذا يجب أن نتذكره. وهنا ثمة مفارقة ثانية: فحتى بمساعدة المعجبين المحليين الأشد رغبة، لم يكن بوسع الممارسات التاريخية الأوروبية أن تزرع بأكملها في مجتمعات غريبة، إلا كما أمكن للديمقراطية على الطريقة الأميركية أن تفرض اليوم على بلدان لا تملك تراثا ديمقراطيا. وفي بعض المواقف (كما في تناقل الماركسية، وهي نظام مبني على التصورات الغربية لعملية التغير التاريخي، إلى الصين، ذات العلاقة المختلفة تماما مع ماضيها)، تطلبت الأشكال الأوروبية تعديلا أو توطينا معتبرا كي تحصل على قبول واسع. أما عدم التوافق والمساومات التي تمت في طريق ذلك فقد حذفت من قصة التاريخ كما كتبها القرن العشرون، مثلما حذفت معظم الممارسات التاريخية المحلية التي اجتثتها.

نادى ديپش چاكرابرتي في كتاب له ذائع الصيت إلى «النظر لأوروپا كمقاطعة»، ملاحظا أن أوروپا كانت تقليديا توفر المعيار الذي يقاس بإزائه سائر العالم. ومع ذلك، فمن الصعب أن نهبط بتدوين التاريخ الأوروپي ليصبح واحدا بين عدة توجهات. فمثلما سيعترف معظم الباحثين بعد الاستعماريين، فإن الشكل الغربي (أوروپي الأصل) من تدوين التاريخ، بالإضافة إلى مؤسساته الأكاديمية والاحترافية، **تمكن فعلا** من تحقيق الهيمنة على سائر أشكال الكتابة أو التفكير حول الماضي. فقد استطاع عموما أن يخرج من حيز الاعتبار أشكالا أكثر تقليدية وشفاهية من التاريخ كانت شائعة في عصور مضت، ومنذ حوالي عام 1600 بات التاريخ في الغرب مرتبطا بشكل هائل بالكتابة أكثر من الكلام، وهو ناتج ثانوي لتصاعد نسبة المتعلمين بين العامة خلال القرنين السابقين، وللتصورات حول عدم الوثاقة الأساسية لأي سجل حين لا يوجد نظام كتابة. وحقيقة أن أشكالا بديلة لإدراك الماضي وتمثيله قد ألغيت، التي يرى فيها إدوارد سعيد وسائر الباحثين بعد الاستعماريين فرضا لنظام غربي للغة والمعرفة على المستعمَرين، قد استحوذ عليها واستغلت ـ في مفارقة واضحة ـ كسلاح ضد تلك البنى السياسية أو الاجتماعية التي نشرتها (راجع الفصل السادس بخصوص ذلك). وبالنسبة لقارئ هذا الكتاب، يرجح أن تكون الأسئلة الأهم هي أولا: كيف حقق تدوين

التاريخ «الحديث» هيمنته الظاهرية، وثانيا: إن كان ذلك قد حصل دون تأثر «المنتصر» بأي نحو جراء اتصاله «بالمغلوب» (وأحيانا «بالمباد»). إن الطرق التي حصلت من خلالها التناقلات في تدوين التاريخ ليست فكرية فحسب ـ أي نتاجا «لتأثيرات» مؤلف في آخر. فكما لاحظ دومينيك زاكسنماير *Dominic Sachsenmaier* بدقة، فإن انتشار تدوين التاريخ الأكاديمي أمر لا يمكن تفسيره بنموذج «انتشار» بسيط حيث تشيع «عدوى» الأفكار ببساطة خارج موطنها الأصلي؛ بل ينبغي أن يفهم كنتيجة لعوامل اجتماعية وسياسية شتى كانت فعالة في أوربا وسائر أرجاء العالم.

وهكذا فإن المشهد الذي يستعرضه هذا الكتاب يستوعب تنويعة من تراثات تدوين التاريخ المختلفة، التي كانت تمضي في مسارات متوازية طوال معظم الوقت، وأحيانا تتقاطع وتتلاقى (خاصة منذ القرن السادس عشر فصاعدا). لقد تمثلت هذه التراثات بعدة أصناف أدبية؛ وتُنُوقلت في أشكال مختلفة من الاستذكار والتواصل (الشفهي والصوري وكذلك المكتوب)، وظهرت وتطورت في سياقات اجتماعية وسياسية مختلفة بنحو واسع. ويهدف هذا الكتاب باتزان إلى وصف هذه العمليات، وأين تقف الآن بالضبط.

لمزيد من القراءة

- Bentley, Michael (ed.), *A Companion to Historiography* (London and New York, 1997)
- Breisach, Ernst, Historiography: *Ancient, Medieval, and Modern*, 3rd edn (Chicago, IL, 2007)
- Brown, Donald E., *Hierarchy, History and Human Nature: The Social Origins of Historical Consciousness* (Tucson, CO, 1988)
- Burrow, J. W., *A History of Histories: Epics, Chronicles, Romances and Inquiries from Herodotus and Thucydides to the Twentieth Century* (London, 2007)

- Butterfield, Herbert, *Man on His Past: The Study of the History of Historical Scholarship* (Cambridge, 1955)
- Carr, E. H., *What is History?* (1961; Basingstoke, 2001)
- Certeau, Michel de, *The Writing of History*, trans. T. Conley (New York, 1988)
- Chakrabarty, Dipesh, *Provincializing Europe: Postcolonial Thought and Historical Difference* (Princeton, NJ, 2000)
- Cheng, Eileen Ka – May, *Historiography: An Introductory Guide* (London and New York, 2012)
- Claus, Peter and John Marriott, History: *An Introduction to Theory, Method and Practice*, 2nd edn (Abingdon and New York, 2017)
- Duara, Prasenjit, Viren Murthy and Andrew Sartori (eds), *A Companion to Global Historical Thought* (Chichester, 2014)
- Fuchs, Eckhardt and Benedikt Stuchtey (eds), *Across Cultural Borders: Historiography in Global Perspective* (Lanham, MD, 2002)
- Gorman, Jonathan, *Historical Judgement: The Limits of Historiographical Choice* (Stocksfield, UK, 2007)
- Hama, B. and J. Ki – Zerbo, 'The Place of History in African Society', in J. Ki – Zerbo (ed.), *General History of Africa, Vol. 1: Methodology and African Prehistory* (Paris and London, 1981), 45 – 53
- Iggers, Georg G., Q. Edward Wang with S. Mukherjee, *A Global History of Modern Historiography* (Harlow, UK and New York, 2008)
- Jordanova, Ludmilla, *History in Practice*, 2nd edn (London and New York, 2006)

- Kelley, Donald R., *Faces of History: Historical Inquiry from Herodotus to Herder* (New Haven, CT, 1998)
- *Fortunes of History: Historical Inquiry from Herder to Huizinga* (New Haven, CT, 2003)
- *Frontiers of History: Historical Inquiry in the Twentieth Century* (New Haven, CT, 2006)
- Kemp, Anthony, *The Estrangement of the Past: A Study in the Origins of Modern Historical Consciousness* (Oxford, 1991)
- Kramer, Lloyd and Sarah Maza (eds), *A Companion to Western Historical Thought* (Oxford, 2002)
- Lambert, Peter and Björn Weiler (eds), *How the Past was Used: Historical Cultures c. 750 _ 2000* (Oxford, 2017)
- Lowenthal, David, *The Past is a Foreign Country _ Revisited* (Cambridge, 2013)
- MacMillan, Margaret, *The Uses and Abuses of History* (London, 2008)
- Mali, Joseph, *Mythistory: The Making of a Modern Historiography* (Chicago, IL and London, 2003)
- Maza, Sarah C., *Thinking About History* (Chicago, IL, 2017)
- Paul, Herman, *Key Issues in Historical Theory*, trans. Anthony Runia (Abingdon and New York, 2015)
- Plumb, J. H., *The Death of the Past*, rev. edn (1969; Houndmills, Basingstoke, UK, 2004)
- Popkin, Jeremy, *From Herodotus to H _ Net: The Story of Historiography* (Oxford, 2016)
- Rublack, Ulinka, *A Concise Companion to History* (Oxford, 2011)

- Rüsen, Jörn, *Western Historical Thinking: An Intercultural Debate* (New York and Oxford, 2002)
- Sachsenmaier, Dominic, *Global Perspectives on Global History: Theories and Approaches in a Connected World* (Cambridge, 2011)
- Said, Edward, *Orientalism* (London, 1978)
- Schiffman, Zachary S., *The Birth of the Past* (Baltimore, MD, 2011)
- Tosh, John, *The Pursuit of History: Aims, Methods and New Directions in the Study of Modern History*, 3rd edn (London and New York, 2002)
- Tucker, Aviezer, *Our Knowledge of the Past: A Philosophy of Historiography* (Cambridge, 2004)
- Wolf, Eric R., *Europe and the People without History* (Berkeley, CA, 1982)

مراجع، كتب إرشاد، وموسوعات

- Boia, Lucian (ed.), *Great Historians from Antiquity to 1800: An International Dictionary* (New York, 1989)
- *Great Historians of the Modern Age: An International Dictionary* (New York, 1991)
- Boyd, Kelly (ed.), *Encyclopedia of Historians and Historical Writing*, 2 vols (London, 1999)
- Munslow, Alun, *The Routledge Companion to Historical Studies* (London and New York, 2000)
- Tucker, Aviezer (ed.), *A Companion to the Philosophy of History and Historiography* (Malden, MA and Chichester, UK, 2009)
- Woolf, Daniel R. (ed.), *A Global Encyclopedia of Historical Writing*, 2 vols (New York, 1998)

مجموعات مختارة للكتابة التاريخية

[تتضمن هذه القائمة قراءات متوفرة بالإنجليزية فحسب، نظرا للجمهور المعني بهذا الكتاب. ثم إنها تركز على أوربا بنحو لا مفر منه، حيث لا توجد حتى الآن مجموعة جيدة من القراءات في تدوين التاريخ على نطاق عالمي. ومع أن هناك مقتطفات قصيرة من بعض نصوص تدوين التاريخ غير الغربية في الكتاب الأصلي الذي يمثل هذا الكتاب اختصارا وتنقيحا له، A Global History of History (Cambridge, 2011)، تظل الحاجة ماسة إلى مجموعة مختارات أشمل وأوسع.]

- Budd, Adam (ed.), *The Modern Historiography Reader: Western Sources* (London, 2009)
- Burns, Robert M. and Hugh Rayment – Pickard (eds), *Philosophies of History: From Enlightenment to Post – Modernity* (Oxford, 2000)
- Green, Anna and Kathleen Troup (eds), *The Houses of History: A Critical Reader in Twentieth – Century History and Theory* (New York and Manchester, 1999)
- Hoefferle, Caroline (ed.), *The Essential Historiography Reader* (Saddle River, NJ, 2011)
- Hughes – Warrington, Marnie (ed.), *Fifty Key Thinkers on History*, 3rd edn (Abingdon and New York, 2015)
- Jenkins, Keith (ed.), *The Postmodern History Reader* (London and New York, 1997)
- Kelley, Donald R. (ed.), *Versions of History from Antiquity to the Enlightenment* (New Haven, CT, 1991)
- Mazlish, Bruce and Akira Iriye (eds), *The Global History Reader* (New York, 2005)

- Roberts, Geoffrey (ed.), *The History and Narrative Reader* (London and New York, 2001)
- Stern, Fritz (ed.), *The Varieties of History* (New York, 1956)
- Stunkel, Kenneth R. (ed.), *Fifty Key Works of History and Historiography* (Abingdon and New York, 2011)
- Tosh, John (ed.), *Historians on History*, 3rd edn (London and New York, 2018)

قائمة منتقاة من المجلات الإنجليزية التي تتضمن مقالات عن تدوين التاريخ

[العناوين التي تليها نجمة تركز على تدوين التاريخ، مناهج التاريخ، تاريخ الكتابة التاريخية، أو فلسفة التاريخ.]

- *American Historical Review* (1895)
- *Comparative Studies in Society and History* (1958)
- *Gender and History* (1989)
- *History in Africa: A Journal of Method** (1974 _)
- *Historical Methods: A Journal of Quantitative and Interdisciplinary History** (1978; successor to *Historical Methods Newsletter*)
- *Historiography East and West** (2003 _ 06)
- *History and Memory* (1989)
- *History and Theory** (1960)
- *History in Africa** (1974)
- *History of Humanities* (2016)
- *History Workshop Journal* (1976)
- *Journal of Contemporary History* (1966)

- *Journal of Interdisciplinary History* (1970)
- *Journal of the History of Ideas* (1940)
- *Past and Present* (1952)
- *Rethinking History** (1997)
- *Representations* (1983)
- *Signs: Journal of Women in Culture and Society* (1975)
- *Storia della storiografia/Histoire de l'Historiographie/History of Historiography/Geschichte der Geschichtsschreibung* (multilingual)* (1982)

مخططات

القرن الـ 25 ق.م.	التاريخ المرجح لشظية مسلة باليرمو الحجرية (وهي سجل تاريخي مصري مبكر)
ح. القرن الـ 22 ق.م.	قائمة الملوك السومريين
القرن 10 ـ ح. أواخر القرن 7 ق.م.	تدوين التناخ (العهد القديم اليهودي)
704 ـ 681 ق.م.	قوائم اللمو الآشورية
القرن 7 ـ 6 ق.م.	سلسلة سجلات الأخبار البابلية الحديثة
ح. 480 ق.م.	**حوليات الربيع والخريف الصينية**
ح. 440 ق.م.	كتاب **التواريخ** لهيرودوتس
ح. 400 ق.م.	**الزوو جوان؛ تاريخ حرب البيلوبونيز** لثوسيديدس
أواسط القرن 2 ق.م.	كتاب **التواريخ** لبوليبيوس
ح. 90 ق.م.	كتاب **سجلات المؤرخ الأكبر** لسيما چيان
أواسط القرن 1 ق.م.	سالوست يؤلف **تواريخه**
بعد 27 ق.م.	ليڤي يكتب تاريخه لروما، **منذ تأسيس المدينة**
ح. 90 ب.م.	يوسيفوس يكتب **آثار اليهود، الحرب اليهودية وضد أپيون**
ح. 105 ـ 117 ب.م.	**الحوليات والتواريخ** لتاسيتوس
ح. 111 ب.م.	كتاب **الهانشو** لبان غو وبان جاو يصبح مثالا (للتواريخ المعتمدة) للسلالات المنفردة
ح. 391 ب.م.	**كتب الأعمال الإحدى والثلاثين** لأميانوس مركلينوس

الفصل الأول

الأشكال الأقدم للكتابة التاريخية

الشرق الأدنى القديم

كان الشرق الأدنى منطقة معقدة متعددة اللغات، تمتد من مصر وما عرف لاحقا بأرض كنعان وإسرائيل، مرورا ببلاد الشام، ليحتضن ما بين النهرين بكاملها وكذلك بلاد الحثيين في الأناضول وشمال سوريا. سكن في هذه المنطقة عدد من الحضارات ذات الأعمار المديدة، لكنها لم تستذكر أو تحتفظ بماضيها بنفس الأنحاء أو بنحو ثابت اعتمادا على نفس أنواع السجلات. والأدلة متناثرة حرفيا، حيث تستمد من نقوش على مسلات، ألواح حجرية أو صخور، وكتابات على البردي؛ ولم تصلنا أكثر تلك الأشياء بوضع سليم تماما. عبثا يبحث المرء هناك عن (التاريخ) كفكرة، فضلا عن أعمال مكرسة له. والمقابلات اللغوية لكلمة (تاريخ) أو (تدوين للتاريخ) نادرة في أي لغة من تلك المنطقة، رغم أن الكلمتين العبريتين **تُولِدُوت** **תוֹלְדוֹת** (أنساب) و**دِڤْرَي هَيّاميم** **דִּבְרֵי הַיָּמִים** (أخبار الأيام) قد تكونان مرادفتين لائقتين. تظل المصطلحات مهمة، خاصة حين نحاول فهم ما فكر به الناس في الماضي، وكذلك تهمنا أسماء الأصناف ـ فالإغريق بوجه خاص كانوا سيأخذون التقسيمات العامة للتاريخ على محمل الجد، تماما كما سيفعل إنسانيو عصر النهضة بعد ألفي عام. ولكن من غير الحكيم أن نقفز من شحة الألفاظ اللغوية، أو غياب الصنف الأدبي، إلى استنتاج أنه (لم يكن آنذاك أي تاريخ).

قد يستدل بالتأكيد على وجود شعور بالماضي في مصر القديمة، وخاصة على جهد في استذكار السلالات المتعاقبة للمملكة القديمة والوسطى والحديثة. قلة

نادرة من «الحوليات» التي سجلها الفراعنة الأوائل استطاعت الوصول إلينا: وعينة مبكرة منها هي «صخرة پاليرمو»، وهي مسلة مكسورة (حملت هذا الاسم نظرا لأن إحدى قطعها وضعت في پاليرمو، صقلية) التي تحمل سلاسل ملوك منذ عصر ما قبل الأسرات وحتى أواسط الألفية الثالثة ق.م.؛ ثم إن حوليات حروب أحد الفراعنة من أواسط الألفية الثانية ق.م.، وهو تحتمس الثالث (م.ح. 1479 ـ 1425 ق.م.)، قد حفظت في النهاية على جدار معبد. وقد نسبت نصوص ونقوش تاريخية إلى الحثيين، الذين قد يكونون أقدم شعب تعرف على الاستخدامات التعليمية والسياسية خاصة للتاريخ، إما عبر تبرير موقف معين عبر الاستدلال بالماضي أو عبر الاستعانة بمواقفه للنصح والتحذير. ولكننا في وادي الرافدين بالذات نجد أدلة لا تخطئها العين على قصد بشري عمدي للكتابة حول الماضي، وخاصة عند البابليين والآشوريين. كما أن الشعوب المتعاقبة التي سكنت الأرض الواقعة بين دجلة والفرات، والتي طورت الكتابة المسمارية قبل الألفبائية، قد خلقت أيضا أشكالا أساسية لتمثيل الماضي (عبر قوائم الملوك والحوليات) ومؤسسات للاحتفاظ بسجلاتهم، أي المكتبة والأرشيف.

كانت العديد من القصص التي قيّدت بالتدوين لاحقا سابقة لتطور الكتابة، وحفظت فيما مضى شفهيا. «فالملحمة»، ذلك الصنف الأدبي الذي روى لنا مغامرات گلگامش ملك أوروك ومنجزاته في الحرب، مثلت الشكل الأقدم للسرد التاريخي. ولكن أسطورية العديد من تلك المواقف التي تقصها علينا الملاحم، وكذلك المبالغة في صفات أبطالها أو حتى عدم وجودهم واقعا من الأساس، ليسا بحد ذاتهما دليلا على غياب التاريخ أو التفكير التاريخي: فالمغنون والمستمعون لهذه القصص لا بد أنهم اعتقدوا في مستوى ما بصحتها حرفيا أو على الأقل بصحة المبادئ الخلقية التي جسدتها. وفيما بعد، صوّرت الملاحم الإغريقية الكبرى، أي **الإلياذة والأوديسة** المنسوبتين للشاعر هوميروس، ما اعتقد اليونانيون بين القرن الثامن والخامس ق.م. بأنه يمثل ماضيهم السحيق. ولذا فإن الحد الفاصل بين الملحمة وما يبدو لنا أشبه بالتاريخ ـ أي سرد شخصيات «حقيقية» بلا شك ـ كثيرا ما يكون ضبابيا.

أما الأقرب إلى وثيقة تاريخية مألوفة فهو صنف من النصوص التي يمكن تسميتها عموما «بالتوقيتية» (أي التي تنسب أحداثا معينة إلى تواريخ محددة بالتتابع) ويمكن

تقسيمها إلى أصناف أدق (كقوائم الملوك)، (الحوليات) و(سجلات الأخبار). ومن بين أقدمها نجد قائمة الملوك السومرية، التي ربما بدأت في القرن الثاني والعشرين ق.م.، وهي تمتد في الماضي حتى عصور الأساطير القديمة لكنها ليست مجرد قائمة؛ بل هي محاولة عمدية لتقديم الماضي آنذاك تحت ضوء محدد، تفرضه الظروف في زمن المؤلف ذاته. توجد أشكال متنوعة أخرى من السجلات التاريخية السومرية ـ البابلية، مثل نقوش المباني والمسلات وسائر الوسائط العصية على الزمن. وقد بدأت سجلات الأخبار، المكتوبة بصيغة الشخص الثالث، مع نص يسمى اليوم **سجل أخبار المملكة الواحدة** ربما يعود إلى العصر الأكدي (بين القرن الرابع والعشرين والثاني والعشرين ق.م.).

وقد لعبت أصناف أخرى، كالمذكرات الفلكية، دورا في تحديد إطار زمني دقيق يمكن بإزائه تسجيل الأحداث، وكان البابليون في الألف الثاني وكذلك خلفاؤهم البابليون المحدثون أو الكلدانيون في أواسط الألف الأول فلكيين متمكنين وصناع قوائم محترفين. وألّف جيرانهم الآشوريون نصوصا تاريخية. حيث يبدو أن قائمة ملوك آشورية تصل إلى أواخر القرن الثامن قد جمعت من وثائق أخرى، بنحو يتطلب ما قد نعتبره اليوم (بحثا). وتتضمن النقوش الملكية الآشورية الحوليات، التي بدأت في أوائل القرن الثالث عشر وألفت بصيغة الشخص الأول؛ وهي تحكي تاريخ حملات معينة، ولا مثيل لها عند السومريين أو البابليين. وأنتج الآشوريون نصوصا بصيغة الشخص الثالث مثل **قوائم اللمو** *Eponymous Chronicle*، التي تروي قصص الحملات العسكرية السنوية لملوكهم وصولا إلى سنحاريب (حكم 704 ـ 681 ق.م.).

وقد أنتج القرن السابع والسادس مزيدا من النصوص كسلسلة سجلات الأخبار البابلية المحدثة، التي شملت الفترة بين 747 ق.م. والاستيلاء الفارسي على بابل عام 539 ق.م.، وكذلك سلسلة سجلات الأخبار البابلية المتأخرة التي استمرت حتى القرن الثالث، الذي بحلوله وسّع التواصل مع الإغريق من آفاق مؤلفيها. وكان آخر نص بابلي معروف هو ما ألفه برعوشا *Berossus* في القرن الثالث ق.م. باليونانية. ولم يصلنا أي أثر لعمله رغم أنه كان معروفا في العصور الهيلينية والرومانية. وهو يعد من النصوص القديمة (إلى جانب نصّ **الإيجپتياكا** *Aegyptiaca* لمعاصره المفترض

مانيثو *Manetho*، الذي يرجح أنه نتاج عصر لاحق) التي لا نملك عنها إلا معرفة غير مباشرة أو آثارا متناثرة لأن كتابا لاحقين اقتبسوا منها. أما الفرس، الذين حلوا محل السلطة البابلية في القرن السادس، فقد استكملوا نشاطهم في تدوين التاريخ؛ فمع نقش بهستون ثلاثي اللغات، أصبح دارا الأول (م. 521 ـ 486 ق.م.) أول ملك فارسي ينسب إليه تأليف عمل تاريخي (ولو بنحو غير مباشر) ـ مستذكرا أحداثا جرت في أوائل حكمه.

ثمة أدلة على أن بعض أولئك المؤلفين أرادوا، بخلاف قوائم الملوك أو سجلات الأخبار التي تكتفي بتدوين الأحاديث بالتتابع كما حدثت ببساطة، أن يكتبوا عن الأحداث الماضية، بما فيها تلك التي حدثت في عصور سابقة لهم. ونظرا لندرة الأدلة على وجود تراث مستمر من التوثيق أو التسجيل، حيث يتلخص دور المؤلف بالإضافة إلى عمل شرع فيه أسلافه (كما سيتطور لاحقا في ديار المسيحية خلال العصور الوسطى)، فلا بد أن تكون العديد من تلك الأعمال نتاجا لما قد نسميه اليوم ‹بالبحث› ـ أي التمحيص والانتخاب والتجميع من عدة مصادر سابقة غير سردية. فقد تجاوز العديد منهم رواية الأحداث السابقة فحسب، طامحين نحو توفير النصيحة والمشورة والقصص الواعظة، وهي ثيمة تتكرر في أثناء التاريخ العالمي للكتابة التاريخية. ويتجلى غرض تربوي من أحد أشهر الأمثلة على الكتابة التاريخية فيما بين النهرين، وهي **سجل ڤايدنر** *Weidner Chronicle* البابلي القديم، الذي ألف كنص دعائي يعود إلى أوائل الألفية الثالثة ولكنه مكرس إلى حد كبير للسلالة السرجونية في القرن الرابع والعشرين والثالث والعشرين. ومع أنه وصلنا في نسخ متأخرة جدا، فهو أحد الأعمال التاريخية الأولى التي صممت بوضوح لاسترداد الماضي والاحتفاظ به بصراحة لأجل تعليم الحاضر والمستقبل. وحيث صيغ هذا السجل بهيئة حوار بين كائنات إلهية، فإنه يقارن بين ألوهية سرجون الأكدي وفسق حفيده نرام سن، الذي ينسب إليه المؤلف سقوط المملكة الأكدية. وهكذا فإن التفسير الراسخ للأحداث عبر خط متناوب من التفضيل والعقاب الإلهي، وهو ثيمة تكررت لقرون عديدة، كانت له بداية مبكرة. فهو يظهر بنحو متواتر في طيات المشاق التي عاناها بنو إسرائيل من القوى الغريبة، كما يصفها العهد القديم.

الفكر التاريخي اليهودي من التناخ حتى يوسيفوس

لم يملك بنو إسرائيل، شأنهم شأن معظم ثقافات الشرق الأدنى، لفظا يدل على «التاريخ» أو «الأسطورة»، ولا يبدو أنهم كانوا يملكون أي اعتقاد راسخ تجاه الفرق بين الأمرين. وقد أطلقت ادعاءات مضخمة بعض الشيء حول تفرد الحس التاريخي في **التناخ** (أي العهد القديم اليهودي [المتكون من أبواب ثلاثة: التوراة، الأنبياء، الكتب])، لدرجة القول بأن العبرانيين هم مخترعو التاريخ بمعناه المعروف بعد عصر التنوير ـ أي بوصفه التدفق المتراكم للأحداث نحو نتيجة مرسومة إلهيا. وقد زاد الأمر تعقيدا ظهور فهم حديث وأشد تفصيلا للتعاقب والتسلسل الزمني لكتب **التناخ**، التي بات يعرف اليوم أنها من تدوين عدة مؤلفين من القرن العاشر وحتى السادس ق.م. وكان من المسلمات ذات يوم أن اليهود بفضل ديانتهم التوحيدية، واعتقادهم بميثاق يربطهم بالإله الواحد، يملكون حسا مميزا لا منازع له بالماضي والحاضر والمستقبل، وباتجاه خطي للزمن يختلف بحدة عن الرؤية الدورية الواضحة لدى سائر الشعوب. وبغض النظر عن أن المرء يعثر على الحس الزمني والخطي معا للزمن عند الكتاب اليونان والرومان، فقد فندت هذه الرؤية بفضل الأدلة القاطعة في الكتابات العبرية على الدورات التاريخية، وأوضحها تلك التي تتقلب بين الرضا والسخط الإلهي على شعبه المختار، مما يقود في هذا العالم إلى التجربة المتكررة للعبودية ثم التحرر، والأسر ثم الحرية. ومن الصعب أيضا أن نرى كيف يمكن لحس يهودي/ إسرائيلي متفرد بالتاريخ أن ينشأ في العزلة، نظرا للتواصل المبكر بين بني إسرائيل وسائر شعوب المنطقة.

إن القسم الأوضح «تاريخية» بلا شك في التناخ، من حيث أنه يصف أزمانا وأشخاصا وأحداثا نثق نسبيا بوجودها نظرا لتوافر أدلة عليها في مصادر خارجية، وفي لقى آثارية أيضا، ربما كان من صنع كاتب واحد يعرف **بالمؤرخ التثنويّ** *Deuteromonistic Historian*، وهو يمتد من سفر التثنية (آخر «كتب موسى الخمسة» أو التوراة) حتى الملوك الثاني، رغم أن وثاقته قد عُرضت للنقد. فقد طعنت الأبحاث الحديثة في **تاريخية** معظم محتوى التناخ (أي وجود جذور له في الواقع)، دون أن تنبذ بالضرورة فكرة أن المرء قد يعثر فيه على **تدوين تاريخي** (أي جهد عمدي لتمثيل الماضي)،

وإن لم يكن يقصد به أبدا أن يلخص الحقيقة الحرفية، بخلاف الحقيقة الأخلاقية أو الدينية التي اعتبرت ذات أهمية أكبر. ففي الأنساب المبكرة لسفر التكوين وكذلك الروايات الأشد انغماسا في التعاقب الزمني لأسفار صموئيل، الملوك، وأخبار الأيام، يعثر المرء على جهود لاستذكار الأحداث بدقة بهيئة سجل مكتوب، وكذلك على حس قوي بالمصير الإلهي لبني إسرائيل كشعب مختار، كمسيرة خطّية تسري خلالها دورة متكررة من الانتصار والبؤس حين يمجد اللّٰه أو يعاقبهم. ويصبح هذا الإنجاز أشد أهمية بالنظر للندرة اللاحقة للكتابة التاريخية اليهودية العلمانية خلال القرون التي تفصل بين يوسيفوس الأشقر *Flavius Josephus* (ح. 37 ـ ح. 100 م) والمائة السادسة عشرة التي بدأ فيها اليهود، رغم شتاتهم في أرجاء أوراسيا، بإعادة اكتشاف الدراسة الملتزمة للماضي.

كان يوسيفوس، من بين كل اليهود، هو الذي قدم لنا أقرب ما يمكن للتاريخ بمعناه الكلاسيكي. فقد كان لديه ـ وهو الذي أصبح مواطنا رومانيا ـ قدم راسخة في العالم اليهودي وكذلك العالم الروماني الهليني، مما يجعله مثالا مبكرا على ظاهرة سنراها مرارا، وهي ظاهرة المؤرخ الذي ينتمي لثقافة ما لكنه يكتب في وسط ثقافة أخرى وبأسلوبها. فقد كتب هذا اليهودي المتأثر بالرومان تواريخه التي وصلتنا باللغة اليونانية. ومن بين أعماله المتوفرة، فقد ثبت أن **آثار اليهود** *The Antiquities of the Jews* مصدر لا يقدر بثمن لمعرفة العادات الاجتماعية والقانونية والدينية لليهود؛ كما يقص علينا في **حروب اليهود** *Jewish Wars* تاريخ الصراعات بين اليهود وخصومهم، وخاصة الحرب مع روما، منذ فتح السلوقيين لأورشليم عام 164 ق.م. حتى هزيمة انتفاضة اليهودية (التي شارك فيها يوسيفوس) خلال عصره. يقدم كلا الكتابين حججا على عراقة اليهود كشعب، وعلى قدرتهم على العيش بسلام في ظل الحكم الروماني، حيث كانت حركات التمرد في نظره من صنيع أجيال متعاقبة من المتعصبين. وفي موارد أخرى، انتقد يوسيفوس سابقيه من اليونان عبر الدفاع عن العراقة الأوطد لليهود، بنحو يوضح معلما سيرد لاحقا في عصور أخرى، وهو الجدل حول العمر النسبي للمؤسسات والأمم والأديان، وحتى بعض الأسر.

تدوين التاريخ اليوناني المبكر

لقد احتل اليونان مكانة بارزة في تواريخ علم التاريخ لسبب وجيه، رغم أن ذلك كثيرا ما أدى إلى إهمال منجزات حضارات أقدم وأكبر في الشرق. فكلمة ‹*history*› ذاتها من أصل يوناني، حيث استخدمت أولا لتعني دراسة الماضي على يد هيرودوتس من هاليكارناسوس *Herodotus of Halicarnassus*. وبفضل الإغريق بدأت أوربا تعرّف كتب التاريخ بانتظام بأسماء مؤلفيها. ومع أن هناك كتابات تاريخية غفلاً من الأسماء، فإننا بنحو الإجمال نعرف هوية مؤلفي معظم الأعمال الواصلة إلينا، حتى تلك التي وصلتنا بصيغة مجتزأة. بل إننا في بعض الحالات لا نملك سوى اسم المؤلف والمعرفة بأن هذا الشخص ألف تاريخا في وقت ما، وكان كتابه معروفا للكتّاب المعاصرين أو اللاحقين لكنه فقد فيما بعد. وأخيرا، كان اليونانيون أول من جرب أشكالا تاريخية شتى، وسرعان ما تمكنوا من الارتقاء على البنية المقيدة للحوليات وسجلات الأخبار، دون أن يتخلوا تماما عن التدوين الزمني.

تكمن أصول التفكير التاريخي اليوناني، كما كان الحال في وادي الرافدين، في الشعر الملحمي، وبالأخص **الإلياذة والأوديسة** لهوميروس، اللتين صورتا الأمجاد البطولية للأخائيين *Achaeans* في العصر البرونزي خلال حرب طروادة وما تلاها. وقد نسبتا معظم الأفعال والأحداث إما للعواطف البشرية أو الهوى الإلهي. ومع أقدم المؤرخين اليونانيين الذين دونوا نثرا، بعد بضعة قرون من ذلك، فإنا ننتقل بنحو أكمل إلى عالم الأفعال البشرية، الذي لا يخلو مع ذلك من التدخل الإلهي وخاصة من نفوذ قوة غير مفهومة ولا متوقعة، سمتها الأجيال اللاحقة ‹بالحظّ› لكن الإغريق دعوها تيخيه *Tyche*.

ولعل اتصال اليونان بالفينيقيين، الذين كانوا بدورهم على صلة بوادي الرافدين ومصر، هو ما أدى إلى تبني الكتابة الألفبائية، وهكذا أمكن للملاحم الهومرية، التي نقلت من قبل شفاها، أن تدوّن أخيرا بعد عدة قرون من إلقائها أول مرة. إن أقدم كتّاب التاريخ نثرا هم من عُرِفوا باسم جامع هو ‹اللوغوغرافيون *logographers*›، وكان معظمهم من منطقة إيونيا، التي كانت تقع على الحدود مع بلاد فارس في أقصى بقاع

‹العالم المعروف *oecumene*› اليوناني. وكثيرا ما كانت أعمالهم مزيجا بين ما قد نميزه اليوم كعناصر أسطورية وأخرى تاريخية، حيث استمدت من الملاحم وكذلك حوليات بعض المدن التي كتبوا عنها.

خلال مدى قصير نسبيا يبلغ قرنين أو ثلاثة، استكشف اليونان ماضيهم عبر عدة أصناف مختلفة من الكتابة. كان من بينها، بالترتيب الذي يعتقد أنها ظهرت به، علم الأنساب *genealogy* أو دراسة الأساطير *mythography*؛ علم الأجناس *ethnography* (دراسة البلدان الغريبة وعادات شعوبها)؛ التاريخ المعاصر/ التاريخ ‹الصحيح› أو السرد المستمر لأحداث متعاقبة مع الاهتمام بعلاقاتها السببية؛ التوثيق الزمني *chronography* (نظام لتسجيل الزمن، وفقا لسنيّ المسؤولين في الأساس)؛ وتاريخ المدن *horography* (تاريخ مدينة معينة عاما بعد عام).

ونحن لأول مرة نعرف بعض مؤلفي تلك النصوص بالاسم؛ حيث يتضمنون شاعر الأساطير هسيود *Hesiod* (ز. ح. 700 ق.م.) الذي قدم كتابه **الأعمال والأيام** فكرة تعاقب العصور المتدهورة، وهيلانيكوس من ليزبوس *Hellanicus of Lesbos* (ح. 490 ـ 405)، مؤسس التوثيق الزمني اليوناني، الذي عرف عنه انتباهه لمشكلة التوفيق بين عدة سلاسل زمنية (وهو أمر سيظل يشغل الباحثين الأوربيين بعد ألفي عام). وكان للكاتب الإيوني هيكاتيوس من ميليتوس *Hecataeus of Miletus* (ز. ح. 500) دور مهم، أولا لأنه في كتابه *Periodos Ges* (‹دورة الأرض›) أسس لصنف علم الأجناس بناءً على الرحلات الشخصية وتقارير شهود العيان، وثانيا لأنه في كتابه *Genealogia* أسس سابقة لمن بعده من الكتاب، عبر إقامة تمييز جدي بين الخيال والواقع. ولكن المرء لن يلاقي كلمة ‹التاريخ *history*› إلا في أثينا القرن الخامس، بالإضافة الى ذينك المؤرخين اللذين وصلتنا أعمالهما سليمة بشكل عام ونعرفهما أيضا بالاسم.

هيرودوتس وثوسيديدس

مع أنه من الخطأ أن ننسب إلى هيرودوتس (ح. 484 ـ ح. 420 ق.م.)، السائح المنفي من بلدته الأم هاليكارناسوس، الفضل في ‹اختراع› التاريخ، فقد كان أول من استخدم كلمة *historia* كدلالة على الماضي، ولو دون قصد منه. فالفعل اليوناني

الذي تشتق منه هذه الكلمة يعني ‹تحقَّقَ›؛ وقد اشتق هيرودوتس اسم *historia* ليدل على شيء بمعنى ‹تحقيقات› أو حتى ‹اكتشافات›، دون إشارة محددة إلى الماضي أو الحاضر. كان هيرودوتس مهتما بالمكان على الأقل كاهتمامه بالزمان، وكان فضوله تجاه العالم يدين بالكثير للجغرافيين الإغريق وصنف ‹وصف الأرض *periegesis*›، الذي يشمل كتب الإرشاد الجغرافي التي ألفت في القرن السادس ق.م.

وربما يحق لنا أيضا القول بأن هيرودوتس اخترع المؤرخ كشخصية مميزة يمكن أن تستنطق من أسلوبه الخاص. فأسلافه اليونان، وإن لم نجهل أسماءهم، ظلوا شخصيات مغمورة؛ لكننا في هيرودوتس نجد أول مثال حقيقي على مؤرخ يقدم نفسه هكذا، ويعطي أحيانا أمثلة شخصية وأحيانا أخرى يتدخل بأفكاره أو أحكامه على أحداث معينة. وسيستمر هذا التيار مع ثوسيديدس *Thucydides* والمؤرخين اليونان اللاحقين، وحين نصل إلى ديونيسيوس *Dionysius* من هاليكارناسوس في أواخر القرن الأول ق.م.، فسيصبح لزاما عمليا على المؤرخ أن يفصح بادئ ذي بدء عن تفضيلاته ومناهجه وتحيزاته ـ وحتى مكانته بإزاء المؤرخين السابقين.

كما فعل هيكاتيوس من قبله، فإن هيرودوتس لم يقتصر في بحثه على الأحداث بحد ذاتها؛ فقد وجه انتباهه إلى مسائل تختص بالأجناس، مدونا عادات وتقاليد الفرس وسائر الشعوب غير اليونانية. وإن كان هو ‹أبا التاريخ›، فالمقصود هو التاريخ بمعناه الأشمل، الذي عاد في عصرنا هذا إلى الصدارة بقوة مع تصاعد الاهتمام في الماضي الاجتماعي والثقافي. لقد بدأ هيرودوتس كتاب **التواريخ** بتعريف هدفه الذي قد يكون الأوجز والأبعد عن التكبر مطلقا؛ فقد كان يرغب فيَ معرفة لماذا اقتتل الإغريق و‹البرابرة› (وهو لفظ يوناني يصف كل الشعوب غير الناطقة باليونانية، لم يكن بعد قد اكتسب دلالته التحقيرية الحديثة) في العقود التي سبقت ولادته؛ واقتداءً بالملاحم التي استقى منها إلهامه، فقد رغب في أن يحتفي بإنجازاتهم ويضمن بقاءها كذلك.

كان البرابرة المقصودون هم الفرس في عهد دارا الأول وابنه خشايارشا *Xerxes*، والواقع أننا ندين لقصة هيرودوتس بالكثير من معارفنا حول نهضة السلالة الأخمينية، ومحاولاتها الفاشلة لفرض هيمنتها على اليونان. كانت هيلاس *Hellas* (أرض

الإغريق) في عصر هيرودوتس ـ الخاضعة لسيادة أثينا التي يتصاعد مقت إمبراطوريتها لها، وتخشاها خصيمتها اسپارطة ـ قد بنيت على نتيجة الصراع مع الفرس. ولكن هيرودوتس قد أدرك ـ وبنحو مهم ـ أنه كي يتمكن من شرح الصراعات التي جرت في أوائل القرن الخامس، فعليه أن يعود أبعد من ذلك في الزمن، ولذا نجده يبدأ سرده الكامل بصعود بلاد فارس في أواسط القرن السادس.

ورغم أنه كان أصغر سنا من أن يشهد أيا من تلك الحوادث السابقة، فقد كان هيرودوتس واسع الترحال، وتحدث إلى العديد من الشهود أو الذين سمعوا معلومات من الشهود، ودون الحقيقة كما تلقاها. وقد جعله ذلك على مر القرون عرضة للاتهامات بالسذاجة أو حتى الكذب الصريح: فكثيرا ما لقب ‹أبو التاريخ› ‹بأبي الأكاذيب›، ولم تكن تصريحاته محل ثقة. وفيما قد يكون أقدم مثال أوروپي على النزاع في تدوين التاريخ، فإن كتيسياس *Ctesias* ـ وهو محب للفرس ومطلع على السجلات الأخمينية ـ قد هاجم هيرودوتس بنبرة حانقة وغير رزينة تليق ببعض مراجعي الكتب اليوم. وقد كان من بين نقاده اللاحقين بلوتارخ *Plutarch*، مؤرخ السير الشهير في القرن الأول، الذي بلغ به الأمر حد تجميع جرائر هيرودوتس المزعومة في رسالة ‹حول شرور هيرودوتس›. ولكن قارئا حديثا أشد تعاطفا، هو الكاتب التاريخي الإيطالي العظيم أرنالدو موميليانو (87 ـ 1908) Arnaldo Momigliano، لاحظ ذات مرة أن نقاد هيرودوتس قد وضعوه بين مطرقة الاتهام بأنه انتحل من مؤلفات سابقيه، وسندان الاتهام بأنه متخرص صريح. ولذا فقد جعلوه إما سارقا أو كاذبا.

أما خليفة هيرودوتس المباشر، وهو ثوسيديدس *Thucydides* (ت. ح. 401 ق.م.)، فلم يهاجمه بالاسم ولكنه كان يعنيه بالتأكيد حين تحدث عن مروجي التاريخ ‹الجذاب على حساب الحقيقة› (*Pelop. War* 1.1.21). قد يكون ثوسيديدس أشد المؤرخين الماضين تقديرا على نطاق واسع في التراث الأوروپي بأسره، ورغم أنه لم يسلم بدوره من النقاد، فقد كان أباً لصنف مختلف جدا من كتابة التاريخ الأوروپية مقارنة بما ألفه سلفه. ففي حين كان هيرودوتس رحالة دائما وعالمي التطلع، كان ثوسيديدس أثينيّا خالصا، وسياسيا وقائدا عسكريا غير ناجح وجد نفسه ساقطا عن الحظوة في منعطف محوري من حرب الپيلوپونيز. لقد استمر هذا الصراع بين أحلاف قادتها كل من أثينا

واسپارطة لثلاثة عقود وأدى في النهاية لخراب أثينا. ورغم أن تاريخه ينقطع عند عام 411 دون وصول الحرب إلى نهايتها، فإنه سرد قدير للهزيمة الطائشة وغير المتوقعة لمدينة كانت عظيمة، واستطاعت قبل بضعة عقود أن تلحق المهانة ببلاد فارس.

مثل هيرودوتس، اعتمد ثوسيديدس على الكلمة الشفهية أكثر من المكتوبة، ولو بنحو مختلف جدا. فقد بنى هيرودوتس جزءا كبيرا من تاريخه على أساس التراث الشفهي أكثر من المصادر المكتوبة. وبنحو مماثل فإن ثوسيديدس لم يمارس عادة حتى أبسط أشكال البحث عند جميع المؤرخين المحدثين، أي دراسة المصادر الأقدم ونقدها والمقارنة بينها، وهو أمر غالبا ما يتجاهله أولئك الراغبون في تنصيبه كسلف أعلى بعيد الأفق للمنهج الحديث. فهو في الواقع لم يعتمد على المصادر المكتوبة إلا حين لم يجد شاهدا حيا. ولكن هنا تتوقف التشابهات بين الرجلين، ونبدأ بملاحظة ثوسيديدس وهو يتخلى كليا عن العديد من الممارسات التي كان يتميز بها هيرودوتس. فبادئ ذي بدء، كان ثوسيديدس يتردد في البحث العميق عن أسباب الأحداث. وثانيا، كان يلمح إلى أن أولئك (المساهمين) في الأحداث على غراره هم وحدهم القادرون على رواية تلك الأحداث بدقة: وهكذا فإن المبدأ الذي طبق طويلا، والقائل إن المؤرخ يجب أن يكون (رجل أفعال) (مما يستثني النساء وأبناء الطبقات الواطئة) قد تولد أساسا عن هذا العمل. وهذا فإن المعرفة ذات الامتياز قد أزاحت شكلا أوطأ من التناقل السماعي: فرغم أن ثوسيديدس لا يقول إلا القليل عن مناهجه ومصادره بالضبط، فلن تكون هناك أي مقابلات حائرة بحثا عن شهود عيان محتملين، ولن يكون الاعتماد إلا قليلا على الأدلة الشفاهية خارج أشباه المعاصرين.

هناك أيضا أمثلة نادرة عند ثوسيديدس على الجانب المعجب وغير المألوف، وهي السمة التي تبعث الحياة في أسلوب هيرودوتس وما تزال أمرا شائعا في التاريخ الذي يركز على الأجناس البشرية طوال العصور، مع اكتشاف كل ثقافة لثقافة أخرى. وحيث كان هيرودوتس يتدخل في سرده كي يضمن أن قراءه قد فهموا مشكلة الروايات المتضاربة والمصادر الناقصة، فقد كان ثوسيديدس يميل لتقديم صورة من الثقة المتكاملة التي تغطي على ضبابية الأدلة. فهناك يقين ظاهر في قوله بأن العلة في صراع الپيلوپونيز لم تكمن في أسباب أو محفزات علنية (أي نزاعات حول مستعمرات أثينا

واسپارطة) بل في ظاهرة أوسع هي صعود أثينا للسلطة وخوف اسپارطة المتزايد من تلك السلطة. وأخيرا، فلعل ثوسيديدس أيضا هو أول مؤرخ غربي يقدم بوضوح تام هوية جمهوره المعني بعمله هذا. فإن كان هيرودوتس قد سعى لأن يفسر لمعاصريه أحداث العقود الماضية، فإن ثوسيديدس قد صرح علنا بأنه كتب عمله ليس «لمجد اللحظة، بل كإرث لكل زمان» (*Pelop. War* 1.1.23)، مؤكدا أيضا على أن الظرف البشري قادر على صنع المستقبل تماما كالحاضر، وبهذا فإن تاريخه سيصبح منفعة وليس مجرد تسلية للعصور القادمة.

ولكن سمعة ثوسيديدس المتصفة بالدقة الشديدة والمصداقية لم تظل بلا تحدٍّ. فحتى في وقت مبكر كالقرن الأول ق.م.، فإن ديونيسيوس من هاليكارناسوس، وهو مؤرخ يوناني في روما، ينتمي للرأي العام القائل بأن ثوسيديدس «كان شديد الحرص على الحقيقة، التي نرغب أن يكون التاريخ كاهنتها العليا»، كان مع ذلك ناقدا لهذا الأثيني ومادحا بعض الشيء لهيرودوتس، الذي بدا موضوعه حول الحروب الفارسية أشد نبلا وأقل مقتا من رواية ثوسيديدس عن المكر والعناد والحماقة. ثم إن العديد من الناس قد فضلوا روايات هيرودوتس الواسعة الشاملة على السرد السياسي الضيق عند ثوسيديدس. أما امتداحه لدرجة وصفه ‹بالمؤرخ العلمي› الذي ركز على ‹الأسباب› فقد عُرِّض للنقد أيضا، حيث رأى بعض الباحثين أن التراجيديا اليونانية تركت أثرا قويا في كتاباته. وفي هذا الصدد، فما من جانب من تاريخ ثوسيديدس قد سبب العناء لمدافعيه بقدر اعتياده أن يضيف خطبا يفترض أنها أصيلة في نقط حرجة من سرده، وهي مَعلَم للكتابة التاريخية سيستمر على طول الألفيتين اللاحقتين. والواقع أن ثوسيديدس يعترف صراحة بأنه لم يستمع شخصيا لكل الخطب التي رواها، وبأن ذكرياته عن تلك الخطابات التي سمعها غير دقيقة ـ فهو لم يسجلها كلمة بكلمة؛ بل كان المراد منها تقديم جوهر ما لعله قد قيل، وليس نقل الكلام بالحرف. وقد أدت ممارسة إضافة الخطب، التي يحتمل أن تكون متأثرة بالتراجيديا اليونانية المعاصرة، دورا مهما ضمن العمل التاريخي، حيث كانت الكلمات تعد مهمة ومؤثرة بقدر الأفعال ـ من حيث إن الخطبة الشهيرة المؤثرة كانت **بحد ذاتها** فعلا. وقد وفرت الخطب المخترعة وصلة سردية مهمة بين الأحداث، وهي أداة يمكن للمؤرخ الموهوب أن يستغلها ليغني سرده

ويتجاوز حدود سنوات التقويم. 'لنا أن نقول بأن الخطب تلخص الأحداث وتجعل التاريخ متماسكا'، كما علق پوليبيوس المؤرخ الذي عاش في القرن الثاني لاحقا؛ ثم إن المؤرخ القديم الوحيد الذي يعرف أنه تجنب الخطب تماما هو پومپيوس تروغوس *Pompeius Trogus* (ز. القرن الأول ق.م.)، ولذا فإن هذا أساس ضعيف لانتقاد ثوسيديدس.

تدوين التاريخ اليوناني من القرن الرابع حتى الثاني ق.م.

مع تهاوي مدى الحرية والسلطة لدى دويلات المدن المستقلة، وكذلك فشل الديمقراطية الأثينية، فقد شهد القرن الرابع والثالث ظهور أعداد متزايدة من الطغاة، المرتزقة، قادة الحرب والملوك المبرزين وغريبي الأطوار، تكللت بمجيء الإسكندر الأكبر. وقد أعاد كتّاب التاريخ توجيه انتباههم نحو الأفراد ومنجزاتهم، وأضافوا المزيد من تعليقات المؤلفين على شخصياتهم. ويمكن أن نتلمس بدايات تراث طويل آخر، وهو دور المؤرخ ليس كمجرد مراسل بل 'وحاكم' على أخطاء الماضي، فيما تبقى من الأعمال الخطابية جدا لكل من إفورس *Ephorus* (ح. 400 ـ ح. 330 ق.م.) وثيوپومپس *Theopompus* (ح. 380 ـ ح. 315)، اللذين كانا خطيبين متمرسين. أما المؤلف الأكبر من القرن الرابع الذي وصلتنا أعماله سليمة في المجمل، وهو زينوفون *Xenophon* (ح. 431 ـ ح. 352)، فيصف حدثا محددا، وهو الحملة الفاشلة عام 401 التي شنها عشرة آلاف مرتزق يوناني (وهو من بينهم) في خدمة أمير فارسي صغير سعى إلى الإطاحة بأخيه الأكبر الملك أرتحشستا الثاني *Artaxerxes II*، بالإضافة إلى قيادته شخصيا للانسحاب نحو اليونان. وبفضل دراسته ذات يوم على الفيلسوف الأثيني سقراط، فقد ألف زينوفون أيضا كتاب **الكيروپيديا** *Cyropaedia*، وهو سيرة ذاتية مثالية للملك الفارسي قورش الأكبر، أضفت على حاكم تاريخي صفات مستمدة من الفلسفة بدلا من الأدلة التاريخية. ويمكن أن يقال إن الصلة الطويلة بين تقديم المثال التربوي وتدوين السير البليغة قد بدأت من عنده.

أما من بعد ثوسيديدس، فلعله ما من مؤرخ يوناني حظي بمديح وافر بقدر پوليبيوس *Polybius* (ح. 200 ـ 118 ق.م)، رغم أن هذا الإعجاب به لم يتجل حتى عصر النهضة

الذي أعجب بنبرته الرزينة، وحرصه الدقيق على التحقق من أسباب الأحداث، وتأكيده الدروس العملية من الماضي. ورغم تأثيره في المؤرخ الروماني ليڤي *Livy*، المعروف بأسلوبه اللاتيني الراقي، فإن شهرة پوليبيوس شخصيا لم تتكل على الجودة الأدبية لكتاباته، التي تعد باردة نسبيا بإزاء أسلافه في القرن الخامس. فقد ألف على حد وصفه ـ مخترعا بذلك مصطلحا ستستعيره الأجيال اللاحقة ـ 'تاريخا پراغماتيا'. وهو بالذات من أسس التقليد (الذي اعتمده ثوسيديدس ضمنا لا صراحة) القائل بأن المؤرخ المثالي يجب أن يكون رجل تجارب، وهو أمر تكرر عبر الأزمان منذ عصره وحتى القرن التاسع عشر. ثم إنه، أكثر من أي مؤرخ يوناني وصلتنا أعماله، كان يوقف سرده في بعض الموارد كي يقدم للقارئ عبارات صريحة عن المنهج، ويناقش حاجة المؤرخين إلى الموازنة بين عدة روايات، وينتقد السابقين له بأسمائهم. وقد أولى اهتماما أكثر من ثوسيديدس بما قد نسميه اليوم بالمصادر 'الأولية' للتاريخ، وخاصة الأرشيفات والنقوش.

ومثل يوسيفوس اليهودي الذي جاء بعد قرنين، فإن پوليبيوس كان في البدء أسير حرب ومن ثم ضيفا على الرومان المنتصرين؛ وتكيّف أيضا بكل حماسة مع العالم الروماني. وقد جعله حظه الحسن يتصل بالأميليين *Aemilii*، مهندسي انتصار الرومان على عدوتهم القديمة قرطاجة. أعجب پوليبيوس بما رآه، وجعله ذلك يفكر بحرص حول كيف تصعد القوى الدولية وتسقط. وقد فصل في الكتاب السادس من تاريخه نظرية عن الدورات السياسية المتوقعة (يشار إليها عموما باسم *anakuklosis politeion*) بين ثلاثة أشكال نقية من الحكم، وثلاثة فاسدة تقابلها، كان الفيلسوف الأثيني أرسطو قد حددها من قبل، وخمّن پوليبيوس مدى استقرار الأنظمة 'المختلطة' التي تتكون من الأشكال الثلاثة النقية معا. وقد أصبحت هذه أداة قوية للتحليل التاريخي في القرون اللاحقة: فوفقا لپوليبيوس، كانت روما تدين بعظمتها لقدرتها على الموازنة بين العناصر الملكية، الأرستقراطية، والديمقراطية، حتى رغم إعرابه عن شكه في أن هذا التوازن يمكن أن يدوم للأبد، وقلقه من الإصلاحات الديمقراطية التي أعقبت التدمير الساحق لقرطاجة، العدوة الخارجية الكبرى، عام 146 ق.م. وإلى جانب تاسيتوس الذي جاء بعد قرنين، يصعب أن نفكر في مؤرخ قديم آخر كان له

تأثير بنفس العمق في مسار الفكر السياسي اللاحق ـ حيث ستتبنى أفكار بوليبيوس من قبل مكيافيلي، السياسي والمؤرخ الفلورنسي في القرن السادس عشر؛ ومن قبل الجمهوريين الإنجليز في القرن السابع عشر؛ ومن قبل مونتسكيو ومؤلفي الدستور الأميركي في القرن الثامن عشر.

تحدث كتاب بوليبيوس **التاريخ** عن عملية تراكمية في أرجاء العالم المعروف، تقود إلى مصير محدد، هو هيمنة الجمهورية الرومانية. وكان سرده ذا طابع مقارن جزئيا، والأهم من ذلك أنه كان مترابطا أيضا. وقد سمح له المصطلح الذي وضعه للصلات بين دول مختلفة، **التشابك** *symploke*، بحلّ الخيوط المختلفة للتواريخ المنفردة ـ الذي لم يكن بالمهمة السهلة. فقد اعتاد المؤرخون الإغريق تقليديا أن يؤرخوا الأحداث بسنوات جلوس المسؤولين المدنيين؛ ولم يكن الاهتمام بالتسجيل الدقيق للزمن أمرا ذا بال للأكثرية الساحقة ـ حتى إن ثوسيديدس اكتفى في العادة بوصف حدث ما بأنه وقع ضمن فصل معين. وقد ظلت مشكلة التقاويم المتعددة والسجلات الزمنية المختلفة منذ ذلك اليوم وحتى الآن تعد من بين الأمور التي ينبغي للمؤرخ العالمي أن يحلها قبل أن يضع سوادا على بياض. وقد استعار بوليبيوس من الكتاب السابقين فكرة تنظيم مادته حول الأولمبيادات (وهي سلسلة من دورات مدتها أربعة أعوام، تبدأ عام 776 ق.م.، بين الألعاب الأولمبية)، في كل كتاب يبدأ بإيطاليا ثم يتفرع إلى مناطق أخرى مثل صقلية، اليونان، أفريقيا، وحتى آسيا ومصر.

ليس تشابك كتاب **التاريخ** وحده هو ما منح بوليبيوس مكانته؛ فتشديده على حركة التاريخ نحو الهدف أو الغاية المفردة للتفوق الروماني ـ التي تدفعها نحوه الربة تيخيه *Tyche*، التي تتبنى دورا لا يشبه الحظ العشوائي بقدر ما يشبه المصير المحتوم ـ وفر نموذجا اقتدى به جزء وافر من التاريخ الروماني اللاحق. وسيظهر ذلك لاحقا بنحو مهيمن في تشكيلة الرؤى اليونانية والرومانية واليهودية للماضي التي اتسم بها ألفا عام من الكتابة التاريخية المسيحية، وبصيغتها الأشد علمانية، في الخط الليبرالي التقدمي ضمن تدوين التاريخ الحديث الذي منحه الراحل هربرت بترسفيلد ***Herbert***

(1900 _ 79) Buttersfield اللقب الشهير «تفسير الهويغ للتاريخ».[1] وهذه مجموعة تأثيرات تبدو مذهلة حين تنسب إلى شخصية سياسية يونانية صغيرة نسبيا، قضت أكثر حياتها في المنفى.

الكتابة التاريخية الرومانية من الجمهورية إلى الإمبراطورية

بحلول عصر پوليبيوس، كان مركز السلطة في حوض المتوسط قد انزاح غربا نحو روما، التي بات نفوذها يتوسع باطراد خارج إيطاليا إلى سائر أرجاء أورپا، شمال أفريقيا، والشرق الأدنى. ومع مجيء أوائل القرن الأول، لم يكن من الصعب أن نتوقع إلى أين كان ذلك سيفضي، أو نحبك روايات تاريخية في ذلك الاتجاه، كما فعل پوليبيوس من قبل.

لم يكن معدل النجاة للمؤلفات المعروفة للمؤرخين الرومان أفضل من مؤلفات اليونان، بل وأسوأ أحيانا. حيث لم تصلنا سوى شذرات ضئيلة مما كتبه أولوس كريموتيوس كوردوس *Aulus Cremutius Cordus*، الذي اشتهر بإجباره على الانتحار عام 25 م خلال حكم الإمبراطور تيبيريوس، ربما لأنه تعامل بشيء من الإنصاف الزائد مع قتلة يوليوس قيصر. أما آخرون مثل سالوست *Sallust*، فلا نملك منهم إلا أعمالا صغيرة نسبيا وبقايا فقط من أعمالهم الكبرى؛ أو كما هو الحال مع ليڤي وتاسيتوس، فإن ما بأيدينا من نصوصهم يمثل أكثر ما دوّن فعلا ولكن تنقصه أجزاء مهمة.

بدأ تدوين التاريخ ببطء في روما: ففي حين ظهر في اليونان في أعقاب الملاحم، لم تكن الملحمة اللاتينية الأعظم، **الإنيادة** *Aeneid*، إلا لحوقا متأخرا بتلك الظاهرة، حيث ألفها ڤرجيل *Vergil* في القرن الأول ق.م.، أي في الوقت ذاته الذي كان فيه ليڤي *Livy*، مؤرخ الجمهورية الأعظم، يؤلف تاريخه النثري. وقد كانت هناك محاولات شعرية مبكرة لسرد تاريخ المدينة المبكر، لم يصلنا منها سوى القليل. وفيما عداها،

(1) كان حزب الهويغ *Whig* هو الجناح الليبرالي واليساري في السياسة البريطانية منذ الثورة المجيدة (1688) وحتى أواسط القرن التاسع عشر، الذي وقف ضد حزب التوري *Tory* الذي مثل مصالح النبلاء وساند الملكية المطلقة. وكان من سمات تفسيرهم للتاريخ أنه عبارة عن تقدم تصاعدي مطرد: من الملكية المطلقة إلى الدستورية (المشروطة) ثم الجمهورية. (المترجم)

لم تبق لدينا إلا عائلتان أو صنفان من كتابة التاريخ التي تعود لروما المبكرة، تأثرت كلتاهما باليونان.

تمثلت الأولى، التي ربما اشتقت من تدوين التاريخ الإغريقي، بسجلات حافظ عليها موظف مدني وديني، هو **الحبر الأعظم** *pontifex maximus*، ونقلت سنويا إلى نقوش برونزية نصبت في الميدان *Forum*. لم تكن هذه النقوش، المعروفة باسم **الحوليات الحبرية** *Annales maximi*، أكثر من تسجيلات لتتابع الموظفين الكبار الذين يعينون سنويا ـ كالقناصل، المتصرفين، وهلم جرا. وإلى جانب هذه السجلات الحبرية، فإن خطب التأبين، النقوش العامة، وسجلات العوائل، وكذلك روايات (*commentarii*) لمسؤولين كبار عن فترات شغلهم للمناصب يمكن أن توفر أيضا مواد للمؤرخين. أما العائلة الثانية الكبرى فتتضمن كتابا رومان ربما كانوا قد ألفوا أعمالا نثرية مسترسلة، وفي البداية على الأقل، اتخذوا اليونانية لغة للكتابة. ومن بينهم كوينتوس فابيوس پيكتور *Qunitus Fabius Pictor* (ز. 225 ق.م.)، الذي لم يصلنا أيضا من تاريخه إلا القليل. يُعتقد أن پيكتور قد استخدم تشكيلة من المصادر تتراوح بين الكتاب الإغريق السابقين والحوليات الحبرية، التراث الشفهي، قوائم المسؤولين، والسجلات التي احتفظت بها أسرته وغيرها من الأسر.

كان أقدم تاريخ نثري معروف كتب باللاتينية، لم يصلنا للأسف، هو **الأصول** *Origines*، من تأليف كاتو الأكبر أو الرقيب *Cato the Censor* (234 ـ 149 ق.م.)، السياسي المعادي بشدة للأجانب والمحامي عن الفضائل الرومانية، الذي كان استخدامه للّاتينية بحد ذاته احتجاجا على التأثيرات اليونانية التي كان يعتبرها مفسدة وخطرة. ولكنه بدوره اضطر لاتباع النموذج اليوناني للنثر المسترسل، واستعار عناصر أخرى من تدوين التاريخ اليوناني كتضمن ما قد يسمى ‹بالوقائع اللافتة›. وقد ظل التاريخ النثري غير الملتزم بالسنوات لوقت ما حبيس أقلام اليونانيين المتأثرين بروما. وقد وصلت إلينا أعمال ديودورس الصقلي *Diodorus Siculus* (ح. 90 ـ 30 ق.م.) وديونيسيوس من هاليكارناسوس (ح. 60 ـ ما بعد 7 ق.م.) من القرن الأول بشكل أكمل من سائر الأعمال. كان ديودورس يونانيا من صقلية، ومثل هيرودوتس الذي سبقه بأربعة قرون، خاض رحلات واسعة قبل أن يؤلف كتابه *Bibliotheca historica*،

وهو تاريخ عالمي على غرار پوليبيوس، لم يصلنا منه إلا ثلثه. وعنوان الكتاب «المكتبة التاريخية» كان إشارة إلى عدد من المصادر السابقة التي استقى ديودورس منها مادته، وكثيرا ما كان ذلك حجة للاستخفاف به ككاتب مزيف يفتقر للأصالة، رغم أنه كان سيعدّ نفسه واسطة العقد لسلسلة طويلة من الأسلاف. «فالتراث»، وهو جانب جوهري من المشروع التاريخي، بدأ يفرض ثقلا أكبر على اختيار المؤرخين للموضوعات وترتيبهم للمواد. وعلى العكس من ذلك، اختار ديونيسيوس من هاليكارناسوس أن يركز حصرا على روما، وكان الهدف الرئيس من كتابه **العاديّات الرومانية** *Roman Antiquities* هو الدفاع عن النفوذ الروماني في العالم اليوناني. ونحن فيه نشهد انتصار الخط الخطابي والتحذيري من كتابة التاريخ الذي رأيناه لأول مرة في القرن الرابع. كان ديونيسيوس هو من صاغ التعريف الشائع للتاريخ بأنه «الفلسفة التي تعلّم بالأمثلة»، وقد تابع تراث التعبير بصراحة عن مناهجه وتفضيلاته. ولذا فقد افتتح كتابه بالملاحظات الآتية:

رغم أنه من خلال إرادتي أن أنغمس في العبارات الإيضاحية التي عادة ما تورد في مقدمات التواريخ، فإني ملزم بأن أصدّر هذا الكتاب ببعض الملاحظات التي تخص شخصي. وبفعلي لذلك فإني لا أقصد أن أسهب في مدح نفسي، لأني أعرف بأن ذلك سيبدو قلة ذوق في نظر القارئ، ولا أملك غرضا في الحط من سائر المؤرخين... لكني سأكتفي بإبداء الأسباب التي دفعتني إلى تجشم هذا العمل وتقديم عريضة بالمصادر التي استمددت منها المعرفة بالأمور التي سأرويها. (Roman Antiquities 1.1, trans. E. Cary)

ينبغي أن يتضح الآن أن مصطلح *historia* بمعناه اللاتيني أو اليونا ـ لاتيني قد انزاح بعض الشيء من معناه عند هيرودوتس أو ثوسيديدس. ففي حين كان هيرودوتس يقصد بالكلمة أن تعني «البحث»، ولم يربطها بالماضي تحديدا، وكان ثوسيديدس قد عرّفها بشكل أضيق لتعني سرد الأحداث القريبة أو المعاصرة، فقد أصبح التاريخ بحلول أواخر القرن الثاني ق.م. يرتبط بقوة مع **سرد عن الماضي**، قريبا كان أو بعيدا، وبنحو متزايد مع التركيز على الجانب السياسي والعسكري، رغم ميل العديد من المؤرخين لاستهلال أعمالهم بفصول عن الجغرافيا. وبنحو مماثل، فقد أصبح التاريخ آنئذ وبلا شك فرعا من الأدب وخاصة من الخطابة. فقد أصبح الإقناع مقدما على

البحث، وبات امتداح المنتصرين والناجحين، وإدانة الفاسدين والأشرار والضعفاء، حافزا رئيسا لأي مؤرخ. فإن كانت «السمعة» سمة ملازمة للكتابة التاريخية والملحمية اليونانية، فإن نظيرتها اللاتينية *fama* قد ارتبطت بالتاريخ بنحو وثيق، وذلك ليس فقط لأن المؤرخين باتوا يرون المدح والذم جزءا من واجبهم، بل لأن واقع فعلهم لذلك كان يعتقد بأنه سيحثّ الفاعلين التاريخيين الحاضرين على فعل الخير والصواب.

كان الرومان أقل اهتماما حتى من اليونان باكتساب المعرفة عن الماضي لأجل ذاته، ولذا لم ينتجوا إلا النزر اليسير مما قد يسميه عصر لاحق بالتضلع «الآثاري»، لأنه ليس مما يمكن استمداد قيمة وعظية تذكر منه. ولكننا نجد استثناء نادرا في كتاب العاديّات *Antiquitates* الذي وصلنا متناثرا، للمؤلف المكثر ماركوس ترينتيوس ڤارو *Marcus Terentius Varro* (116 ـ 27 ق.م.). وفي تضارب أوضح مع اليونان، فإن المؤلفين الرومان لم يقضوا وقتا طويلا في التفكير حول **كيف** يكتبون عن الماضي أو يعرّفون أصناف التاريخ. ولذا فليس من قبيل الصدفة أن أول تنظير واضح بحق عن التاريخ بقلم روماني كان من نتاج خطيب وسياسي قدير، هو ماركوس توليوس سيسرو *Marcus Tullius Cicero* (106 ـ 43 ق.م.)، الذي يمكن أن نعثر على مناقشته للتاريخ بشكل رئيس في محاورة بعنوان *De Oratore* («حول الخطيب»). فقد وصف سيسرو التاريخ بأنه testis temporum, lux veritatis, nuncia vetustatis ـ الشاهد على العصور، نور الحقيقة، ونذير العصور الغابرة. وقد فصّل مبادئ معينة أصبحت من ثم مسلمات في عصور لاحقة، كالتزام المؤرخ بألا يقول إلا الحقيقة دون تحيز (*De Orat.* 2.62)، وأكد صلة ذلك بالخطابة عبر الدعوة لأسلوب مزخرف. ربما لم يكن تعريف سيسرو عميقا، لكنه انتفع من الإيجاز وكذلك من ثقل سمعته الضخمة، خاصة بعد خمسة عشر قرنا خلال عصر النهضة الأوربي، حين وصل نجم شهرته بعد وفاته إلى أوج مجده. وسيستمر تأكيد دور دور الخطابة لقرنين بعد مقتل سيسرو، كما نرى في أقدم عمل معروف كرس بأسره للإنشاء التاريخي الصحيح (وكذلك للسخرية اللاذعة لأولئك المعاصرين الذين فشلوا في الوصول لمرتبة ثوسيديدس)، وهو **كيف تكتب التاريخ** للوقيانوس السميساطي *Lucian of Samosata* (ح. 129 ـ ما بعد 180 م). ولعل لوقيانوس أيضا

هو أول من عبر عن الفكرة التي تبنتها القرون اللاحقة، القائلة بأن «ما يجب على المؤرخين أن يرووه هو الواقع، وسيبين نفسه إن كان قد حصل حقا».

ولكن الإبداع الروماني الأبرز في تدوين التاريخ كان تشكيل التاريخ بهيئة صورة تراكمية لأحداث العالم. لم يكن ذلك بالطبع من اختراعهم حصرا - فپوليبيوس يستحق الكثير من المدح أو اللوم على جعل التاريخ الروماني يمضي نحو هدف. ولكن كان لدى الرومان حس أقوى بالمصير الإلهي لمدينتهم وإمبراطوريتها المتوسعة، وقد وفر لهم ذلك أفقا أوسع وكذلك فرصة مختلفة لكتابة التاريخ، بنفس النحو الذي وفره الفضول تجاه العالم بأسره بالنسبة للإغريق. ولكن الرومان قد أدخلوا أيضا عنصرا غائيا وتقدميا كان غائبا لدى المؤرخين الإغريق قبل پوليبيوس. ففي حين كانت دورات الصعود والسقوط واليد العشوائية لتيخيه (الحظ) تظهر عند العديد من المؤرخين اليونان، فإن التاريخ يصبح هادفا أكثر ومسيرا بالقدر تقريبا عند الرومان. وحين ارتبط ذلك بالعناصر الميعادية في الفكر اليهودي (حيث وفر يوسيفوس جسرا مهما بين هذين العالمين)، فقد وفّر في النهاية أساسا متينا لتدوين التاريخ المسيحي.

أنتج القرن الأول ق.م. مؤرخين لاتينيين عظيمين (أو ثلاثة لو ضممنا إليهما القائد والمستبد يوليوس قيصر) ألفا أعمالا مختلفة جدا. وكان أشدهما تأثيرا بلا شك هو تيتوس ليڤيوس *Titus Livius* أو ليڤي (59 ق.م. ـ 17 م)، الذي يقف على نهاية خط مؤلفي الحوليات الجمهوريين الذي بدأ مع فابيوس پيكتور. لقد فقد الكثير من عمل ليڤي الطويل والطموح، لكننا نملك منه ما يكفي كي نعرف شكله وسعته. (فقد وصلنا 35 كتابا من أصل 142، وهناك ملخصات متوفرة لمعظم الكتب المفقودة). وكان كتاب ليڤي الأول، الذي نظّم في مجموعة من ‹العشريات› و‹الخماسيات› (وحدات من عشرة أو خمسة كتب)، وقسم كل منها إلى حوليات، قد طرح كنص مكتف بذاته نشره كي يختبر مدى تقبل السوق لتاريخ بقلم مواطن عادي من الأقاليم لم يحتل أي منصب كبير أو قيادة عسكرية. وهو يبدأ بوصول الطرواديين إلى إيطاليا قبل الانتقال إلى تأسيس رومولوس لروما (الذي يحدد عادة بعام 753 ق.م.) وفترة الملوك السبعة. وقد مثل تاريخ ليڤي، الذي حمل عنوان *Ab Urbe Condita* («منذ تأسيس المدينة»)، بالنسبة لعصره الرواية الرسمية للجمهورية الرومانية. وإضافة إلى أنه كتب بلاتينية

اعتبرتها العصور اللاحقة إما نقية للغاية أو مفرطة التزويق، فقد جمع تاريخه بين توجه الحوليات، الذي وثق الموظفين في كل عام، والسرد النثري المستمر. وبنحو ما، فقد حوّل صنف التاريخ المحلي بما يقارب الصدفة إلى نوع من التاريخ العالمي، بما أن روما ـ في أوج نفوذها الدولي وعلى مقربة من التحول لإمبراطورية من حيث الحكم والنفوذ كذلك ـ باتت تتحكم بمعظم أرجاء العالم المتوسطي.

أما المؤرخ العظيم الآخر من القرن الأول، وربما الأكثر إلفاتا، فهو السياسي والعسكري الذي نعرفه باسم سالوست *Sallust* (غايوس سالوستيوس كريسپوس، 86 ـ 34 ق.م.). فبعد فترة غير مميزة قضاها كوالٍ لمقاطعة أفريقية الجديدة *Africa Nova* [وهي تمتد من ساحل شرق الجزائر وتونس وصولاً لخليج سرت في ليبيا (المترجم)]، عاد سالوست إلى روما وألف عملين تاريخيين حول أحداث معينة، هي مؤامرة كاتيلين *Catiline* النبيل عام 63، وحرب سابقة ضد الملك الأفريقي يوغرطة *Jugurtha*. (هناك عمل أطول، هو **التواريخ**، لم يصلنا منه إلا شذور). وبوصفه ناقدا متحفظا للسياسة والقيم المعاصرة له في أواخر عهد الجمهورية الرومانية، فقد حاز سالوست تقديرا واسعا في القرون اللاحقة، ووفرت أعماله صيغة أولية لكتابة تاريخ حدث معين. كان سالوست (كما اعترف بنفسه) تلميذا لثوسيديدس. فقد فصّل الأطروحة القائمة التي نسبت جذور الانحطاط الجمهوري مباشرة إلى تدمير قرطاجة، الذي جعل الرومان سادة لعالمهم، وعرضة في الوقت ذاته للمفسدين التوأمين: الجشع والطموح، لتصبح إمبراطوريتهم الناشئة من ثم مسرحا للصراعات الطاحنة. كما أخذ سالوست شخصية تيخيه نصف العقلانية من پوليبيوس وحوّلها إلى فورتونا *Fortuna* الأنثوية العابثة، ليسلّم من ثم هذه الآلية التفسيرية الشاملة لأواخر عصر الأنتيك وما بعده.

كما كان لروما الإمبراطورية، التي بدأت بحكم أغسطس قيصر بعد معركة أكتيوم عام 31 ق.م.، مؤرخوها أيضا، وكان وما يزال أحقهم بالتقدير پوبليوس (أو غايوس) كورنيليوس تاسيتوس *Publius (or Gaius) Cornelius Tacitus* (ح. 56ـ ح. 117 م). ففي حين كتب ليڤي بأسلوب بليغ متدفق، بدا تاسيتوس أقرب في روحه إلى سالوست الذي كان معجبا به، أو إلى پوليبيوس الأبعد عهدا. وفي حين دوّن عمل ليڤي بغرض الإلقاء الشفهي، كان عمل تاسيتوس موجها للقارئ الفرد. حيث حل محل المحسنات

البديعية المطولة في كتابته سرد وجيز جاف، كان تاسيتوس يقحم فيه حكما سياسية *sententiae* وجدها القراء في عصر لاحق لا تقاوم. ومع أن اسمه في اللاتينية يعني ‹الصامت›، فقد كان تاسيتوس في حياته خطيبا بارعا جدا بل ومؤلفا في وقت لاحق لرسالة في الخطابة. ولكن شهرته بنيت على أساس مزيج بين أحكامه الشخصية النبيهة ظاهرا وقدرته على حصر الكثير في كلمات قليلة: حتى إن كلمة ‹تاسيتيّ *Tacitean*› أصبحت نعتا يطلق على أسلوب كتابة بعينه.

كان الحظ رفيقا بتاسيتوس، حيث سمح ببقاء معظم أجزاء كتابيه **الحوليات والتواريخ** على مر القرون الوسطى (في مخطوطة واحدة لكل منهما) حيث ظلا خلال ذلك الوقت غير مستخدمين عمليا، نظرا للعداء الشديد ضد كاتب اعتبر وثنيا وكذلك معاديا للمسيحية. ومثل سالوست وزينوفون وثوسيديدس من قبله، كان تاسيتوس رجل تجارب سياسية وعسكرية، وشيخاً *senator* ارتقى لمناصب عالية جدا. وعلى العكس من سياسي ومؤرخ أبرز منه بكثير، وهو يوليوس قيصر، فقد استطاع تاسيتوس أن يوحي بشيء من الحياد المتحفظ، معلنا في عبارة شهيرة أنه قد ألف كتبه *sine ira et studio* (دون غضب أو ضغينة مضمرة، كما قد نقول اليوم). ولكن الشك لا يتطرق أبدا إلى آراء تاسيتوس السياسية. فعلى سبيل المثال، امتدح كتابه *Germania* (عن الشعوب الجرمانية)، وهو أحد أشد النصوص القديمة نفوذا، الفضيلة الخشنة الفظة ولكن غير المدنسة لدى الفضائل الجرمانية، وأصبح لاحقا مصدرا أدبيا ومبررا لانتفاضة البروتستانت الألمان ضد الروم الكاثوليك في القرن السادس عشر، وفي النهاية محركا للقومية الألمانية في القرن التاسع عشر والعشرين.

لبثت الإمبراطورية الرومانية الغربية لثلاثة قرون كاملة بعد وفاة تاسيتوس قبل أن يجهز عليها مزيج من ‹البربرية والدين› (بتعبير إدوارد غيبون، مؤرخ الانحطاط الروماني الذي عاش في القرن الثامن عشر). وبالنسبة إلى تطور الكتابة التاريخية الغربية، فإن أهم التطورات في فترة أواخر الأنتيك كانت ظهور المسيحية، ومنذ حكم قسطنطين في مطلع القرن الرابع، فرضها أيضا كديانة رسمية للإمبراطورية؛ وتصاعد الاضطراب، كما تنبأ تاسيتوس، في إمبراطورية لم يكتب للأباطرة فيها الحكم إلا بقدر ما ظل الجيش يدعمهم؛ وانقسام الإمبراطورية التي أصبحت صعبة المراس في

أواخر القرن الثالث إلى شطر غربي (وعاصمته روما) وآخر شرقي (وعاصمته بيزنطة، التي سميت لاحقا بالقسطنطينية)، ظهرت منه لاحقا الإمبراطورية البيزنطية الناطقة باليونانية. ولكن بقدر ما كان أي من هذه التطورات الداخلية مهما، فقد كان هناك خطر خارجي مكافئ: هو الوجود المهدد لعدد من الشعوب البربرية في الشرق والغرب معا. كانت هذه قبائل مهاجرة من الكلت والقوط والهون الذين تمكنت رحلاتهم في أرجاء أوربا وآسيا الوسطى، التي عرفت باسم **هجرة الشعوب** ***Völkerwanderung***، من الإحاطة بالإمبراطورية واختراقها. فقد نهب القوط الغربيون *Visigoths* روما عام 410 (بعد ثمانية قرون بالضبط من آخر استباحة لها، على يد شعب الغال *Gauls*)، وأطيح بآخر إمبراطور روماني غربي على يد قائد قوطي آخر عام 476. وسيتمكن القوط الغربيون والقوط الشرقيون *Ostrogoths* وشعوب أخرى كالفرنجة والسكسون والجوت واللومبارد فيما بعد من تأسيس ممالك مستقلة فيما تبقى من الأقاليم الرومانية السابقة في أوربا.

من الصعب أن نشك في الرأي القائل بأن معظم المؤرخين الوثنيين من أواخر الأنتيك، مثل كاسيوس ديو *Cassius Dio* (ح. 155 ـ ما بعد 229 م)، أو لوسيوس فلوروس *Lucius Florus* (ز. أوائل القرن الثاني للميلاد)، ملخّص تاريخ ليفي (بما في ذلك العديد من فصوله المفقودة)، كانوا أقل أهمية من أسلافهم اللامعين. ولكن من الصحيح أيضا أن عدة قرون من كتّاب التاريخ قد نظروا إليهم كأسماك صغيرة تكافح ضد مد مسيحي صاعد. ففي العديد من الحالات لا نعرف إلا النزر اليسير عن أولئك المؤلفين ولا نملك إلا أشتاتا من أعمالهم الأصيلة. ولكن الاستثناء الأبرز لهذه القاعدة هو جندي من أنطاكية يدعى أميانوس مركلينوس *Ammianus Marcellinus* (ح. 325 ـ ما بعد 391 م). لم تصلنا الكتب الثلاثة عشر الأولى من تاريخه الواقع في 31 جزءا، *Res Gestae Libri XXXI* ((كتب الأعمال الإحدى والثلاثين))، رغم أننا نعرف من تعليقاته أنه قد ابتدأ من حيث انتهى تاريخ تاسيتوس في العقد الأخير من القرن الأول.

يعتبر أميانوس بشكل واسع آخر مؤرخي روما القدماء العظام، وآخر مؤرخ من أوربا خلال تلك القرون ألف تاريخه بأسلوب بلاغي فخم، يشتمل على الخطب ويفتقر

للتواريخ سوى ما يضطره إليه إطار الحوليات الذي اتبعه. فرغم أنه كان ناطقا أصيلا باليونانية، نراه ألف تاريخه باللاتينية، بوصفه الحلقة الأخيرة في سلسلة من مواطني الإمبراطورية ـ مثل پوليبيوس ويوسيفوس ـ الذين أغرموا بروما. كان أميانوس أول من منحنا، أو روج على الأقل، الوصف الشائع لروما ذاتها بأنها المدينة الأبدية *urbs aeterna*. وقد ثمّن المؤرخون اللاحقون روايته كشاهد عيان عن انحطاط روما بعد عظمتها، وانتباهه إلى الأسباب الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب السياسية لسكرات الموت الطويلة تلك. فتاريخ أميانوس مشحون بالمعلومات اللافتة عن أرجاء متنوعة من الإمبراطورية وشعوبها، ولكنه أقل تحيزا ضد معظمهم مقارنة بنظرة تاسيتوس مثلا إلى اليهود. حتى إنه يتناول أمورا علمية كالهزات الأرضية والكسوف والخسوف. واهتمام أميانوس بأمور كهذه أشد أهمية بل وغير مقصود حتى، نظرا لأنه شخصيا نادى بأن على التاريخ أن يركز على الأحداث المهمة والبارزة ويتجاهل الشائعة أو الاعتيادية، وذلك قد يمثل تحذيرا من أن النوايا المعلنة للمؤرخين، والنظريات أو الإجراءات التي يزعمون أنهم يتبنونها، كثيرا ما تنتهك وتتجاهل في الممارسة. وهكذا فقد استطاع آخر مؤرخي الغرب القدماء العظام، بنحو ما، أن يدمج جوانب من توجهي سلفيه الشهيرين في القرن الخامس، أي هيرودوتس وثوسيديدس.

تدوين التاريخ الصيني منذ أقدم العصور حتى سلالة الهان

لم يكن التاريخ في العصور القديمة حكرا على شعوب أوربا والشرق الأدنى، ولا من اختراعهم حتى. فما من حضارة في العالم أولت مكانة سامية لتسجيل ماضيها وفهمه بنحو ثابت ومستمر كما فعل الصينيون. ربما كانت عادة المؤلفين، وكذلك اختراع كلمة ‹التاريخ›، هي ما قدّم اليونانيين عليهم في هذا السرد الذي بين يديك، ولكن كان بوسعنا وبنفس السهولة أن نبدأ في أقاصي المشرق. فكما في وادي الرافدين، بدأت أقدم أشكال ما بات يعرف بالكتابة التاريخية كسجلات توثيقية، ولكن ذات صلة أوضح بالماضي. ‹فعظام التنبؤ› (وهي كسر منقوشة من العظام أو الصدف اكتشفت لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر) وهي أقدم مصدر نملكه على سلالة الشانغ القديمة (ح. 1600 ـ ح. 1046 ق.م.)، يبدو أنها نقشت كرد مباشر على تبجيل العائلة

المالكة للأسلاف، وهي تتضمن مناشدات مباشرة أو أمثلة تواصل معهم؛ وأقرب ما نعرفه شبها بها هو نصوص التعاويذ لدى الآشوريين المعاصرين لهم.

إن عقد مقارنات دقيقة بين تدوين التاريخ الصيني والأوربي العتيد *classical* ينبغي أن يتم مع وعي بالفروق الأساسية بينهما. فرغم أن معنى كلمة *historia* قد تغير من بعد استعمال هيرودوتس الأولي، لا يوجد خلاف كبير نسبيا حول ما تعنيه هذه الكلمة اليونانية. أما في الصينية، فإن كلمة *shǐ* ليست بالضبط هي الكلمة التي تدل على التاريخ أو مؤلّفه. وينبغي ألا يستهين المرء بالفروق العميقة التي تفرضها تعقيدات الكتابة بنظام كتابة رمزي صوري *logographic* كالصينية. فإلى جانب تمجيدهم الشديد للتراث، أحد الأسباب التي تجعل الباحثين ـ في مرحلة مبكرة جدا ـ يهتمون بكل حرص بتحقيق المصادر (وكثيرا ما يتخلصون عمدا من نسخ أقل جودة) هو أن فرص إساءة فهم الناسخ لما ينسخه كانت أكبر بكثير، نظرا لإمكان الخلط بين رموز صورية معينة.

ثم إن بعض الافتراضات العقلية الأساسية كانت مختلفة جدا. فمعظم الفكر الأوربي كان ينظر إلى الزمن حتى وقت قريب كأمر هدام، ويعتبر التغير أمرا محتوما لكنه سيئ بشكل هائل. أما الفلاسفة الصينيون الأوائل، مع خالص تبجيلهم الشديد للتراث، فكانوا ينظرون إلى الزمن ـ تماما كالربة تيخيه عند پوليبيوس ـ كعامل تغيير وليس واسطة يحدث ضمنها التغيير، ويقدّرون التغير كعامل تقدمي وناضج وليس هداما أو قهقريا. وكانت الاضطرابات التي تصاحب الانتقالات من سلالة إلى أخرى لا تعتبر علامة على الفشل بقدر ما هي فقدان للتبرير الرئيس للحكم، أي «تفويض السماء» (*Tiānming*). وكان ينظر للتوثيق الزمني، الذي عني به المؤرخون الصينيون بدقة، بنحوٍ مختلف جدا يقوم على أساس أسماء الحقب المتغيرة بكثرة (وهي ممارسة قائمة في العديد من الدول الآسيوية حتى مجيء القرن العشرين) بدلا من توثيق زمني وحيد **منذ خلق العالم** ***ab orbe condita*** أو **منذ تأسيس المدينة** ***ab urbe condita***، أو خاصة منذ القرن السابع عشر: قبل الميلاد وبعده BC & AD ـ وهذا ما يفسر الظهور المبكر نسبيا لقوائم التزامن بين السلالات في الصين مقارنة بأوربا. وقد تصور الصينيون أصناف التاريخ المختلفة بأنحاء كنا سنفاجأ بها: ففي

حين كانت «الحوليات» في التراث الأوربي تعد في العادة أشد أشكال التسجيل التاريخي أساسية، فإن تدوين التاريخ الصيني كان يعتبر الحوليات أسمى أصنافه، بوصفها استخلاصا للمعرفة من مصادر أخرى. حتى إن غرانت هاردي *Grant Hardy*، وهو حجة معاصر في الكتابة التاريخية الصينية القديمة، قال بأن التفضيل الحديث منذ عصر النهضة (بنحو يحاكي ثوسيديدس وتاسيتوس بوضوح) للراوي ذي الصوت الواحد، المحيط بكل شيء، وللقصة المتجانسة ذاتيا، لا يتناسب مع الأصوات المتعددة والروايات المتنافسة عادة لحدث واحد كما ينقلها أعظم مؤرخي الصين القدماء، سيما چيان *Sima Qian*، في كتابه *Shiji*.

يولي تدوين التاريخ الغربي قيمة عالية لاستقلال المؤرخ عن المؤثرات الخارجية، رغم أن الرؤية عن كثب كانت أمرا مثاليا وليست واقع حال في معظم الظروف. فالتاريخ الرسمي، تاريخ البلاط، وسائر الأنواع لم تحظ بتقييم جيد في نظر كتاب التاريخ الأورو ـ أميركيين المعاصرين، الذين يقيمون وزنا كبيرا للاستقلال والتحرر من التأثير. أما في الصين فقد كان التاريخ منذ البداية تقريبا مرتبطا بالحكم ومن ثم بالسلالة الحاكمة في كل عصر ـ ولكن المؤرخين الصينيين لم يروا أي تناقض أساسي بين ذلك وواجبهم في تسجيل الحقيقة، ولو تحت خطر شخصي كبير في الغالب. بل لقد قيل بنحو مقنع أن عدم وجود ما يقبل الحقيقة المطلقة، التي تستمد من الديانة المنزلة في أوربا المسيحية، قد سمح للصينيين بأن يمنحوا الماضي نفسه صفة اليقين المكافئة لذلك. وأخيرا فإن مؤرخي الصين الإمبراطورية نظروا للكتابة التاريخية بوصفها عملية تجميع من مصادر أقدم، بما فيها التضمين الحرفي لعمل مؤرخ آخر. حيث أعلن كونفوشيوس، وهو الفيلسوف الذي سيطر فكره على أكثر تاريخ الصين، أنه ليس بصانع للحكمة بل ناقل لها، وبالمثل فإن أقدم المؤرخين تصوروا أعمالهم في الأساس كوسائط لتسليم المعرفة السابقة. ولكنهم في الواقع قاموا بما هو أكثر من ذلك، حيث لم يندر منهم أن يضيفوا قيمة الأحكام الأخلاقية كي يبرزوا الجوانب المعيارية للماضي ودلائله على معنى الكون. فالحقيقة عند المؤرخ الصيني القديم لم تعن انسجام التاريخ مع الواقع **الحق**، بل أمانته **للمصادر**: فكلمة *xin* لا تعني الحقيقة بمعناها الحديث، بل أمرا أشبه «بالوثاقة» أو الاعتماد.

لقد ثبّت المؤرخون الصينيون، في وقت أسبق بكثير من أقرانهم الأوربيين، مجموعة واضحة ومتسقة من القواعد والممارسات لتمثيل الماضي. واكتسبوا كمؤرخين مكانة متزايدة في «الرسمية»، لم يكن لها مثيل في أي ثقافة قديمة أخرى. كانت كلمة *shi* أصلا تشير إلى مسؤول طقسي، ولاحقا باتت تعني كاتم سر الملك أو الموظف المسؤول عن حفظ السجلات. لكن التاريخ لم يستخدم في أي وقت أبدا عند الصينيين كمرادف «للماضي» (بمعنى الأحداث الفعلية التي حدثت في الواقع)، بل كان يعني السجلات المتراكمة والمصفوفة لذلك الماضي (التي باتت تدعى *li shi xue*). وبذلك فقد أصبح أحد الأصناف الكبرى للمعرفة (إلى جانب الفلسفة، الأدب، و«الكلاسيكيات») منذ القرن الرابع ق.م. ولم يبلغ التاريخ هذه المكانة في أي مكان آخر خلال العصور القديمة، بل لم ينلها في أوربا قبل أواخر القرن السابع عشر للميلاد. وقد كان التاريخ في الصين، بنحو أكبر من اليونان، هو المثال الأبرز على الممارسة الإمبريالية أو «المهيمنة» (وهي فكرة سنعود لنتناولها في فصول لاحقة)، حيث حقق نفوذا أوسع بكثير من مجاله السياسي الاسمي وبات يتحكم في النهاية بتطور الكتابة التاريخية في منغوليا، اليابان، كوريا، وأكثر بلدان جنوب شرق آسيا.

يمكن تتبع أصول التفكير الصيني المهم حول العالم إلى نصوص رسمية قديمة مثل **الـي جنغ** *Yijing* (أو الإي چنغ *I Ching*، «كتاب التغيرات»)، في أواخر الألفية الثانية ق.م. وبوصفه يمثل سلطة الماضي، فقد كان للتاريخ سلطة مكافئة للفلسفة والشعر، حيث مثله عملان اثنان ضمن «الكلاسيكيات الخمس» الصينية الأصلية، هما **الشو جنغ** *Shujing* («كلاسيكية التاريخ» أو «كلاسيكية الوثائق»)، أحد أقدم مجموعات الوثائق الرسمية، و**الچون چيو** *Chunqiu* («حوليات الربيع والخريف») الذي نسب إلى كونفوشيوس. **الشو جنغ** مجموعة من الأوامر والتصريحات والإعلانات العامة وسائر النصوص تعود لملوك سلالة الشانغ (بين أواسط وأواخر الألفية الثانية ق.م.) والجو التي تلتها (1046 ـ 256 ق.م.). أما الكتابة المقصودة حول الماضي فقد جاءت لاحقا، ومن الصعب أن نحدد هوية المؤلفين في الكتابة التاريخية الصينية قبل سلالة الهان، حيث لم يكن من الأولوية ـ باستثناء حكماء كبار مثل كونفوشيوس ـ لا للقراء ولا للكتّاب أن تحدد هوية وشخصية المؤلف. وفي

بعض الأحيان، فإن «المؤلف» الذي ارتبط اسمه بنص صيني كان هو السياسي أو رجل البلاط الذي أمر بكتابته.

ورغم كل تلك الاختلافات في الممارسة والسياق، فإن أسباب الرجوع نحو الماضي في الصين لم تكن مختلفة بشكل كبير عن تلك التي دفعت لتلك المساعي في أوربا القديمة، وخاصة الحافز نحو البحث في الماضي عن مصدر للاستقرار في عصور قلقة، والتعرف فيه على نماذج للسلوك الصحيح. فقد أوضح الفكر الصيني المبكر فكرة أن هناك أنماطا يمكن تعرُّفها في سير الشؤون البشرية، يمكن للمرء أن يتعلم منها كيف يحكم نفسه ويتحرك في عالم من التغير المستمر. وكما يشير لنا هذا، فسرعان ما ارتبط التفكير الصيني حول الماضي بالفلسفة والبحث عن الطاو *Dao* (أي «الطريق» أو النظام الخلقي). وكان أول عمل مستقل مهم في التاريخ، وهو **الچون چيو** (سجل دولة اللو)، يروي الأحداث بين عام 722 وحوالي 480 ق.م. وهو ينسب بنحو الإجمال إلى الفيلسوف المؤثر كونفوشيوس، واسمه الأصلي المعلم كونغ (551ـ 479)، رغم أن ما وصل إلينا قد يكون تعليقا أو تنقيحا لكونفوشيوس على عمل سابق، يعد اليوم مفقودا.

وقد اعتمد معلقون لاحقون على **الچون چيو** وسجلات مبكرة أخرى لتقديم قصص وخطابات تاريخية تدعم النظرة الكونفوشية التي تميل للقول بوجود دورات في الزمن، وظلت مهمينة على الفكر التاريخي الصيني حتى القرن التاسع عشر. وقد اختار أحد الباحثين كتاب **الزوو جوان** *Zuozhuan* (من أواخر القرن الرابع ق.م.) بوصفه أول نص تاريخي صيني يوفق في سرد واحد بين همّين صينيين كانا مختلفين من قبل ـ أعني بهما الشغف التقليدي بالاستذكار، والرغبة في الخروج بمعنى من الأحداث التاريخية. ففيه ترتقي فكرة الدورات إلى مستوى أعلى مما قد يمكن أن يتقبله يوناني مثل پوليبيوس: فالأحداث بعينها، لا الأنماط العامة فحسب، تميل جدا للتكرار إلى حد أن القارئ المتأهب جيدا قد يسعه ترقب علاماتها في أحداث سابقة عن طريق الإحاطة التامة والتنبه إلى اللياقة الطقسية. ونظرا لهذا التصور عن الحركة المنتظمة للأحداث، فقد توصل المؤرخون الصينيون مبكرا جدا إلى استيعاب أن التاريخ قد يوفر فضاء من الأمثلة التي يمكن أن ترشد الحياة الأخلاقية والسياسية خاصة. وفقا

لإحدى الروايات، كان كونفوشيوس يعتقد بأن سمعته شخصيا تعتمد على نجاحه كمؤرخ. وتصريحه القائل بأن مبادئه سوف تؤكدها شواهد من «الأحوال الجارية» أفضل من «الكلمات النظرية»، قد يكون أول تعبير عن إرشادية التاريخ المتفوقة التي نادى بها المؤرخون الأوربيون بثبات، منذ ديونيسيوس من هاليكارناسوس وحتى القرن الثامن عشر (رغم الإنكار الشرس لها من قبل العديد من الفلاسفة والشعراء، منذ أرسطوطاليس فصاعدا).

تباعدت مدارس فلسفية أخرى عن الكونفوشية المهيمنة، وكان طيف الآراء حول عملية التغير التاريخي أوسع بكثير من الآراء في الغرب خلال عصر الأنتيك أو العصور الوسطى. حيث لم يقبل الطاويون مثلا، وهم الساعون للانسجام مع الطبيعة والانسحاب عن العالم المتغير بنحو دوري ولكن غير متوقع، أن يكون للتاريخ أي نمط متوقع أو قيمة تربوية. أما الموهيّون *Mohists* (أتباع موتسي *Mozi*) والشرعيون *Legalists* فرأوا أنماطا متوقعة من التقدم: رغم أن الفئة الثانية ـ وهم أتباع فلسفية شمولية تبنتها سلالة الچين *Qin* الشمولية (221 ـ 206 ق.م.) ـ أكدت أن هذا التقدم الذي تفرضه سلطة الدولة على أفراد أشرار بطبعهم، سيجعل الماضي غير مهم إلى حد كبير. فبعد توحيد الچين لعدة «إمارات متحاربة» في إمبراطورية واحدة، أمر أول أباطرتها بمحرقة كتب شنيعة وإعدام جماعي للعلماء، بنحو قضى عمليا على سجلات الممالك المقهورة.

أما سلالة الهان اللاحقة فقد استولت على السلطة خلال معظم القرون الأربعة اللاحقة، التي أصبحت الكونفوشية خلالها النظام الفلسفي والتربوي المتغلب. ولم يظهر أبرز شخصية مبكرة في الفكر والكتابة التاريخية الصينية إلا في عالم **الجونغ غوو** *Zhongguo* الموحّد (حرفيا «المملكة الوسطى»، وهي تسمية الصينيين لبلادهم). كان سيما چيان *Sima Qian* (145 ـ 86 ق.م.) أول مؤرخ صيني نعرف قدرا معتبرا عن حياته، وذلك لأنه لم يتظاهر شخصيا بخمول الذكر، بل وتضمن سلسلة نسب مفصلة لأسرته وصولا للعصور الأسطورية، ثم إن مؤرخا من القرن الأول للميلاد، هو بان غو *Ban Gu*، ألف سيرة حياة لسلفه الشهير. على رغم أن سيما چيان لم يرغب أصلا في دخول عالم البحث، فقد شعر بواجب الاستمرار في عمل بدأ به والده سيما

تان من قبل، الذي احتل منصبا يبدو وراثيا يدعى *taishi* (ترجم بعدة أنحاء: كالمنجم الأكبر، الكاتب الأكبر، وأحيانا المؤرخ الأكبر) كانت أسرته قد شغلته منذ سلالة الجو *Zhou*. وعند قرابة عام 90 ق.م.، بعدما خضع طوعا لإهانة الخصاء كعقوبة لإساءته إلى الإمبراطور (بدلا من الانتحار الذي كان سيحول دون إكماله لكتابة تاريخه)، ألف سيما چيان كتابه **الشيجي** *Shiji* («سجلات المؤرخ الأكبر»).

ينقسم **الشيجي** إلى خمسة أقسام كبار، أصبح كل منها نموذجا أساسيا للأصناف القادمة من الكتابة التاريخية الصينية. يقدم القسم الأول الذي يضم اثني عشر فصلا، «الحوليات الأساسية» (*benji*)، سردا للسلالات الكبرى بالتعاقب، من الصعود إلى السقوط؛ والقسم الثاني مجموعة من عشرة فصول من الجداول الزمنية (*biao*)؛ والقسم الثالث يتضمن ثمانية فصول من «المقالات» (*shu*) حول فروع من المعرفة من علم الفلك والتقويم مرورا بالزراعة، الأدب، والموسيقى؛ والقسم الرابع يتضمن ثلاثين فصلا حول «البيوت الوراثية» (*shijia*) الكبرى، إلى جانب سير الحكماء العظام مثل كونفوشيوس؛ وأخيرا، فإن القسم الخامس يتضمن سبعين «تقليدا مرتبا» أو «رواية» (*liezhuan*) حول رجال الدولة والعلماء وسائر الأصناف، كثيرا ما كانت مزدوجة (كما سيفعل پلوتارك لاحقا في كتابه عن السير الذاتية) لغرض إيضاح نمط شخصية ما. وفي ختام معظم فصوله، بنحو يشبه مؤلف كتاب **الزوو جوان** من القرن الرابع، يدلي سيما بتعليق حول التاريخ الذي فرغ من روايته. وهذا أيضا أمر لا يختلف جدا عن الممارسة الأوروپية الكلاسيكية، إلا أن الصينيين ـ كما نوهنا من قبل ـ يشيرون لتدخلات المؤلفين بوضوح أكبر: حيث يستهل سيما چيان استطراداته الوجيزة بعبارة «يقول المؤرخ الأكبر...»، ولكن كما هو حال معظم المؤرخين الصينيين والإغريق فإنه يجيز لنفسه إيراد الخطب المخترعة، التي يقر بأن بعضها مأخوذ من أعمال سابقة. أما الجداول الزمنية، حيث تتجلى أبرع نماذج الكتابة الأصيلة عند سيما، فقد كانت إبداعا بارعا للغاية، حيث قدمت قدرا كبيرا من البيانات المتناثرة في هيئة جداول، ومع توقيت متزامن ـ ولم يكن ذلك بالأمر السهل نظرا لتدمير سلالة الچين سابقا لسجلات الممالك العدوة ـ بنحو يدل على اعتراف بإمكانية وجود مجموعة تواريخ عالمية تتشاركها ممالك مختلفة وتتسامى على سلالات بعينها.

كان لهذا التنظيم الأصيل وغير المسبوق إيجابياته وسلبياته. فمن جهة لم يكن سيما چيان مضطرا لقطع سرد حدث ما في أحد الفصول لإيضاح هوية شخص بعينه، لأنه قد يكون مذكورا من قبل في أحد الأقسام الرئيسة ـ ولذا لا توجد استطرادات على غرار هيرودوتس لأجل توفير خلفية ضرورية أو التنويه بالأهمية طويلة الأمد لحدث ما. وقد استطاع أن يفر من التوقيت الزمني الدقيق في القسم الخامس المخصص للسير، مما سمح له بمنح الأولوية لأنماط وأصناف الشخصية التي اعتقد أن لها دورا مهما في حياة كل فرد خلال شتى العصور. ومن جهة أخرى، فنظرا لعدم وجود فهرس، كان القارئ سيضطر للبحث عن مواد تخص موضوعا معينا في عدة أماكن مختلفة. وفي العديد من الموارد ربما كانت الروايات ستتناقض، على أنه قيل بأن ذلك كان من باب تعددية التفاسير المقصودة من جانب سيما نفسه، أو أنه (مثل هيرودوتس) شعر بأنه ملزم بتكرار ما أوردته المصادر حرفيا وإن تضاربت. وهنا بالذات بدت الفروق مع تدوين التاريخ اليوناني الكلاسيكي أشد وضوحا: فلم يكن هدف **الشيجي** تقديم سرد معين للماضي بوصفه قولا حاسما لا يدحض ـ فهذه ليست (بالكلمة الأخيرة) كما عند ثوسيديدس ـ بل التزام الأمانة للمصادر مع تقديم الحكمة التي ستسمح للقارئ الفطن بالحكم الجيد. فقد كان سيما أشبه بالپروفسور الحديث الذي يخبر طلابه بأنه غير مهتم باستذكارهم في النهاية للوقائع التي قدمت إليهم، بل بتطوير مهارات التفكير النقدي لديهم.

لقد كان ما حققه سيما چيان في **الشيجي**، وهو عمل يبلغ طوله أربعة أضعاف **تاريخ حرب الپيلوپونيز** لثوسيديدس، أمرا أكبر بكثير من توفير سرد شامل للتاريخ الصيني فحسب: فقد قدم تاريخا لما كان يمثل للصينيين العالم المعروف آنذاك. فقد كان **الشيجي** أيضا مجموعة أدبية، وموسوعة للتوثيق الزمني والسير الذاتية، مشحونة بالحكم المنتقاة كي يستفيد منها حكام عصره والحكام اللاحقون. ووفقا لرسالة أوردت في كتاب تاريخ لاحق، فإن سيما كان يقصد ـ تماما كثوسيديدس ـ أن تنتفع الأجيال اللاحقة من عمله. فقد أعرب عن حس واضح بهدف المؤرخ: أن يسجل الأحداث الكبرى والصغرى بدقة من أجل نصيحة الحاضر، وإسباغ المدح على الخير والذم على الشرير. وقد مثل **الشيجي** نموذجا لتجميع الحقائق حول الماضي بفضل هيئته

المفصلة بوضوح، كتشكيلة من الحوليات المرتبة حسب السنين والمعالجات المفردة للسير الذاتية؛ وسيظل تأثيره واضحا خلال الألفيتين اللاحقتين من الكتابة التاريخية الصينية، ولو أنه لم يمثل طبعة مضبوطة لها ـ حيث لن يضطر المؤلفون اللاحقون بالضبط لمحاكاة تشكيلته المعقدة من الصيغ وكذلك تغطيته الشاملة.

وبالرغم من ذلك، فسيكون من الصعب أن نبالغ في مدى تأثير سيما چيان، الذي سيتجاوز في عالم كتابة التاريخ حتى نفوذ كونفوشيوس والمفسرين من بعده. فما من مؤرخ أوروپا قديم، حتى پوليبيوس أو تاسيتوس، أو حتى هيرودوتس أو ثوسيديدس، قد حظي بهذا النوع من التأثير، كما لا تتسم الكتابة التاريخية الأوروپية بتلك الاستمرارية في الدراسة المنظمة ومن ثم البيروقراطية (في ظل سلالة التانغ) للماضي التي تشهد لها الصين. كان سيما يفصّل مصادره دوما، ويقدم آراء بديلة، ويعلم القارئ إجمالا بسبب كتابته لرواية عن حدث أو شخص ما بنحو ما.

وبالتالي، فإن **الشيجي** أول عمل من تدوين التاريخ الصيني يثير السؤال الذي كان يلح علينا منذ العصور القديمة وحتى محاضرة الصفوف المتقدمة ظهيرة الأمس: **كيف يكون الماضي معروفا؟** ومن المفيد مجددا أن نعقد مقارنة مع الإغريق: فسيما چيان يبدأ تاريخه بالحديث عن الأباطرة الخمسة الأسطوريين من عصر ما قبل السلالات، ولا نجده في أي مورد يستخف بالخرافة بوضوح كما يفعل هيكاتيوس أو حتى يفصلها بحزم عن التاريخ. بل إنه في الواقع كان يفتقر لمصطلح، لم يوجد أصلا في الصينية، يعادل لفظة *mythos* اليونانية بمعنى الخيال.

تتواتر الإحالة في كتابه إلى الدروس التي يمكن للماضي أن يقدمها، وكثيرا ما يستعين المتحدثون في أثناء سرد سيما چيان بالتاريخ كي يقدموا النصح للحكام. ويتبنى سيما تشبيها شائعا لتاريخه ـ سنراه يتكرر بشكل دوري في أرجاء الأرض ـ هو المرآة، التي يمكن لنا أن نرى انعكاسنا فيها، لكنه يفعل ذلك بحذر، حيث يفضل الأمثلة القريبة أكثر من القديمة بوضوح. فلن يكون حصيفا من الحاكم أن يتبنى الأفعال والحكمة الناجحة من ماض أبعد دون أن يسمح لتغييرها كي تناسب الظروف القائمة. وهذا الاعتراف المتشكك، القائل بأن الماضي قد يخدعنا بتشابهاته السطحية، قد تأكد دوريا على مر

القرون، كما نجده عند المؤرخ الفلورنسي من عصر النهضة، فرانسيسكو غويتشارديني (انظر أدناه، ص135). ثم إن نقطة أخرى، تقول بأن الأمثلة من التاريخ القريب ليست بالضرورة أقل نفعا من التاريخ القديم، ترد أيضا عند كتاب لاحقين كما عند السياسي الإنجليزي في القرن الثامن عشر، اللورد بولينغبروك (انظر أدناه، ص 185).

رغم أن **الشيجي** سيعد في النهاية التاريخ الأول في سلسلة طويلة من أربعة وعشرين 'تاريخا معتمدا' (*Zhengshi*)، كل منها تاريخ رسمي لسلالة كتب في عهد السلالة التي تليها، فما من عمل لاحق استطاع أن يجاري سعته وحجمه لأكثر من ألف عام. حيث لم يستخدم معظمها أقسام سيما الخمسة أجمع، رغم أنها تضمنت على الأقل قسمي الحوليات والسير بلا شك. وخلافا **للشيجي**، الذي غطى تاريخ الهان وسابقيهم، فإن التواريخ المعتمدة اللاحقة عادة ما غطت سلالة واحدة فقط وكتبت بعد سقوطها، لتوفر خاتمة كل منها التبرير لصعود السلالة الجديدة.

وقد جسد مؤرخا سلالة الهان السابقة أو الغربية (التي انتهت عام 9 للميلاد)، وهما بان غو *Ban Gu* (ز. 32 ـ 92 م) وشقيقته بان جاو *Ban Zhao* (48 ـ ح. 116 م) هذا المثال. فكتابهما **الهانشو** *Hanshu* ('تاريخ سلالة الهان السابقة أو الغربية')، الذي كان يقصد منه أن يكون تتمة **للشيجي**، اتسم بطابع أشد أخلاقية بصراحة من سابقه، كما في إدانة اغتصاب وانغ مينغ (9 ـ 23 م) للعرش مثلا، الذي سبق عودة الهان (باسم سلالة الهان الشرقية). حتى إن **الهانشو** يتضمن جدولا ضخما يتضمن ألفي شخصية منذ العصور القديمة وحتى الهان، رتبت في أصناف مثل 'حكيم' و'أحمق'. وسيصبح **الهانشو** من حيث الأسلوب والسعة، بدلا من **الشيجي** الأشد استفاضة، هو المثال للتواريخ اللاحقة التي تغطي سلالة واحدة فقط. وحين نعود ثانية إلى قصة تدوين التاريخ الصيني، فسنرى أيضا أن الصلات بين المؤرخين والحكم ـ التي بدأت مع كونفوشيوس ـ ستصبح أوثق فأوثق، حيث اتجه الأباطرة اللاحقون إلى منح كتابة التاريخ طابعا مؤسسيا.

الخلاصة

لقد كشف استعراضنا الوجيز لأصول التاريخ عبر ثلاثة آلاف عام عن عدد من

الثيمات التي ستتكرر في أثناء هذا الكتاب: علاقة التاريخ (أو عدمها) بالأحداث الواقعة في الماضي؛ واجب المؤرخ أن يكون صادقا (رغم أن الصدق نفسه هدف زلق)؛ الدور التربوي للمؤرخ؛ الاعتقاد بأن الماضي كان، بشكل أو بآخر، مرآة مثالية يمكن للحاضر أن يتعلم منها؛ القيمة النسبية ـ في نظر البعض ـ للمصادر المكتوبة بإزاء المعلومات الشفهية؛ والصلات الناتجة بين التحكم بكتابة الماضي وممارسة السلطة السياسية. ثمة نقطة مهمة أخرى هي الأثر الذي يحدثه الاتصال ‹بالآخر›، أي الأعراق الغريبة مثلا، في إدراك تمثيل الماضي، إما عبر توفير نظرة للماضي كانت تعتبر من قبل خاصة أو فريدة، أو عبر التبني الصريح للأشكال التي تعتمدها الطبقة الحاكمة لتمثيل التاريخ وتوطيد هيمنتها. ومن اللافت حقا كيف أن معظم هذه الملامح، بأشكال مختلفة، يمكن العثور عليها في كل من أوربا القديمة وكذلك الصين الإمبراطورية المبكرة وقبل الإمبراطورية. وستشهد القرون العديدة اللاحقة تطور العديد من هذه الخطوط، وتكاملها وانتشارها خارج مواطنها الأم.

أسئلة للمناقشة

1. لماذا بدأت الثقافات القديمة في تدوين ودراسة الماضي؟
2. عند أي نقطة بدأ المؤرخون يستخدمون الماضي كمصدر للشرعية الأخلاقية والحكمة؟
3. قال المؤرخ البريطاني ديفيد هيوم في القرن الثامن عشر بأن ‹التاريخ الحقيقي› يبدأ مع أول صفحة من ثوسيديدس. هل هذا حكم صحيح؟
4. كيف تعاملت الثقافات المختلفة مع تقسيم أصناف مختلفة من الكتابة حول الماضي؟ ولماذا كان ذلك مهما؟
5. في أي أنحاء اختلفت الكتابة والفكر التاريخي الصيني عن نظيره الغربي؟ وفي أي أنحاء تشابها؟
6. كيف أثر الدين في كتابة التاريخ في الثقافات القديمة؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Butterfield, Herbert, *The Origins of History*, ed. A. Watson (London, 1981)
- Feldherr, Andrew and Grant Hardy (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 1: Beginnings to AD 600* (Oxford, 2011)
- Lloyd, G. E. R., *The Ambitions of Curiosity: Understanding the World in Ancient Greece and China* (Cambridge, 2002)
- Marincola, John (ed.), *A Companion to Greek and Roman Historiography* (Malden, MA and Oxford, 2007)
- Momigliano, Arnaldo, *Studies in Historiography* (New York and Evanston, IL, 1966)
- Pocock, J. G. A., 'The Origins of Study of the Past: A Comparative Approach', *Comparative Studies in Society and History* 4.2 (1962): 209 _ 46
- Raaflaub, Kurt A. (ed.), *Thinking, Recording, and Writing History in the Ancient World* (Malden, MA and Oxford, 2014)

الشرق الأدنى القديم

- Grayson, A. K., *Assyrian and Babylonian Chronicles* (Locust Valley, NY, 1975)
- Liverani, Mario, *Myth and Politics in Ancient Near Eastern Historiography* (London, 2004)
- Van Seters, John, In *Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History* (New Haven, CT and London, 1983)

الفكر التاريخي اليهودي من التناخ حتى ثوسيديدس

- Brettler, Marc Zvi, *The Creation of History in Ancient Israel* (London and New York, 1995)
- Holladay, Carl R. (ed.), *Fragments from Hellenistic Jewish Authors, Vol. 1: Historians* (Chico, CA, 1983)
- Ishida, Tomoo, *History and Historical Writing in Ancient Israel* (Leiden, 1999)
- Rajak, Tessa, Josephus: *The Historian and His Society*, 2nd edn (London, 2002)

تدوين التاريخ اليوناني المبكر

- Fornara, Charles W., *The Nature of History in Ancient Greece and Rome* (Berkeley, CA, 1983)
- Hornblower, Simon (ed.), *Greek Historiography* (Oxford, 1994)
- Marincola, John, *Greek Historians* (Oxford, 2001)
- Scanlon, Thomas F., *Greek Historiography* (Chichester, 2015)
- Sorek, Susan, *Ancient Historians: A Student Handbook* (London and New York, 2012)
- Woodman, A. J., *Rhetoric in Classical Historiography* (London, 1988)

هيرودوتس وثوسيديدس

- Balot, Ryan K., Sara Forsdyke and Edith Foster (eds), *The Oxford Handbook of Thucydides* (Oxford and New York, 2017)
- Dewald, Carolyn and John Marincola (eds), *The Cambridge Companion to Herodotus* (Cambridge and New York, 2006)
- Foster, Edith and Donald Lateiner (eds), *Thucydides and Herodotus* (Oxford, 2012)

- Hartog, François. *The Mirror of Herodotus: The Representation of the Other in the Writing of History*, trans. Janet Lloyd (Berkeley, CA, 1988)
- Hau, Lisa, *Moral History from Herodotus to Diodorus Siculus* (Edinburgh, 2016)
- Roberts, Jennifer T., *Herodotus: A Very Short Introduction* (Oxford, 2011)

تدوين التاريخ اليوناني من القرن الرابع حتى الثاني

- Flower, Michael (ed.), *The Cambridge Companion to Xenophon* (Cambridge, 2017)
- McGing, B. C., *Polybius' Histories* (Oxford, 2010)
- Parmeggiani, Giovanni (ed.), *Between Thucydides and Polybius: The Golden Age of Greek Historiography* (Cambridge, MA, 2014)
- Sacks, Kenneth S., *Polybius on the Writing of History* (Berkeley, CA, 1981)
- Walbank, F. W., *Polybius* (Berkeley, CA, 1972)

الكتابة التاريخية الرومانية من الجمهورية إلى الإمبراطورية

- Clarke, Graeme et al. (eds), *Reading the Past in Late Antiquity* (Rushcutters Bay, NSW, Australia, 1990)
- Cornell, T. J. (ed.), *The Fragments of the Roman Historians*, 3 vols (Oxford, 2013)
- Feldherr, Andrew (ed.), *The Cambridge Companion to the Roman Historians* (Cambridge and New York, 2009)
- Mellor, Ronald, *The Roman Historians* (London, 1999)
- Rohrbacher, David, *The Historians of Late Antiquity* (London and New York, 2002)
- Syme, Ronald, *Tacitus*, 2 vols (1958; Oxford, 1989)

تدوين التاريخ الصيني منذ أقدم العصور حتى سلالة الهان

- Durrant, Stephen W., *The Cloudy Mirror: Tension and Conflict in the Writings of Sima Qian* (Albany, NY, 1995)
- Hardy, Grant, *Worlds of Bronze and Bamboo: Sima Qian's Conquest of History* (New York, 1999)
- Li, Wai _ yee, *The Readability of the Past in Early Chinese Historiography* (Cambridge, MA, 2007)
- Martin, Thomas R., *Herodotus and Sima Qian: The First Great Historians of Greece and China, A Brief History with Documents* (Boston and New York, 2010)
- Ng, On _ Cho and Q. Edward Wang, *Mirroring the Past: The Writing and Use of History in Imperial China* (Honolulu, 2005)
- Schaberg, David, *A Patterned Past: Form and Thought in Early Chinese Historiography* (Cambridge, MA, 2001)

محطات

ح. 330 م	كتاب التاريخ والتاريخ الكنسي ليوسابيوس القيصري
القرن 4 م	بداية كتب الفامسا السريلانكية
ح. 417	كتب التاريخ السبعة ضد الوثنيين لأوروسيوس
ح. 551	التاريخ السري لبروكوبيوس القيصري
أوائل القرن 6	كتاب على أطلال بريطانيا لغيلداس
629	تأسيس المكتب الجديد لكتابة التاريخ في الصين
أواسط القرن 7	بدايات الكتابة التاريخية الإسلامية
708 _ 21	كتاب الرؤى الشاملة لتدوين التاريخ لليو جيجي
712	كتاب الكوجيكي (اليابان)
720	تاريخ اليابان

الفصل الثاني

التاريخ في أوراسيا حتى منتصف القرن الخامس عشر

الكتابة التاريخية في أوربا المسيحية والبربرية

لقد وطدت المسيحية لنفسها عبر كتابة تاريخها من جانب، ومن جانب آخر عبر صياغة تاريخ العالم المعروف في هيئة أحالت الماضي القديم إلى تمهيد لتجسد وبعثة وقيامة يسوع المسيح، ورأت في التاريخ الذي سيأتي دراما كونية حديثة ستنتهي في الزمن البشري بمجيئه مجددا. وتكمن جذور الرؤية التاريخية المسيحية، تماما كالمسيحية ذاتها، في كل من الثقافة اليهودية واليونا ـ رومانية، حيث مثل اليهود الهيلينيون مثل يوسيفوس جسرا بين الثقافتين عبر تواريخهم لماضي اليهود. فقد تبنت المسيحية رؤية للماضي تمتاز بالتدخل المباشر والمتكرر ليد الله، معاقبة الأشرار والانتصار الدنيوي للأبرار، وفي أحيان كثيرة، قناعة مسيحانية أيضا بأن العالم قد خلق في تاريخ محدد وسيؤول للدمار في النهاية.

كان تأثير تدوين التاريخ اليوناني والروماني أقل وضوحا لكنه مكافئ في الأهمية. فقد كان التوثيق الزمني الذي طوره الإغريق عنصرا مهما في البحث المسيحي عن ماض يمكن الاستفادة منه. وكان لبعض جوانب ذلك هدف ألفي أو ميعادي[1] صريح، حيث حاول أن يحسب الزمن للوراء إلى لحظة الخلق، وكذلك للأمام نحو نهاية الأيام، مستعيرا بعض التواريخ من الكتاب الوثنيين ونبوءات الكتاب المقدس. وقد

(1) النزعة الألفية *millenarianism* هي التي تترقب المجيء الثاني ليسوع المسيح كي يحكم لألف سنة، بعد مرحلة عاصفة من الكوارث العالمية والاجتماعية. والميعادية *eschatology* هي جانب من الفكر الديني يعنى بعلامات آخر الزمان وإرهاصات نهاية العالم. (المترجم)

كانت للكتابة التاريخية الرومانية فائدة بنحو مختلف: فما إن أصبحت الإمبراطورية نفسها مسيحية، فقد استحالت إلى الذراع الدنيوي لإرادة الله، وباتت دافعا كبيرا نحو نشر المسيحية في أرجاء أوربا. وقد شكّل الماضي الروماني، وكذلك حصيلة الأحداث الماضية لكل الإمبراطوريات الكبرى في العصور الأعرق في القدم، من البابليين إلى الفرس وحتى المقدونيين، رافدا آخر من التعاقبات والأحداث الموازية للتاريخ اليهودي، والمنصبة هي الأخرى في عالم مسيحي - حيث كان العالم يعني آنذاك أوربا، الشرق الأدنى، وشمال أفريقيا.

كانت أبرز المحاولات المبكرة لتشكيل توثيق زمني مسيحي هي ما قام به يوسابيوس القيصري *Eusebius of Caesarea* (ح. 260 أو 275 ـ ح. 339) الناطق باليونانية، الذي عاش خلال الفترة الانتقالية من عصر الاضطهاد إلى التسامح مع المسيحية في ظل قسطنطين. لقد تضمنت كتابات يوسابيوس تاريخا عالميا، اشتمل بدوره على سلسلة من **الجداول الزمنية**، التي بدأت منذ مولد إبراهيم الذي وضعه عند تاريخ يقابل 2016 ق.م. وكان المورد العادي لعام ما سيسرد عدة تواريخ متقابلة ويذكر في العادة معلومات عن الأشخاص أو الأحداث.

وقد أصبح **تاريخ** يوسابيوس، الذي ترجمه إلى اللاتينية وتممه القديس جيروم بعد نصف قرن، نصا أساسيا بالنسبة للجهود الأوربية نحو تحديد تواريخ مؤكدة للأحداث المختلفة التي سجلت في عدة تقاويم قديمة. وقد استعار يوسابيوس تلك الموارد الزمنية بكثافة من التاريخ المدني الروماني، وكثيرا ما تضمنت ذكرا لظواهر لافتة كالمذنبات أو الكسوف والخسوف. وفي عمل لاحق، هو **تاريخ الكنيسة**، فإن يوسابيوس تقريبا هو من اخترع 'التاريخ الكنسي' بوصفه صنفا ثانويا من الكتابة التاريخية، بل وقطاعا كبيرا من الأدب الأوربي حتى القرن العشرين. فقد أصبح الفصل بين التاريخ الكنسي والمدني، على أنه لم يكن بالفصل القاطع، أمرا أساسيا في الكتابة التاريخية خلال العصور الوسطى وأوائل الحداثة، وحتى في التقسيمات إلى أصناف تاريخية أدق خلال عصر النهضة.

بخلاف أقرانهم المدنيين والتراث الكلاسيكي الذي يستندون إليه بأسره، ورغم

استعانتهم الوافرة بالمصادر الشفهية، فإن مؤرخي التاريخ الكنسي ـ رغم إكثارهم من اقتباس الحوارات ـ كانوا يتجنبون إجمالا إيراد خطابات خيالية مطولة. حيث يبدو أن يوسابيوس أدرك من البداية أن الوثائق ستكون أجدى نفعا لتحقيق هدفه من اللجوء للأدوات البلاغية، واقتدى به من جاء بعده. حيث آثروا أن يدعموا حججهم بنحو مختلف، عبر إيراد وثائق ورسائل أصيلة، إما حرفيا أو بنحو موجز، وهي سمة لم تكن ملازمة لمعظم التواريخ الكلاسيكية، لأنها جزئيا كانت ستؤدي لقراءة متعبة وتعيق تدفق النص. وقد تباهى سوزومين *Sozomen* (ح. 400 ـ ح. 450) بحرصه الشديد على روايات شهود العيان، الذي تعلّمه من المؤرخين اليونانيين، لكنه كان فخورا بنفس القدر من رحلاته الواسعة لتجميع رزم الوثائق كأحمال الحطب، «والتي ما يزال بعضها محفوظا في خزائن القصر الملكي وفي الكنائس، في حين يتناثر البعض الآخر في ملفات ذوي المعرفة». وكان يكتفي بتلخيص بعضها في حين يورد البعض الآخر كاملا، مقتديا بيوسابيوس. وقد استمرت هذه الممارسة التوثيقية حتى أوائل عصر الحداثة.

في القرن الرابع، وبعد تأسيس الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية (بيزنطة سابقا) وفرض المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية، تطورت الكتابة التاريخية في شرق وغرب أوربا في اتجاهين مختلفين، وكانت القطيعة مع الأنماط الكلاسيكية، التي تبدت بوضوح في كتابة الحوليات في الغرب اللاتيني، أقل وضوحا في الشرق الناطق باليونانية. وكان أبرز كاتب مدني في تلك الفترة، وأوضح مقلد لتركيز ثوسيديدس على الشؤون العسكرية، هو بروكوبيوس القيصري ***Procopius of Caesarea*** (ح. 500 ـ ح. 554) الذي ظلت آراؤه الدينية مثار جدل طويل. فقد وثق بروكوبيوس حملات الإمبراطور جستينيان (حكم 527 ـ 65)، الذي يمثل كتاب **الحروب** المصدر الرئيس عن عهده. وهو سرد يحاكي نهج ثوسيديدس ويتمتع عموما بسمعة طيبة. ولكن بنحو قد يعد مؤسفا، فقد حاز بروكوبيوس شهرة أكبر لأجل عمل أصغر شأنا، أعيد اكتشافه في عصر النهضة، كان في الأصل يسمى *Anekdota* (حرفيا ‹عمل لم ينشر›) لكنه بات يعرف شعبيا **بالتاريخ السري**، أكمل حوالي عام 551، وحاول مؤلفه أن يقلد فيه كتاب **حياة القياصرة** لسوتونيوس. بعدائه الصارم ‹للشيطان في إهاب

البشر) جستنيان، وزوجته ثيودورة المتهتكة، تمخض پروكوپيوس بغير قصد عن صنف أدبي جديد، سيشمل فيما بعد عددا من كتب الفضائح في القرن السابع عشر والثامن عشر، التي تقدم تفاصيل فاحشة عن الحياة الخاصة للملوك وسائر النبلاء، وتتحدر منها اليوم صحفيا كتب المذكرات (الكاشفة) وجرائد أخبار النجوم.

في ديار المسيحية اللاتينية، كان الدين أقرب ما يكون إلى قوة موحدة في تطوير مفردات مشتركة وحزمة شائعة من الثيمات المتعارفة لكتابة التاريخ. فقد ترجم يوسابيوس إلى اللاتينية، وانطلاقا من القديس أوغسطين، فقد تبنى الفكر المسيحي السائد مقارنة أفلاطونية جديدة بين (مدينتين)، سماوية وأرضية، كانت الأحداث التي تجري في العالم البشري والطبيعي تعد وفقها ظلالا أو صورا أقل رتبة لواقع أسمى في الفضاء الإلهي. وكان هذان الفضاءان متداخلين لا منفصلين. حيث كانت الإرادة الإلهية، تحت عنوان (العناية)، تقف وراء أزمات كبرى مثل حصار روما (410 م)، وتتحكم بشكل سري بمعاقبة الأخطاء تفصيلا حتى على مستوى الفرد، رغم أن أوغسطين تجنب صراحة أن يستخرج أي نمط شامل من بحر الأحداث التاريخية الواسع. فقد لاحظ أنه «في العموم، يؤول الأشرار لمآلات شريرة ويتمتع الأخيار بالنجاح في النهاية»، رغم أنه اضطر للاعتراف بأن الأخيار يواجهون أحيانا بعض المصاعب، وهو ما أشار إليه سيما چيان قبل خمسة قرون خلال تحليله للمصائر التي تبدو غير منصفة للأخيار والأشرار. وقد تمكن أوغسطين أيضا، مستمدا من سفر التكوين والأناجيل، من تقسيم الماضي بنحو شامل إلى عصور، وهو أمر فات يوسابيوس إنجازه، بحيث قسم أحقاب العالم إلى (أسبوع عظيم) يحاكي أيام الخلق الستة. وجاء تلميذه أوروسيوس *Orosius* (ز. 414 ـ 18) ليمنح رؤية أستاذه صيغة أشد تماسكا في كتابه النقدي **كتب التاريخ السبعة، ردا على الوثنيين**، وهو أول تاريخ عالمي يشرح كيف تحققت الإرادة الإلهية طوال فترة الزمن المسجلة. وكان لهذا الكتاب نفوذ واسع خارج ديار المسيحية أيضا: فقد ترجم إلى العربية في القرن العاشر، وأصبح فيما بعد واسطة مهمة لنقل الفكر التاريخي المسيحي إلى أعمال مؤرخين مسلمين متأخرين كابن خلدون. وأبرز أوروسيوس العنصر الميعادي في التاريخ العالمي عبر الاستعاضة عن (العصور الستة) لأوغسطين بالفكرة الكتابية عن (الممالك الأربع) أو

الإمبراطوريات العالمية، المأخوذة من سفر دانيال، ليضفي بذلك على الزمن البشري معنى أعمق مما كان أوغسطين يفكر فيه.

وقد عُرّضت فكرة أوغسطين عن ‹المدينتين› للتعديل والتنقيح مرارا، كان أبرزها محاولة أوتو أسقف فرايزينغ (ح. 1111 ـ 58) في القرن الثاني عشر، الذي استخدمها كعنوان لعمله التاريخي الكبير بعنوان **تاريخ المدينتين**. فقد وسع أوتو من المدينة السماوية ليشمل بها الإمبراطورية الرومانية نفسها، مقيما بذلك مقارنة بين الدورية المحبطة نسبيا للأحداث الدنيوية من جهة، والترقّي *progressus* للفضاء المقدس من جهة أخرى (وهو أصل كلمة ‹تقدّم *progress*› الحديثة، على أن أوتو كان ببساطة يعني مسارا من الأحداث المقدّرة نحو غاية خلاصية). وقد كان أوتو أول من قدم الصياغة الكلاسيكية لحجة على الاستمرارية التاريخية، في فكرة يشير إليها كتّاب التاريخ باسم **انتقال الإمبراطورية** *translation imperii*، وهي القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية، ذراع المسيحية المدني، لم تسقط في الواقع، بل ‹انتقلت› (أو تحولت) ببساطة من روما إلى الفرنجة *Franks* وأخيرا إلى إمبراطورهم شارلمان، وهي الخطوة الأحدث في عملية خلافة لكل إمبراطورية عالمية قديمة بأخرى أحدث؛ ووفقا لهذه الرؤية، لم تكن المملكة الكارولنجية إمبراطورية جديدة بل مجرد استمرار لإمبراطورية روما. وكان الورثة النهائيون لهذه العملية هم أباطرة هوهنشتاوفن الألمان في عصر أوتو، كابن أخي الأسقف نفسه فردريك الأول، الملقب بارباروسا (م. 1156 ـ 90). وقد أصبحت خديعة ‹انتقال› السلطة الإمبراطورية، بدلا من خلقها من العدم، أداة طيعة بنحو غير محدود في أيادي ملوك العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث ورجال دعايتهم أيضا: فقد استعان الفاتحون العثمانيون للقسطنطينية بفكرة الانتقال لتبرير دعوى أنهم ورثة روما الحقيقيون، في حين استعان هيرنان كورتيز الإسباني فيما بعد بحجة مشابهة لتبرير انتقال السلطة من حاكم المكسيك الأزتيكي إلى الإمبراطور شارل الخامس.

كانت الكتابة التاريخية في ديار المسيحية اللاتينية خلال ما عرف ‹بالعصور المظلمة›، بين القرن الخامس والتاسع، أمرا أشد تضاربا مما كان عليه الحال في الشرق اليوناني. فقد أدى انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية واستبدالها بممالك بربرية شتى

إلى تشوش الاستمرارية، وليس القطيعة التامة، مع النماذج القديمة: فنحن نجد كاتبا مثل غيلداس *Gildas* البريطاني (ز. مطلع القرن السادس)، الذي يروي كتابه **حول خراب بريطانيا** *De Excidio Britanniae* آخر أيام بريطانيا قبل الاجتياح السكسوني، يبدو كأحد أنبياء العهد القديم أو كمثيل معاصر لتاسيتوس في نقده الأخلاقي للبريطانيين وملوكهم. لكن هذه الفترة كانت معتمة لا مظلمة تماما، حيث ترك لنا المؤرخون روايات مهمة حول القبائل الجرمانية المختلفة. وكان التحدي الذي واجه أولئك الكتاب هو كيف يدمجون شعوبا ذات أصول غامضة، كانوا إلى عهد قريب يقعون خارج الإمبراطورية (العالمية)، في القصة الشاملة *story - meta* المسيحية الناهضة. وفي كل أرجاء العالم، فإن الاتصال بمجتمعات غريبة سيمثل في قرون لاحقة عنصرا ضروريا للتغيير في تدوين التاريخ، وكذلك مشكلة للمؤرخين الذين يضطرون لإيجاد مكان في سردهم لتلك الشعوب غير المعروفة من قبل أو المغمورة حتى.

وهنا بالضبط بدأ ما سيصبح نشاطا جوهريا للمؤرخين حتى عصر القومية في القرن التاسع عشر: أي تتبع التاريخ الإثني، اللغوي، وحتى العائلي حتى أصوله. وكان ذلك في الإجمال يتضمن تعرُّف شعب قديم ذكر في المصادر الكلاسيكية، وفردا مؤسسا مفترضا له في العادة ـ وهو في أحيان كثيرة مهاجر استطاع التغلب على عرق محلي من البشر أو العمالقة. وكان الشكل الأهم من البحث القروسطي المبكر عن الأسلاف القدماء العظام، والذي أحدث أيضا أكبر ضرر ـ فكريا وماديا ـ على المدى البعيد، هو ما عرف بالمصطلح اللاتيني *origo gentis* (وجمعه *origines gentium*، ومعناه حرفيا (أصول الشعوب)): وما نظرية النقاء العرقي النازية و(التطهير الإثني) الحديث إلا بعض منتجاته الحديثة الأعنف.

وقد بلغت لعبة العثور على أجداد لامعين مكانة رفيعة خلال عصر الهجرات البربرية (*Völkerwanderung*) ومن بعدها، لكنها استمرت في أوائل عصر الحداثة، حيث بدأت العوائل الصاعدة اجتماعيا تبحث بدورها أو تخترع أنسابا طويلة وشهيرة. لكنها حظيت بشكل جديد من الحياة، وبهيئة مختلفة، في أوائل القرن التاسع عشر حين انزاح الانتباه عن الأسلاف الأباعد نحو تعريف الهوية الوطنية، الاستمرارية الثقافية، والصفات (العرقية). فقد كان بوسع من تمسكوا بأنساب الكتاب المقدس أن يرجعوا

كل الشعوب، المسيحية منها والوثنية، إلى أحد أبناء نوح الثلاثة الذين ملأت ذريتهم الأرض في أعقاب الطوفان. أما المؤرخون الباحثون عن أصول أحدث فكان في إمكانهم أن يتجهوا إلى شعوب قديمة شتى كالإغريق، المصريين، و«السكيثيين» (وهي قبيلة حقيقية في وسط آسيا ذكرها هيرودوتس، أصبحت من ثم تشكيلة سيئة التعريف من عدة شعوب مختلفة). أما الشعب السلف الأكثر شهرة ومرونة، وهم الطرواديون، فقد استعان ڤرجيل بهم فعلا في **الإنيادة** لتفسير أصول الحضارة الرومانية في إيطاليا، وفي نهاية العصور الوسطى، بات يعتقد أنهم قد استعمروا أجزاء أخرى من الأرض ومنحوها أسماءهم، مثل بريطانيا (من «بروتس») وفرنسا («فرانسيون»). وقد جعل هذا بنحو المصادفة من الطرواديين مفيدين جدا لمن وقفوا بوجه السلطة المدنية الرومانية، حيث إن وجودهم (وبالتالي استقلالهم) يمكن من ثم أن يقال بأنه **يسبق** تأسيس روما بعدة قرون.

كان أحد النواتج الجانبية للتاريخ المقدس في القرون الوسطى هو صنف حياة القديسين (المعروف عادة «بالسيرة المقدسة *hagiography*»، وهو لفظ لا يمنحه الإنصاف حقا)، الذي كان يستذكر في الكنيسة المبكرة تقوى وأفعال، وكذلك معجزات، الشهداء والرهبان والمنقطعين المسيحيين، وسرعان ما انتشر ليشمل العلماء والكهنة المدنيين كالأساقفة. وقد ألهم نجاح بعض الملوك مثل شارلمان، في أوائل العصور الوسطى، ظهور عدد من السير الملكية المنفردة كالتي كتبها آينهارد *Einhard* ونوتكر بالبولوس *Notker Balbulus* عن الإمبراطور الفرنجي (حيث أسرفت السيرة الثانية في تزويق الحقائق واستهلت من ثم تحويل شارلمان من شخصية تاريخية إلى بطل شعبي فروسيّ). وكانت العلاقة بين هذه السير وشكل الحوليات الأكثر شيوعا معقدة ومتفاوتة. حيث يبدو أن آينهارد (ح. 770 ـ 840) قد تجنب عن عمد توجه الحوليات في كتابه عن سيرة شارلمان، واختار محاكاة سير الحياة القديمة على غرار بلوتارك أو سوتونيوس. وبعد ثلاثة أجيال، فإن الإنجليزي آسر *Asser* (ت. 908/ 9) الذي قرأ سيرة آينهارد، سيتضمن في كتابه **سيرة ألفريد** فقرات مطولة مأخوذة من عمل نعرفه باسم **تاريخ الأنجلو سكسون**، وهو اسم أطلق على سلسلة من المخطوطات التي كتبت في الغالب بالإنجليزية القديمة، وبدأت في أواخر حكم ألفريد الكبير (م. 871 ـ 99)

واستمرت حتى أواسط القرن الثاني عشر على يد كتاب حوليات مجهولين متتابعين. وقد كانت ظاهرة فريدة في الغرب عند تلك النقطة، بوصفها تاريخا وطنيا مستمرا ألف بلغة عامية. فقد ظلت اللاتينية آنذاك لغة الخطاب المتعلم، واستمر النظام المثقف، أي الكهنوت، في استخدامها لكتابة التواريخ، بنحو يعكس حال ديار المسيحية اللاتينية الأوسع، التي كانت تمثل السياق لنشاطهم وكذلك الجمهور الأعرض لأعمالهم.

وقد أنتج الرباعي الأهم بين المؤرخين «البرابرة» بين القرن السادس والعاشر أعمالا معتبرة. فقد ضمت هذه الأعمال التي كتبت باللاتينية، التي كانت اللغة الشاملة لأوربا الغربية آنذاك، تواريخ القوط (كتاب *Getica* لجوردانس *Jordanes* (ت. 554)، الذي لخص في جزء منه تاريخا مفقودا لكاسيودورس *Cassiodorus*، المؤرخ من القرن السادس)، تاريخ الفرنجة (غريغوري من تور *Gregory of Tours* (538 ـ 93/ 4)، الذي يمكن وصف عمله بنحو أدق كتاريخ لعصره هو، رغم أنه قدم كتاريخ عالمي على غرار يوسابيوس)، اللومبارد (پولس الشماس (ت. 799؟)) والأنجلو سكسون (بيد (ت. 753)). وسيكفينا منها مثال واحد؛ فقد ألف «الموقر» بيد *Venerable Bede* عدة أعمال في التاريخ والسير تتضمن كتابه الأهم **التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي** *The Ecclesiastical History of the English People*، وهو مزيج رائع من المقدس والدنيوي، يقص علينا قصة بريطانيا منذ عصور ما قبل الرومان حتى عام 731.

لم يكن بيد أكثر حيادا أو برودا من أي مؤرخ آخر في عصره: فمسيحيته نقية حارة، وكذلك إخلاصه للطقس الروماني الذي استقر عليه الإنجليز. وكان **التاريخ الكنسي** زاخرا بالأحداث المعجزة وحياة القديسين التي بثت الحياة في تدوين التاريخ الرهباني خلال العصور الوسطى. ولكن النظر إلى بيد كعالم أرشيفي قبل حداثي متصلب، وتجاهل الجوانب الأدبية والبلاغية في عمله، سيكون من الضلال البعيد. فتاريخه مع ذلك يمتاز بالتحكيم بين المصادر، الموازنة الذكية بين الشفهي والمكتوب، والتدقيق الفطن في قصص من السير الذاتية والمقدسة لأفراد بأعيانهم في نقاط مختلفة، وكذلك رؤية موضوعية مدروسة للعمل ككل. فهو عمل مبدع ونقدي، لا يكتفي بنقل التراث. ونحن فيه نشاهد بعض الخصائص الأساسية لكتابة التاريخ القروسطية، التي مارسها بمستوى رفيع: اعتقادا مخلصا في جانب «المدح والذم» من التاريخ؛ دوره كمعلم لذوي

السلطان؛ الاعتماد على المصادر الشفهية وكذلك المكتوبة مع تجاهل نسبي للفرق بينها (مع تمييز أفضل قيمة بين المخبرين الثقات وغير الثقات)؛ وتصميم الكتاب لا لغرض القراءة الخاصة فحسب بل وللأداء عبر القراءة الجهرية، في مجتمع يكاد يعد متعلما. كان بيد حريصا أيضا على إخبار قرائه من أين وممن حصل على معلوماته، بل كثيرا ما أخبر عن كيف حصل مخبروه على معلوماتهم، بحيث يثبت سلسلة رواة تصل إلى الاقتراب من الأحداث. وبهذا الجانب الأخير فقد تشارك في أمر ما مع المؤرخين الذين أنتجهم الدين الجديد الذي ظهر للتو في الشرق الأوسط، أي الإسلام.

تدوين التاريخ الإسلامي من النبي محمد حتى ابن خلدون

يعد التراث الإسلامي أحدث تراثات تدوين التاريخ العالمية ظهورا، وخلافا للصينيين فقد تمكن مؤلفوه مبكرا من الاطلاع بنحو مبكر نسبيا على الأعمال الكلاسيكية واليهو ـ مسيحية. ولذا فإن تدوين التاريخ الإسلامي يمتاز بدرجة أقل من «الاستقلال» عن تدوين التاريخ الكلاسيكي أو اليهو ـ مسيحي إذا قورن بتراث الصين أو جنوب آسيا (كما سيأتي)، وهو أمر يفسر لنا شبهه الأقرب بالتراث السابق لا اللاحق. وتماما كالدين الذي تطورت كي تدعمه بصراحة، فإن الكتابة التاريخية الإسلامية مرت بمولد سريع جدا وفترة تشكل قصيرة نسبيا امتدت لقرنين أو ثلاثة قبل أن تستقر في نمط واضح يملك أصنافا مميزة وقواعد للممارسة، تبناها المسلمون الذين ألفوا بالعربية في الأصل ومن ثم بالفارسية وبلغات أخرى، مع انتشار الإسلام خارج موطنه العربي.

كان تدوين التاريخ الإسلامي يعبر بصراحة عن حس بالتقدم الزمني بدءا بالخلق ومرورا بالأنبياء (الذين تكللت مسيرتهم بالنبي محمد) ووصولاً إلى نهاية العالم أخيرا. وقد اتخذ النبي محمد وكذلك المؤرخون المسلمون من بعده من التاريخ الكتابي اليهو ـ مسيحي نقطة انطلاق، وقصة مرجعية، وليست قصة باطلة يجب تفنيدها. ففي نظر المسلم، تماما كاليهودي أو المسيحي، كان العالم محدودا زمنيا وقد خلق عند نقطة معينة؛ وكان آدم وحواء أول بشر، ولم يكن محمد بالنبي الفريد في التاريخ، بل هو الآخر والأعظم في سلسلة تمتد عبر يسوع وموسى لتصل إلى إبراهيم.

السلطان؛ الاعتماد على المصادر الشفهية وكذلك المكتوبة مع تجاهل نسبي للفرق بينها (مع تمييز أفضل قيمة بين المخبرين الثقات وغير الثقات)؛ وتصميم الكتاب لا لغرض القراءة الخاصة فحسب بل وللأداء عبر القراءة الجهرية، في مجتمع يكاد يعد متعلما. كان بيد حريصا أيضا على إخبار قرائه من أين وممن حصل على معلوماته، بل كثيرا ما أخبر عن كيف حصل مخبروه على معلوماتهم، بحيث يثبت سلسلة رواة تصل إلى الاقتراب من الأحداث. وبهذا الجانب الأخير فقد تشارك في أمر ما مع المؤرخين الذين أنتجهم الدين الجديد الذي ظهر للتو في الشرق الأوسط، أي الإسلام.

تدوين التاريخ الإسلامي من النبي محمد حتى ابن خلدون

يعد التراث الإسلامي أحدث تراثات تدوين التاريخ العالمية ظهورا، وخلافا للصينيين فقد تمكن مؤلفوه مبكرا من الاطلاع بنحو مبكر نسبيا على الأعمال الكلاسيكية واليهو ـ مسيحية. ولذا فإن تدوين التاريخ الإسلامي يمتاز بدرجة أقل من (الاستقلال) عن تدوين التاريخ الكلاسيكي أو اليهو ـ مسيحي إذا قورن بتراث الصين أو جنوب آسيا (كما سيأتي)، وهو أمر يفسر لنا شبهه الأقرب بالتراث السابق لا اللاحق. وتماما كالدين الذي تطورت كي تدعمه بصراحة، فإن الكتابة التاريخية الإسلامية مرت بمولد سريع جدا وفترة تشكل قصيرة نسبيا امتدت لقرنين أو ثلاثة قبل أن تستقر في نمط واضح يملك أصنافا مميزة وقواعد للممارسة، تبناها المسلمون الذين ألفوا بالعربية في الأصل ومن ثم بالفارسية وبلغات أخرى، مع انتشار الإسلام خارج موطنه العربي.

كان تدوين التاريخ الإسلامي يعبر بصراحة عن حس بالتقدم الزمني بدءا بالخلق ومرورا بالأنبياء (الذين تكللت مسيرتهم بالنبي محمد) ووصولاً إلى نهاية العالم أخيرا. وقد اتخذ النبي محمد وكذلك المؤرخون المسلمون من بعده من التاريخ الكتابي اليهو ـ مسيحي نقطة انطلاق، وقصة مرجعية، وليست قصة باطلة يجب تفنيدها. ففي نظر المسلم، تماما كاليهودي أو المسيحي، كان العالم محدودا زمنيا وقد خلق عند نقطة معينة؛ وكان آدم وحواء أول بشر، ولم يكن محمد بالنبي الفريد في التاريخ، بل هو الآخر والأعظم في سلسلة تمتد عبر يسوع وموسى لتصل إلى إبراهيم.

ثم إن تمسك العلماء المسلمين بتقديم مبررات لآرائهم، عبر إيراد سلاسل السند التي تمتد إلى النبي، يجعلهم يبدون في بعض الأنحاء حديثين للغاية.

رغم أن تدوين التاريخ الإسلامي كان حديث العهد، فقد نما في منطقة تمتاز باهتمام راهن بالماضي. فهناك أمثلة محلية عن تدوين التاريخ، الأنساب، القصص شبه الأسطورية، والتراث الشفهي لدى العرب والفرس معا، كالقصص الشهيرة عن **أيّام العرب**، أو عن تاريخ مناطق معينة كاليمن. أما تدوين التاريخ الإسلامي بحق فقد بدأ في أواسط القرن السابع، حيث كان موضوعه الأول هو حياة وأفعال النبي محمد أو حملاته الحربية (**المغازي**)، وأصبحت هجرته إلى المدينة عام 622 م تاريخا ثابتا يمكن للتقويم الإسلامي أن يتكئ عليه. فقد تطور الاهتمام بالتأريخ وكذلك الشغف برواية الماضي خلال جيل تقريبا بعد وفاة النبي. ومنذ البداية عمليا، قاد شغف حثيث بتدوين الروايات الصحيحة فقط عن النبي أو حوله، مشتق من الحرص الشديد على سلسلة **الإسناد** التي ينقل فيها كل شيخ مروياته لمن بعده، شفويا في العادة: حيث يتكون **الحديث** أو كلام النبي عموما من **إسناد** يليه **متن** (النص الفعلي). وبمجيء القرن التاسع فقد تشكل (علم حديث) يشتمل على قواعد لتقييم نصوص أو شهادات معينة وقدرة على رفض الأحاديث الباطلة أو المنكرة. ولكن ذلك لم يقف في طريق الإبداع الأدبي ـ فقد تشارك المؤلفون المسلمون مع نظرائهم البيزنطيين، الصينيين، والكلاسيكيين في الشغف باستخدام الخطابات المتخيلة لإيصال رسالة أو درس ما، وكانوا مولعين بإيراد قوائم من شتى الأصناف ـ لكن هذا الأمر هنا يشير إلى ميل مختلف عما طبق في سائر أرجاء أوراسيا. فما تزال الدرجة التي طبقت بها معايير علم الحديث بنجاح على الكتابة التاريخية ككل مثار جدل لدى المختصين. أما النقطة الأبرز فهي أننا نضطر مع معظم المؤرخين حتى هذه النقطة لتخمين الأساس الذي انطلقوا منه في عباراتهم، أما سلسلة السند هنا فهي صريحة ومفصلة.

ولكن الإشكال الرئيس في تدوين تاريخ مبني على **الإسناد** هو أنه قلما يترك ذلك مجالا لشهادة غير المسلمين. فماذا يفعل المرء بأدلة يقدمها مسيحي أو يهودي؟ وعلى العكس، فكيف يحكم المرء بصواب الأدلة حول بلدان غريبة لا يوجد فيها مكافئ **للإسناد**؟ لم يكن لدى مؤلف مبكر كابن إسحاق (ز. أواسط القرن الثامن)، نشط قبل

تثبيت قواعد الجرح والتعديل، مشكلة تذكر في الاستعانة بغير المسلمين أو التاريخ القبل إسلامي. ولكن المشكلة ستصبح أقسى عند مؤرخين لاحقين كابن جرير الطبري (ح. 839 ـ 923)، الذي اضطر دوما لتقييد عباراته، مع اقتراب التاريخ العالمي من عصره هو، بصيغ مثل ‹سمعت› أو ‹قيل›. ولكن استعداد المؤرخين لترك الممارسة الصارمة للإسناد التي اتبعها علماء الحديث، أدى في النهاية لإفساح مجال ما بين التاريخ والحديث، حيث تبنى المؤرخون بالتدريج ممارسة **الأدب**، أي ما نسميه بفقه اللغة أو آدابها. فالتواريخ التي ألفت تحت تأثير **الأدب** تمنحنا معلومات أكبر عن نوايا المؤلف وراء كتابتها.

يجسد أحد الأعمال الأبرز، وهو **مروج الذهب ومعادن الجوهر** من القرن العاشر، مدى اتساع هذه النظرة: فهو عمل واسع النطاق جغرافيا وزمنيا، يبدأ بتحدر نوع الإنسان من آدم ويتضمن مناقشة لمساهمات العديد من الأمم القديمة والحديثة في الفنون والعلوم. يعكس مؤلفه المؤرخ العراقي علي بن الحسين المسعودي هذه الميول الإنسانية، ويمتاز كتابه بأدواته النقدية (حيث كان من القلة النادرة من مؤرخي الإسلام الذين انحرفوا عن التشبث الصارم بالإسناد، بل كانوا لا يثقون بالروايات في الجملة) وكذلك تأكيده على أن «كل علم كي يوجد فعليه أن يشتق من التاريخ... ففضل التاريخ بيّن على سائر العلوم». كان التاريخ في نظر المسعودي ترفيها وعلما في آن واحد (بالمعنى الأوسع والأقدم للعلم أي ‹المعرفة›)؛ إذ يجب أن يكون متاحا للعالم والجاهل، وتتسامى ممارسته على الفروق بين العرب والعجم. وهنا نجد صلة واضحة بينه وبين الإغريق، الذين كانت أعمالهم معروفة لدى المسعودي والكتاب العرب الأقدم عهدا منه (وإليهم ينسب الفضل مع العلماء البيزنطيين في الحفاظ عليها)، في تصور التاريخ كشكل من ‹الاكتشاف› وبوصفه مستودعا لكل الخبرات المعروفة ـ أي مصدرا لفهم العالم الطبيعي وكذلك فهم الماضي.

بمجيء السلالة العباسية في أواسط القرن الثامن واتخاذها بغداد عاصمة، كانت المصطلحات التي تعبر عن فكرة سرد الماضي قد تطورت. فاللفظ العربي الحديث، الذي يستخدم بصيغ مختلفة في معظم الدول الإسلامية، هو **التأريخ**، الذي ظهر أول مرة حوالي عام 644. في حين عنت كلمة أخرى، هي **الخبر**، تقريرا من الماضي (لم

تكن أحيانا أطول من فقرة) ألف لغرض الاهتمام التاريخي بدلا من تسليط الضوء على الشرع الإسلامي، وكثيرا ما كان مخصصا لنقل حدث مفرد. ولكن بخلاف بعض المؤرخين الغربيين منذ عهد ثوسيديدس، فمن الواضح أيضا أن العديد من مؤرخي الإسلام لم يشعروا بالتزام لإصدار حكم نهائي على أحداث الماضي التي اختلفت فيها المصادر، بل حاولوا توفير عدة روايات يمكن للقارئ أن ينتقي فيما بينها؛ وذلك يجعلهم أقرب بنحو ما لتوجه أعظم مؤرخي الصين في عهد الهان، سيما چيان، من تلك المصادر الكلاسيكية التي كان المسلمون أشد أنسا بها. ميزة أخرى لتدوين التاريخ الإسلامي المبكر هو ميله نحو العصور البعيدة أكثر من القريبة. ففي حين طرح هيرودوتس أسئلة حول الماضي الذي سبقه بجيل أو أكثر، ورفض ثوسيديدس عمليا أي ماض لم يكن قريبا من عهده، كانت الأجيال الأوائل من المؤرخين المسلمين تتسم بنفور من التاريخ القريب أو المعاصر. بعبارة أخرى، فإن كان المؤرخون اليونان الأوائل يمنحون الأولوية للحداثة في سردهم، فإن المؤرخين المسلمين ـ الذين عملوا ضمن تراث علمي لم يمنح قيمة للماضي بنحو الإجمال، بل لتلك الشريحة من الماضي التي عدت أساسية للإسلام ـ فقد منحوا الأولوية لعهد النبي ومن ثم الفتنة الكبرى، غير ملتفتين جدا إلى أحداث عصرهم الراهن.

كما أنتج العصر ‹الكلاسيكي› لتدوين التاريخ الإسلامي قدرا كبيرا من الكتابة بأقلام الفرس، خاصة في ظل السلالة الغزنوية في القرن الحادي عشر والثاني عشر. وسيستمر تدوين التاريخ الإسلامي الفارسي في ترسيخ القطيعة مع الحرص الشديد على الحديث، وتبني العديد من المؤرخين لتوجه فكري أكثر ليبرالية يحمل ميزات الأدب. ويتجلى التوجه الفارسي إلى التاريخ كفرع من شجرة المعرفة، بدلا من خادم لعلم العقيدة، في شخص متعدد المواهب واسع الترحال هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (973 ـ 1048)، الذي قضى أكثر عمره في الهند. فقد وظف البيروني، الذي كتب بالعربية والفارسية معا، معرفته الرياضية واللغوية في حل التضاربات التقويمية والزمنية بين شعوب العالم؛ وأبدى ميلا متشككا نحو التاريخ البعيد والأسطوري، وخاصة للأنساب المختلقة كتلك التي تظهر في أوقات التفكك الاجتماعي، حيث تضطر الصراعات بين الأسر والسلالات إلى بناء أو اختراع ماض مجيد.

إن الصراع الرئيس الذي خاضه الإسلام القروسطي المتأخر لم يكن مع أوروبا المسيحية (رغم أن الأوروبيين، ولهم أسبابهم، ظنوا غير ذلك) بل مع المغول القادمين من الشرق. فقد اجتاح أحد فروع هذا الشعب البدوي، وهو القبيلة الذهبية ***Golden Horde***، مدينة بغداد عام 1258 وأعدم الخليفة العباسي الأخير إلى جانب أفراد أسرته، قاضيا بذلك على حلم الخلافة الإسلامية العالمية. وبوصفهم شعبا محاربا غير إسلامي احتلك ببلاد فارس غربا وبالصين شرقا خلال القرن الثالث عشر، فقد كان لدى المغول شعور خاص بالعالمية؛ حيث أصبح التفويض الإلهي لحكم العالم الذي منح لجنگيز خان وخلفاءه الطابع الرئيس لمعظم كتاباتهم التاريخية المبكرة. وإلى جانب فرع اليوان المتغلب الذي حكم الصين، فقد أسس التوسع المغولي عددا من الخانيّات ***khanates*** الخاضعة له في غرب ووسط آسيا، وهي أنظمة تبنت الأسلوب الإسلامي لا الصيني في تدوين التاريخ. فقد حكمت السلالة التيمورية، التي تفرعت من أمير الحرب تيمور لنگ (ت. 1405) الذي هيمن في أواخر القرن الرابع عشر، معظم تلك المنطقة خلال القرن الخامس عشر، وكما يبدو فقد كان لديها اهتمام شديد جدا بالتاريخ، حيث كانت تستمع بنحو متكرر إلى قراءة تواريخ وسير الرجال العظام. وفي أحد المواقف، وجد تيمور نفسه في مقابلة أجراها مسلم تونسي بات اسمه يذكر في عداد مشاهير الفكر التاريخي. فابن خلدون (1332 ـ 1406) جدير بالمدح بلا ريب، على أنه كان شخصا أقل تميزا مما قد يدعيه معجبوه الغربيون، غير المطلعين على تدوين التاريخ الإسلامي في القرون السبعة السابقة. ولكن الأصح هو أن ننظر إلى جهوده كقمة تكللت بها الميول الفلسفية التي رأيناها من قبل لدى المسعودي. لم تستند شهرته تقليديا إلى تاريخه نفسه بل إلى **المقدمة** التي صدّره بها، وهي محاولة طموحة لتحليل العوامل العديدة التي تقف وراء التغير التاريخي، وتتضمن العادات، الطباع، المناخ، والاقتصاد.

لقد وجدت فكرة ابن خلدون القائلة بأن الأفراد والجماعات التي تصل إلى السلطة إنما تحركها روح الجماعة أو **العصبيّة** (التي كثيرا ما تعمل بدورها ضد ديمومة تلك السلطة ويجب قمعها) لها نظائر لدى كتاب أوروبيين متأخرين مثل ي.غ. هيردر (انظر الفصل الرابع، ص 201)، أما اعتقاده بأن الأنظمة ما إن تتوطد فإنها ستؤول حتما

للتقسيم أو الفساد فهو صدى لفكرة الدورات السياسية عند اليوناني پوليبيوس. كما يستبق تحليله للسلطة جهود موسوعي تاريخي من القرن السادس عشر، هو الفلورنسي نيكولو مكياڤيلي. ولكن **المقدمة** لا تعنى فقط بالأسئلة الكبرى عن العمليات والتأثيرات التاريخية. فمنذ القرن التاسع والعاشر، حين طعن علماء العقيدة في منفعة التاريخ وجدواه، بدأ ممارسوه بالرد عليهم، إذ فصلوا في مقدمات كتبهم عادة ذلك الأساس الذي بنيت عليه مناهجهم وافتراضاتهم. ويظل ابن خلدون، رغم أن ملاحظاته واسعة النطاق جدًا، جزءا من تراث قائم عن التفكير حول ما قد يتضمنه التاريخ كأحد فروع المعرفة، وأين تكمن نقاط ضعفه. ففي مطلع مقدمته يتناول ابن خلدون مسألة حدود الحقيقة التاريخية ـ أو الكذب التاريخي بالأحرى. فالمعرفة التاريخية تتطرق لها شتى أنواع الأباطيل، أولها «التشيّعات للآراء والمذاهب»، وكان يعني بذلك الولاء دون تفكير لفرقة أو موقف ما داخل الإسلام. كما تنجم أنواع أخرى من الكذب عن مدى متنوع من الضعف البشري ـ كالثقة بالناقلين دون تمحيصهم، والذهول عن مقاصد الأخبار، وتوهم صدق حدث ما، وميل الناس لتزويق الأخبار تقربا لأصحاب المكانة والمراتب، وفوق ذلك كله «الجهل بطبائع الأحوال في العمران». وهذه كلها عوامل ستستكشف لاحقا على صعيد نظري وفلسفي على أيدي أوربيين في عصر لاحق.

أشكال التاريخ في جنوب آسيا

لم تكن قيم أو أسلوب تدوين التاريخ الصيني والإسلامي شبيهة بمثيلاتها لدى الأوربيين المسيحيين، ولكن منجزاتهم ظلت تعتبر تواريخَ بكل وضوح، وهي تتشارك هموما شائعة تجاه أمور كالتوثيق الزمني، الوظيفة المعيارية، الولاء الصريح (نظريا على الأقل) لتمثيل «الحقيقة»، والالتزام باستذكار حقائق معينة حول الماضي. ولهذا السبب، فحتى الاحترام الذي كان يمنح للتقاليد التاريخية الصينية في معظم تواريخ علم التاريخ الغربية (حين تذكر أصلا) لم يشمل نهائيا أي أشكال أخرى من التفكير في الماضي لأنها بدت أبعد منها بكثير ـ ومن بينها الكتابة التاريخية المبكرة في جنوب آسيا. فقدرتها الخلاقة على توليد الفكر والكتابة عن الماضي التي كثيرا ما قوبلت بالرفض ـ حيث أشار أبو الريحان البيروني إلى عدم اهتمام الهندوس «بالترتيب

التاريخي للأشياء، منذ عقد 1020؛ وعلّق غيبون على انعدام التاريخ ‹الآسيوي› عموما في القرن الثامن عشر؛ وترددت هذه الإدانة عند جيمس ميل وكذلك غيورغ ڤيلهلم فريدريش هيغل في مطلع القرن التاسع عشر.

لم يسمح تعدد الجماعات الإثنية واللغات، فضلا عن التعقيدات ضمن كل دين وفيما بين الأديان، بتطور أي شيء يشبه تدوين التاريخ الغربي، لو كنا نعني به مجموعة صارمة من المؤرخين على نهج ثوسيديدس. ولم يوجد في الهند هيكل حكومي مركزي كالذي حفّز أو مأسس من ثم لتدوين التاريخ الصيني بعد سلالة الچين. ولكن التفكير في الماضي، وكذلك التراث الشفهي والكتابة المشتقة منه، كانا موجودين في الهند القديمة وضمن عدة تقاليد. كان الأبرز من بينها هو المعروف باسم **إتيهاسا پورانا** *itihasa – purana*، الذي أصبح في أواسط الألفية الأولى بعد الميلاد مصدرا رئيسا لطبقة البراهمة الحاكمة. يمكن ترجمة كلمة *itihasa* إلى ‹هكذا كان› وقد باتت في العصور الأحدث تعني ‹التاريخ›، ولو أنها لم تحظ بهذه الدلالة في العصور القديمة. أما *purana* (في السنسكريتية) فتعني ‹ما يتعلق بالعصور القديمة› أو ‹المعارف القديمة›، مسموعة كانت أو مستذكرة. وتتضمن **ڤشنو پورانا**، التي تعود لأواسط الألفية الأولى بعد الميلاد، فصلا عن ‹التعاقب› يوضح وجهة نظرها، وكذلك يشهد على نشوء التاريخ من رحم الأسطورة. فهو يبدأ في الأزمان القصيّة الأسطورية ويستمر جيلا بعد جيل خلال طوفان عظيم وحرب عظمى تمثل نهاية عصر بطولي.

كما طورت الهند قبل الإسلام تقاليد أخرى للكتابة عن الماضي بنحو مستقل عن **إتيهاسا پورانا**، كثيرا ما كان مركزها المؤسسات الدينية. فقد أظهر الدين الآخر الأكبر في تلك المنطقة، أي البوذية، بدوره التزاما مبكرا بالتاريخ المكتوب وتوثيق الزمن. وقد شذت الكتابة التاريخية البوذية، التي وجدت أيضا في التبت وسريلانكا، عن مثيلتها البرهمية في نقطة مهمة واحدة على الأقل، هي اعتيادها تأريخ الأحداث انطلاقا من نقطة واحدة، هي موت البوذا ح. 483 ق.م. (وهو تاريخ مختلف عليه تستخدمه بعض البلدان المتأثرة بالبوذية، وليس كلها). فالتواريخ باللغة الپاليّة من سريلانكا مثلا تركز على تاريخ طريقة أو دير بوذي محدد لكنها تستفيض في التاريخ المدني وتاريخ العصور السابقة. وتعد الأبرز من بينها كتب **الڤامسا** *vamsas*، وهو صنف أدبي استمر

ظهر قرابة 140 تاريخا للسلالات بين نهاية عصر الهان وعودة الاستقرار في ظل التانغ؛ وفي حين لم يستطع بان غو أن يسرد سوى اثني عشر عملا تاريخيا في القرن الأول للميلاد، ففي عام 656 استطاع مؤلفو **السوي شو** *Suishu*، وهو تاريخ لسلالة السوي (حكمت 581 ـ 618)، أن يعدوا قرابة 900 عمل. وفي أواسط القرن السادس، في محاولة لاجتثاث التواريخ غير الموثوقة، أعلن الإمبراطور يوانغ من سلالة الليانغ (حكم 552 ـ 5) اعتبار بعضها 'تواريخ معتمدة / جنغ شي *Zhengshi*'، وبهذا ولد هذا المصطلح رسميا (أما حصر عددها بأربعة وعشرين نصا رسميا فلم يتم إلا في وقت متأخر جدا، خلال القرن الثامن عشر).

لقد أحدث ظهور سلالة التانغ (618 ـ 907) تغيرا معتبرا في مكانة وممارسة تدوين التاريخ معا. فإضافة إلى خلق نظام امتحانات الخدمة المدنية (عام 622) الذي سيستمر لقرون طوال، فإن سلالة التانغ نسجت صناعة التاريخ ضمن سير عمل الحكومة، وباشرت في إحالة منظمة للتاريخ إلى 'نزعة مكتبية *bureaucratization*'، مستندة إلى الرعاية الإمبراطورية لتأليف التواريخ في ظل سلالات سابقة. وفي عام 629 أنشئ ديوان لكتابة التاريخ (*shiguan*)، كان يرتبط أصلا بديوان المراسلات، وبعد قرن ونيف انتقل إلى أمانة السر؛ وكان لهذا الديوان مكتب فرعي في العاصمة الشرقية لوويانغ.

لقد اقترح مشروع تدوين التاريخ في سلالة التانغ بقصد خلق مجموعة موثوقة من السجلات، أو تاريخ وطني (*Guoshi*) للعهود القريبة، سيستخدم فيما بعد للتأسيس المستقبلي لتاريخ السلالة. وقد أنتج الديوان أيضا تواريخ جديدة لعدة سلالات ظهرت بعد الهان، مقتديا بكتاب **الهانشو** لبان غو الكونفوشي المستقيم، بدلا من **الشيجي** الأشد انتقائية. وكما تقرر في هذا الديوان، فقد ميزت العملية بوضوح بين **تسطير** الأحداث التاريخية كما وقعت و**كتابة** التواريخ التي خلّدتها فيما بعد على هيئة سرد. لن نجد تصورا بهذا الوضوح لهذا الفرق في أي مكان من العالم آنذاك، أو أي شيء يشبه توجه خط التجميع هذا نحو إنتاج الأعمال ولو عن بعد، بمراحل إنشائه المتصاعدة من الأحداث اليومية إلى ملخص تاريخ السلالة. فقد بدأت هذه العملية من مذكرات البلاط التي يحتفظ بها خلال عهد الإمبراطور الحالي، وهي تذكار لأفعاله

وأقواله لم يكن يحق للإمبراطور نفسه نظريا أن يصل إليها ـ لدرجة أن أحد الأباطرة منع حتى من النظر إلى ما كان كتاب المذكرات يكتبونه. ومن هذه المواد وغيرها كانت مجموعة من «السجلات المعتمدة» (*shilu*) تتشكل في نهاية كل عهد، وأحيانا يؤلف «تاريخ وطني» لذلك العهد ذاته، عادة ما يحاكي صيغة الحوليات السيريّة التي اتخذتها التواريخ المعتمدة. وكإبداع لسلالة التانغ لم تسبق إليه فيما مضى، فإن هذه السجلات مثلت جزءا جوهريا من تدوين التاريخ الرسمي في كل السلالات اللاحقة؛ فبعد أفول السلالة نهائيا وصعود السلالة التي تخلفها، مهدت هذه السجلات الأساس للتاريخ المعتمد لتلك السلالة، وهو عمل سيتضمن حتما عنصرين ضروريين، هما الحوليات الأساسية وسير أفراد النبلاء وأحيانا الشعوب الأجنبية.

لم يكتب كل التاريخ كتاريخ سلالات، ولم يكن بأسره تحت تحكم الديوان. فقد كانت هناك أيضا بعض التفرعات، بما فيها التواريخ المؤسسية، الموسوعات التاريخية، والتواريخ المؤلفة فرديا، التي كان بعض منها بقلم أفراد الديوان الذين عملوا بسعيهم الخاص. فقد تنصل العديد من الكتاب الخاصين من تعقيدات صيغة الحوليات والسير، وفضلوا عليها سجل وقائع سهل المأخذ يمضي عاما بعد عام. وقرب نهاية سلالة التانغ، بدأت التواريخ الخاصة تتكاثر مع فقدان الديوان لشيء من سلطته؛ فقد ظهرت تواريخ غير رسمية كتبت على غرار سجلات الوقائع، نظرا لرغبة بعض العلماء في تحرير أو اختصار تواريخ السلالات المستفيضة في العادة. ومع أن جهاز تدوين التاريخ في سلالة التانغ قد كون محبطا ومقاوما للتجديد، فمن الجدير بالذكر أنه أنتج نقاده بنفسه. وكان من بينهم ليو جيجي *Liu Zhiji* (661 ـ 721)، المقارب في عصره للموقر بيد في إنجلترا، الذي يعد كتابه *Shitong* («نظرات مفصلة في تدوين التاريخ») تعليقا دقيقا للغاية حول كتابة التاريخ. فمع أنه تربى على التاريخ منذ سنّ مبكرة، كانت مسيرة ليو المهنية قصيرة كمؤرخ رسمي. فقد تبخرت آماله في الديوان، الذي استقال منه لأنه «مأوى للعاطلين» و«تكية للمساجين». واحتقر نمط الحياة المريح وسهل الإفساد الذي عاشه أعضاؤه، وسهولة تعرض عملية الإنشاء للتدخلات السياسية، سواء من قبل الإمبراطور أو كبراء وزرائه المتعنتين. ولقد كان ليو متشككا في المزايا الأدبية للتواريخ المؤلفة جماعيا. فقد اعتبر الموهبة والمعرفة

والبصيرة مفردات جوهرية للمؤرخ الجيد، والحق والإنصاف أسمى الأهداف التي قد يطمح إليها المؤرخ في كتابته؛ ثم إنه قسم الأصناف التاريخية بنحو أشد رسمية، ونظم كل التواريخ السابقة وفقا لست 'مدارس'.

لم تقل مساهمة سلالة السونغ (960 ـ 1269) في تدوين التاريخ عما سبقتها أهمية. فقد أثني على مؤرخي السونغ لعملهم على أدوات التفكير التاريخي 'الحديث'. وقد لخص مؤرخو السونغ السجلات المعتمدة الإلزامية لكل إمبراطور، ثم زادوا من تطوير كتابة الأدلة الجغرافية (*fangzhi*) للمناطق الإدارية المنفردة، لتتضمن معلومات عن الفهارس، الجغرافيا، الأنساب، السير، التاريخ، والمجتمع. ثم إنهم أنتجوا ما لا يقل عن ستة أعمال شاملة *Guoshi* (أي تواريخ 'وطنية' بمعنى محدود، زائدة فتُحذَف تشمل الأنظمة الحاكمة ومناطقها معا)، تشتمل على حوليات، أعمال منفردة، وسير حياة. وقد أنتجت هذه السلالة أعظم مؤرخ صيني تقريبا منذ سيما چيان، وهو فرد آخر من عائلة سيما، يدعى سيما غوانغ *Sima Guang* (1019 ـ 86). أنتج سيما، وهو السياسي والمسؤول الرفيع حتى أجبره خصومه على التقاعد، أعمالا في مواضيع متنوعة، لكن إرثه الأكبر كان عمله الضخم، الذي استغرق في إعداده قرابة عقدين، الذي يعرف باسم زيجي تونغجيان *Zizhi Tongjian*. وهذا العنوان الذي أطلقه على كتابه الإمبراطور الداعم ماليا لسيما والمعجب به بعدما قرأ المؤرخ بعض فصوله المبكرة في البلاط، عادة ما يترجم باسم 'المرآة الشاملة لمعونة الحكومة'. لقد ورث سيما غوانغ بعضا من إحباط ليو جيجي في سلالة التانغ تجاه حدود التواريخ المعتمدة وجودتها، وكان من بين أسبابه لذلك بالطبع عجزها عن الإحاطة بمدى تاريخي أوسع من سلالة واحدة (وهي مشكلة ستصيب المؤرخين الصينيين في أواخر القرن التاسع عشر بالحيرة كما سنرى لاحقا، وتضطرهم للبحث عن حلول من خارج بلادهم كليا). وكان يطمح إلى كتابة تاريخ عام شامل (*tong*) للصين منذ عصر الإمارات المتحاربة السابق لسلالة الچين؛ وعندما انتهى منه، كان عمله يغطي الفترة بين عام 403 ق.م و959 م. في حين استطاع سيما چيان حل مشكلة التنظيم عبر تقطيع مادته بعدة أنحاء إلى حوليات، توثيق زمني، سير حياة وما شاكل، آثر سيما غوانغ طريقا أيسر استغنى معه عن تداخل التغطية كي يبرز للعيان دروس الماضي: وهو السرد الزمني المباشر.

فقد أكد الحاجة إلى تمحيص المصادر الأصلية ما أمكن ذلك بدلا من الأعمال المتأخرة ـ وهي صياغة مبكرة للتمييز بين المصادر الأولية والثانوية ـ بل وأبدى شكا قاسيا تجاه الاستعانة بخوارق الطبيعة كعامل سببي. لقد أصبح عمل سيما غوانغ درة التاج في تراث التدوين التاريخي لسلالة السونغ، الذي أكد الدروس العملية للتاريخ واعتصار الإنشاء المطنب في ماض مفيد، عبر كتب مرتبة موضوعيا كالموسوعات. وأصبحت المعرفة بالتاريخ جزءا مهما من نظام التعليم الصيني صعودا حتى البلاط الإمبراطوري. وسيستمر نظام من المحاضرات الإمبراطورية أو الندوات حول دروس التاريخ، وكذلك قراءات منتظمة لأعمال سيما غوانغ وغيره، حتى نهاية الإمبراطورية عام 1911.

تطور التاريخ في اليابان (التي باتت ‹أمة› معترفا بها منذ القرن الخامس للميلاد) في وقت متأخر عن الصين، ولم يتخذ نفس الأشكال هناك بالرغم من تبني الكتابة الصينية، والاستيراد المكثف للآداب الصينية، ونفوذ الكونفوشية والبوذية معا، والاستخدام الوافر للصينية كلغة للإنشاء. والفروق بينهما مهمة. فقد لوحظ أحيانا أنه في حين تبنى اليابانيون مبادئ الكونفوشية ونماذج تدوين التاريخ الصينية، لم يصاحب أي من المواقف النقدية تجاه المصادر والروايات غير المؤكدة هذا الاستيراد، بل على العكس، فقد اعتبر معظم المؤرخين اليابانيين من واجبهم عمليا أن يتقبلوا التقاليد القديمة: فقد وجه موتوئوري نوريناغا *Motoori Norinaga*، المؤرخ والقومي من القرن الثامن عشر، الذي أبغض التأثيرات الصينية في بلاده، ورفض بكل صراحة نقد المصادر عند الكونفوشيين، نصيحة لقرائه ألا يطالعوا الكتب القديمة ‹بقلب صيني› (*karagokoro*) متشكك. وإضافة إلى ذلك، ففي حين احتاج التاريخ الرسمي لبعض الوقت كي يتطور في الصين، ربط اليابانيون بين كتابة التاريخ والأسرة الإمبراطورية منذ البداية، كوسيلة لتعضيد سلالة الياماتو اليافعة بعض الشيء. ولم تظهر كتابة التاريخ الخاصة إلا بعد وقت طويل، حين مر التراث المبكر للتواريخ الرسمية بتوقف مفاجئ في أوائل القرن العاشر، وليس بنحو موازٍ لها كما في الصين.

تعود أقدم النصوص التاريخية المتوفرة إلى بداية عصر نارا (710 ـ 94): وهي **الكوجيكي** *Kojiki* ‹سجل الأمور القديمة›، الذي أكمل عام 712) **والنيهون شوكي**

Nihon Shoki (سجلات وقائع اليابان)، المعروف أيضا باسم **النيهونغي**، الذي جمع عام 720). أمر بتأليف **الكوجيكي** عام 711، من قبل الإمبراطورة غيمّي *Gemmei* كما يبدو، في حين قد يكون **النيهون شوكي** نتيجة (أو نسخة متأخرة لتلك النتيجة) للعمل الذي أمر به حموها (والد زوجها) الإمبراطور تيمّو *Temmu*. ويروي كلا الكتابين لنا أسطورة مفعمة بالقوة عن خلق العالم وتأسيس الإمبراطورية لاحقا على يد جيمّو *Jimmu*، أول ملك بشري، والسليل المباشر لإلهة الشمس. وستظل ثيمة شبه متسقة من التصورات اليابانية للماضي، هي الاعتقاد بالنسب الإلهي للإمبراطور (*Tenno*)، تدرّس في مدارس اليابان خلال القرن العشرين. يبدأ كتابا **الكوجيكي** و**النيهون شوكي** معا قصتهما منذ خلق العالم، معتمدين على الأساطير والخرافات والروايات الشفهية، إضافة إلى وثائق سابقة يزعمان أنها صحيحة.

ثمة فروق مهمة بين هذين العملين القديمين. **فالكوجيكي**، الذي يخلو من توثيق زمني واضح، ينتهي قرابة عام 628، أما **النيهون شوكي** (الموثق زمنيا بإصرار نسبي في المقابل) فينتهي عام 698. لقد أريد من **النيهون شوكي** أن يؤسس لصورة اليابان في مشهد عالمي، أو محلي على الأقل، كان العملاق الصيني يطل على جناحيه. فقد ألف بالصينية في محاولة أشد صراحة لتقليد تدوين التاريخ الصيني، بما في ذلك الميل الذي لاحظناه سابقا عند سيما چيان لإيراد عدة صيغ من الحدث ذاته، تسبقها عبارات مثل 'يقول عمل آخر' أو 'يقال في مورد آخر'. ومن الواضح أن مؤلفيه استعانوا **بالجنغ شي** (التواريخ المعتمدة) الصينية كنماذج ومصادر معا: فهذا العمل يستعير مقاطع من أعمال صينية ويحولها إلى خطابات لملوك يابانيين. وبحلول عام 901 كان **النيهون شوكي** قد تعزز بخمسة أعمال أخرى كتبت بالصينية، وألفت أيضا على غرار **الغوو شي** (التاريخ الوطني) و**الجنغ شي**، لتشكّل بالإضافة إليه 'التواريخ الوطنية الست / ريكّوكوشي *Rikkokushi*'.

مع أواخر القرن العاشر، بدأت ممارسة الاستنساخ شبه الآلي في اليابان لتواريخ السلالات الصينية بالأفول. فقد ألغي الديوان المسؤول عن إنتاج تتمة مخطط لها **للريكّوكوشي** عام 969. ولذلك عدة أسباب، أهمها هو أن النظام الصيني لكتابة التاريخ، وخاصة استخدم السلالة كوحدة أساسية للتاريخ المعتمد، كان بأنحاء

جوهرية غير مناسب لليابان. فمن وجهة نظر يابانية كان جميع الأباطرة ينتمون للسلالة ذاتها، حيث يتحدرون مباشرة من جيمّو: فكل من حكايات **الكوجيكي** المجمّعة وكذلك **النيهون شوكي** الأفضل ترتيبا زمنيا تفترض استمرار الخط الإمبراطوري، بدلا من دورة الصعود والسقوط للسلالات التي تتصف بها التواريخ المعتمدة الصينية. وبغض النظر عن بعض حركات التمرد الضئيلة، قلما كان هناك أي اضطراب نسبيا قبل القرن الثاني عشر. كانت التغيرات في النسب ضمن السلالة توثق كما يجب، وحتى دورة ‹الإمبراطور الأول الجيد/ الإمبراطور الأخير السيئ› نقلت من الصين إلى اليابان؛ ولكن هذه التغيرات لم تمثل عند الكتاب اليابانيين نقلة كبرى في ‹تفويض السماء›. وقد ضمنت هذه النزعة السلالية، إضافة إلى درجة من المقاومة للهيمنة الثقافية الصينية بالرغم من نفوذ الكونفوشية، أنه رغم استعارة لغة الكتابة التاريخية الصينية في البدء، فإن بنيتها لم تشيد بالكامل مجددا في اليابان. وبهذا الصدد فهناك مفارقة واضحة هنا مع الجارة كوريا، التي اعترفت بسلالات مستقلة وتقبلت الكتابة التاريخية الصينية بسهولة أكبر، حتى في الأصناف التاريخية مثل sillok (= shilu) وchongsa (= Zhengshi).

بدءا من القرن الحادي عشر، وقرابة وسط عصر الهيّان *Heian* (784 ـ 1185)، بدأ صنف جديد من التاريخ، كتب باليابانية، يظهر بشكل **مونوغاتاري** *monogatari*، وهي قصص تنشأ شعرا أو نثرا. بعض هذه القصص أقرب إلى الخيال من الواقع، وتوفر مثالا آخر على مقاومة العديد من الثقافات التاريخية الأسبق لفرض حواجز صارمة بين الأمرين. تتكون الحكايا التاريخية *Rekishi monogatari* من ستة أعمال ألفها علماء وأفراد حاشية مستقلون، تحذو أحيانا حذو سجل الوقائع لكنها تبتعد بنحو معتبر عن التواريخ الوطنية في المدى والأسلوب، وتتضمن أحيانا راويا بصيغة المتكلم. وكان عدد من القصص، كتلك التي تعرف بحكايا الحرب *Gunki monogatari*، يتناول صراعات عنيفة، وعادة ما كانت تردد شفهيا (بنحو لا يختلف عن ملاحم هوميروس أو أناشيد الأمجاد *chansons de geste* الفرنسية، التي تشبهها من حيث قيمها البطولية) قبل أن توثق بالكتابة نثرا، وترسم أيضا في أحيان كثيرة. خمسة من هذه الأعمال تظل متوافرة اليوم، وتعود بشكل أساس إلى القرن الثاني عشر. وكان آخر تلك السلسلة

وأطولها هو (سجل وقائع السلام العظيم *Taiheiki*)، الذي كتب في وقت متأخر نسبيا، في أواسط القرن الرابع عشر.

من بين أوسع الأعمال قراءة في الكتابة التاريخية اليابانية خلال العصور الوسطى يبرز كتاب **خرابيش أحمق** *Gukansho* (ح. 1220) للراهب البوذي جيين *Jien*، وعمل آخر متأثر بالبوذية من صنف الحكايا التاريخية، هو **المرآة الكبيرة** *Okagami*. كتب جيين (1155 ـ 1225) في عصر من الاضطراب الواسع وسط تحديات طبقة محاربين صاعدة لسلطة الإمبراطور؛ ودفعه ذلك للبحث في الماضي عن أنماط تقف وراء ذلك، وتأملاته هذه عن (المنطق) كسبب أساس للأحداث في ماضي اليابان هي ما حاز أكبر أهمية. فمن الصعب ألا نلاحظ بعض تلك الهموم التي ظهرت في تدوين التاريخ الروماني المتأخر، وستظهر مجددا في عصور لاحقة ـ كيف نوفق بين سلطة إمبراطورية إلهية نظريا وواقع الجيش العازم على فرض نفوذ مباشر في الحكم. فقد كان الماضي نفسه عملية مستمرة لا تتكون من الصدف والعوارض، بل من صنع شيء ما (كالمنطق). وينبغي تأكيد أن هذا لم يكن نفس نوع (المنطق) الذي خطر في أذهان المفكرين الأوروبيين خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، بل هو قانون غير متشخص للصعود والسقوط الدوري للأشياء (بما فيها الدول) ضمن طور مهيمن من التداعي؛ وكان ما يربطه ببوليبيوس أكثر من صلته بهيغل. وكتاب **المرآة الكبيرة** يحمل طورا مشابها: فقد كان مؤلفه، الذي صاغه كمحادثة بين رجلين مسنين، يشارك جيين فكرته عن التداعي، والقناعة بأن العالم كان في مرحلة متقدمة من *mappo*، وهو آخر العصور الثلاثة البوذية، ويتمثل بحقبة 10.000 عام من التداعي. ورغم أن **المرآة الكبيرة** كان أول عمل تاريخي باللغة اليابانية يحاكي شكل الحوليات والسير للتواريخ المعتمدة الصينية، فقد كان عملا خاصا كتبه مؤلف مجهول، وليس تاريخا رسميا **كالريكّوكوشي**. وبخلاف التواريخ الوطنية أيضا (ولكن مثل كتاب جيين)، فقد كتب **المرآة الكبيرة** والأعمال اللاحقة له (التي حملت كلمة *kagami* / (المرآة) أيضا في عناوينها) باليابانية، وعلى يد أفراد بدلا من لجان.

ولكن في عمل لاحق هو **الجينّو شوتوكي** *Jinno Shotoki* (سجل الخلافة

الشرعية للملوك الإلهيين›، الذي أكمل عام 1339)، يبدو أننا أكملنا دورة كاملة لنصل مجددا إلى الاستخدام الأصلي للتاريخ في القرن الثامن لغرض تشريع وجود النظام الإمبراطوري، وكثيرا ما استعين بهذا العمل خلال القرون العديدة التالية كنداء بالولاء للإمبراطور. وكان مؤلفه كيتاباتاكي چيكافوسا Kitabatake Chikafusa (1293 ـ 1354) أحد المؤرخين اليابانيين القروسطيين، إلى جانب جيين، الذين نعرف عنهم أكثر من أسمائهم فحسب. كان چيكافوسا (الذي يشار إليه عادة باسمه الشخصي) مستشارا إمبراطوريا سابقا، محاربا، ونبيلا يبدو أنه تصدى لمهمة كتابة عمله هذا وهو محاصر في مقاطعته الأصلية ولا يملك إلا كتابا واحدا هو ‹سلسلة نسب إمبراطورية مختصرة›، رغم أنه تمكن من تنقيحه بعد عدة أعوام. يعد **الجينّو شوتوكي** استعراضا لتاريخ الخط الإمبراطوري بطوله، عاهلا بعد آخر، وينتهي بوفاة الإمبراطور غو ـ دايغو (م. 1318 ـ 39) في العام الذي ألف فيه العمل. كان تاريخ چيكافوسا محاولة متحزبة بلا خجل لحشد الدعم للإمبراطور ضد طبقة الساموراي (المحاربين). وكان چيكافوسا يعرف التاريخ الصيني عن طريق أعمال مثل **الشيجي** و**الهانشو**، وقد قارن بين نمط التغير في السلالات الذي عانت منه الصين والخراب ‹العصي على الوصف› الذي حل بها جراءه، والاستقرار الذي يميز الخط الإمبراطوري الياباني. فاليابان ستعود أبدا إلى الأسرة الحاكمة ذاتها ـ وحتى الانحرافات نحو أنساب منفصلة ليست سوى روافد متدفقة ستصب مجددا في النهر الرئيس. هذه الفكرة عن مكانة اليابان الخاصة جديرة بالذكر هنا لسببين: الأول أننا سنرى هذه الثيمة تتكرر في الفكر التاريخي الياباني لاحقا؛ والثاني أنها تشبه الحجج ‹الاستثنائية› التي أطلقت في أرجاء أخرى من العالم وفي أوقات مختلفة، من فكرة بني إسرائيل عن الشعب المختار الذي قطع الله معه ميثاقا، إلى رؤية الموقر بيد المشابهة لقومه الأنجلو سكسون، وحتى فكرة العناية البروتستانتية في أوائل الحداثة، وأخيرا نصل إلى القومية الألمانية وفكرتها عن الطريق المنفصل *Sonderweg* والقناعات الأميركية في القرن التاسع عشر عن المصير الجليّ *Manifest Destiny*.

عصر سجلات الوقائع: الكتابة التاريخية في ديار المسيحية أواخر العصور الوسطى

كان الاستخفاف طويل الأمد بالكتابة التاريخية القروسطية لأجل خطايا شتى ساورتها في الأسلوب والإنشاء، واتهامها بالقصور عن اتخاذ نظرة نقدية تجاه المصادر وعن التزام الوثاقة أصلا، موقفا كان أول من اتخذه هم إنسانيو عصر النهضة وظل صداه يتردد حتى القرن العشرين. حيث سيطر ميل صارم ظالم إلى الحكم على كل الكتابات التاريخية بمعايير العصور اللاحقة. ولكن حتى حين يرفض المرء الاستنتاجات المحملة بالقيم، فعليه مع ذلك أن يقر بأن أكثر التدوين التاريخي القروسطي يبدو غريبا بالفعل في عين القارئ الحديث. ففي زمرة من المؤرخين الأوربيين تتضمن ثوسيديدس أو تاسيتوس من جهة وليوپولد فون رانكه أو كارل ماركس من جهة أخرى، سيبدو أي مؤرخ تقريبا ممن كتب بين أواخر القرن الخامس وأواسط الخامس عشر غريبا بعض الشيء، ولو بدرجات متفاوتة. وقد قدمت تفسيرات مختلفة للمعالم الغريبة لتواريخ العصور الوسطى، كثيرا ما ركزت على ميل المؤرخين إلى الإنشاء المهلهل، حيث تتعاقب عدة أحداث غير مترابطة في الظاهر، حتى في طيات أعمال تكاد تمثل سردا مستمرا.

لقد أدى استقرار الممالك في غرب أوربا خلال القرن الثامن والتاسع بنحو أو آخر إلى نهاية عصر الهجرات، وتأسيس حدود مناطقية إن لم تكن قومية بحق، وإقامة بيوت أرستقراطية وملكية. وبحلول العام 1000 بات من الممكن أن نتحدث عن دول تدعى «إنجلترا»، «سكوتلندا»، و«فرنسا»، كان لكل منها عاهل خاص، حتى لو لم يتمكن التعاقب الوراثي تماما من محو الممارسات الجرمانية الأقدم للملكية الانتخابية. أما البقاع الجغرافية الأخرى فستظل مقسمة لعدة قرون قادمة. في مطلع القرن العاشر، كان أقرب شيء إلى القوة الإمبريالية في وسط أوربا يكمن عند عائلة أوتو، وهم سلالة جرمانية سكسونية، أما الفرنسيون، وهو الاسم الذي اتخذه الفرنجة الشمال غربيون آنذاك، فقد حكمتهم عائلة كاپيه. وستقضي إنجلترا التي وحّدها ملوك ويسكس في القرن العاشر قرنين كاملين وهي تصد هجمات النرويجيين والدنماركيين. أما شبه جزيرة إيبيريا، التي كانت موحدة من قبل في ظل مملكة القوط الغربيين في طليطلة

Toledo، فقد تفككت في تلك الأثناء إلى عدة ممالك متنافسة، وباتت الآن تضم حضورا إسلاميا قويا في الأندلس.

وهكذا، ومن زاوية تدوين التاريخ، فمن الممكن في هذه النقطة أن نشير إلى بعض التطورات البارزة. النقطة الأولى والأبرز هي التزايد الجلي في عدد الأصناف المتمايزة، بنحو يتجاوز الفروق القديمة بين التاريخ العالمي والتاريخ الكنسي، ولكن دون ما يشبه الحرص الشديد لدى الصينيين أو قدماء الإغريق على الهيئة والتصنيف. فقد أتيح للعصور الوسطى، وخاصة في أوربا اللاتينية، إرث كلاسيكي مبتسر ومخرّب. حيث كانوا من جهة يعرفون ويمارسون تعليم البلاغة الكلاسيكية ويدركون وجود فروق بين الأصناف. فقد احتج المؤرخ الأنجلو ـ نورماني أوردريك ڤيتالس *Orderic Vitalis* قائلا بأن تاريخه ليس بالتراجيديا الحزينة ولا «الكوميديا الثرثارة»، بل مجرد سجل لأشتات مختلفة من الأحداث لأجل القراء النابهين. ولكن الوعي بالفروق بين الأصناف قلما ترجم من جهة أخرى إلى ممارسة في تدوين التاريخ. فقد باتت كلمة *historia* ذاتها تنطبق دون تمييز على التاريخ المدني والديني وكذلك على الكتب التاريخية في الكتاب المقدس. وسيشمل هذا المصطلح قريبا الأدبيات الرومانسية وسائر الأعمال الخيالية، ومن غير الواضح بحق إن كان جمهور العصور الوسطى يميز بين الأمرين، أو كان منزعجا من تداخلهما من الأساس.

كلما ازداد كتّاب التاريخ بعدا عن عصر الأنتيك، ازدادت الصعوبة التي واجهتهم في حشر قصص الممالك حديثة الظهور في قالب النماذج الكلاسيكية. حيث تمثلت إحدى مشكلاتهم في قلة عدد هذه النماذج. فليس صحيحا على الإطلاق أن المؤرخين القروسطيين كانوا جهلاء بتدوين التاريخ القديم، وبممارسته وقيمه، أو أن الأعمال الكلاسيكية كانت «مفقودة» برمتها حتى عصر النهضة. بل على العكس، فهناك خط مرئي ـ وإن كان منقطا ومتعرجا في بعض الأحيان ـ بين المؤرخين القدماء والإنسانيين، يمر عبر المتشبهين بالكلاسيكية من مؤرخي أواخر عصر الأنتيك، ثم بأكثر العصور الوسطى، بما فيها روايات العصور القديمة *romans d'antiquité* والصياغات أو الترجمات في القرن الثالث عشر لأعمال لوكان، سالوست، سوتونيوس، ويوليوس قيصر. وكانت البلاغة الكلاسيكية وأدواتها، بما فيها الخطب المخترعة، تستغل بنحو

منتظم، وبقصد تعليمي في العادة. فقد كان نيتهارد *Nithard* (ت. 844) مؤرخ البلاط في أوائل القرن التاسع، ومؤلف تاريخ للأحداث التي جرت خلال الأعوام الأخيرة للدولة الكارولنجية، قد قرأ كتب سالوست، وسعى بالنحو ذاته إلى الحفاظ على تلك الأحداث القريبة لصالح قرائه المعاصرين والأجيال القادمة أيضا.

ولكن الموارد المتوفرة من المؤلفين القدماء كانت محدودة جدا، متبعثرة في الغالب، ومشوهة بنحو سائد جراء مرور عدة قرون من التدريس والتعليق. فقلة من المؤرخين القدماء عدا سالوست كانوا معروفين بكامل أعمالهم لدى اللاتينيين الأوربيين، وكانت المقتطفات أو النقولات التي ضمتها كتب العديد من خلفائهم القروسطيين مثل الموقر بيد أو غريغوري من تور، أو اقتبسها علماء بيزنطيون، مفيدة على صعيد الوقائع لكنها ليست عونا يذكر على الكتابة. وعند العديد من المؤلفين، كان الحل الأبسط هو الاتكال على الوحدة المجربة والمضمونة للتنظيم التاريخي، أي الحوليّات. وكما أشرنا من قبل، فإن ذلك لم يكن من اختراع رهبان عديمي الخيال وعاجزين عن كتابة سرد متصل مترابط (بغض النظر عن سير الأفراد) على النحو الكلاسيكي، وكان من الواجب استنقاذ التاريخ من أيديهم مع اكتشاف النماذج اللاتينية الكلاسيكية في عصر النهضة. فقد كانت الحوليات شكلا قديما من الكتابة التاريخية، معروفا بفضل مؤرخين مسيحيين مبكرين مثل يوسابيوس، ومستخدما في أعمال عن الأزمان والتقاويم مثل الجداول الفصحية التي رتّبها الموقر بيد. وبدا أن استخدام الحوليات، بعدما وسعت وضمت إلى شكل أطول هو سجلات الوقائع *chronicles*، يحل عدة مشكلات في آن واحد. فقد بات التوثيق الزمني أمرا مباشرا، بعدما ثبتت التواريخ الرئيسة وشؤون التقويم على يد سلسلة من الموقتين من يوسابيوس وحتى بيد. وقد حررت الحوليات كتابها من فعل عدد من الأمور التي قد نراها مهمة للمؤرخ اليوم: كالتمييز بين المهم والعابر، ورواية قصة حدث أو سلسلة أحداث تمتد لأبعد من عام واحد، كما يحصل في المعظم. تشتمل الحوليات عادة على محتويات متشابهة، تتراوح بين سرد النذر والمذنبات أو العواصف الشديدة، وحروب ورحلات ملوك بعينهم (وتفاصيل حول حيث قضوا أجزاء معينة من السنة كعيد الميلاد)؛ أما الأمور الأخرى، كالتعليقات على الدروس المستمدة من حدث بعينه، أو المقارنات عبر

الزمن، فقد كانت معتمدة بشدة على مهارة المؤرخ وإبداعه، وقدرته على التفكير خارج (القالب) شبه الحرفي. لقد استمرت الأشكال البديلة من الكتابة التاريخية، كالسير المقدسة و(أعمال *gesta*) الرجال العظام، لكن الحوليات سرعان ما أصبحت النمط المفضل لتسجيل الأحداث الجارية وكذلك رواية الأحداث الماضية.

عند النظر إليها من مسافة ألف عام، فإن التغير الثقافي الأكبر الذي حدث خلال أواخر العصور الوسطى تمثل بالمراسلات، وخاصة الانتقال بعيدا عن الثقافة الشفهية في الأساس خلال القرون الماضية، ونحو ثقافة باتت فيها النصوص المدونة والوثائق تحمل وزنا أكبر بكثير، ويعد الحفاظ عليها وتناقلها وحتى اختلاقها (لو لزم الأمر) ضروريا. وقد كانت لهذا الانتقال تداعيات جسيمة في تدوين التاريخ. أبرزها أن القراءة والكتابة انتشرت تدريجيا خارج الأديرة ومناصب الكهنوت العليا. وتزايد التوثيق المنظم خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر، كما تثبت ذلك كمية المستندات الباقية: فالتعهدات التي كانت تعقد من قبل بالطقوس أو الوعد اللفظي باتت أيضا تحفظ على الورق أو الرقّ. وقد أنتج ذلك وفرة من المواد كي يستفيد منها المؤرخون في عصور لاحقة، رغم أنها لا يجب أن تعتبر كاملة بأي حال. فمثلما يفترض بالأرشيفيين والمكتبيين اليوم أن يكونوا انتقائيين فيما يحتفظون به، فكثيرا ما ألقى أسلافهم في مطلع الألف الثاني بمواد لم تعد تبدو مهمة، وبالتالي فقد محوا ذكراها للأبد. وإضافة إلى ذلك، فإن وسائل التواصل الشفهي ظلت مستخدمة بنحو نشط في رواية القصص التاريخية، وخاصة في الغناء والشعر، وخلال البضعة قرون القادمة سيظل التاريخ يتقلب بين النمط الشفهي/ السمعي للنقل والإدراك من جانب، والنمط المدون/ المرئي من جانب آخر، مع حركة متبادلة فيما بينهما وفي كلا الاتجاهين، حيث غذى التاريخ المكتوب التراث الشفهي وساهم هذا بدوره في الكتابة. شاهد بسيط على عقلية الأوربيين الشفهية المستديمة هو ميل العديد من المؤرخين للتفكير في الكلمات التي يكتبونها بوصفها مادة سمعية لا مرئية. «سوف أقصّ عليك حكاية عظيمة»، هكذا يبدأ سجل وقائع من القرن الرابع عشر عن الأمجاد الفرنجية الزائلة، «وإن استمعت إليّ، آمل أنها ستعجبك».

كانت نتيجة أخرى لهذا الموقف التواصلي المعقد، وكذلك لتزايد أهمية الوثائق

المكتوبة، هي الاتساع الحاصل في بحث أقدم عن ماضٍ (خدوم) - أي ماض يمكن أن تستمد منه الدروس، أو حتى الحجج على الملكية والشرعية الجغرافية والسلالية. فقد شعرت جماعات معينة بحاجة متزايدة إلى الحفاظ، العثور، أو حتى الاختلاق لمستندات تاريخية تدعم دعاوى أو مزاعم معينة كانوا يودون طرحها حول مكانتهم الحالية وجذورها في ماض قصيّ أو حتى غير معلوم - فبعض الوثائق لم تعتبر أساسية بحد ذاتها، بل بوصفها تدوينا لحقوق وامتيازات تقليدية ومتعارفة منحت في وقت سابق غير محدد. لقد كان لهذا المنعطف الوثائقي حسناته بالطبع عبر توليد أشكال جديدة من الكتابة التاريخية، لكنه أيضا أفضى إلى نتائج ضارة غير مقصودة، حيث ولد قدرا وفيرا من تزوير النصوص، وهي ممارسة بدأت حياتها في العصور القديمة، لكنها ازدهرت الآن دون ضوابط تذكر. فإن باتت أي وثيقة داعمة ذات نفع الآن، ولو بنحو غير ضروري جدا في هذه الثقافة النصية الجديدة، فكثيرا ما احتاج المرء إلى إظهارها للاستدلال بها. أما حين لم يمكن العثور عليها، أو لم تكن موجودة ولكن (حق لها أن توجد)، أو حتى لم يكن معناها واضحا بشكل كاف، فقد كان هناك خطاطون وعلماء موهوبون على استعداد لاختلاق وثيقة من العدم أو (تنقيحها) بنحو مبدع، سواء كانت مَضبَطة تتضمن حججا لتبادل الأراضي بين الأديرة، أو شجرة نسب لعائلة أرستقراطية، أو في أشهر الحالات طرا: منحة قسطنطين *The Donation of Constantine*، وهي وثيقة مزورة من القرن الثامن أو التاسع زعم أنها المنحة الأصيلة من القرن الرابع للسلطة على أوربا اللاتينية، من لدن الإمبراطور قسطنطين إلى البابا سلفستر الأول - ولذا فهي مفيدة للغاية في الدفاع عن ولاية البابا على الحكام المدنيين المثيرين للمشاكل. ولكن ينبغي للمرء أن يتذكر أولا أن معظم الوثائق المزورة، ومن بينها تلك المنحة، ربما لم تختلق بنية الضرر أو بقصد الخداع، بل برغبة في توفير التوثيق لدعم دعاوى يعتقد بحماسة بأنها حقيقة؛ وثانيا أنه لم يكن هناك، في نظر الأوربي القروسطي، أي فحص سهل تقيم بفضله الصحة والفساد، سواء جاء من نص مكتوب، صورة، أو شهادة شهداء.

بين عامي 1095 و1291 اتجه مركز النشاط العسكري، وبالتالي بؤرة الكتابة التاريخية، نحو المشرق، حيث بات دافعه المهيمن هو الجولة الجديدة من الاشتباكات

مع العالم الإسلامي. لقد تصادم الإسلام مع أوربا المسيحية منذ وقت مبكر، حتى إن قواته تقدمت في نقطة ما داخل فرنسا. ومع أن ذلك أنتج دون شك تلاقحا ثقافيا نافعا في كلا الاتجاهين، فقد ولد أيضا صراعا بين دينين توسعيين، رغم أن قدرا كبيرا من الحرب بينهما لم ينطو على دوافع روحية بقدر ما حفزته طموحات جغرافية، ونوايا حربية أرستقراطية تسترت برداء صفيق من القداسة. كانت نقاط الاحتدام تتضمن شبه جزيرة إيبيريا، التي كان مسلمو شمال أفريقيا أو ‹المغاربة› قد اجتاحوها في أوائل القرن الثامن، وحدود الإمبراطورية البيزنطية التي ستسقط أخيرا عام 1453 على يد الترك العثمانيين، القوة الإسلامية المهيمنة منذ القرن الخامس عشر وحتى التاسع عشر. ولكن لم يكن هذا الصراع أوفر إنتاجا للكتابة التاريخية إلا في أرض المعارك المتكررة، أي الأرض المقدسة، خلال فترة ‹الحملات الصليبية› منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر.

رغم أن الحملات الصليبية تبدو في نظرنا فصلا مبكرا غير محبب من تاريخ العلاقات المضطربة بين المسيحية والإسلام، فقد أنتجت ثروة هائلة من الكتابة التاريخية في كلا المعسكرين. حيث وضع ويليام الصوري *William of Tyre* (ح. 1130 ـ 90) عتبة عالية لمن جاء بعده من المؤرخين الصليبيين. كان ويليام من أهالي القدس، وعمل كرئيس أساقفة ومؤلف مخضرم كان قد كتب من قبل عدة أعمال تاريخية، معظمها اليوم مفقود. ولكن سمعته تستند إلى كتابه **تاريخ الأعمال التي جرت وراء البحر**. كان ويليام يقصد به امتداح أبطال الحملتين الأولى والثانية وتشجيع قرائه المعاصرين للالتزام المتجدد بهذا الأمر. وهو كتاب طويل، مشحون بأوصاف جغرافية نابضة بالحياة وإحالات واقتباسات وافرة من مؤلفين كلاسيكيين ومسيحيين أيضا. وكانت هذه الإحالات زخرفية بشكل عام ـ فقد كان ويليام، كما أقر بنفسه، في منطقة غير مستكشفة، «دون مصادر مكتوبة، لا بالعربية ولا اليونانية» ولذا فقد اضطر للاعتماد في معلوماته «على التراث وحده». وسيؤثر عمله هذا على العديد من الروايات اللاحقة الأخرى للحملات الصليبية، التي أدمجت في متنها روايته عن الحملة الصليبية الأولى. وكان أشهر تاريخين ألفهما رجال غير كنسيين عن الحملات الصليبية قد دونا بأقلام رجال من أصول نبيلة. كان أولهما عمل جوفروا دو ڤيلاردوان

Geoffroi de Villehardouin (ح. 1150 ـ ح. 1213)، الذي أملى عام 1207 شهادة عيان على حصار القسطنطينية الذي جرى قبل ثلاثة أعوام. وهو أحد أقدم النصوص المتوفرة بالفرنسية القديمة، وأسلوبه نابع من أناشيد الأمجاد *chansons de geste* التي تعود لعصر أسبق بقدر تأثره بسجلات الوقائع. وبعد مضي قرن كتب الرجل الثاني، جان دو جوانفيل Jean de Joinville (1224 ـ 1317)، سيرة حياة مادحة ولكن نقدية للملك الفرنسي البطولي الورع لويس التاسع (م. 1226 ـ 70)، الذي كان رفيقا حميما له خلال الحملة الصليبية السابعة.

خلال العصور الوسطى المتأخرة، قدمت الحروب (المحلية منها والدولية) أكبر حافز على كتابة التاريخ، وخاصة سجلات الوقائع الأرستقراطية (ونعني ‹بالأرستقراطية› هنا طبيعة الجمهور والموضوع، وليس المؤلف وحده بالضرورة)، التي شاع تأليفها بالألسنة العامية. فقد كتب الكتالوني رامون مونتانير *Ramón Muntaner* (ح. 1270 ـ 1336) حكاية مفصلة عن حياته كجندي. واتجه الوزير القشتالي پيدرو لوپيز دي أيالا Pedro López de Ayala (1332 ـ 1407) في تقاعده للعمل التاريخي، حيث أنتج ترجمة لبعض أجزاء تاريخ ليڤي، وشجرة نسب لأسرته، ومجموعة من السجلات المعروفة باسم **تاريخ ملوك قشتالة**. كان التاريخ المدون بهذا النحو جذابا للحكام وكذلك للنبلاء المقاتلين في ظلهم، بوصفهم أفرادا من ذات ‹الطبقة› أو ‹المرتبة› الاجتماعية؛ فقد كان يحتفي بالثروة، الغنائم، وسفك الدماء، ويعلق كأمر واقع على الانتصارات العسكرية دون أي حساسية تذكر تجاه التكلفة البشرية أو مدى أخلاقية الغالب أو المغلوب. ولكنه في الوقت ذاته أدرك أن للأفعال البشرية أهمية أكبر. ولعل أوسع الأعمال الأرستقراطية شهرة وأكثرها قراءة، سواء في عصرها أو من بعده، هو السرد الذي قدمه جان فرواسارت *Jean Froissart* (1337؟ ـ بعد 1405) للأطوار الأولى من حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا (1337 ـ 1453) والروايات السكوتلندية العامية المختلفة، المنقولة شعرا ونثرا، لحروب الاستقلال السكوتلندية ضد الإنجليز. تظل **سجلات فرنسا، إنجلترا، والدول المجاورة** لفرواسارت، المعتمدة بشكل كبير على الشهادات الشفهية للمساهمين والشهود، عملا كلاسيكيا من التدوين التاريخي الأوروپي، مقروءا ومسليا لدرجة مذهلة. رغم أن فرواسارت نفسه كان قسيسا،

فقد قضى شطرا طويلا من حياته في منازل الملوك والنبلاء، وتمثل بقيم سكانها. ولذا فليس من المفاجئ أن تبدو **سجلاته** أقرب في الأسلوب واللغة إلى ڤيلاردوان وحكايات القرن الثالث عشر، منها إلى أعمال كتّاب التاريخ الرهبان أو المدنيين.

مع تراخي الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر، الذي صاحبه تبدل إدراك مؤرخيها شبه الغريزي للحرب بوصفها نسخة محلية من صراع مقدس ما، فإن محور أكثر الكتابة التاريخية بات أضيق حتما. فقد بدأت (ديار المسيحية) تتخلى عن المركزية كفكرة منظمة لصالح ممالك أو إمارات منفردة، وأصبح بطل شعبي مثل القديس لويس أو حتى شارلمان أقل أهمية كجندي مخلص للكنيسة، وأكثر أهمية كنصير لشعبه، وحافظ لقيم البلاط، ومنعم على الأرستقراطية العسكرية بالثروة والحظوة. وإن لم تكن هناك (قوميات) بمعنى الكلمة الحديث في القرن التاسع عشر وما تلاه، فقد كانت هناك على الأقل مشاعر قومية أو وطنية. فثمة اتجاه ملحوظ، يبدأ منذ أواسط القرن الثاني عشر على الأقل، إلى تحريك بؤرة الاهتمام التاريخي بعيدا عن العالم المسيحي ككل، ونحو ماضي ممالك بعينها، وكذلك نحو الصراعات ضمن المسيحية، بدلا من تلك الإسلامية ـ المسيحية. كانت هناك استثناءات بالطبع، حيث لم يتلاش التاريخ العالمي، الذي بلغ أوجه في القرن الثاني عشر. فقد كان يقرأ في بلاط الملوك القروسطيين المتأخرين، ويمثل واسطة واضحة تمكن عبرها المؤلفون الكنسيون من إسداء النصح للأمراء المدنيين؛ وتظهر أمثلة جديدة خلال ذلك العصر ذاته. ولكن حتى مؤلفوه ذاتهم بدأوا بتقليص تركيزهم نحو الاعتناء بالتاريخ الإمبراطوري أو الوطني مع اقترابهم من تاريخ عصرهم: حيث كانت نزعتهم (العالمية) تميل لأن تكون زمانية ولاهوتية أكثر من كونها مكانية. وبالضد من ذلك، فإن المؤرخين بين القرن الثاني عشر والرابع عشر، مثل الكاهن الدنماركي ساكسو النحوي *Saxo Grammaticus* (ح. 1150 ـ 1220)، الذين لم يكن أكثرهم مرتاحا لتنامي السلطة الملكية الوراثية (الذي حصل على حساب سلطة الكنيسة، وكذلك على حساب الإقطاعيين الكبار)، قد استمروا في وضع الروايات ذات الطابع القومي ضمن إطار تاريخ العالم *historia mundi* المتأسي بيوسابيوس.

هناك أمثلة عظيمة بالقدر ذاته على التاريخ الكنسي، مثل كتاب *Historia*

ecclesiastica الضخم الذي ألفه الراهب البندكتي أوردريك ڤيتالس Orderic Vitalis (1075 ـ 1142)، حيث ظل مداها واسعا، واستمرت في استخدام الكنيسة كواسطة مشتركة بين عدة عوالم سياسية، ونظرت إلى أحداث دنيوية كعلامات على طريق ميعادي طويل؛ ولكن التاريخ العالمي على غرار يوسابيوس كان يمر بانحطاط. ففي أواسط القرن الرابع عشر، حين كان الراهب الإنجليزي رانولف هيغدن *Ranulf Higden* (ح. 1280 ـ 1364) يؤلف كتابه *Policronon*، فإنه قدم تلخيصا لتاريخ العالم بدلا من مساهمة جديدة فيه. ولكن الشهرة الهائلة اللاحقة التي حازها هذا العمل، الذي سرعان ما ترجم إلى الإنجليزية، تشير إلى توافر سوق متلهفة 'الملخص سريع' للقصة العالمية، بدلا من حيوية مستمرة لهذا الصنف من الكتابة. وهكذا بدأ توسع الطبقة القارئة ليشمل العامة في التأثير بدوره في كتابة التاريخ، حيث أرشدت ميول القراء اختيار المؤلفين للموضوعات، في اتجاه سيتعزز بنحو أكبر مع مجيء الطباعة.

ببساطة فقد بدأت أنواع الأدب التاريخي بالتضاعف، وكذلك الأشكال التي اتخذتها (شعرا ونثرا) واللغات التي باتت تكتب بها. ومن بين الأنواع المحلية التي لا تملك أي نظائر واضحة في مكان آخر، فإن الملاحم النوردية (النرويجية والآيسلندية) من القرن الثاني عشر وحتى الرابع عشر (التي كانت سجلا شفهيا في الأصل، لكنها وثقت بالكتابة بعد حوالي 1150) تمثل انفصالا لافتا بالخصوص عن التاريخ النثري، وتشكل حلقة وصل بين عالم كاتب الحوليات وعالم الشاعر البطولي؛ فهي المصدر الرئيس للماضي القروسطي للنرويج المعاصرة، رغم أنه ينبغي التسامح مع الدور الدعائي الذي صممت أصلا لخدمته. وكانت هذه الملاحم، التي توجها عمل سنوري ستورلسون (1179 ـ 1241) Snorri Sturluson الموسوعي *Heimskringla* **(تاريخ ملوك النرويج)**، الذي أصبح بدوره نقطة انطلاق للوعي القومي النرويجي في القرون اللاحقة، متعايشة مع أعمال نثرية لاتينية مثل *Gesta Danorum* **(أعمال الدنماركيين)** لساكسو النحوي.

فيما عدا أدب الحملات الصليبية، فإن أغلب التواريخ التي ألفت في القرن الثاني عشر والثالث عشر وأوائل الرابع عشر كانت تختص حتما بقومية/ إثنية أو منطقة محددة. وقد يعد مؤرخو إنجلترا الذين كتبوا باللاتينية مثالا على ذلك. فقد كتب ويليام

من مالمزبري *William of Malmsbury* (ح. 1095 ـ ح. 1143)، الذي اشتهر بوصفه أحد أدق المؤرخين الرهبان القروسطيين فكرا وأوضحهم نقدا، عددا من الأعمال التاريخية خلال مسيرة قضاها في الأساس كخازن كتب، منحته امتياز الوصول إلى مصادره. وكانت كل أعماله مكرسة لتاريخ إنجلترا، الذي نظر لماضيه بوصفه متكونا من شؤون كنسية ومدنية معا. والأمر ذاته ينطبق على السلسلة الطويلة من الرهبان البندكتيين في دير القديس ألبان *St Alban's Abbey*، من روجر من ويندوفر *Roger of Wendover* (ت. 1236) وماثيو باريس *Matthew Paris* (ح. 1200 ـ 59) في القرن الثالث عشر وحتى توماس والسنغهام *Thomas Walsingham* (ت. ح. 1422) في أوائل القرن الخامس عشر: فقد كانوا بأجمعهم يركزون على إنجلترا، مهما تفاوتت جودة أحكامهم واستخدام مصادرهم، أو الأصالة في كتاباتهم. لكن وصفا نصيا كهذا لا ينصف تجربة القارئ لأعمالهم حقا، الذي ربما كانت الرسوم المترفة النابضة بالحياة في العديد من مخطوطات تلك الأعمال القروسطية المتأخرة ستترك فيه أثرا لا ينسى بقدر النص الذي أريد لها أن تصاحبه.

وقد لاحظ الملوك القروسطيون المتأخرون بنحو متزايد منافع التاريخ، بعيدا عن قيمته الأخلاقية، المادحة، أو المسلية، مع إحكامهم السيطرة وشنهم حملات ضد كنيسة مقاومة وأرستقراطيين فوضويين. حتى إن بعضهم تصدوا لمهمة تقديم التواريخ بأنفسهم فعلا، ومنهم عدد من ملوك إيبيريا (قشتالة، أراغون، وكتالونيا) منذ عهود القوط الغربيين وحتى مجيء آل هابسبورغ في القرن السادس عشر. وقد رعى آخرون تأليف تواريخ جديدة. ومن بين أبرز تلك التواريخ ما أعدّ بتوجيه من ألفونس العاشر ‹الحكيم› ملك قشتالة وليون (حكم 1252 ـ 84)، وهي تتضمن تاريخا عالميا ضخما من ستة كتب يدعى *General Estoria* وكتاب *Estoria de España*. وقد أنتج ‹معمل التاريخ› عند ألفونسو ـ وهو مسرح لعدة عقول متجادلة ومتنافسة، لم يكن مجرد طاولة للتجميع بنحو ‹القص واللصق› ـ عددا من الأعمال الأخرى خلال العقود التالية، مثلت بمجموعها ما بات يعرف بالتواريخ الألفونسية. أما في فرنسا فقد كان الإنجاز أشد إثارة للإعجاب، بالرغم من افتقارها لأي مؤلف ملكي. حيث كانت السلسلة المقابلة إجمالا لسجلات القديس ألبان أو التواريخ الملكية الإسبانية منتجا مختلفا للغاية أنجز

في دير القديس دنيس *Saint _ Denis*. فقد كان لهذا الدير مسيرة مميزة في تدوين التاريخ، ونزعة لتأييد الملكية. وكان رئيس الدير في القرن الثاني عشر، الكاهن سوغير *Suger* (ح. 1081 _ 1151)، بحد ذاته مؤرخا مميزا، ومشاورا خصيصا للملك المقدام لويس السادس («البدين»، م. 1081 _ 1137) وكاتب سيرة ذلك الملك وابنه من بعده. خلال رياسة سوغير (1122 _ 51) جمع الرهبان من مصادر سابقة تاريخا كاملا لفرنسا، نبعت منه فيما بعد مجموعة مستمرة من التواريخ المختصة بملوك آل كاپيه. وخلافا لتدوين التاريخ في شرق آسيا، فإن هذا الشكل من 'التاريخ الرسمي' كان حتى ذلك الحين نادرا في أوربا، عدا استثناءات إسبانية قليلة.

وقد أعيد تنظيم النصوص الأصلية اللاتينية التي أنتجت في دير القديس دنيس، وترجمت في أواخر القرن الثالث عشر على يد راهب يعرف فقط باسم پريمات [مقدم الرهبان] في هيئة سلسلة مخطوطات مترفة التزويق بلغة شعبية، حملت عنوان **التواريخ العظمى لفرنسا** *Grandes Chronique de France*، مع مواد إضافية أخذت من تواريخ شعبية أخرى. وقد ظهرت **التواريخ العظمى** على دفعات بدءا من عام 1271 وانتهاء بعام 1461. وقد قيدت الملكية من انتشارها، حيث كان الهدف من ترجمتها إفادة الحاشية غير المتمرسين في اللاتينية، بدلا من اطلاع عدد واسع من القراء، ثم إن طباعة **التواريخ العظمى** للمرة الأولى في باريس عام 1477 قد وضع نهاية لهذا التراث، في عصر بدأ فيه النمط الإنساني الأحدث من الكتابة التاريخية بالإعلان عن وجوده في فرنسا. وفي كل من **التواريخ العظمى** وكذلك نصوصها الأصلية اللاتينية، نصادف أمرا ليس بالغريب عن التواريخ المعتمدة الصينية أو التواريخ الوطنية الست في اليابان المبكرة: أعني رؤية قومية محبوكة جيدا للماضي، صيغت كسلسلة غير منقطعة من الحكام منذ انتخاب الملك الأسطوري فاراموند *Pharamond*.

هناك نتيجة، ربما تعد سببا أيضا، لهذه النزعة القومية في تدوين التاريخ، تمثلت بتجدد ظهور تواريخ شبه خيالية باللاتينية، تقدم روايات مفصلة عن تأسيس الممالك وحتى بعض النظريات المبكرة عن التحدر العرقي. وكان أسوأ تلك الأعمال صيتا، الذي ظهر جراء العداء المتنامي بين إنجلترا وفرنسا، هو **تاريخ ملوك بريطانيا** الذي ألفه جوفري من مونموث *Geoffrey of Monmouth* (ح. 1100 _ 54) قرابة عام

1136. وأصبح هذا الكتاب مصدرا لجزء كبير من أسطورة الملك آرثر في أواخر العصور الوسطى وحتى الحديثة، وكذلك لسلسلة من الملوك البريطانيين المختلقين تماما وصولا إلى الغزوات السكسونية. بناءً على نص من أوائل القرن التاسع عرف باسم *Historia Brittonum*، اعتمد جوفري كمصدر أساس له على ‹كتاب قديم جدا كتب باللغة البريطانية [أي الويلزية]›، لم يعثر له على أثر منذ ذلك الحين. ملأ جوفري الفجوات في ذلك التاريخ، دون أن يقدم الكثير من التواريخ الفعلية، ولكن ربما في تقليد منه للموقر بيد، أدخل في سرده بعض التزامنات بين أحداث جرت في بريطانيا وفي أماكن أخرى، مما جعل عمله يبدو مثيرا للإعجاب إجمالا. وهكذا فإن وصفا لحكم إبراوكوس ‹الذي كان رجلا فائق الطول ومعروفا بقوته› وإليه ينسب تأسيس مدينة يورك (إبوراكوم *Eboracum* باللاتينية)، تليه معلومات تقول ‹في ذلك العهد كان الملك داود يحكم في يهوذا، وسيلفيوس لاتينوس ملكا في إيطاليا. وفي إسرائيل كان ناثان وآساف نبيين›.

حاز كتاب جوفري سمعة شبه مشينة، لكنه لم يكن فريدا أو مقبولا دون نقاش لدى معاصريه، بالرغم من شهرته الهائلة. فحتى قبل انتهاء القرن الثاني عشر عُرّضت مصداقية جوفري لهجوم معاصر أصغر سنا، هو ويليام من نيوبرغ *William of Newburgh* (1136 ـ ح. 1201)، الذي جعل من تفنيد تاريخ جوفري ـ إلى حد كبير لأنه انحرف عن السرد المبجل لدى بيد ـ موضوعا لخاتمة كتابه **تاريخ الأحوال الإنجليزية** *History of English Affairs*. لكن عمل جوفري كان مثالا ممتازا على تراث لكتابة التاريخ كان هدفه الرئيس هو تقديم ماض مجيد لمملكة أو شعب معين. وقد تجلت براعة وخصوبة أسلوبه اللاتيني، الذي اشتقت عنه فيما بعد سلسلة طويلة من حكايات ‹بروت› الشعبية (نسبة إلى بروتس الطروادي) شعرا ونثرا على مر القرون الثلاثة اللاحقة. وتمثل إثارة الشكوك حول مصداقيته، وكذلك شعور جوفري نفسه بأنه ملزم بربط عباراته بمصدر قديم اسميا، برهانا ـ لو احتجنا إلى ذلك ـ على أن العقل القروسطي كان قادرا بحق على التمييز بين الخيال *fabula* والتاريخ *historia*.

تأتي أمثلة مشابهة من وسط وشرق أوربا، وهي مناطق لم تشهد أي نشاط وافر في تدوين التاريخ بنحو مستقل عن روما أو القسطنطينية خلال الألف الأول. فقد وضع

القس البوهيمي كوزماس من پراغ *Cosmas of Prague* (1056 ـ 1125) القواعد لأجيال لاحقة من القومية التشيكية عبر تلخيصه عدة قرون من الأساطير وقصص القديسين في كتاب *Chronica Bohemorum*، الذي تتبع فيه أصول شعبه إلى رجل يدعى (بوهيموس). ويمكن تتبع بدايات الكتابة التاريخية الروسية إلى عمل من كييف في القرن الثاني عشر يعرف عادة **بالتاريخ الروسي الأساسي**، الذي استمدت منه الكثير من أدبيات التاريخ الروسية خلال عدة قرون لاحقة. وفي الجنوب الشرقي، دخلت الكتابة التاريخية البيزنطية طورا ثانيا من النشاط الحثيث بدءا من القرن الحادي عشر. حيث كان عدد هائل من الكتاب الجدد أفرادا ذوي مكانة رفيعة جدا أو حتى ملكية. فقد كتب الإمبراطور يوحنا السادس كنتاكوزينوس *Kantakouzenos* (م. 1347 ـ 54)، الذي تقاعد لاحقا في دير، تاريخا للعالم، لكنه لم يكن أول أو أبرز فرد من عائلة إمبراطورية يقدم على ذلك. فمن بين هؤلاء، تستحق الأميرة آنا كومنينة *Anna Komnene* (1083 ـ 1153)، التي كانت متزوجة من مؤرخ بيزنطي آخر وأكملت عمل زوجها بعد وفاته، إشادة خاصة. فهي من النساء النوادر في أوروپا لأنها كتبت، باسمها الصريح، تاريخا ذا طول معتبر قبل القرن الثامن عشر ـ وما يزال متوفرا بطبعات حديثة. فكتابها **الألكسياد** *Alexiad* رواية لحياتها الشخصية المبكرة وكذلك حكم والدها، الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس.

كان للقراء من سكان المدن اهتمام بماضي مجتمعاتهم، وما بدأ عادة كسجلات للموظفين المدنيين استحال خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر إلى تواريخ مدنية، كتب معظمها بلغات عدا اللاتينية. لقد ظهر التاريخ المدني *urban chronicle* أول مرة في إيطاليا خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر، وازدهر خلال عصر دويلات المدن الإيطالية المستقلة في القرن الثالث عشر والرابع عشر، وتفتح بالكامل في سائر أرجاء أوروپا خلال القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر. كانت هذه التواريخ، التي كثيرا ما تطورت من قوائم للموظفين المدنيين أو حوليات بسيطة، وكان كتابها في الأساس رجالا من العامة، تسجل أحداثا محلية بدرجات متفاوتة من التفصيل، ومثلت رديفا مهما، بالنسبة للطبقة الوسطى الناشئة من التجار وسكان البلدات، للتواريخ الأشد رقيا التي ألفها الكهنوت المدني والديري، أو حتى

الأعمال الأرستقراطية. حقيق هنا أن نمر على ذكر التاجر الفلورنسي (والجندي أحيانا) جيوڤاني ڤيلاني *Giovanni Villani* (ح. 1275 ـ 1348) الذي عزم على كتابة تاريخ يمتاز، بخلاف تواريخ فلورنسا السابقة، بموضوع شامل، هو عظمة فلورنسا ومكانتها كخليفة جديرة لمكانة روما المتداعية الآن. وبالنظر إلى تعريفه للأسباب بوصفها دوافع البشر وأفعالهم وليس القدر وحده، وتأملاته حول أهمية الحظ في صعود وسقوط البشر والدول، فإن كتاب *Istoria* لڤيلاني بات أقرب إلى تدوين التاريخ الإنساني الذي اشتهر خلال القرنين التاليين.

لم ينل التاريخ المدني ازدهارا أكبر مما حققه في المقاطعات الناطقة بالألمانية، التي حفظ نتاجها في المجلدات العديدة لمجموعة *Monumenta Germaniae Historica*. لم يكن عدد كبير من المؤلفين سكانا أصلاء في الأماكن التي كتبوا عنها، ثم إن وظائفهم متنوعة. بل إن العديد من البلدات احتفظت بتاريخ رسمي، استمر لعدة أجيال: كالمؤلفين المتعاقبين لتاريخ المجلس (*Ratschronik*) في مدينة لوبيك، الذين كانوا جميعا من الكهنة، واستدركوا على عمل متوفر أصلا لراهب فرنسيسكاني محلي. كانت التواريخ المدنية في القرن الخامس عشر، بخلاف الأمثلة السابقة، في الأساس صنفا من الأعمال التي كتبت (أو طبعت لاحقا) في بلدة ما، بدلا من نوع من التاريخ حول بلدة بعينها. فكتاب **تاريخ نورمبرغ** (1493) للطبيب هارتمان شيدل *Hartmann Schedel*، وهو من أول الأعمال التاريخية التي خرجت من رحم المطابع، لم يحمل هذا الاسم لأنه كان مختصا بنورمبرغ (بل كان في الواقع تاريخا عالميا، طبع بنسختين ألمانية ولاتينية) بل لأنه نشر هناك. وكثيرا ما لا تخبرنا التواريخ المدنية بالكثير حول البلدات ذاتها بقدر ما تكشف لنا عن استيقاظ الاهتمام الشعبي بالتاريخ، الذي بات الآن ينتشر بوضوح خارج جمهوره التقليدي، من حواشي البلاط الملكي والأرستقراطي وغرف النسخ في الأديرة. ويشهد على تنامي الشغف بالتاريخ ذلك النجاح الذي حققه راهب كارتوسي[1] يدعى ڤيرنر روليڤنك *Werner Rolewinck*، حيث مر كتابه *Fasciculus Temporum* (حرفيا «حزم صغار من الزمن») ـ والذي

(1) الرهبنة الكارتوسية *Order of Carthusians* أُسِّسَت في جبال شارتروس في فرنسا عام 1084، واشتهر رهبانها بتفضيل العزلة والصمت. (المترجم)

كان نصه أسهل فهما بفضل قالب تقديمي شبيه بمخططات المعلومات *infographics* الحديثة ـ بأكثر من أربعين طبعة خلال حياة مؤلفه فقط.

وقد استمر قطاع آخر من المدنيين، هم الأسر الأرستقراطية في الممالك الإقطاعية الكبرى، بتطوير شغفهم بالتاريخ وكذلك علم الأنساب ـ خاصة مع صعود أسر جديدة في المكانة والثراء ـ سيستمر من ثم لقرنين أو ثلاثة. وسيوظف نفس مستوى الإبداع الذي نسج حكايات بروتس وفرنسيون وتواريخ الحملات الصليبية، لمنح الأسر النبيلة شجرات نسب وأحيانا تواريخ مفصلة تعود حتى إلى نوح أو آدم، أو إلى بروتس والطروادين من قبله. فقد جمع دوقات برغندي، وهم الحكام مذهلو الثراء لمعظم شمال فرنسا والأراضي الوطيئة خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر، تشكيلة معتبرة من المواد التاريخية، احتل تاريخ فرنسا فيها واسطة العقد. وكان بلاط الدوق فيليپ الطيب (م. 1419 ـ 67) بالخصوص يستضيف بانتظام مؤرخين راغبين في تقديم أعمالهم إليه، وكان الدوق نفسه ينفق على جمع من كتاب السجلات. ولكن أتعاب كدهم لم تكن مجزية في العادة: حيث لم يتلق إنغيراند دو مونستريليه *Enguerrand de Monstrelet* (ح. 1400 ـ 53) إلا مبلغا متواضعا مقابل تكملته المسهبة لتاريخ فرواسارت.

ولكن كتابة التاريخ في البلاط لم تقتصر فقط على التملق والتباهي. فمع مجيء أواسط القرن الخامس عشر، وفي خضم صراعات التاج الفرنسي مع السطوة الإنجليزية والاستقلال البرغندي، يبدأ المرء يلاحظ معالم تحليل سياسي أدق نظرا لدى بعض المؤرخين من طراز فيليپ دو كومين *Philippe de Commynes* (1447 ـ 1511)، بنحو يستبق ظهور مزايا تدوين التاريخ الإنساني في عصر النهضة. حيث يمثل كومين شكلا جديدا من السرد التاريخي، وكذلك عودة إلى المرسم العالمي الأوسع للقرون السابقة. وبنحو يشبه المؤرخ الإيطالي الأنجح في نصف القرن الذي تلاه، فرانشيسكو غويتشارديني، ويذكر حتى بالتشابك عند پوليبيوس، فقد نظر كومين إلى التفاعل بين الأمم المنفردة كجزء من كل أكبر، كان يقصد به أوروپا، رغم أنه فعل ذلك من منطلق نصير متعصب للويس الحادي عشر وخليفته شارل الثامن (م. 1483 ـ 98). وحيث إنه كتب عمله هذا بعد وفاة لويس، وكثيرا ما أدخل

شخصيته هو ضمن السرد، فقد صاغ كومين موضوع تاريخه كتوازن بين الفضائل والعيوب؛ حيث بات لويس يبدو كملك ماكر ومسايس، وليس محتالا ومخادعا فحسب. وعند مقارنة ذلك بالحكم السلبي نسبيا على الخداع السياسي الذي يجده المرء عند مؤرخين من قبل قرنين أو أقل (يستذكر المرء هنا ويليام الصوري) فمن الواضح أننا لم نعد في عالم التقوى المخلصة وقيم الفروسية. فقد وصل تدوين التاريخ الأوربي على أعتاب عالم مكيافيلي.

الخلاصة

هناك بعض الثيمات الرئيسة التي ينبغي تسليط الضوء عليها قبل أن نتجه إلى أوائل عصر الحداثة (ونتوسع في المدى الجغرافي بنحو معتبر). النقطة الأولى هي أن الكتابة التاريخية منذ أواخر عصر الأنتيك وحتى أواسط الألف الثاني للميلاد قد ازدهرت بنحو سواء في ظروف الاضطراب السياسي والاجتماعي أو ظروف النظام والاستقرار. الثانية هي أن الدين والمصالح المدنية كانا يتقاطعان بدلا من التعايش في فضاءين منفصلين كليا، وهو تفاعل يتضح في تدوين التاريخ ضمن معظم المناطق التي درسناها. الثالثة هي أن الإنجازات المتراكمة للكتابة التاريخية الغربية حتى هذه النقطة، مع أنها أفضل شهرة، تبدو حين تقارن بمنجزات الصين وديار الإسلام أقل إثارة للإعجاب مما لو قيّمت بمفردها. ففي حين كان هناك عدد معتبر من المؤرخين المقتدرين، من العامة والكهنة، ظل تدوين التاريخ مقيدا بعدد محدود نسبيا من الأشكال. وبالمقابل، فإن تنوع الأصناف المختلفة التي طورها الصينيون بنحو خاص ـ بما فيها الموسوعات، السير الذاتية، والروايات التاريخية، فضلا عن الروابط الوثيقة التي عقدها مؤرخو سلالة السونغ بين التاريخ والفلسفة ـ تستحق تقديرنا. قلما يوجد في أوربا المسيحية ما يمكن أن يقارن من حيث السعة الفكرية، الملاحظات الدقيقة، أو القدرة على التعميم، بما أنتجه الإسلام عند ابن خلدون، أو الصين عند ليو جيجي أو سيما غوانغ، أو اليابان عند جيين.

يأخذنا ذكر هذه المقارنة إلى النقطة الرابعة والأهم: أن العديد من المؤرخين كانوا واعين، وقلة منهم كانوا متأثرين بشدة، بالثقافات الأخرى، سواء فكر المرء في

الصلات المسيحية ـ الإسلامية، الإسلامية ـ المغولية، الصينية ـ المغولية، أو الهندية ـ الإسلامية. وسيتزايد مدى هذا التواصل بشكل معتبر في القرون الثلاثة المقبلة. فخلال هذا العصر القادم، أجبر وجود قارتين كبيرتين غير مستكشفتين هما الأميركتان، بالإضافة إلى مغامرات أبعد وأكبر في الشرق الأقصى، كلا من الأوروبيين والآسيويين على إعادة النظر إلى تصورهم عن تاريخ العالم. ثم إنها جعلت بعضا منهم على الأقل يدرك أن أنماطهم عن التاريخية لم تكن فريدة بالكامل ولا شائعة عالميا.

أسئلة للمناقشة

7. ما هي جوانب الممارسة التاريخية القديمة التي تبناها مؤلفو العصور الوسطى؟ وما الجوانب التي تخلوا عنها؟
8. كيف لجأ الحكام والنخب الاجتماعية في أرجاء المناطق التي تصفحناها إلى استخدام التاريخ لتمتين سلطتهم؟ وكيف استخدمه آخرون كوسيلة للمقاومة؟
9. إلى أي درجة تظن أن قراء العصور الوسطى كانوا يعتقدون بأساطير المؤسسين القدامى كأهل طروادة؟
10. ما هي المعالم التي يشترك فيها الفكر والكتابة التاريخية لدى المسيحيين، المسلمين، والشرق آسيويين (الصين، اليابان، كوريا)؟ وبأي الأنحاء يختلفون؟
11. هل أقامت الثقافات التاريخية التي نوقشت في هذا الفصل أي تمييز صارم بين التاريخ والأدب؟
12. ما مدى أهمية التاريخ في أجزاء مختلفة من العالم بإزاء أشكال أخرى من الكتابة كالأعمال الدينية؟
13. إلى أي حد أثرت الأفكار المختلفة عن الزمن والتوقيت في كتابة التاريخ خلال تلك القرون؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Deliyannis, Deborah Mauskopf (ed.), *Historiography in the Middle Ages* (Leiden and Boston, 2012)
- Dunphy, R. G. (ed.), The Encyclopedia of the Medieval Chronicle, 2 vols (Leiden and Boston, 2010)
- Foot, Sarah and Chase Robinson (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 2: 400 _ 1400* (Oxford, 2012)
- Neville, Leonora, *Guide to Byzantine Historical Writing* (Cambridge, 2018)
- Smalley, Beryl, *Historians in the Middle Ages* (London, 1974)

الكتابة التاريخية في أوربا المسيحية والبربرية

- Chesnut, Glenn F., T*he First Christian Histories: Eusebius, Socrates, Sozomen, Theodoret, and Evagrius,* 2nd edn (Macon, GA, 1986)
- Cox, Patricia L., *Biography in Late Antiquity: A Quest for the Holy Man* (Berkeley, CA, 1983)
- Goffart, Walter A., *The Narrators of Barbarian History (AD 550 _ 800): Jordanes, Gregory of Tours, Bede, and Paul the Deacon* (Princeton, NJ, 1988)
- Hen, Yitzhak and Matthew Innes (eds), *The Uses of the Past in the Early Middle Ages* (Cambridge, 2000)
- Kempshall, Matthew, *Rhetoric and the Writing of History, 400 _ 1500* (Manchester and New York, 2011)
- McKitterick, Rosamond, *History and Memory in the Carolingian World* (Cambridge, 2004)

- Murray, Alexander Callander (ed.), *After Rome's Fall: Narrators and Sources of Early Medieval History* (Toronto, 1998)
- Treadgold, Warren, *The Early Byzantine Historians* (Basingstoke, 2007)

تدوين التاريخ الإسلامي من النبي محمد حتى ابن خلدون

- Khalidi, Tarif, *Arab Historical Thought in the Classical Period* (Cambridge, 1994)
- Lewis, Bernard and P. M. Holt (eds), *Historians of the Middle East* (London, 1962)
- Mahdi, Muhsin, *Ibn Khaldun's Philosophy of History* (1957; Chicago, IL, 1964)
- Meisami, Julie Scott, *Persian Historiography to the End of the Twelfth Century* (Edinburgh, 1999)
- Robinson, Chase F., *Islamic Historiography* (Cambridge, 2003)
- Rosenthal, Franz, A History of Muslim Historiography, 2nd edn (Leiden, 1968)
- Simon, Heinrich, *Ibn Khaldun's Science of Human Culture*, trans. F. Baali (Lahore, 1978)

أشكال التاريخ في جنوب آسيا

- Ganguly, D. K., *History and Historians in Ancient India* (New Delhi, 1984)
- Hardy, Peter, *Historians of Medieval India: Studies in Indo _ Muslim Historical Writing*, 2nd edn (New Delhi, 1997)
- Hazra, Kanai Lal, *The Buddhist Annals and Chronicles of South _ East Asia* (New Delhi, 1986)
- Perrett, Roy W., 'History, Time, and Knowledge in Ancient India', *History and Theory* 38.3 (1999): 307 _ 21

- Rocher, Ludo, *A History of Indian Literature*, Vol. 2, fasc. 3: *The Puranas*, ed. Jan Gonda (Wiesbaden, 1986)
- Singh, G. P., *Ancient Indian Historiography: Sources and Interpretations* (New Delhi, 2003)
- Thapar, Romila, 'Some Reflections on Early Indian Historical Thinking', in Jörn Rüsen (ed.), *Western Historical Thinking: An Intercultural Debate* (New York and Oxford, 2002), 178 _ 86
- The Past Before Us: Historical Traditions of Early North India (Cambridge, MA, 2013)

تدوين التاريخ في شرق آسيا من عصر التانغ إلى عصر اليوان

- Bentley, John R., *Historiographical Trends in Early Japan* (Lewiston, NY, 2002)
- Brownlee, John S., Poli*tical Thought in Japanese Historical Writing: From Kojiki (712) to Tokushi Yoron (1712)* (Waterloo, Ontario, 1991)
- Ch'oe Yong _ ho, 'An Outline History of Korean Historiography', *Korean Studies* 4 (1980): 1 _ 27
- Ji Xiao _ bin, *Politics and Conservatism in Northern Song China: The Career and Thought of Sima Guang* (A.D. 1019 _ 1086) (Hong Kong, 2005)
- Lee, Thomas H. C. (ed.), *The New and the Multiple: Sung Senses of the Past* (Hong Kong, 2004)
- Ng, On _ cho and Q. Edward Wang, *Mirroring the Past: The Writing and Use of History in Imperial China (*Honolulu, 2005)
- Pulleyblank, E. G., 'Chinese Historical Criticism: Liu Chih _ chi and Ssu _ ma Kuang', in W. G. Beasley and E. G. Pulleyblank (eds*), Historians of China and Japan* (London, 1961), 135 _ 66

- Robinson G. W., 'Early Japanese Chronicles: The Six National Histories', in Beasley and Pulleyblank (eds), *Historians of China and Japan*, 213 _ 28
- Taro Sakamoto, *The Six National Histories of Japan*, trans. J. S. Brownlee (Vancouver and Tokyo, 1991)
- Twitchett, Denis Crispin, *The Writing of Official History under the T'ang* (Cambridge, 1993)

عصر سجلات الوقائع: الكتابة التاريخية في ديار المسيحية أواخر العصور الوسطى

- Ainsworth, Peter F., *Jean Froissart and the Fabric of History: Truth, Myth, and Fiction in the Chroniques* (Oxford, 1990)
- Albu, Emily, *The Normans in their Histories* (Woodbridge, 2001)
- Archambault, Paul, *Seven French Chroniclers: Witnesses to History* (Syracuse, NY, 1974)
- Ashe, Laura, *Fiction and History in England, 1066 _ 1200* (Cambridge, 2007)
- Aurell, Jaume, *Authoring the Past: History, Autobiography, and Politics in Medieval Catalonia* (Chicago, IL, 2012)
- Blacker, Jean, *The Faces of Time: Portrayal of the Past in Old French and Latin Historical Narrative of the Anglo _ Norman Regnum* (Austin, TX, 1994)
- Given _ Wilson, Chris, *Chronicles: The Writing of History in Medieval England* (London, 2004)
- Glenn, Jason, *Politics and History in the Tenth Century: The Work and World of Richer of Rheims* (Cambridge, 2005)
- Gransden, Antonia, *Historical Writing in England*, 2 vols (Ithaca, NY, 1974 _ 82)

- Linehan, Peter, *History and the Historians of Medieval Spain* (Oxford, 1993)
- Neville, Leonora, *Anna Komnene: The Life and Work of a Medieval Historian* (Oxford, 2016)
- Partner, Nancy, *Serious Entertainments: The Writing of History in Twelfth Century England* (Chicago, IL, 1977)
- Shopkow, Leah, *History and Community: Norman Historical Writing in the Eleventh and Twelfth Centuries* (Washington, DC, 1997)
- Southern, R. W., collectively entitled, 'Aspects of the European Tradition of Historical Writing', reprinted in *History and Historians: Selected Papers of R. W. Southern,* ed. R. J. Bartlett (Oxford, 2004), 11 _ 85
- Spiegel, Gabrielle, *The Past as Text: The Theory and Practice of Medieval Historiography* (Baltimore, MD, 1997)
- Treadgold, Warren, *The Middle Byzantine Historians* (Basingstoke, 2013)
- Wood, Ian and G. A. Loud (eds), *Church and Chronicle in the Middle Ages* (London, 1991)

محطات

1439	ينتهي ليوناردو بروني من الكتب الاثني عشر في تاريخ شعب فلورنسا، مؤسسا بذلك نموذجا كلاسيكيا جديدا للتاريخ السردي
1440	لورنزو ڤالا يفند وثيقة منحة قسطنطين
أوائل القرن 16	الأعمال الكبرى لنيكولو مكيافيلي وفرانشيسكو غويتشارديني
1535	التاريخ العام لجزر الهند لغونزالو فيرنانديز دي أوڤييدو إي ڤالديز
1552	رسالة وجيزة في تدمير جزر الهند لبرتولومي دي لاس كاساس
1559 _ 74	نشر قرون ماغدبورغ
1566	نشر المنهج لجان بودان
1586	نشر كتاب خوان غونزاليز دي مندوزا تاريخ مملكة الصين العظيمة الكبرى

1588	نشر الحوليات الكنسية للكردينال تشيزاري بارونيو
1590	نشر كتاب التاريخ الطبيعي والخلقي لجزر الهند لخوسيه دي أكوستا
1598	الانتهاء من كتاب أكبر نامه لأبي الفضل الناكوري
1615	فيليبي غوامان پوما دي أيالا ينتهي من التاريخ الجديد الأول والحكومة الجيدة
1617	تاريخ بيرو العام بقلم الإنكا غارسيلاسو
1629	تاريخ إسكندر بيك لعهد شاه عباس الكبير
1681	محاورة حول التاريخ العالمي لجاك بنين بوسويه؛ ستة كتب في علم الوثائق لجان مابيّون
1697	نشر الطبعة الأولى من القاموس التاريخي والنقدي لبيير بايل
1698 ـ 9	تكليف مصطفى نعيما بكتابة تاريخ نعيما
1702	نشر كتاب كوتون ميذر Magnalia Christi Americana، أو التاريخ الكنسي لإنجلترا الجديدة.
1702 ـ 4	نشر كتاب تاريخ التمرّد لإيرل كلارندون بعد وفاته
1724	نشر كتاب جان فرانسوا لافيتو عادات الهمجي الأميركي، مقارنة بعادات أقدم العصور

1588	نشر **الحوليات الكنسية** للكردينال تشيزاري بارونيو
1590	نشر كتاب **التاريخ الطبيعي والخلقي لجزر الهند** لخوسيه دي أكوستا
1598	الانتهاء من كتاب **أكبر نامه** لأبي الفضل الناكوري
1615	فيليبي غوامان پوما دي أيالا ينتهي من **التاريخ الجديد الأول والحكومة الجيدة**
1617	**تاريخ بيرو العام** بقلم الإنكا غارسيلاسو
1629	تاريخ إسكندر بيك لعهد شاه عباس الكبير
1681	**محاورة حول التاريخ العالمي** لجاك بنين بوسويه؛ **ستة كتب في علم الوثائق** لجان مابيّون
1697	نشر الطبعة الأولى من **القاموس التاريخي والنقدي** لبيير بايل
1698 ـ 9	تكليف مصطفى نعيما بكتابة **تاريخ نعيما**
1702	نشر كتاب كوتون ميذر **Magnalia Christi Americana**، **أو التاريخ الكنسي لإنجلترا الجديدة.**
1702 ـ 4	نشر كتاب تاريخ التمرّد **لإيرل كلارندون بعد وفاته**
1724	نشر كتاب جان فرانسوا لافيتو **عادات الهمجي الأميركي، مقارنة بعادات أقدم العصور**

الفصل الثالث

الإحساس بالماضي، 1450 ـ 1700عصر النهضة وأوربا القرن السابع عشر

كان المؤرخون الأوربيون منذ القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر يعتقدون أن الهدف الرئيس من التاريخ هو التعليم. وفي حين اعتبر كتاب العصور الوسطى أن للتاريخ وظيفة تربوية، فقد كانت مكانته في ترتيبهم لفنون الأدب والمعرفة وسيطة على الأقل. أما عصر النهضة فقد ارتقى بالتاريخ عدة درجات في سلم الفكر وجعله سندا صارما للوضع القائم من جانب، ومن جانب آخر سلاحا ماضيا يشهر في وجه التغييرات الجذرية والعنيفة أحيانا لترتيب الأحوال المقبولة. فقد كانت المعرفة بالماضي تمجد التراث وفي الوقت ذاته تساند التغيير، ليس سعيا وراء «التقدم» أو «الإبداع» كما هو الحال اليوم، بل على العكس عموما: أي لأجل استرداد معالم من عصر مثالي سابق.

لقد استعان الكتاب الإنسانيون في عصر النهضة بالمؤلفين اليونان، والرومان بنحو خاص، كقدوة لهم في الأسلوب والصنف والمحتوى المناسب. وكان ذلك ساريا في مجالات عديدة للنشاط الفكري، لكن إعادة اكتشاف نصوص وأصناف كلاسيكية كانت له آثار واسعة المدى في الفكر والكتابة التاريخية، لا أقل لأنه منذ أواسط القرن الخامس عشر، فإن ظهور الطباعة قد سمح بتضاعف النصوص بأعداد أكبر. وعلى مدى قرنين لاحقين سيخلق هذا بدوره أمرا جديدا: شهية شعبية للتاريخ الذي يتجاوز بلاط الأمراء ومنازل النبلاء. ولكن التاريخ ظل في الغالب ملكا لجنس واحد فقط، وهو تحيز تاريخي بات الآن أعمق نتيجة للأفكار البارزة عن الأدوار الجنسية، ووطدته الأعمال الإنسانية التي رددت الفكرة القديمة القائلة بأن المؤرخ يجب أن يكون رجل

أفعال يحيا في المجالات العامة للسياسة والمعارك والتجارة، وليس المجالات الخاصة للأطفال والتبتل الديني والحياة المنزلية.

لقد مثل عصر النهضة نقلة في التفكير حول الماضي وعلاقته بالحاضر. فقد أضفى شعور بالبعد عن العصور الكلاسيكية، ورغبة في إعادة الارتباط بها، على الكتاب الإنسانيين منظورا زمنيا غائبا عن أكثر تدوين التاريخ القروسطي. فمع أوائل القرن السابع عشر يمكن ملاحظة (حس بالمفارقة الزمنية) بنحو متكرر ولكن غير دائم في العديد من الوسائط، كما في الفن والدراما، على أنه ظل بالإمكان في أواخر القرن السادس عشر لكاتب إسباني، هو پيدرو ميكسيا *Pedro Mexía*، أن يؤلف تاريخا شعبيا للأباطرة الرومان من أغسطس وحتى شارل الخامس كما لو كانوا جميعا أفرادا من العائلة ذاتها. ولكن حسا بصريا أشد حدة بالماضي كان أبطأ في تطوره، رغم أن الاكتشافات الآثارية (وخاصة خرائب روما والمعسكرات الرومانية السابقة في أرجاء أوربا) سرعان ما حفزت ذلك أيضا. يظهر الفن في تلك الفترة لامبالاة بهذا المنظور الجديد بالنسبة للعصور القديمة، حيث يقر بهذه المسافة الزمنية ويلغيها في آن واحد عبر وضع شخوص غير متزامنة بوضوح مع بعضها ـ ولكن في بنية واعية الآن. ولكن بسرعة أكبر من ذلك فقد تطور حس بالتغير **اللغوي**. فقد أقر الإنسانيون في القرن الخامس عشر، وأعربوا عن يأسهم أيضا، من وجود عصر وسيط ***medium aevum*** يفصل بينهم وبين العصور القديمة. وقد كرسوا أنفسهم، فوق كل اعتبار، في البدء لمهمة استرجاع اللاتينية لنقائها الكلاسيكي، رغم أن فكرة أن لغة ما يمكن أن تزرع بشكلها العتيق المنجمد في حقبة أخرى كانت في الواقع إهمالا لخمسة عشر قرنا من التغير التدريجي، ومثلت نوعا آخر من المفارقة الزمنية.

كانت إحدى العواقب المبكرة لهذه الدراسة الجديدة للغة هي اكتشاف أنه لم يكن كل شيء كما يجب في الإرث النصي والوثائقي للألفية السابقة. فقد فضحت وثائق مزورة مثل منحة قسطنطين، على يد لورينزو ڤالا *Lorenzo Valla* (ح. 1407 ـ 57) أعظم فقهاء اللغة في القرن الخامس عشر، بفضل تحليل لغتها، ومن ثم عبر دراسة جوانبها المادية بما فيها الخط اليدوي. وبدأت من ثم نصوص مزورة أقرب عهدا من أواخر العصور الوسطى بالتهافت، بما فيها المساهمات الحديثة نسبيا لمزور

نصوص سيئ الصيت يدعى جيوڤاني نانّي *Giovanni Nanni* (ح. 1432 ـ 1502)، اشتهر باسم (أنّيوس من ڤيتربو *Annius of Viterbo*)، الذي زعم كتابه **الأعمال القديمة** *Antiquities* أنه يتضمن الكتابات القديمة المفقودة للمنجم البابلي برعوشا (راجع أعلاه، ص 45). لم تكن هذه الفضائح مريحة دوما، لأنها مثلت للمعاصرين تذكيرا صادما بمدى قلة ما يعرفون، أو ما يمكن أن يعرفوه، حول الماضي البعيد.

إن اكتشاف مؤرخين قدماء بعينهم، والمد والجزر في الشعبية فيما بينهم، قد أحيا كتابة التاريخ كسرد مستمر، سواء باللاتينية الكلاسيكية المجددة أو باللغات الشعبية. وقد تصاعدت معها العداوة تجاه كتاب التاريخ القروسطيين لأجل جمع من الخطايا كاللاتينية الرديئة، العجز عن تقدير أسباب التصرفات، وعدم التمييز بين المهم والتافه، والتقبل الساذج للمتناقل والمتخيل. كان هذا الموقف المتباعد محض مبالغة، تقبلتها العصور اللاحقة بنحو أسهل مما يجب، لكنها كانت مؤثرة جدا. ورغم أن مصطلح (سجل وقائع *chronicle*) ظل شائع الاستخدام في العديد من اللغات، فقد هيمنت النصوص المنظمة حولياً وأصبحت في أواخر القرن السابع عشر، بعدما هيمنت على الكتابة التاريخية قرابة ألف عام، إرثا من عصر ماض في العديد من أرجاء أوربا، واستحالت عيناتها من صنف كتابة حي إلى مصدر فحسب.

كانت الأمثلة الأوضح التي تقتدي بها كتابة التاريخ عند الإنسانيين تستمد من مؤلفات القدماء. حيث ظهرت للنور، واحدة تلو الأخرى، طبعات لاتينية مصححة من كتب المؤرخين الرومان، وعلى إثرها مؤلفات اليونان بفضل تدريب العلماء البيزنطيين المهاجرين للطلاب الإيطاليين النابهين؛ وهكذا فقد استطاع الإنساني الفلورنسي پوغيو براتشوليني *Poggio Bracciolini* أن يترجم كتاب زينوفون وأجزاء من **المكتبة التاريخية** *Bibilotheca historica* لديودورس الصقلي، بالإضافة إلى تأليف تاريخه اللاتيني الخاص لمدينة فلورنسا. وبحلول عام 1700، كانت أكثر من ألفي نشرة لعشرين مؤرخا يونانيا ورومانيا متوفرة كمطبوعات. لكن كمية وجودة الأعمال الكلاسيكية جعلت كتاب عصر النهضة مترددين في إعادة اختراع عجلة تدوين التاريخ على قدمها ـ فأي طائش مغرور هذا الذي يظن أنه يستدرك، رغم العصور الفاصلة، على تاسيتوس

وليقي؟ ولذا فقد جنحوا إلى رواية الماضي بعد الكلاسيكي، وإلى أصناف غير سردية و«عتائقية» من البحث (راجع أدناه، ص 136ـ137).

إن بدايات السرد التاريخي الإنساني، المدون باللاتينية، الذي حذا حذو القدماء، تقع بالإجماع في أوائل القرن الخامس عشر. ومن الإنصاف أن يفرد ليوناردو بروني *Leonardo Bruni* من أريزّو (ح. 1369 ـ 1444) بالذكر لأجل جودة كتابته التاريخية وكذلك لأصالة أسلوبه. وبوصفه رئيسا لجمهورية فلورنسا منذ عام 1427 وحتى وفاته، فقد قدم بروني كتابه *Historiae Florentini populi libri xii* («الكتب الاثنا عشر في تاريخ شعب فلورنسا») إلى مجلس حكم فلورنسا عام 1439. وإدراك مؤلفه الواعي بأنه يقوم بأمر مختلف جذريا عن مؤرخي القرون القريبة السابقة، يمثل قطيعة مع سجلات الوثائق القروسطية. لقد اقتدى بروني بپوليبيوس وثوسيديدس وسالوست، وتخلى عن مثال المؤرخين القروسطيين المتأخرين مثل جيوڤاني ڤيلاني *Giovanni Villani*. وسرعان ما ظهر له مقلدون في البندقية، ميلان، فيرارا، مانتوا، روما، ومدن عديدة أخرى بين أواسط القرن الخامس عشر وأواخر القرن السادس عشر، وشيئا فشيئا، وعبر الاستعانة عادة بإيطاليين متجولين وظفوا في بلاطات ملوك أجانب، انتشرت هذه النزعة إلى أرجاء أخرى في أوريا.

وقد وفرت الأزمات السياسية والحروب الدينية التي عصفت بأوربا طوال ثلاثة قرون تقريبا حوافز عميقة للكتابة التاريخية في العموم. ثم إنها شيئا آخر: انزياحا خفيا وتدريجيا في التفكير ـ لا يكاد يرى في العادة ـ حول علاقة الماضي بالحاضر، وتأكيدا جديدا على الصلة السببية أو **الخطية** بينهما. بعبارة أخرى فإن المؤرخين، وقراءهم من بعدهم، بدأوا تدريجيا في تصور الماضي كطريق يأخذنا من الأمس لليوم، بدلا من التأكيد الأشد تقليدية القائل باستخدام الماضي (حتى لو استعرضت أحداثه في تسلسل زمني) كمصدر للشواهد وأمثلة التصرف؛ فمن ذلك المنظور الأشد تقليدية، لا يملك السياق الزمني المتميز للأحداث والأشخاص وزنا يذكر بإزاء التماثلات والقيم الخلقية التي تسمو على الزمان والمكان. ولا شاهد أوضح على المفارقة بين هاتين النظرتين إلى الماضي من المقارنة بين مؤرخين فلورنسيين شبه متعاصرين عالقين في أزمات سياسية، ونعني بالأخص انتقال المدينة من جمهورية إلى ملكية، وكذلك

قلاقل الحرب والاحتلال. فقد كتب كل من فرانشيسكو غويتشارديني Francesco Guicciardini (1483 ـ 1540) ومعاصره الأشهر والأكبر سنا نيكولو مكياڤيلي Niccolò Machiavelli (1469 ـ 1527) تاريخا لمدينة فلورنسا، وكتب غويتشارديني تاريخا أطول لإيطاليا. ألف كلا الرجلين أعمالا في الحكمة السياسية، لكن مكياڤيلي تميز بجمعه أمثلة من الماضي القريب والبعيد معا في كتابيه **الأمير** و**المحاورات**. كان غويتشارديني، المعاصر المتشائم والأصغر سنا لمكياڤيلي، قد ألف في شبابه تاريخا لفلورنسا، لكنه بات بمرور الزمن أقل اهتماما من مكياڤيلي بتتبع تاريخ المدينة حتى عهود البرابرة، وأكثر عناية بسرد تطور مشكلاتها ومشكلات إيطاليا الحاضرة برمتها (أي غزو الجيش الفرنسي والإسباني، وتآكل ثم انهيار الاستقلال الجمهوري). وربما نتيجة لتركيزه الثوسيديدي على الماضي القريب للغاية، فقد كان غويتشارديني أشد حرصا على التفاصيل، وبنحو غير مألوف في عصره أشد تشككا في قدرة شواهد الماضي على خدمة الحاضر، نظرا لتفاوت الظروف بين موقفين تاريخيين قد يتشابهان سطحيا. «ما أشد خطأ الاستشهاد بالرومان في كل وقت»، كما علق في كتابه **المذكرات** *Ricordi*، وهو إضمامة من الحكم والأفكار. «فحتى تصح أي مقارنة، من الضروري أن تكون لدينا مدينة بظروف كظروفهم، ثم نحكمها على غرارهم. أما بالنسبة لمدينة ذات خصائص مختلفة، فالمقارنة ساقطة كما لو توقعنا من الحمار أن يجري كالحصان».

بات من المتكرر في أوربا أوائل الحداثة، في وجه التغيرات السياسية المفاجئة في الأغلب، أن يسرد المؤرخون الماضي القريب أو البعيد لأجل تفسير أصول العالم الذي عاشوا فيه، أو أسباب الأحداث القريبة، بدلا من الاكتفاء برواية قصة مسلية وذات عبرة. ففي إيطاليا مطلع القرن السادس عشر، كان نتاج عدة عقود من السرديات الإنسانية الكبرى على غرار ليڤي قد ألف بالفعل؛ وكاد المؤرخون يستنفدون ما يكتبون حوله قبل أن يجبرهم الغزو الفرنسي والإسباني على تركيز انتباههم مجددا إلى الأحداث القريبة، على غرار غويتشارديني. وبعد قرن من ذلك قدم إيطالي آخر، هو إنريكو كاترينو داڤيلا Enrico Caterino Davila (1576 ـ 1631)، رواية مشابهة للحروب الدينية الفرنسية في أواخر القرن السادس عشر، التي شارك هو فيها. وكان الفرنسي جاك أوغست دو تو Jacques - Auguste de Thou (1553 ـ 1617) ممن شارك في تلك الأحداث

وألف تاريخا لعصره، في حين كتب إيرل كلارندون الإنجليزي (1609 ـ 74) بعد عدة عقود تاريخا للحروب الأهلية لإنجلترا في أواسط القرن، أصبح معيارا جديدا للرواية المتألقة عن حدث قريب بأسلوب ثوسيديدي.

ولكن أيا من ذلك لم يعن أن استخدام التاريخ لتوفير الأمثلة والإرشاد قد مات. بل على العكس: فقد ظل الهدف الأساس الذي يقدم لكتابة التاريخ أو قراءته. ولكن النحو الذي عوملت به الأمثلة قد تغير بنحو خفي. فالشاهد التاريخي المعزول، المقتطع من سياقه، بات شائعا للغاية بين قراء القرن السادس عشر، الذين باتوا يرتبون قطوفا وأمثلة من مجموعة واسعة من المصادر في ‹كُنّاشات *commonplace books*›. ومع مجيء عام 1700، بات القراء أشد ترددا في الاعتماد على الشخوص والأحداث المنزوعة من المجريات التي حدثت فيها أفعالهم، وكثير من شروح الحال (أو سير الحياة كما نسميها اليوم ـ فالمصطلح لم يخترع بعد آنذاك) تستهل بوضع فاعليها ضمن سرد تاريخي. ويلاحَظ تغير آخر أيضا: ‹فالشخوص› التاريخية في القرن السادس عشر والسابع عشر بنحو متزايد لم تعد تقيم وفق جمع من الضوابط المشتقة من معايير القرون الوسطى، رسمت المسيحية بدورها خطوطها العريضة، مثل التقى والإحسان والشرف، بل وفق ضوابط براغماتية أحدث كجودة الرأي و‹الرفق› وحتى الرفاه المالي.

لكن بعض المهتمين بالماضي ذهبوا إلى ما هو أبعد من المكتبة والأرشيف. فاكتشاف المصادر المادية التي تضمنت الخرائب، النصب، المسكوكات، والمباني في إيطاليا وغيرها قد شجع ظهور فرع ثانوي من البحث التاريخي كثيرا ما يشار إليه بالعنوان العام ‹علم العتائق *antiquarianism*›. كانت أصوله تعود لفقه اللغة *philology*، وكذلك للإدراك الحسي لبقايا العصور القديمة، لغوية كانت أو ملموسة، وللانشقاق عن الماضي، خاصة (في البدء) عن الماضي الكلاسيكي الذي رمزت له. لقد اتخذ علم العتائق أشكالا شتى في دول مختلفة، ولكن انطلاقا من مسح فلاڤيو بيوندو (1392 ـ 1463) Flavio Biondo لمعالم وآثار إيطاليا الرومانية، انغمس ممارسو هذا العلم في أبحاث حول ما يمكن أن يسمى بالماضي غير السردي. وعلى نحو مميز، فقد استغلوا الأصناف المادية وغير النصية من الأدلة كالعملات، القبور، والمسلات كمكمل لسجلات الوقائع والوثائق المكتوبة. ولم

يتطلب الأمر إلا خطوة قصيرة من دراسة هذه الآثار المصنوعة بشريا إلى التأمل في منشأ المباني قبل التاريخية مثل نصب ستونهنج في إنجلترا، وكذلك قسمات المشهد الجغرافي، التي ظهر العديد منها في نصوص المؤلفين القروسطيين، وكثيرا ما تنسب إلى حدث معين أو شخصية أسطورية.

ومع نهاية القرن السابع عشر، فقد أصبح علم العتائق، مثل شقيقه الأوفر نجاحا علم التاريخ، تصورا فضفاضا يضم تشكيلة من النشاطات المختلفة، تتضمن دراسة النصب القديمة، التنقيب في الوثائق لإثبات الأنساب والأصول الكريمة (وهو نشاط مهم في عصر من الارتقاء الاجتماعي المعتبر في العديد من أرجاء أوربا)، فك رموز شواهد القبور، العملات، والنياشين، وفي النهاية تصنيف النوادر الطبيعية بما فيها الأحافير. فقد ساهم علماء كالإنجليزي ويليام كامدن (1551 _ 1623) William Camden بدراسات عن بلدات أو مدن منفردة وما يخصها من عتائق، في حين جمع صديقه الأصغر سنا السير روبرت كوتون *Robert Cotton* خزانة هائلة من المخطوطات التاريخية، ما يزال أكثرها سالما محفوظا في المكتبة البريطانية. إن ميول التخزين لدى الجمّاعين ‹الموسوعيين› في أواخر عصر النهضة، مع أنها بدأت كأدراج وغرف ملأى ‹بالغرائب›، بدأت تندمج تدريجيا بأصناف الأبحاث العلمية التي مارسها أكاديميون أوربيون في أواخر القرن السابع عشر، بما فيها تباشير علم الآثار النظامي. وقد تطور علم العتائق أيضا على جبهة أخرى، لدرجة أنه بات يضغط ويتداخل كثيرا مع مبحث جديد آخر هو ‹التاريخ الطبيعي›، وبحلول مطلع القرن الثامن عشر نجد أنه قد اكتسب الميول التصنيفية والتجريبية التي ننسبها إلى الطبيعيين المعاصرين مثل كارلوس لينيوس *Carolus Linnaeus*.

وأخيرا، فقد أثبت البحث القانوني نفسه كفرع خصب بالخصوص من علم العتائق، حيث اجتذب بعض أذكى وأدق العقول التاريخية في زمانه، كانت التغيرات في القوانين وكذلك تعدد الأنظمة في بعض البلدان تمثل عندهم واسطة لتغيرات اقتصادية، اجتماعية، وسياسية أوسع. فقد رسمت ثلاثة أجيال من فقهاء القانون الفرنسيين في القرن السادس عشر توجها مميزا نحو المصادر كان يشدد أصلا على تحرير النصوص، تثبيت المعنى التاريخي للكلمات والمستندات، وفهم القوانين كإبداعات مقيدة بالزمن

في عصر معين. لكن مجال هذا البحث قد اتسع ليشمل المقارنة بين أنظمة قانونية مختلفة، كالقانون المدني الروماني والقانون العرفي المحلي. فبحلول أواخر القرن السادس عشر، وفي مثال مبكر على ما نسميه 'بتنشيط المعرفة'، باتت دراسة منزوية نسبيا للنقاط الباطنية في القانون الروماني ذات فائدة أكبر في 'ساحة الواقع'، مع تمزيق فرنسا لذاتها في حروب دينية، وقد سخر جيل جديد من فقهاء القانون الإنسانيين مثل فرنسوا أوتمان (1524 ــ 90) Francois Hotman تضلعهم وتمكنهم للمساهمة في سجالات إيديولوجية حول أمور مثل مساحة وقيود السلطة الملكية. وسيستخدم (أو يتجاهل) الفقهاء الإنجليز هذه التقنيات للمجادلة فيما إذا كان الفتح النورماني عام 1066 فتحا 'حقيقيا'، وإن كانت مؤسسات كالبرلمان تسبقه في الأولوية، وإن كان القانون العام للبلاد يعود إلى أقدم العصور، وكلها نقاط تلقي بتداعيات جادة على السجالات السياسية المعاصرة.

كان أحد تداعيات تراكم الأدلة في القرن الخامس عشر والسادس عشر هي زعزعة الإيمان بحكايات النشوء التي عفّى عليها الزمن ـ ففي عام 1600، كان قلة من المؤرخين فقط على استعداد لتقبل قصة الطرواديين ونسلهم دون نقاش. أما الثقافة الشعبية فظلت شأنا آخر، وظلت شتى الكتب الشعبية والقصائد الغنائية وصحف القطع الكبير التي انتشرت في أرجاء أوربا تروج مزيجا من الرومانسية والأسطورة والتاريخ، كان يغذي الثقافة الشفهية مثلما نبع عنها. وكثيرا ما كان مؤرخو البلاط مترددين في تحدي الخرافات التي قدسها الزمن. وإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك مشكلة عويصة في تحديد خطوط زمنية دقيقة لأحداث التاريخ، والتاريخ القديم بالخصوص، وكذلك في التوفيق بين 'تزامن' الأحداث في أجزاء مختلفة من العالم وبين تقاويمها. بل إن أحد النواتج الثانوية لفقه اللغة والتمكن اللغوي للإنسانيين كان موجة من الأبحاث الزمنية شديدة التعقيد قام بها متعددو لغات *polyglots* من أمثال يوسف يوستوس سكاليغر (1540 ــ 1609) Joseph Justus Scaliger ومن ثم عالم الرياضيات العظيم إسحاق نيوتن (1643 ـ 1727). وقد كانت هناك عدة محاولات غريبة لتحديد تاريخ الخليقة على نحو اليقين، الذي اشتهر عن المطران الإيرلندي جيمس أوشر James Ussher (1581 ــ 1656) تعيينه بفجر يوم 23 أكتوبر من عام 4004 ق.م.

ولكن كان هناك بعد آخر لذلك كله، بعد معرفي، تمثل بالتفاؤل المفرط لدى بعض المفكرين حول إمكانية استرجاع الماضي وتمثيله بشكل دقيق. فقد ساهم أحدهم، وهو المنظر القانوني جان بودان (1530 ـ 96) Jean Bodin، بنشر كتاب **المنهج** *Methodus* واسع القراءة لأجل قراءة التاريخ واستيعابه. ربما كان **المنهج** العمل الأشد تأثيرا في صنف كامل من الكتابة عرف إجمالا باسم (فن التاريخ *ars historica*) واستمر حتى أواسط القرن الثامن عشر، وكان القصد منه الأخذ بيد القارئ وسط الأحراش الشائكة لأعمال المؤرخين الماضين، لدرجة توفير مسرد مرتب زمنيا لكتب التاريخ، لكن بودان حقق ما هو أبعد من ذلك. فقد حرص على تحديد القواعد اللازمة (للتقييم الصحيح) للتواريخ وكذلك أنظمة الحكم (مثل پوليبيوس)، (حيث إن التاريخ في معظمه يعنى بالدولة والتغيرات الحادثة ضمنها). وقد عُني أيضا بتفنيد بعض الأطر المستهلكة مثل فكرة (الممالك الأربع) [من رؤيا للنبي دانيال، رمز لها بالذهب والفضة والنحاس وأخيرا الحديد والطين]، التي ورثت من العصور الوسطى واستغلها الآن مؤلفو الكتب الميعادية وناشرو الدعاية الپروتستانتية. فقد كان ذلك خطأ قاتلا في نظر بودان لأنه يخلط بين بعض الإمبراطوريات ويتجاهل بعضا آخر؛ حيث لم يكن فيه مجال مثلا (المملكة العرب التي كادت تخضع كل أفريقيا وشطرا ضخما من آسيا) لتبني دينها ولغتها، أو للتتار (أي المغول). وهكذا فقد أدرك مؤلف أوربي وجود مركزية أوربية كامنة في التدوين التاريخي كما كان يمارس في عصره.

مع ظهور الإصلاح الپروتستانتي في أوربا، والقرن المملوء بالحروب الدينية الذي سرعان ما اندلع بعده، فإن القدرة الجدلية المتأصلة في الكتابة التاريخية قد ارتفعت لمستويات جديدة. فهي لم تعد تستخدم لتأييد مجرد رؤى متعارضة أو اختلافات علمية، مهما كانت شرسة، حول نقاط واقعية بعينها، بل لغرض مختلف جوهريا. فقد بدأ الاستعراض العلني للتأويلات المتعارضة ـ أي ما قد نسميه اليوم (بالإيديولوجيا) ـ للمرة الأولى حين انشق كتاب التاريخ إلى معسكرات متعارضة بوضوح، باتت الآن قادرة على تنفيذ هجماتها بواسطة الطباعة. فقد قدم المصلحون الپروتستانت الأوائل، الذين احتاجوا إلى تشويه المؤسسة الپاپوية والكنيسة القروسطية بوصفها مسيرة انحدار طويلة عن نقاء كنيسة الرسل، أعمالا مثل رواية يوهانس سليدانوس *Johannes*

(56 ـ 1506) Sleidanus للمراحل الأولى لحركة الإصلاح، وكتاب **قرون ماغدبورغ** (1559 ـ 74) متعدد المؤلفين، الذي حمل هذا الاسم نسبة إلى المدينة التي طبع فيها ونظرا لتنظيمه بحسب فترات من مائة عام. وقد ردت أوربا الكاثوليكية بالنحو ذاته، كما في **الحوليات الكنسية** للكردينال چيزاري بارونيو *Cesare Baronio*، وهو تفنيد أعيد طبعه واختصر وأكمل في عشرات الطبعات حتى القرن التاسع عشر.

كما لاحظ بودان ومؤلفون آخرون لكتب **فن التاريخ** في أواخر القرن السادس عشر، فإن إحدى تبعات مهاجمة المؤلفين المتعاقبين لمصداقية خصومهم وكذلك وثاقة مصادرهم هي تزعزع الإيمان في إمكان معرفة الماضي. والرد على ذلك بنحو رئيس لا يكمن في الدفاعات الفلسفية عن المعرفة، بل (من جديد) في توظيف مستويات متزايدة الدقة من البحث العلمي. وقد أنشأ البولانديون *Bollandists* ـ وهم آباء يسوعيون بلجيكيون ـ كتاب **أعمال القديسين** *Acta Sanctorum*، الذي نظم كتقويم شهري لأيام الأعياد، لأجل تأسيس حياة وأفعال القديسين التاريخيين على قاعدة تاريخية أوثق، ممحصين كل دليل ممكن يرتبط بأي شخصية مقدسة منفردة من أجل فرز الخرافة عن الواقع التاريخي. وقد استمر مشروعهم هذا حتى العصور الحديثة وحسن بشكل ملحوظ من مستوى نقد المصادر الذي كان يمارس آنذاك. أما الموريون *Maurists* ـ وهم رهبان بندكتيون فرنسيون ـ فقد سعوا للدفاع عن وثاقة التاريخ عبر إصدار طبعات لأعمال آباء الكنيسة الأوائل استنادا إلى مصادر أصلية، لكن الأهم من ذلك أنهم بدأوا بترسيم القواعد والعادات المرتبطة (بالمباحث الثانوية) البازغة حديثا. وبها نعني المهارات التقنية المطلوبة للتعامل مع وثائق أواخر الأنتيك والعصور الوسطى، وخاصة علم الخطاطة النظامي (أي تفسير أنماط الخطوط والكتابة التاريخية) والوثائق (أي دراسة البنية والهيئة والصيغ التقليدية للمستندات). ويوضح عمل الراهب الموري جان مابيّون (1632 ـ 1707) Jean Mabillon **ستة كتب في علم الوثائق**، الذي ركز على وثاقة المراسيم القروسطية، انزياحا أوسع في النظرية التاريخية (لو صحت التسمية) بعيدا عن تخمينات حول التكوين الأدبي المناسب للتاريخ ونحو العمل الدؤوب المضني على مصادره، رغم أن بعض الاهتمامات بالأسلوب ظلت تعد من مزايا أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر كذلك.

ثمة خصام متكرر في تلك القرون هو ما يعرف **بالنزاع** ***querelle*** بين ‹القدماء› و‹المحدثين›. وقد بدأ في القرن السادس عشر بثورة ضد التبجيل المتاخم للعبادة لمحاكاة الكلاسيكيات عند الإنسانيين الأوائل، واستمر في التصاعد بإزاء التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المعتبرة، التي رفض بعض الكتاب تقبلها بوصفها سلبية بلا جدال. وقد توسع هذا النزاع، الذي مثل في جوهره حجة أضيق حول المزايا الأدبية النسبية للكتاب المحدثين بإزاء أسلافهم الأقدمين، ليصبح جدلا أوسع حول ‹التقدم› في المعرفة البشرية. وسرعان ما أخذ بالحسبان ظهور العلوم الحديثة، حيث تمكنت التقنية بوضوح من اختراع أدوات (كثيرا ما كان يشار إلى البوصلة والبارود والطباعة كأمثلة عليها) كانت العصور القديمة تفتقر إليها. وكان تصاعد الشكوكية تجاه المعرفة المتوارثة، والاعتقاد بأن العقل والتجربة يجب أن يتقدما حقائق الوحي بالمنزل، أو يستعان بهما للإيضاح على الأقل، على صلة بهذا النزاع. ولعل أفضل ممثل للنزعة الشكوكية في أواخر القرن السابع عشر، حين تطبق على التاريخ، هو **القاموس التاريخي النقدي** *Dictionnaire historique et critique* لبيير بايل *Pierre Bayle*، وهو كتاب مشهور ظهر في قلب فترة شديدة التوتر من التخمين الفكري والشك المتفشي.

كان بايل (1647 ـ 1706) من بين العديد من المؤرخين الجدليين الذين اضطروا للهجرة لأسباب دينية. وقد نشر قاموسه في عدة طبعات ابتداء من عام 1697، وكان تأثيره واسعا في العقود التالية، رغم أن توجهه إلى الحقيقة التاريخية ـ وهو سلسلة لا هوادة فيها من تمارين التدمير والتصريحات الإثارية حول طيف واسع من الأشخاص والموضوعات ـ سيرفض في النهاية، نظرا لعجزه البادي عن تشييد أي شيء بديل لتلك الحقائق التي تحداها. لم تكن آراء بايل فريدة، وقد بدأ آخرون من بعده بالشك في الرواية التوراتية للخليقة والطوفان. وردا على هذه الميول ألف الأسقف الفرنسي جاك بنين بوسويه (1627 ـ 1704) Jacques ـ Bénigne Bossuet كتابه واسع القراءة **محاورة حول التاريخ العالمي**، الذي أكد فيه مجددا على الوثاقة الحرفية للرواية التوراتية للتاريخ، لكنه كان يقاوم مدا صاعدا من الشكوكية استمر بالتزايد دوما، مع بناء فلاسفة القرن الثامن عشر على الأبحاث النقدية لأسلافهم.

الكتابة التاريخية الصينية في ظل سلالة المينغ وأوائل الچينْغ

عام 1580 وصل راهب أوغسطيني إلى الصين في عصر المينغ، في مهمة بعث بها فيليب الثاني ملك إسبانيا. وسيقضي هذا الراهب، خوان غونزاليز دي مندوزا Juan González de Mendoza (1545 ـ 1618)، ثلاثة أعوام في الصين قبل أن ينتقل إلى المكسيك ويعود من ثم إلى إسبانيا. كان غونزاليز، الجندي السابق، واحدا من عدة مبشرين كاثوليك اتجهوا إلى الصين، وأصبح عام 1586 أول أوربي ينشر تاريخا مطبوعا لتلك البلاد التي عرفها الغرب طوال قرون باسم كاثاي [بالعربية: 'بلاد الخطا']. وسرعان ما استحال كتابه **تاريخ مملكة الصين الكبيرة العظمى**، الذي ترجم في العام ذاته إلى الإيطالية وبعيد ذلك إلى الإنجليزية، المقدمة الرئيسة للكثير من القراء إلى تاريخ ذلك العملاق في الشرق الأقصى. وكانت هذه هي الفترة التي أصبح فيها الصينيون، الذين كانت لهم صلات متقطعة مع التجار الأوربيين طوال قرون خلت، على احتكاك أشد وأكثف مع ثقافة الغرب، خاصة من خلال مبشرين مثل مندوزا والراهب اليسوعي ماتيو ريتشي Matteo Ricci (1552 ـ 1610). وقد تصاعدت المعرفة الغربية بالصين بقدر معتبر، لتشمل بعض الألفة بكتاباتها التاريخية.

كانت سلالة المينغ (1368 ـ 1644) تمر فعلا بانحطاط حين شاهدها ريتشي. وقد ازدهر في ظلها توجه فلسفي نحو دراسة الماضي، وتزايدت نسبة القراء، كما كان الحال في أوربا أواخر العصور الوسطى وأوائل الحداثة. فقد باتت الكُتُب أيسر توافرا بكثير، مما أدى لنمو المكتبات الشخصية وانتشار الأعمال التاريخية، بما فيها بعض التواريخ المعتمدة، خارج دائرة المتعلمين من الحاشية التي انحصرت فيها سابقا. وفي حين ركزت دراسة التاريخ في العصور السابقة عموما على السلالات السابقة، كان مؤرخو المينغ مهتمين أكثر بنحو ملحوظ بالماضي القريب. وكما في أوربا فقد ظلت الأصناف التاريخية تتكاثر، وحين كتب التاريخ المعتمد لهذه السلالة في النهاية، أورد مسرد لأعمال عصر المينغ عشرة أشكال من الكتابات التاريخية، منظمة في 1.378 صنفا. وكان يطلب من الطلاب الخاضعين لامتحانات الخدمة المدنية في القرن السادس عشر أن يتأملوا في المزايا الخاصة بالتواريخ المنظمة زمنيا بإزاء التواريخ

المنظمة موضوعيا مثل **المرآة الشاملة** لسيما غوانغ (راجع أعلاه، ص 102)، بنحو يذكر بالمشادة الجارية بين البحث المتعمق وكتابة التاريخ السردي التي شهدها الغرب في وقت مقارب.

لقد ضمن المينغ سلامة وبقاء التواريخ المعتمدة لكل عهد عبر عملية منظمة من النسخ، والتقديم المراسمي للنسخة الأم إلى الإمبراطور وفق قواعد أقرت عام 1403، وتوخي عناية أكبر بحفظها. لكن الانتقاد الأشد حدة لتواريخ المينغ الرسمية كان أنها كانت عرضة لخطر التدخل السياسي على حد لم يكن كذلك (أو لم يظن به ذلك) في ظل السلالات السابقة. فهناك حالات لفض أختام سجلات مختومة سلفا وإعادة كتابتها، كما هو حال التواريخ المعتمدة للإمبراطور هونغوو، مؤسس السلالة. ومن المعروف أيضا تعرض سجلات أخرى للتلف. أما الميل القديم لتمجيد منجزات الأباطرة الناجحين وشيطنة المقصرين أخلاقيا والغاصبين والطغاة، فقد ظل فاعلا كما كان.

ومن المفارقة أن نقطة الضعف في تدوين التاريخ الرسمي لعصر المينغ قد احتثت الإبداع في فضاءات بحثية أخرى. فقد أتيح مزيد من الاطلاع على المستندات لمؤرخين غير رسمين، وتصاعد تدوين التاريخ الخاص، الذي كان حتى ذلك الحين شطرا ضئيلا نسبيا من النتاج التاريخي الصيني، بنحو وافر، حيث ألفه أحيانا الأفراد ذاتهم الذين ساهموا في الكتابات الرسمية أيضا. فقد شارك المسؤول الإمبراطوري چيو جون Qiu Jun (1421 ـ 95) في عدة أعمال شملتها الرعاية الرسمية، كان من ضمنها التواريخ المعتمدة لعهدين، لكنه استطاع بمفرده أن يكتب عملا أشد أصالة وذكاء، هو **الأواصر الصحيحة في التاريخ العالمي** *The Correct Bonds in Universal History*، مقدما فيه تأملات فلسفية على مسار أحداث الصين منذ عصر الچين.

لكن الأهم من انتشار الكتابة التاريخية الخاصة بحد ذاتها كان شيوع موقف أشد انتقادا للكتابة التاريخية بمجملها. فقد تردد صدى نقد ليو جيجي (راجع أعلاه، ص 101) لديوان التانغ لكتابة التاريخ بعد قرابة ألف سنة عند تنديد تان مينغ Tan Ming (1594 ـ 1658)، المؤرخ في أواخر عصر المينغ، بالأعمال التي كتبت من قبل حول المينغ،

وكذلك في رحلاته الواسعة خلال أرجاء الصين بحثا عن مصادر معتمدة لما سيصبح فيما بعد تاريخه الضخم الخاص لهذه السلالة، الذي أكمله تان في ظل سلالة الچينغ اللاحقة (1644-1912). كان الفرق بين النقد خلال عصر التانغ وعصر المينغ يتعلق بالدرجة أساسا وليس بالنوع. فقد ركز ليو على نقاط ضعف ديوان التاريخ بالخصوص، أما نقاد المينغ فقد هاجموا مشروع الكتابة التعاونية للتاريخ بأكمله، إلى جانب أمور كثيرة أخرى، في أعمال مثل **الرسالة الناقدة لأخطاء الأعمال التاريخية** لوانغ شيجين *Wang Shizhen*. وقد شهد هذا العصر، بالتزامن مع انتشار قراءة التاريخ وسهولة توافر النصوص، تزايدا في الجدل العام حول الماضي يشبه النمط الذي رأيناه في أوربا المعاصرة.

وظهر أيضا ما يشبه النسبية والشكوكية التاريخية الفرنسية (التي كثيرا ما تعرف باسم «البيرونية *Pyrrhonism*») في الصين آنذاك، وتجلى في صيحة جانغ شوان *Zhang Xuan* (ز. 1582) الحزينة: «من الصعب أن تكتب تاريخا صادقا!» كان لكل من جان بودان وبيير بايل من يقابلهما إجمالا خلال عصر المينغ، رغم أنه من غير المرجح أن يكون المؤلفون الصينيون، بالرغم من الاتصال بالغرب، على علم بنظرائهم الفرنسيين والعكس بالعكس. حيث قدم چو جينغ چون (1507 - 69) Qu Jingchun، وهو نظير للفرنسي بودان ومعاصر له أيضا، في كتابه **حول مزايا وعيوب المعرفة التاريخية من الماضي إلى الحاضر** نقدا منظما وقاسيا في بعض الأحيان للمؤرخين الماضين. وقد حدد چو ‹مسؤوليات أربع› للمؤرخ يمكن أن تقرأ كشعار لمنظمة مهنية حديثة: التركيز على المهمة المقصودة برغم سائر المشتتات؛ الصبر والتدبر بدلا من التعجل؛ التحلي بحس الإخلاص المهني لهذه الحرفة؛ وتجميع المصادر بكل حرص إلى أن تتحقق الاستعانة بكل الكتب المتوفرة للعموم.

ولو أن بيير بايل كان يقرأ الصينية، لوجد ضالته في مؤلفين أسبق بكثير من عصر المينغ. فكتاب جو يونمينغ (1461 - 1527) Zhu Yunming **سجلات المعرفة الخاطئة**، الذي أكمله عام 1522، هجوم جريء على الآراء القائمة في تدوين التاريخ وطعن في أسماء كبيرة؛ بل إن لي جي (1527 - 1602) مضى أبعد من ذلك في طريق الشكوكية، لدرجة أنه ألقي به في السجن حيث أقدم على الانتحار، بتهمة «الجرأة على الترويج بنحو فوضوي، وخداع العالم وتضليل الجموع».

الشخصيات الكبرى من العصور القديمة، وخاصة الإسكندر الأكبر الذي تمتع، كما نذكر، بحياة ثانية في العصور الوسطى كبطل جسد قيم الفروسية.

أما في الهند القريبة، وبحلول أواخر القرن الخامس عشر، فقد بدأ تدوين التاريخ الإسلامي بالازدهار في شبه القارة. وفي أوائل القرن السادس عشر، اجتاح الهند قائد تيموري يدعى بابُر وفتح معظم أرجائها. وبذلك أسس بابر، الذي ادعى التحدر من تيمور لنگ وجنگيز خان معا، سلالة المُغَل (وهي كلمة فارسية مشتقة من ‹المغول›) التي حكمت أغلب شمال الهند ووسطها حتى مطلع الحكم الاستعماري البريطاني في أواخر القرن الثامن عشر. وليس من قبيل الصدفة أن تتكرر العديد من لوازم الكتابة الصفوية، بما فيها المقدمات المتصنعة وإفصاح المؤرخ عن ‹الإلهام› الذي قاده للكتابة، لدى مؤرخي المغل، حيث كانت الفارسية لغتهم المفضلة في الأدب والإدارة معا. وأثناء ما كان أقرانهم المسيحيون في أرجاء أخرى من الهند يتصارعون مع المصادر الجنوب آسيوية الأصيلة ويجدون فيها عيوبا، فكذلك فعل المسلمون كالمؤرخ الفارسي فرشته (ح. 1579 ـ ما بعد 1623) الذي استخدم مصادر هندوسية **كالمهابهاراتا** (بترجمة فارسية) لكتابة تاريخ للهند قبل ظهور الإسلام وبعده، لكنه عبر عن انزعاجه من أنه بين الروايات الثلاث عشرة المختلفة لخلق العالم في هذه الملحمة القديمة، لا يبدو أن أيا منها يستحق القبول أكثر من غيره.

ظل جنوب آسيا منطقة معقدة متعددة اللغات، تمتاز بتنوع واسع من التراثات وأصناف كتابة التاريخ التي سبقت المغل وبقيت من بعدهم، لأن رقعة سلطانهم لم تشمل شبه القارة بأسرها. وقد كانت هذه الأصناف سيالة ومنفتحة بما يكفي للسماح بتبادل وتشارك قصص بعينها: فمثلما كان ممكنا للقصة ذاتها في أوربا أن تظهر في تراث شفهي محلي، سجل وقائع حضري عامي، وتاريخ إنساني لاتيني، كانت مواقف وشخوص من منطقة أو مجموعة لغوية ما قابلة للتنقل والظهور في مكان آخر، بلغات أخرى وصيغ مختلفة بالكامل. وقد تمكن متعلمو القرى العارفون بعدة لغات (*karanam*) في جنوب الهند، مستفيدين من تصاعد نسبة التعليم وانتقال المعلومات من النقوش إلى الورق، جريد النخل وسائر الوسائط المحمولة، من خلق تدوين تاريخي نثري متميز في لغات عامية كالماراثي، التيلغو، والراجستاني، إضافة إلى لغات

(رسمية) كالفارسية. وكان الماراثا في غرب الهند، الذين أقاموا إمبراطوريتهم الخاصة في أواخر القرن السابع عشر، يحتفظون بسجلات تؤكد دعاوى أملاكهم ويذكرون فيها تواريخ وملاحظات عن أحداث مهمة. وكانت هذه المعلومات تستخدم لاحقا لكتابة تاريخ (*karina*) لمصالح أعمال العائلة وحيازتها للأراضي - وهي عملية لا تختلف عما اتبعه الوجهاء الإيطاليون الذين احتفظوا بمذكرات (*ricordanze*) منزلية، أو مؤرخي الأسر في ألمانيا أوائل عصر الحداثة.

مع مجيء أواخر القرن السادس عشر، كانت التأثيرات الثقافية الإسلامية الفارسية في تدوين التاريخ قد انتشرت مع اتساع رقعة المغل. فقد ألف الإمبراطور بابر نفسه أو أملى تاريخا سيريّا مفصلا عن عصره، يدعى **بابر نامه**، مستهلا بذلك سلسلة من (النامات) (تعني (نامه) حرفيا بالفارسية (كتاب)، على أن هذه الكلمة قد تفهم أيضا بمعنى (تاريخ) أو (سجل)). كان من بينها **همايون نامه**، الذي امتاز بكونه من تأليف امرأة، هي گل بدن ابنة بابر، حول عهد أبيها وأخيها همايون ثاني أباطرة المغل. وبهذا فقد كانت گل بدن خليفة مسلمة لسابقتها البيزنطية، الأميرة المؤرخة آنا كومنينة. ولعل أعظم كتب هذا الصنف هو **أكبر نامه** ((كتاب أكبر)، عن ملك المغل الثالث)، لأبي الفضل بن المبارك العلامي (1551 ـ 1602)، وهو شخصية بارعة اغتيلت فيما بعد بأمر من الإمبراطور اللاحق جهانگير. استعان أبو الفضل بمصادر متنوعة في **أكبر نامه**، وهو عمل يمتاز بالعديد من تأملاته اللافتة حول طبيعة التاريخ، الذي نظر إليه كصنف فلسفي عقلاني، وكمصدر للسلوان عن الأسى الحاضر. وفي الوقت ذاته بالضبط الذي باتت فيه التواريخ التي رعاها البلاط رائجة في أوربا أوائل الحداثة، أمكنت ملاحظة السمة ذاتها في الهند تحت حكم المغل، وقد استهل تعيين أكبر لأبي الفضل هذه الممارسة، التي استمرت حتى أوائل القرن الثامن عشر، لتكليف مؤرخ رسمي بكتابة تاريخ الإمبراطورية.

ومع دخول المغل إلى الهند، كان للإسلام بالفعل راية مرفوعة في الغرب على يد الترك العثمانيين، الذين أطاحوا عام 1453 بالإمبراطورية البيزنطية المتهاوية واحتلوا القسطنطينية. ورغم فترات الضعف المتناثرة فقد ظلوا مصدر الخوف الشرقي المفضل في نظر الأوربيين حتى أواخر القرن السابع عشر، شاغلين بذلك الدور الذي لعبه المغول

في وسط أوراسيا في وقت مضى. وبفضل موقعهم على حدود أوربا والشرق في آن واحد، ربما لم تتمتع قوة آسيوية أخرى بانتباه يماثل ما نالوه من الكتاب الأوربيين، بما في ذلك صنفا فرعيا (التواريخ الترك) وتخمينات حول أصول العثمانيين.

تحمل محاولات سلاطين أوائل القرن الخامس عشر لتبرير عادتهم المقيتة للتخلص من الخصوم بأثر رجعي، التي تشهد عليها رواية عبد الواسع چلبي *Abdu'l vasi Çelebi* ـ (ز. 1414) لصعود محمد الأول، شبها بالتواريخ التي كتبت بعيد ذلك في بعض دويلات المدن الأوربية التي حكمتها سلالات عائلية، وفي إنجلترا التيودور المبكرة. وقد استمر تراث التوثيق هذا مع أعمال عاشق پاشا زاده أو عاشقي *Aşikpaşazade or Aşiki* (1400 ـ ما بعد 1484) وخامل الذكر مولانا نشري *Mevlana Neşri* (ت. ح. 1520)، الذي لفق بين العديد من المصادر التي توفرت حتى عصره. كان المتأدبون الأتراك في القرن السادس عشر، بنحو يشبه أقرانهم الإنسانيين في الغرب، قد اعترضوا على لغة ومحتوى تلك التواريخ وكلك أسلوبها البسيط، المشبع بحنين لعصر أقدم من الحروب واسعة النطاق، لا يتوافق مع نظام مكتبي متمركز. وقد بادر السلطان بايزيد الثاني (م. 1481 ـ 1512) بتغيير في أساليب التاريخ حيث أوعز بتأليف أول التواريخ المكرسة للعثمانيين بالذات، بقلم إدريس البدليسي *Idrîs ـ i Bidlîsî* (ت. 1520)، وباللغة الفارسية والتركية معا. وبعد فترة جفاف استمرت عدة عقود، عادت التكليفات للظهور مع أمر سليمان القانوني (م. 1520 ـ 66) خلال عقد 1550 بإنشاء منصب **شاهنامه چي**، أو مؤرخ البلاط الذي يكتب تاريخا جديدا للسلالة بالفارسية (التي نسختها التركية لاحقا). ومع أن هذه المبادرة المبكرة نحو تاريخ برعاية البلاط لم تكن ناجحة بتفوق، فإن العثمانيين قد أسسوا أخيرا تاريخا (رسميا) بالمعنى الأدق لمنصب المؤرخ الحكومي (**وقائع نويس**) في أواخر القرن السابع عشر. ومع مطلع القرن التالي، فقد تحولت نتاجات هؤلاء المؤرخين إلى وسائط لترويج الدولة العثمانية المتوطدة حاليا، بدلا من كتابات حاشية ترتبط بالسلاطين، الذين خسروا الآن قدرا كبيرا من سلطاتهم الشخصية. وقد ظهرت حركة خلال القرن السابع عشر هادفة للابتعاد عن البحث في أصول السلالات والاتجاه نحو تغطية التاريخ الأحدث ـ وهي ظاهرة رأيناها أيضا في أوربا الغربية المعاصرة.

يمكن الإشارة إلى العديد من العناصر المقابلة من الكتابة التاريخية الصينية التي تسيطر عليها لغة الماندارين (وتطورها في ظل التانغ من تلقي رعاية غير رسمية إلى تحولها لجناح صريح من الحكومة)، وكذلك بنحو أبعد مع تدوين التاريخ المدني والأميري الأقل خضوعا للبيروقراطية في العديد من الدول الأوربية. فالممارسة الصينية للاحتفاظ بيوميات البلاط كمصدر للتواريخ المعتمدة الإمبراطورية لها ما يشبهها في الكتب اليومية لنشاط الحاشية أو القيود التي تستحيل فيما بعد إلى تواريخ. وكثيرا ما كانت التواريخ التركية الكبرى في القرن السادس عشر والسابع عشر، حتى لو كتبت بشكل غير رسمي، من إنشاء وزراء أو مسؤولين مثل مصطفى نعيما Na'îmâ (1716 ـ 1655)، الذي كتب تاريخا مهما للإمبراطورية في النصف الأول من القرن السابع عشر، حمل اسم **تاريخ نعيما**. وهو يظل، بوصفه عموما أول التواريخ الرسمية الجديدة، أحد أوفر المصادر اقتباسا من ذلك العصر؛ ثم إن آراء مؤلفه عن أسباب كتابة التاريخ والطرق التي ينبغي اتباعها لذلك تبدو مشابهة بنحو لافت لأي كتاب **فن تاريخ** *ars historica* في ذلك العصر.

كانت الإمبراطورية العثمانية، مثل نظيرتيها المغولية والصفوية، دولة متعددة الأقوام واللغات. ولهذا فقد استوعب تدوين التاريخ العثماني كتابات بلغات غير التركية، بقلم أقليات إثنية كالكرد والأرمن والعرب، إضافة إلى اليونان في المناطق البيزنطية المفتوحة. ومن الجدير بالذكر أيضا أن اهتمام المؤرخين الأوربيين بالشؤون التركيين كان له ما يقابله عند أقرانهم العثمانيين، الذين كتبوا أحيانا عن العالم غير العثماني. حيث كان المفهرس والجغرافي كاتب چلبي *Kâtip Çelebi* (1609 ـ 57) ملاحظا ومعلقا مكثرا على الشؤون الأوربية، بالتعاون مع قس مسيحي سابق؛ وكرس مؤلف يدعى إبراهيم ملهمي فصلا للتاريخ الفرنسي في كتابه **مراد نامه** (المهدى لمراد الرابع)، الذي صمم كتاريخ عالمي بالرغم من عنوانه. وفي عام 1572 كان مسؤولان ديوانيان قد أعدا تاريخا لملوك فرنسا اعتمادا على عدة مصادر فرنسية، يشمل الفترة من الملك الفرنجي الأسطوري فراموند وحتى عصرهما. حتى إن مؤلفا عثمانيا مجهولا حوالي عام 1580 مد نظره وراء البحار إلى الأميركتين، ربما بمساعدة شريك إسباني في التأليف، ليدوّن تاريخا لجزر الهند الغربية.

بحلول عام 1500، كان الإسلام حاضرا أيضا في الأجزاء الشمالية من القارات الأفريقية منذ بضعة قرون ـ فابن خلدون، كما نذكر، كان تونسيا ـ وانتشر مداه الثقافي تدريجيا نحو جنوب الصحراء. فقد دونت العديد من اللغات الأفريقية الأصلية بالخط العربي (في ممارسة عرفت باسم **الأعجمي** *adjami*)، ومنها مثلا لغة الهوسا في السودان وبدو الفلاني الذين سيحتلون الكثير من مناطق الهوسا في القرن التاسع عشر. ومع أوائل القرن الثامن عشر، كانت مملكة گونجا الساحلية في غرب أفريقيا تنقل تقاليدها الشفهية إلى حوليات باللغة العربية. أما في شرق أفريقيا، فإن تاريخ بلدة كيلوا في تنزانيا الحالية قد سجل فيَ عمل مجهول المؤلف من مطلع القرن السادس عشر، بأمر من السلطان محمد بن الحسين، واستفاد منه لاحقا المؤرخ البرتغالي خواو دي باروس *João de Barros*. ولعل إثيوبيا امتازت بأطول وأغنى تراث من الكتابة التاريخية في أفريقيا جنوب الصحراء، رغم أن ذلك نبع في الأغلب من تأثير المسيحية لا الإسلام. فالتواريخ الملكية التي دونها كتاب البلاط، بألفباء مشتقة من لغة الجعز الإثيوبية القديمة، تظهر أول مرة في القرن الثالث عشر، وستظل تدون بلغة الجعز والأمهرية كذلك (وهي لغة الحكم الحديثة في هذا البلد) حتى القرن العشرين.

إن قدرا وافرا من معرفتنا بتاريخ أفريقيا قبل الاستعمار لا يُستَمَدّ اليوم من مصادر مكتوبة، بل من تقاليد وآداب شفهية، لم يدون العديد منها إلا خلال نصف القرن الماضي. وأحد الأمثلة عليها هي سيرة أسكيا محمد *Askia Mohammed* (م. 1493 ـ 1528)، عاهل مملكة السونغاي في القرن الخامس عشر؛ ورغم الإشارة إليها من قبل في تواريخ إسلامية من القرن السادس عشر، فلم تسجل حتى أوائل عقد 1980 سماعا من فم قاصّ وشاعر شعبي *griot* (شائع في غرب أفريقيا). وهناك عدة أنواع لهذه التقاليد تحمل أسماء شتى، مثل *woy jallore* أو *cosaan* عند الولوف (هي أغنية عن الأمجاد الكبار أو الأنساب)، أو *deeda* (لفظ عند السونغاي يعني سردا مطولا عن الماضي مع تفاصيل أنساب). ولبعض هذه المفردات صلات واضحة بكلمات أخرى تدل على ضروب تاريخية: فالظاهر أن *tariko* في غامبيا و*tariku* في غينيا العليا مشتقتان من **تأريخ** العربية. سنفيض لاحقا في الحديث عن أفريقيا في الفصول اللاحقة،

أما هنا فالمهم أنها لم تكن، كما ظن ذات يوم، قارة خالية من الكتابة التاريخية، فضلا عن الفكر التاريخي.

لقاءات بالعالم الحديث 1: الأوربيون في آسيا والأميركتين

كانت الجغرافيا، وهي دراسة المكان والفضاء، على صلة طوال الوقت تقريبا بالتاريخ، وهو دراسة العصور الماضية. ولم تكن لهذه الصلة أهمية أكبر مما كانت عليه في الفترة بين عامي 1450 و1700. وفي نهاية المطاف، فإن الشكوك التي لوحظت أعلاه تجاه الماضي إجمالا، والتوقيت الزمني، وحتى الأشكال المناسبة التي ينبغي أن يصاغ التاريخ وفقها، ستتعاظم بفضل قرنين من الاستكشاف الأوربي والاستعمار وراء البحار. فاكتشاف شعوب أخرى، وخاصة الثقافات الأصيلة البدائية ـ سواء كانت قبائل (بدائية) كليا كالتوبينامبا البرازيلية والمجتمعات (البربرية) الأكثر تقدما مثل الإنكا والأزتيك ـ ستضيف تعقيدا إلى الأنظمة المتوارثة لتحقيب التاريخ وحتى قصة الخلق التي يتضمنها سفر التكوين. فما كان جديدا بحسب الظاهر وزع في البدء على أصناف في غاية القدم، وأدمج في السياق المقيد للتراث الشعبي والمتوارث.

فقد بدا أن من الممكن إيجاد الدعم لوجود شخصيات ووحوش أسطورية، وجنة عدن وينبوع الحياة، ومناجم الملك سليمان، وأكلة لحوم البشر وكذلك نساء الأمازون في الاكتشافات التي تمت في الأميركتين وأفريقيا وجزر الهند الشرقية. ثم إن بعض التخمينات الجامحة بحق، التي أثارتها أعمال مزورة في أواخر العصور الوسطى مثل كتاب برعوشا المختلق بقلم أنيوس من ڤيتربو، ستفسر في النهاية أصول السكان الأصليين بوصفهم أهل أطلنطس المفقودين، أو بني إسرائيل المنفيين، أو فرعا ثانويا ما من أبناء نوح. وقد استند التبرير النظري لامتداد السلطة الإمبراطورية والكنسية لما وراء البحار على افتراض أن الأميركتين وسائر المناطق التي لم تعرف حتى الآن كانت في الواقع جزءا من العالم القديم، أشير إليه في الأساطير والروايات القديمة (وكذلك في النصوص المقدسة والجغرافيا الكلاسيكية)، وبهذا فهي خاضعة لنفس السلطة المبسوطة على الأراضي الأوربية وتسكنها شعوب تشارك في نفس القيم البشرية الشاملة، ولو كانت أشد بدائية بكثير من حيث السلوك.

إلى جانب حملات الفايكنغ الاستكشافية السابقة التي صورتها لنا ملاحم العصور الوسطى، فإن أول المستكشفين المنظمين لعالم ما وراء الأطلسي هم البرتغاليون، على أن حملاتهم كانت تميل أكثر نحو التجارة لا الفتوحات. وخلافا لأهل قشتالة وأراغون وكتالونيا، لم ينتج البرتغاليون كتابات تاريخية وفيرة نسبيا قبل مطلع القرن الخامس عشر. وكانت أول رواية من إيبيريا لقصة التوسع البرتغالي بقلم غوميز إينيس دي زورارا *Gomes Eanes de Zurara* (ح. 1410 ـ 74)، الذي ألف عام 1448 تاريخا لفتح غينيا في غرب أفريقيا. وكما سيفعل الإسبان لاحقا في إسبانيا الجديدة وبيرو، فقد لاقى البرتغاليون معرفة محلية بالماضي في أفريقيا وجزر الهند كان من الصعب أن توفق مع أفكارهم المسيحية عن تاريخ العالم وكذلك مع حسهم المتصلب بالحدود بين الخرافة و‹الواقع›، لكنهم كثيرا ما كانوا مضطرين لاستخدامها في غياب مصادر بديلة.

فقد سجل مؤرخ برتغالي زار المولوكاس *Moluccas* (المعروفة الآن باسم جزر مالوكو) في أرخبيل الملايو، اعتقاد سكانها بأن حكامهم المؤسسين قد فقسوا من أربع بيضات ثعابين. «يقال إن هذا هو أصل كل ملوك هذه الجزر... قد يعتقد المرء بذلك لو شاء، وكذلك بقصة الثعبان؛ فهم يؤكدون صحة ذلك، كما يفعلون مع كل قصصهم الشعرية الرائجة جدا فيما بينهم». وقد ذهب خواو دي باروس *João de Barros*، الشهير بلقب ‹ليفي البرتغال› (ح. 1498 ـ 1570) إلى شرق أفريقيا وجنوب الهند أيضا خلال مسيرته، مستعينا أحيانا بالتواريخ المحلية. لقد كان باروس في آن واحد مؤلفا للرواية والتاريخ، وواعيا بصدق بالفرق بين الأمرين. واستشهد بالتمييز الكلاسيكي بين *verum* و*fabula* (أي الواقع والخرافة) للاستخفاف بالكتابات التاريخية التي صادفها في الملابار بوصفها «خرافات كخرافات الإغريق واللاتين».

كانت آسيا وأفريقيا تعتبران منطقتين معروفتين، وإن لم تكونا مألوفتين دوما، عند الأوربيين طوال قرون. أما في الأميركتين، فقد كان المستكشفون والكتاب على حد سواء في ساحة غريبة بالكامل، بررت استخدام مصطلح ‹العالم الجديد› ما إن اتضح أن هذه الجزر ليست في الواقع ‹هندية› بل أمر مختلف جدا. كانت المؤلفات التاريخية في الأميركتين من صنع القساوسة والمدنيين، بما فيهم العديد من الإداريين

والقضاة الإسبان الذين كتبوا مذكرات وتقارير (*relaciones*) تضمنت قدرا جيدا من المعلومات التاريخية حول مناطقهم وسكانها الأصليين. كان بعضهم قادما من خلفية متواضعة، ومن بينهم عدد من المؤرخين الجنود ***soldados cronistas*** الذين قد لا يحتمل أن يشاركوا، وهم في أرض الوطن، في تدوين التاريخ الإنساني الذي كان بنحو متزايد منحصرا بالطبقة الوسطى والعليا. وقد تضمنت هذه الزمرة پيدرو سييزا دي ليون *Pedro Cieza de León* (1518 ـ ح. 1554 أو 1560)، وهو جندي سافر بنحو واسع خلال پيرو؛ وكتابه **الجزء الأول من تاريخ پيرو** يشمل مساحة أوسع مما يشير إليه عنوانه، وهو مشحون بالمعلومات الشفهية من مخبرين من الأنديز حول ثقافتهم وتاريخهم. وقد ذاع صيته وانتشر بعدة لغات، ثم إنه أكثر من أي كتاب آخر فكرة كون الإنكا حكاما مثقفين فرضوا مستوى ما من التحضر على شعوب أشد بدائية بكثير كانوا قد أخضعوها قبل قرن مضى.

لقد بدأت الكتابة المثقفة عن العالم الجديد في وقت مبكر جدا، وبنحو يتداخل مع السرديات عن الخبرة المباشرة، مع رجل لم يشاهد الأميركتين أبدا بعينيه، هو پيدرو مارتير دي أنغليريا P*edro Mártir de Anglería* (أو پيتر مارتير دانغييرا *Peter Martyr d'Anghiera*، 1457 ـ 1526)، المهاجر اللومباردي الذي كلفه شارل الخامس (الإمبراطور الروماني المقدس، الذي كان ملكا على إسبانيا أيضا) بكتابة تاريخ للاكتشافات. ورغم أن عمله كان في معظم الجوانب يمثل تدوين تاريخ إنساني ورسمي، وقد دل على تأثره بليڤي تقسيم الكتاب إلى عقود، فقد أدخل مارتير فيه حديثا عن جغرافيا الأميركتين ومعالمهما الطبيعية، بنحو يلقي بالغموض على الحدود بين التاريخ الطبيعي والسرد التاريخي، في خلط للأصناف الأدبية سيتضح مدى نفعه للمؤرخين اللاحقين للأميركتين.

نشرت الطبعة الأولى من **عقود حول العالم الجديد** لمارتير باللاتينية عام 1516، ووسعت في الطبعات اللاحقة. ربما كانت تمثل أول محاولة لترويض الماضي ‹البرّي› للمناطق الجديدة عبر إدماجه في التاريخ الأوربي. فلا يمكن النظر إلى السكان المحليين، في تفسير توراتي لتاريخ العالم، بوصفهم غرباء كليا؛ بل إن من الأسهل أن نعتبر ثقافتهم بقية من ‹عصر ذهبي› ضائع.

لم يكن مارتير سوى استهلال لعدة مؤرخين كانوا مستعدين للكتابة حول الاكتشافات دون المغامرة أبدا بالذهاب شخصيا إلى العالم الجديد. كان من بينهم أنطونيو دي هيريرا إي توردسياس *Antonio de Herrera y Tordesillas* (ح. 1549 ـ 1625)، المؤلف المكثر لتواريخ حول فرنسا، إنجلترا، وسكوتلندا. وقد عينه فيليپ الثاني مؤرخا لجزر الهند عام 1586، لينضوي من ثم تحت سلسلة طويلة من المؤرخين الرسميين استمرت حتى القرن الثامن عشر. وبفضل دوره كمؤرخ، فقد حظي هيريرا بحق الوصول إلى مستندات حكومية، استغلها في عمله الموسوعي **التاريخ العام لأعمال القشتاليين على جزر وأراضي البحر المحيط المعروفة بالهند الغربية** (1601 ـ 15). وكان إصرار هيريرا المخلص على رواية قصته بترتيب زمني صارم قد أثار توترا ناشئا عن اضطرار زمرة من الأصناف التاريخية تمر بعملية تهذيب لتستوعب الخبرات الأوروبية إلى التطويع كي تجسد مناطق غريبة بالكامل، وكذلك عن تحول الهدف الرئيس من تقديم مثل بطولية أو أخلاقية إلى نقل معلومات عملية.

لم تكن هذه نقطة ضعف بالضرورة. فكثير من تدوين التاريخ المختص بالفتح كان قراؤه هم جمهوره المقصود ـ كالملوك والوزراء ورجال الكنيسة ـ وليس بهدف التسلية أو التأسي، بل لأغراض أكثر عملية ومعرفية. ففي نظر العديدين، لم تعد تكفي الممارسة الإنسانية المتعارفة عن تقديم عرض وجيز للجغرافيا كمقدمة لسرد زمني رئيس، وباتت تواريخهم تضم فصولا عن العادات والجغرافيا والاعتقادات والتجارة ضمن أقسام الكتاب ككل. وقد ثبت أن استيعاب الجغرافيا والتاريخ معا بأنحاء مختلفة بعض الشيء عن السرديات الإنسانية المعتادة مثل تيارا مبدعا بذاته، وهكذا فإن العديد من التواريخ الأهم للعالم الجديد تحظى بقيمة أكبر بكثير من الروايات الزمنية. وبهذا فقد ذللت هذه الاكتشافات، بغض النظر عن تأثيرها في فهم التاريخ البشري، من صرامة الحدود بين الأصناف الأدبية في هذا العصر المتأثر بالكلاسيكيات.

كان غونزالو فيرنانديز دي أوڤييدو إي ڤالديز Gonzalo Fernández de Oviedo y Valdés (1478 ـ 1557) أول مؤرخ يقضي بعض الوقت فعلا في جزر الهند الغربية (كما كان الأوروبيون يسمون الأميركتين لبعض الوقت)، وكذلك أقدم من كتب حولها بالإسبانية، وقد قرر بدوره أن يدمج التاريخ الزمني بوصف الطبيعة والجغرافيا. لقد

ذهب أوڤيدو إلى العالم الجديد عام 1512، وبغض النظر عن رحلات عودته إلى الصين، فقد ظل هناك كممثل التاج ومن ثم ‹كبير المؤرخين لجزر الهند›. وكتابه الأهم **التاريخ العام لجزر الهند**، الذي يؤكد على الأحداث منذ اكتشاف هذه المناطق فحسب، يجسد الجذور نصف الكلاسيكية ونصف القروسطية التي تستند إليها الروايات التاريخية للاكتشافات، حتى حين تمجد بوصفها إنجازات تفوقت حتى على الأقدمين. لقد نظر أوڤيدو إلى كورتيز الفاتح بوصفه يوليوس قيصر حديثا (في صورته القروسطية كفارس)، وبحث عن أدلة حول فتح إسباني قبل كولومبوس في مصدر مثير للشك جدا، هو كتاب أنيوس من ڤيتربو.

كان التمعن في الماضي قبل الإسبان أمرا أصعب، يتطلب بعض الفهم للغات الأصلية وخصوصا الناهواتل، وهي عائلة اللغات المهيمنة في ميزو ـ أميركا. ورغم أن المؤلف الإنساني فرانسيسكو لوپيز دي غومارا Francisco López de Gómara (1511 ـ 64) لم تطأ قدمه أرض المكسيك أبدا، فقد عمل في النهاية كقس اعتراف لهيرنان كورتيز واستخدم معلومات سيده كأهم مصدر لروايته عن الفتح، **تاريخ فتح المكسيك** (1552). وسرعان ما انضم إلى كتابه عمل آخر نشره في العام ذاته، هو **التاريخ العام لجزر الهند** التي باتت الآن تتضمن پيرو، التي كان يملك حولها معلومات أقل وثاقة بكثير. كانت پيرو قد فتحت بعد وقت قصير من المكسيك وبنحو أقل انتظاما، ولم تصل حكومتها أبدا لمستوى استقرار إسبانيا الجديدة. فسرعان ما استحال الفتح هناك إلى حرب أهلية بين زمر متخاصمة من الفاتحين.

ومع ذلك فقد بدأت تواريخ رسمية أو شبه رسمية بالظهور منذ أواسط القرن، بدءا من **تاريخ اكتشاف پيرو وفتحها** لأغوستين دي زاراتي *Agustín de Zárate* (ح. 1492 ـح. 1560). ومنذ البداية فقد كان المؤرخون الواعدون في إسبانيا الجديدة وپيرو كذلك متكلين بشدة على المخبرين المحليين فيما يخص تاريخ ما قبل التلاقي. وسيتم كذلك تجاوز الفجوات اللغوية ـ فقد استعان توريبيو دي بيناڤنتي *Toribio de Benavente* (ح. 1500 ـ 69) الذي تبنى اسم ‹موتولينيا *Motolinía*› (أي الفقير) بلغة الناهواتل، وكذلك رفيقه الفرنسيسكاني بيرناردينو دي ساهاغون *Bernardino de Sahagún* (ح. 1499 ـ 1590)، بالمترجمين والمخبرين على نحو واسع.

ولكن تحديد ما ينبغي فعله مع معلومات كهذه كان يضعهم في مأزق. فقد كان عليهم من جهة أن يتخلوا عن الجوانب الدينية والطقسية للتاريخ المحلي بوصفها باطلة ومنفرة أخلاقيا في آن واحد. ومن جهة أخرى فلم يكن بوسعهم التخلي عن كل المعلومات المحلية نظرا لكونها مصدرهم الوحيد في الواقع. وتتضح هذه المعضلة عند بيدرو سارمبينتو دي غامبوا *Pedro Sarmiento de Gamboa* الذي كان يشك في صدق التراث الشفهي البيروفي، لكنه شعر بالرغم من ذلك بأنه ملزم نظرا لصدق إيمان السكان الأصليين به ظاهرا بأن «أسجل ما يقولون لا ما نظنه فيما يقولون». وبالتالي فإن تاريخه هذا، الذي ظل غير منشور حتى أوائل القرن العشرين، يمكن أن يعتبر الآن وثيقة دقيقة بقدر معقول عن تصورات سكان الأنديز عن الماضي في أواسط القرن السادس عشر.

يوفر هذا الغنى في تدوين تاريخ العالم الجديد حلقة جديدة في ذلك الصراع القديم الجديد بين الدافع نحو كتابة تواريخ خاصة لأي شيء أو أي مكان، والحاجة إلى التعميم الكفؤ وتشكيل تاريخ عالمي شامل يستوعب كل البقاع وكل الشعوب. فالمشكلة عينها التي واجهها المؤرخون الأوربيون في أواخر الأنتيك ومؤرخو البلاط الصينيون الأوائل في إدماج القبائل البربرية ضمن ماضيهم الخاص (الذي يعتبر جوهرا لتاريخ عالمي) قد ظهرت مجددا على مستوى أوسع وعابر للمحيطات. فقد حاول بعض المؤلفين توليف التواريخ المتفرقة لجزر الهند، الشرقية منها والغربية، في تاريخ عام يمكن بدوره أن يدرج بسهولة ضمن السرد الأعم المسيحي المتوارث والأوسع بكثير. ولم يكن القصد من ذلك طمس التاريخ الأصيل بل استزراعه بالكامل في نسخة كوكبية من الرؤية المسيحية التوراتية للعالم في العصور الوسطى. ويجسد دييغو دوران *Diego Durán* (ح. 1537 ـ 88)، وهو المؤلف الدومنيكاني لأحد أقدم تواريخ الأزتيك، هذه العقلية بقناعته بأن «هؤلاء السكان الأصليين جزء من أسباط إسرائيل العشرة الذين أسرهم شلمنصر ملك الآشوريين وأخذهم إلى آشور في عهد هوشع ملك إسرائيل وحزقيا ملك أورشليم». ولن تكون هذه سوى الخطوة الأولى في عملية من الاستعمار الأوربي لتدوين التاريخ ستصل للنضج لاحقا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

لقد حرضت التجارة وكذلك الفضول على إنتاج النصوص التاريخية: فقد كانت هناك سوق رائج للأعمال المركبة الموجزة وكذلك لروايات عن أحداث أو مناطق معينة، نشطتها حركة الطباعة وتنامي المتعلمين من السكان الذين كانوا متعطشين لمعلومات سهلة الوصول. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد كانت بدورها مستثمرة بكثافة في وضع السكان الأصليين الوثنيين ضمن سياق توراتي للعالم، مثلما كانت في الوقت ذاته مهتمة بإدخالهم في الإيمان المسيحي. فقد كان المؤرخون/ المبشرون الأوائل مثل أندريس دي أولموس *Andrés de Olmos* (ح. 1480 ـ 1570) وموتولينيا يتصورون هذه الاكتشافات جزءا من السرد الفرنسيسكاني الأعرض لأحداث آخر الزمان: الذي يقول بأن تحول الهنود للمسيحية سيمثل البداية لإصلاح أوسع نطاقا ولتحقيق يوتوبيا مسيحية على جانبي المحيط الأطلسي. ومع ظهور حركة مناهضة الإصلاح جاء حافز آخر: هو ضمان الاستقامة الدينية وحتى العداوات في أحيان كثيرة بين طرق دينية مختلفة. ولذا فإن كتاب **الملكية الهندية** (1615) للراهب الفرنسيسكاني خوان دي توركميدا *Juan de Torquemada* (ت. 1664) قد غطى التاريخ الديني والمدني معا، وأحال قصة السكان الأصليين قبل الفتح إلى ما يشبه استرقاق بني إسرائيل في مصر، وقدم كورتيز بوصفه مخلصا اختاره الله كي يدمر إمبراطورية الأزتيك عقابا لعبادتها للأوثان، وكذلك رفاقه الفرنسيسكان بوصفهم خالقين لجنة عدن جديدة ـ استحالت الآن بكل أسف، جراء خطايا المستعمرين وتهتكهم، إلى بابل جديدة.

من بين المؤرخين الكنسيين لتواريخ عامة، يستحق اثنان إفرادهما بالذكر: بارتولومي دي لاس كاساس Bartolomé de Las Casas (1474 ـ 1566) وخوسيه دي أكوستا José de Acosta (1540 ـ 1600)، الأول راهب دومنيكاني والثاني يسوعي. حاز لاس كاساس على إعجاب الأجيال اللاحقة نظرا لنقده المبكر لإساءة معاملة الإسبان للسكان الأصليين (بما فيها إكراههم على دخول المسيحية)، الذي قاد هذا المغامر فيما مضى لأن يصبح راهبا وينذر حياته لحمايتهم. وقد كتب لاس كاساس عدة أعمال، من ضمنها كتابه غير المكتمل **تاريخ جزر الهند العام**. ولكن أكثر شهرته ترتكز على كتابه **شرح موجز لتدمير جزر الهند** (1552)، وهو دفاع متحمس عن حقوق السكان الأصليين، كان له أثر غير مقصود هو تقوية الدعاية المضادة للكاثوليك في

الدول البروتستانتية. كان لاس كاساس قد أثار العداء في زمانه، لأنه مضى في الاتجاه المعاكس للمشاعر المعادية للهنود لدى المؤرخين العامة مثل غومارا وجهود أقرانه القساوسة المنغمسين في عملية التبشير. وقد تعلم فكر الحداثة أن يأخذ تصريحاته مع رشة صحية من التشكك، حتى لو تعاطفنا مع الدوافع التي وقفت وراءها.

أما خوسيه دي أكوستا فقد انتمى لجيل لاحق، وكان عضوا في طائفة اليسوعيين، وهي الرهبنة الدينية الجديدة التي ارتبطت بنحو وثيق بحركة مناهضة الإصلاح الكنسي. وقد نشر عمله الذي ترجم بكثرة **التاريخ الطبيعي والأخلاقي لجزر الهند** عام 1590 بالإسبانية، وكان نتيجة لتعليمه الفلسفي وكذلك للوقت الذي قضاه في كل من بيرو والمكسيك. وكما يشير هذا العنوان، فإن الكتاب قد تابع تقليد مزج التاريخ الطبيعي بالسرد. وينسب الفضل إلى أكوستا، بين عدة أمور، في تفصيل فكرة جسر أرضي كان يربط آسيا وأميركا استطاع السكان الأصليون الوصول عبره، ثم تدهوروا بعد ذلك إلى درجات من البدائية، وذلك يجعله في وفاق إجمالي مع النظرية الحديثة عن الهجرة بين القارات (رغم أن أكوستا اشتق استنتاجه هذا من افتراضات مغالطة بالكامل، قامت على نظريات الأنساب التوراتية التي تبدأ من نوح). ومن وجهة نظرنا، فإن المعالم الأشد لفتا للنظر في هذا الكتاب هي تاريخه المعجب باعتدال بثقافات ما قبل التلاقي، وخاصة الأزتيك والإنكا، وتذكير أكوستا لقرائه بأن تلك الوحشية الدموية التي يبدو أن هذه الثقافات اتسمت بها، بما فيها الأضاحي البشرية، قد ظهرت أيضا من قبل في الماضي الأوربي (وهي نقطة كان لاس كاساس قد أثارها أيضا).

لقد قسم أكوستا «البرابرة» - بمعنى غير المسيحيين - إلى ثلاث جماعات منفصلة: المتحضرين (الذين يشملون الصينيين، اليابانيين، وبعض شعوب الهند) الذين يملكون قوانين، حكومات، نظام كتابة، وسجلات عن الماضي؛ أشباه المتحضرين (بما فيهم الأزتيك والإنكا) الذين امتلكوا حكومة ودينا وبعض الذكريات عن الماضي، لكنهم افتقروا للخط أو الكتابة؛ وأخيرا الهمج كليا، الفاقدين للحكومة، الدين، القانون، وكذلك الكتابة. ومع أن هذه الضروب من التقسيمات وحتى فكرة التطور من مرحلة إلى مرحلة لاحقة ليست جديدة بالكامل، فإن المجال الواسع لمقارنة أكوستا، التي باتت تشمل الشعوب الآسيوية، هو أمر يهمنا. وهي لافتة للنظر أيضا من حيث

إصرارها على تقديم التجربة المشاهدة على التراث في تفسير أو وصف المناطق الجديدة. ورغم تمسكه الصارم الحثيث بضرورة الكنيسة في الخلاص البشري، فإن أكوستا يشير إلى الوراء نحو رؤى أرسطوطاليس عن وفرة الطبيعة، وإلى الأمام نحو **تاريخ الأخلاق** *histoire des moeurs* المقارن في القرن الثامن عشر (راجع أدناه، الفصل الرابع) ـ بالرغم من أن هذا المؤمن المتطرف بالعناية الإلهية، والمقتنع كليا بأن قدر إسبانيا هو نشر الملكية المسيحية عبر البحار، كان سيعتبر قيم شخص كڤولتير باعثة على الاشمئزاز.

لقاءات بالعالم الحديث 2: تواريخ أصيلة من الأميركتين

إن الأمثلة على تعاون الإسبانيين مثل ساهاغون مع المترجمين والمخبرين المحليين تذكرنا بالنحو الذي نظرت به الشعوب الأصلية إلى ماضيها، قبل وبعد تعرفهم البارود والمسيحية وأمراض العالم القديم الفتاكة. أما الدرجة التي أدى بها دخول التدوين التاريخي الأوربي إلى استئصال أو تشويه التفكير التاريخي الأصيل وممثليه فيظل موضع جدل عنيف. فبعض المعلقين المحدثين، الذين يكتبون من منطلق 'بعد استعماري' (راجع أدناه، ص 345ـ348)، قد انتقدوا محاولة استيعاب الكتابات الأصيلة، وفرض ثقافة عصر النهضة واستئصال الأنماط الشفهية والصورية للتمثيل التاريخي؛ بل إن الإناسي الشهير كلود ليڤي شتراوس قد اندفع لحد القول بأن الوظيفة الرئيسة للكتابة ككل هي الاستعباد. حتى إن فرض الكتابة الألفبائية بات ينظر إليه كمحاولة لاستبدال النزعة التاريخية الأصيلة بغريمتها الأوربية، وبشكل يستطيع الأوربيون وحدهم فهمه. لكن ذلك يحط من قدرة الشعوب الأصلية ذاتها على تكييف تفكيرها التاريخي بما يتوافق مع الثقافة المكتوبة. ثم إنه يفترض أن التأثير كان باتجاه واحد، رغم أن الواقع يقول بأن التواريخ التي ارتحلت نحو أوربا لم تخل من تأثيرات الثقافة 'المفتوحة'.

لقد كان لدى الشعوب الأصلية التي استعمرها الأوربيون، بخلاف اعتقاد العديد من فاتحيهم، حس متطور بماضيهم وكذلك وسائل مختلفة، رسومية وشفهية، لتمثيله. فمنذ حوالي 500 ق.م، طور شعب المايا، الميختيك، الزاپوتيك، الأزتيك، وسائر

شعوب ميزو ـ أميركا [منطقة تمتد من جنوب المكسيك حتى رأس أميركا الجنوبية] نظم كتابة غير ألفبائية بالإضافة إلى عناصر صورية، لغوية، رمزية، وصوتية، نقشت على نصب أو كتبت على وسائط قابلة للحمل ـ كجلود الحيوانات ولحاء الشجر والقماش. وقد كشف الآثاريون عن بقايا لرسوم ونقوش ميزو ـ أميركية تعود حتى ألف سنة قبل الفتح الإسباني، يحمل بعضها تواريخ بالتقويم المحلي. أما درجة انتفاع الشعوب الأصيلة بذلك فتظل مسألة فيها نظر، ولكن بغض النظر عن مدى حدة الشغف بالماضي، فإن معرفتنا به لا شك أنها قد ابتسرت أو شوهت عبر التخلص من الطقوس القديمة وتسمية البلدات بأسماء قديسين مسيحيين، أو عبر اختلاط الممارسات الثقافية الأصلية بالأوربية.

تروي نقوش المايا تاريخ سلالات يمتد لقرون بين عامي 250 و900، ويمكن العثور على تواريخ مسجلة منذ أوائل القرن الأول للميلاد. وقد صنع الورق من لحاء الشجر منذ القرن الخامس كما يبدو، ومعه ظهرت إمكانية تشكيل (كتب)، بهيئة خريطة مطوية في العادة كما في مخطوطة دريسدن، إحدى الوثائق المعدودة من قبل الفتح التي أمكنها النجاة حتى اليوم. فمعظم المخطوطات المتعلقة بتدوين التاريخ التي ألفت في إسبانيا الجديدة (والتي تعد بالمئات)، وما تزال حاضرة اليوم، هي من صنع أيادي ما بعد الفتح، حتى لو اشتقت من تراث سابق وحتى أسلاف مفقودين. تروي لنا مخطوطة بوتوريني *Boturini*، التي رسمت في عقد 1530، قصة رحلة الأزتيك الخرافية إلى وادي المكسيك. وتتضمن مخطوطة چيمالپوپوكا *Chimalpopoca*، التي وصلتنا اليوم كنسخة متأخرة عن أصل مفقود، عملين مجهولي المؤلف هما **حوليات كواهتيتلان** *Annals of Cuauhtitlan* (نسبة لبلدة شمال المكسيك العاصمة) و**أساطير الشمس** *Legends of the Sun*، يعودان معا إلى العصور القديمة البعيدة ويستمدان من مصادر صورية وروايات شفهية تعد اليوم مفقودة.

لقد عمد أكوستا للمقارنة بين أنظمة التوثيق الأوربية والأميركية والآسيوية في كتابه **التاريخ الطبيعي والأخلاقي**، لكنه بات أميل للتشكك في حس الهنود الأميركيين بالماضي كما مثلوه صوريا حين رأى تاريخا مكسيكيا عام 1586 ـ 7. حيث تساءل: «في الدرجة الأولى، أي يقين أو سلطة تحظى بها هذه الرواية أو التاريخ؟ وفي الدرجة

الثانية، فحيث لا يملك الهنود الأميركيون أي كتابة، كيف لهم أن يحتفظوا بهذا القدر والتنوع في الموضوعات لهذه المدة المديدة؟» لكن أكوستا كان نصف محق فقط. فلا يمكن للمخطوطات المتبقية من وسط المكسيك بالطبع أن تقرأ وكأنها تواريخ متعاقبة زمنيا، حيث إنها تتضمن خرافات وأساطير ممتزجة بأحداث ربما حصلت فعلا؛ ولكن على المرء أن يتذكر مجددا أن الأوربيين أنفسهم كانوا يناضلون من أجل تثبيت الحدود بين التاريخ والخيال في ذلك العصر بعينه. حين زار المحامي الإسباني ألفونسو دي زوريتا *Alfonso de Zorita* هضاب غواتيمالا في عقد 1550، استطاع أن يكتشف تفاصيل عن نظام الحكم القديم لدى السكان المحليين «بمعونة رسوم كانت لديهم وسجلوا عليها تاريخهم منذ أكثر من ثمانمائة سنة، وفسرها لي بعض قدماء الهنود». ويشير ساهاغون إلى «رجال مسنين كانت بحوزتهم رسوم وذكريات عن الأشياء الماضية»، استند إلى معلوماتهم في تأكيده أن الميزو ـ أميركيين لم يكونوا سكانا محليين بل مهاجرين من الشمال سابقا.

من منظور دييغو دوران، فإن أفكار السكان الأصليين عن أصولهم ‹خيالية بوضوح› وتثبت أنهم جاهلون ببداياتهم. ولكن على الجانب الآخر من هذا العزم على إيجاد أصل توراتي لهم، نجد موقف دوران الأشد انفتاحا أمام روايات الشعوب الأصلية عن العصور الحديثة. فهو يبدي إصرارا صادقا على استخدام التواريخ المصورة والمحادثات مع المخبرين، التي أجراها بلغة الناهواتل، من أجل إغناء سرده هو. ولكن بالرغم من اهتمام الملاحظين الأوائل، فقد لقي أكثر الإرث المصور لميزو ـ أميركا نهاية مؤسفة. فمع أنه بقي مدة أطول من الكتاب الدينية القديمة، التي كان مصيرها شبه الفوري هو الحريق، ورغم أن عينات جديدة ظلت تنشأ خلال القرن السادس عشر، فقد عانى التاريخ الأصيل المصور إما من الإهمال أو التدمير المتعمد. ولم تكن هذه الظاهرة بحد ذاتها غريبة على الشعوب المتضررة؛ ففي حين لا يمكن تجاهل حملات النهب المصاحبة للفتح أو الحط منها، كان كثير من التطهير والتشويه للتدوين التاريخي قد حصل بين الشعوب الأصيلة قبل أن يحط أي إسباني قدمه على شواطئهم. فحوالي عام 1430 مثلا، قرر الحكام الأزتيك لمدينة تينوكتيتلان المحتلة حديثا أن يحرقوا التواريخ المصورة القديمة لأنها تضمنت ‹أباطيل› ولم تتوافق مع

رؤية الأزتيك للماضي. وقد مورس التلاعب بالسجلات الموجودة أيضا، فضلا عن التزوير الصريح. فحكام الميختيك، الذين نظموا كتبهم بحسب الأحداث لا الأعوام، معروف أنهم أمروا بإعادة رسم بعض منها كي يدخلوا أنفسهم بأثر رجعي في أنساب لم ينتموا إليها. وكان المايا والزاپوتيك يعمدون إلى تشويه أو تدمير بعض النصب التي لم تعد نصوصها تدعم الواقع السياسي الحاضر. وبهذا الصدد، فإن سكان ميزو-أميركا الأصلاء لم يختلفوا للغاية عن أندادهم الأوروپيين في عصر مقارب.

أما الإسبان بدورهم فقد سرعوا، ولو بدوافع مختلفة، من وتيرة التدمير. لكن قمع الذاكرة التاريخية الأصيلة لم يصل للكمال أبدا. فقد تمكنت آثار من التفكير التاريخي قبل الفتح وبعيده من البقاء حتى عصر الحداثة، كي تسترد من الأحفاد البعيدين للهنود الأميركيين ما قبل الفتح، على يد المؤرخين الإثنيين والآثاريين ومؤرخي الفن واللغويين الذين كان سهمهم في ذلك الاسترداد أكثر بكثير من المؤرخين. وقد فشل الفتح في استئصال الذاكرة التاريخية الأصيلة لعدة أسباب، كان أحدها هو التوجه المتردد للعديد من المبشرين، الذين سرعان ما أدرك بعضهم أنه من أجل تنصير السكان المحليين فعليهم ألا يكتفوا بفهم لغتهم بل ورؤيتهم للعالم، بما في ذلك حسهم بالماضي، وأن عليهم تفسير التصورات الأوروپية، وكذلك المسيحية، بألفاظ تتناغم مع هوى السكان المحليين.

وقد عززت بعض التدخلات المتفرقة من إسبانيا الجهود الساعية لدراسة المخطوطات المتبقية وكذلك مقابلة السكان الآهلين، مثل مرسوم عام 1553 من مجمع الإنديز الذي أجاز مساءلة «الهنود المسنين والمتمرسين» الذين يجب أمرهم بإنتاج «أي صور أو قوائم أو أي روايات أخرى» عن العصور الماضية. أما الإسبان من جانبهم فقد حاولوا استيعاب الأصناف الشفهية والمكتوبة التي وجدوها عند السكان الأصليين عبر ترجمتها إلى ما يقاربها من أصناف أوروپية. وهكذا فقد عمد ألونزو دي مولينا *Alonso de Molina* (1514 ـ 79) مؤلف أول قاموس من لغة الناهواتل إلى الإسبانية، إلى صياغة المقابلات الصورية لكلمة *cronista* (مؤرخ) الإسبانية بطرق شتى مثل *altepetlacuilo* («رسام الجماعة»)، *xiuhtlacuilo* («رسام السنين»)، و *tenemilizicuiloani* («رسام الحياة»، بمعنى كاتب السير)، مع أنه ميز مصطلحا آخرَ

هو ‹راوية القصص *contador de historia*› أو *tenemilizpoa*، الذي يبدو أنه يشير إلى قاصّي التراث الشفهي.

لم يكن التوجه المتعاطف لدى بعض المبشرين وحده هو ما ساعد على الحفاظ على الإرث الأصلي في وجه تدمير يضاهي محارق الكتب في عهد الچين، بل يضاف إليه تكيف السكان الأصليين مع أدوات الفاتحين. فقد وفرت الكتابة واسطة لاستعراض تاريخهم أمام الأوربيين، بل ومنحت الجماعات الإثنية التي قمعها الأزتيك نافذة لتمييز أنفسهم في نظر الإسبان. وأعطت الكتاب الأصليين مساحة يمكنهم بفضلها الدفاع عن الممارسات الأصلية عبر ملاحظة تشابهاتها مع المسيحية. فمثلما حاول الكتاب الأوربيون منذ العصور القديمة أن يدمجوا الخرافة بالتاريخ عبر عملية ‹الاستنزال *euhemerism*› (أي الاختزال التفسيري للآلهة وأنصاف الآلهة الوثنيين في شخصيات تاريخية)، عمد سكان ميزو ـ أميركا لممارسة العكس عبر تحويل الأسلاف إلى آلهة، لتقدم الأجيال اللاحقة سجلات عن ذلك كبرهان على سير الأمور فيما مضى. ولم يتطلب الأمر قفزة كبيرة كي يجدوا صلات أو تقابلات بين آلهتهم وقديسي المسيحية، وهي عملية ساهم فيها بعض الإسبان أيضا.

ويبدو أن العديد من الكتاب الأصليين الذين استخدموا مصادر أصلية أقدم قد رصّعوا أعمالهم بإضافات مسيحية (خاصة في الترتيب الزمني) وكلمات إسبانية، لينقلوا بذلك نسخة مرنة من الكتب الأصلية التي بات معظمها مفقودا. وهكذا فإن *Crónica Mexicáyotl*، التي ألفها المؤرخ المكسيكي فرناندو ألفارادو تيزوزوموك *Fernando Alvarado Tezozómoc* في نهاية القرن السادس عشر، يبدو أنها كانت صياغة لحوليات أقدم. ثم إن الحوليات التي قدمها أحد الكتّاب بلغة الناهواتل، وهو نبيل تربى عند الآباء الفرنسيسكان يعرف عادة باسم چيمالپاهين *Chimalpahín* (واسمه الإسباني: دون دومينغو دي سان أنطون مونيون چيمالپاهين كواوتليهوانيتزين *Don Domingo de San Antón Muñón Chimalpahín Quauhtlehuanitzin*، 1579 ـ 1660)، تقدم السنوات بالتقويم الميلادي وكذلك استنادا إلى التقويم الدوري أو ‹حساب السنين› قبل الفتح (*xiuhpohualli*): وهكذا فإن ‹9 سنة الصوان، 1592› تليها ‹10 سنة البيت، 1593›، ‹11 سنة الأرنب› وهكذا. تتبع حوليات چيمالپاهين لعصر

ما بعد الفتح نمطا مألوفا لدى قراء سجلات الوقائع القروسطية. فالموارد الفقيرة نسبيا للسنوات الأبعد التي اعتمد المؤلف البالغ فيها على معلومات الآخرين، لأنه كان طفلا في زمن الأحداث المذكورة، باتت تتسع تدريجيا مع شروعه في كتابة الحوليات عاما بعد عام، مع وقوع الأحداث ـ وأحيانا يوما بعد يوم. ومن الملاحظ أيضا، وإن لم يكن بالفريد، اتسام هذا الكتاب بسعة المجال، نظرا لأن رؤية چيمالپاهين للتاريخ استوعبت العالم بأسره. فقد وقعت الأحداث التي سجلها في كل أصقاع الأرض واقعا، حتى إنها تضمنت فاجعة أوروپية حديثة، هي اغتيال هنري الرابع ملك فرنسا عام 1610.

أما في جبال الأنديز جنوبا، فلم تعرف الكتابة أصلا قبل عام 1532، ولا يتوفر أي تاريخ سردي كامل لشعب الإنكا المتغلب قبل مجيء الإسبان، رغم أن أصداء من تواريخ شفهية سابقة قد وردت في أعمال لاحقة، وكانت مجموعة رسوم تمثل ملوك الإنكا، أمر بصنعها الإنكا التاسع پاچاكوتي إنكا يوپانكي *Pachacuti Inca Yupanqui* (م. 1438 ـ 71)، في انتظار الأوروپيين. ولكن رغم افتقارهم لحس الميزو ـ أميركيين بالزمن، فإن شعوب الأنديز لم يكونوا بلا تاريخ. فقد كان لدى شعب الإنكا بالخصوص شغف شديد بالماضي، وقد طوروا طرقا للحفاظ على ذكراه. فقد استخدموا الكيپو *quipu*، وهي حبال ملونة معقودة يحتفظ بمعناها ويفسره حملة الكيپو (*quipucamayocs*)، لتسجيل بيانات رقمية لأغراض إدارية، وكذلك كإرشادات لأولئك المسؤولين عن حفظ وأداء التراثات الشفهية، التي كان يحافظ عليها عبر جلسات أداء دورية عرفها الإسبان باسم الأغاني *cantares*. ولكن پيدرو سارمينتو دي غامبوا، الذي لم يكن معجبا بحكام الإنكا، اعتقد رغم ذلك بأنهم شعب ذو وعي تاريخي، وبأن پاچاكوتي إنكا يوپانكي قد أسس لجمع الحوليات عبر إرسال دعوات «لكل المؤرخين الشيوخ في المقاطعات التي أخضعها».

من منظور الأوروپيين، كانت هذه الأشكال من التوثيق أوطأ رتبة من الكتابة الألفبائية، مثلما كان التراث الشفهي يعتبر أقل وثاقة من التاريخ، لكنهم تحاشوا في البداية أن يرفضوها مباشرة. ولكن مع أواسط القرن السابع عشر، بدأ عداء أوسع نطاقا للوسائط غير التقليدية بالظهور في أوروپا، بما فيها الكتابة غير الألفبائية والتراثات الشفهية التي تظهر عند «الهمج». وقد كان المعاصرون على تمام الاستعداد لطرح مقارنات بين

البربرية الغريبة لدى الشعوب الأصيلة والأشكال المحلية التي استطاعوا الفكاك منها (وستصبح هذه ثيمة مهمة في تحليلات القرن الثامن عشر لتطور المجتمع المدني). فقد اتهم الأسقف الإنجليزي إدوارد ستيلينغفليت *Edward Stillingfleet* (1635 ـ 99) في القرن السابع عشر، وهو الذي شكك بقيمة التراث الشفهي والكتابة غير الألفبائية معا من ناحية التوثيق أو تحديد الزمن، كلا من تواريخ الشعوب الأصلية وتواريخ الأمم الوثنية في أوراسيا بأنها باطلة في الجملة، يعتريها «تشوش وغموض هائل». ورغم أن موقف العديد من مفكري عصر التنوير لاحقا كان متعاطفا في الأغلب مع الثقافة الشفهية (بوصفها شكلا طبيعيا من التواصل المبكر) وحتى منتقدا للاتكال الأوربي على الكتابة، فسيستمر معظم الكتاب في الإصرار على استحالة اشتقاق التاريخ من مصادر غير نصية.

يمكننا أن نختم هذا المقطع بالحديث عن مؤرخين وطنيين مثلا، بأنحاء مختلفة، تأثير تقاليد تدوين التاريخ لدى حضارة ما في حضارة أخرى، وإمكانية اختلاط الحضارتين. كان أولهما هو النبيل المستيزي [مولود لأب إسباني وأم محلية]، غوميز سواريز دي فيغيروا *Gómez Suárez de Figueroa*، المشهور باسم غارسيلاسو دي لا ڤيغا *Garcilaso de la Vega*، والذي تبنى لقب ‹الإنكا› [نظرا لأصول والدته]. كان غارسيلاسو (1539 ـ 1616) قد هاجر من پيرو وهو شاب عام 1560 وقضى سائر حياته في أوربا؛ وقد تشبع بالثقافة الإسبانية وألف أعماله بلغة قشتالية منمقة. لكنه كان أيضا ينتمي لمدينة كوزكو، «التي كانت تماثل روما في تلك المملكة»، وفخورا للغاية بميراثه من الإنكا. وقد كان بإمكانه قراءة الإيطالية وبفضلها استوعب الأسلوب التاريخي لعصر النهضة من خلال غويتشارديني وبودان؛ وندد بقراءة الروايات الخيالية بدلا من التاريخ بعد قراءته **تاريخ القياصرة** لپيدرو ميكسيا.

ولكن غارسيلاسو تأثر أيضا بعمق بالقصص التي سمعها من أقاربه وهو طفل، وتوسعت اهتماماته لتشمل مغامرات إسبانية نحو الشمال في أميركا. فعمله المبكر حول حملة هيرناندو دي سوتو الفاشلة لاستكشاف جنوب شرق أميركا في عقد 1540، الذي يرويها لنا بحماسة تشبه زينوفون، وعادة ما يشار له باسم **فلوريدا الإنكا** (1605)، يعد من التواريخ الأولى التي تقص الحملات على ما يعرف الآن بفلوريدا

وساحل خليج المكسيك؛ وتصويره لمقاومة السكان الأصليين للإسبان يذكرنا بكتاب **جرمانيا** لتاسيتوس. وحين انتهى من عمليه الأوسع شهرة، **التفاسير الملكية للإنكا** (1609) وخاصة الكتاب المرافق الذي نشر بعد وفاته **تاريخ پيرو العام** (1617)، كان غارسيلاسو قد أحكم ارتداء زي المؤرخ الإنساني، حيث بعث الحياة في قصته بفضل خطب مخترعة، وحاول التوفيق بين الروايات المتعارضة في مصادره، واستعان ـ مع شيء من الشك ـ بسلطة مؤرخين سابقين مثل سييزا دي ليون. إن استطاعة پيروڤي خليط النسب، يعيش في إسبانيا، أن يقيم حجته الآن دون استناد إلى التراث الأصلي بل إلى كلمات إسبان من القرن السادس عشر، تعد ذات سلطة نظرا لتجربتهم الشخصية في البلدان التي كتبوا حولها، تخبرنا بالكثير حول طبيعة الحركة الأدبية في مطلع القرن السابع عشر، وعن التمازج الثقافي للتاريخ والمؤرخين.

وبالرغم من أصول غارسيلاسو وانتباهه لأهمية التراث الشفهي، فإن عمله يقترب من الثقافة الأوروپية التي تبناها أكثر من ثقافة الأنديز التي هجرها: فقد وسع الحدود الطبيعية لصنف التاريخ السردي عبر الاستطراد المستفيض في فقه اللغة وعلم الألسن، لكن كل ذلك كان في النهاية جزءا من خطاب إنساني أعرض. أما مؤلفنا الثاني، فيليپي غوامان پوما دي أيالا *Felipe Guaman Poma de Ayala* (ح. 1535 ـ بعد 1616)، فشأنه مختلف جدا. فرغم أنه اعتبر السكان الأصليين والإسبان متوافقين أيضا ـ حيث حشر سكان الأنديز في تاريخ العالم عبر التأكيد بنحو متكرر على تحدرهم المباشر من آدم ـ فإن تاريخه يمتاز بحدة قاسية ومنظور معادٍ للإنكا. فقد جاء غوامان پوما من أصول متواضعة، رغم أنه عد نفسه نبيلا. وحيث إنه يتحدر من جهة الأب من جماعة إثنية من الأنديز أخضعها الإنكا ‹المغتصبون› فيما مضى، فقد اختار أن يؤكد هذا الإرث بدلا من إرث أخواله الإنكا: حيث يحظى الإنكا بمعاملة قاسية تماما كالإسبان من بعدهم. إذ إن الإنكا، الذين أخضعوا المجتمعات المجاورة لهم، هم من أزاح ديانة توحيدية أشبه بالمسيحية وأحل محلها الوثنية.

كتب غوامان پوما كتابه **التاريخ الجديد الأول والحكومة الصالحة** بلغة الكيشوا والقشتالية معا، وقد ضمّنه العديد من الرسوم بالريشة والحبر، بما فيها تصويرا لمشهد تقديمه المتخيل لعمله هذا إلى الملك فيليپ الثالث. كان غوامان پوما واسع الاطلاع

على أعمال مؤرخين إسبان سابقين مثل لاس كاساس وأكوستا، وقد استعان واحتذى بتواريخ أخرى، حتى تلك التي كان ينتقدها. ولكن (تاريخه) هذا، مع أنه يتلفع برداء تدوين التاريخ الأوربي، لا يشبه أي تاريخ أوربي في عصره. ففصوله التي لم تكتب بالتتابع تخلط بين مقاطع سردية وغير سردية، وتحمل في طياتها آثارا للثقافة الأصيلة للمؤلف: فقائمة محتوياته مقسمة بحسب النظام العشري في الأنديز، والكتاب يستعين بالسرد لتفسير الصور بدلا من استخدام الصور لإيضاح السرد، بنحو يقوض أولوية الكتابة الألفبائية. ليس من الضروري أن نفترض أن غوامان پوما فشل في فهم تقاليد تدوين التاريخ الأوربي ـ فلعله اختار فقط أن يكيفها مع أغراضه الخاصة. فقد قال إنه كتب لأجل عرض القصة الصحيحة للفتح الإسباني وكذلك الحفاظ على سرديات شفهية تسارع في التلاشي عبر ترجمتها في صيغة مكتوبة. ولكن عمله بنفس القدر يمثل رسالة سجالية حول عدد من المسائل التي أثارات غضبه، من عيوب الحكم في مملكة پيرو، إلى شرور القساوسة، وخطايا الأوربيين والأصليين المختلطين، والحاجة إلى حاكم مسيحي يشرف على المنطقة بأسرها تحت ظل سلطة الملك الإسباني (وهو منصب أسدى غوامان پوما النصح عبر ترشيح ابنه لشغله). وفي هذا مثال مبكر على ظاهرة ستحدث بنحو أوسع في القرن العشرين: هي تبني الشعوب المحتلة للتاريخية الغربية ومناهج التاريخ الأوربية كأدوات للمقاومة ضد القوى المحتلة لها.

من زاوية تدوين التاريخ، قدم العالم الجديد للمؤرخين والجغرافيين ما يعادل المادة المظلمة في فيزياء الجسيمات الحديثة: فبعدما فشلوا أولا في جهودهم الطموحة نحو تكييفه ضمن قواعد العالم الكلاسيكي ـ التوراتي، اضطروا لاحقا إلى مراجعة نظرياتهم تحت وطأة الأدلة التجريبية. لقد اتضح أن هذه العملية طويلة وبطيئة، وأن التأثير الكامل لهذه الاكتشافات في التفكير الأوربي في تاريخ العالم لن يستشعر حقا حتى القرن الثامن عشر، حيث استمر الكتّاب ـ رغم التصريحات المبالغة حول أهمية العالم الجديد ـ في معاملته كأمر هامشي في تاريخ العالم. وكذلك ففي ساحة التاريخ الطبيعي، فإن فكرة الخلق التلقائي لكل الأنواع في لحظة واحدة قبل بضعة آلاف من السنين لن تحطم تفصيلا قبل القرن التاسع عشر. ولكن كما لوحظ أعلاه، فقد بات واضحا أن هناك مشكلات جوهرية في الترتيب الزمني المتوارث والمدعوم

توراتيا. فمن دون ألاعيب عقلية متكلفة، لم يعد يستطيع تفسير الاكتشافات الآثارية والأحفورية والنباتية، أو التبرير المقنع لوجود شعوب لم يعثر عليها من قبل. وهكذا فقد بدأ التصدع يطرأ على الأسس الراسخة لفهم أوربا للماضي والحاضر معا.

لقاءات بالعالم الحديث 3: التاريخ في أوائل فترة أميركا الشمالية المستعمرة

توفر طريق لائق من عصر النهضة إلى عصر التنوير بفضل الفكر والكتابة التاريخية للكتاب الاستعماريين البريطانيين والفرنسيين في أميركا الشمالية، حيث اكتشف الأوربيون أيضا سكانا أصليين. وكانت كتابات الإسبان، وخاصة أكوستا، مؤثرة في تشكيل الأفكار الاستعمارية في أميركا الشمالية حول الأهلين الذين لاقوهم. فقد روجت لاعتقاد أنه بالرغم من قدرتهم على التسجيل، فإن الهمج لا يمكن أن يملكوا (تاريخا مدنيا) في هيئة سرد للأحداث، ولذا ينبغي أن يدرسوا كفرع من التاريخ الطبيعي، أو كتاريخ (فلسفي) أو (تخميني)، كما سيفعل السكوتلندي ويليام روبرتسون في القرن الثامن عشر في كتابه **تاريخ أميركا**. وإلى الأمثلة التي وفرها الإسبان في القرن السادس عشر يمكن إضافة مشاهدات رحالة أقرب عهدا كاليسوعي الفرنسي جوزيف فرنسوا لافيتو Joseph ـ *François Lafitau* (1681 ـ 1746) الذي قدم سِفره المعنون **عادات الهمج الأميركان، مقارنة بعادات العصور الأقدم** *Customs of the American Savage, Compared with the Customs of Earliest Times* المنشور عام 1724 مقارنة صريحة بين السكان الأصليين في أميركا الشمالية والمجتمعات القبلية التي وثقها يوليوس قيصر وتاسيتوس وسائر المؤرخين الكلاسيكيين. والصلة المباشرة بين البرابرة الأقدمين والهمج المعاصرين تتضح في تصريح لافيتو بأنه يرى النصوص القديمة والمشاهدة الحديثة متعاضدتين، وممارسات وأزياء السكان الأصليين المعاصرين توفر بصائر تبيّن الأوصاف المكتوبة عند اليونان والرومان لأحوال الشعوب البدائية من أحقاب خلت. وهذه ثيمة ستتناول بكثافة في القرن الثامن عشر.

كان المستعمرون الناطقون بالإنجليزية في القرن السابع عشر واعين بأنهم لا يشاركون القارة مع الفرنسيين شمالا والإسبان جنوبا فحسب، بل ومع شعوب أصلية أيضا. وقد كان تعايشهم صعبا من البداية. ولكن فارقا مهما عن التجربة الإسبانية في

أميركا أثر في شكل الكتابة حول تاريخ المستعمرين والأصلاء. ففي أميركا الشمالية، بخلاف پيرو أو المكسيك، لم يكن هناك ‹فتح› عسكري يمكن تأريخه أو روايته، بل عملية أبطأ من الاستيطان، التهدئة، وبعض المجازر أحيانا. فقد كانت الفترة الاستعمارية مطرزة بسلسلة من الحروب بين القادمين الجدد، متحالفين أحيانا مع بعض القبائل ضد قبائل أخرى، كانت في العادة بدورها متحالفة مع الخصوم الأوربيين. وكانت الحلقة الأبرز في هذا الطور من الصراع مع السكان الأصليين هي ‹الحرب الفرنسية والهندية›، وهي المسرح الأميركي الشمالي لحرب الأعوام السبعة بين الأحلاف التي قادتها كل من فرنسا وبريطانيا (1756 ـ 63). وتوفر لنا الروايات عن هذه الصراعات نظيرا فضفاضا لسرديات الفتح الإسبانية من القرن السادس عشر، من حيث إنها أتاحت موضوعا عسكريا لمؤلفين كانت الحرب تحل عندهم في المرتبة الثانية بعد الدين كمادة طبيعية للتاريخ.

كان المؤرخون الأوائل في الولايات المتحدة المقبلة ينظرون، شأنهم شأن الإسبان، إلى أوربا بحثا عن نماذجهم في تدوين التاريخ بالإضافة إلى النظارات التصورية التي يشاهدون العالم من خلالها. وقد لبثت أشكال أقدم كسجلات الوقائع وثيمات العناية الإلهية عبر الأطلسي لوقت أطول مما في أوربا. وقرب نهاية ذلك العصر، بدأ مؤرخو عصر التنوير العظام يقرؤون بنحو ترك أثره في الإيديولوجيا الثورية. وقد لعب التاريخ دورا هائلا في خلق وتوطيد حس المستعمرات بالهوية، ومن ثم في تأسيس ونمو الجمهورية الجديدة. وكما هو الحال مع الأمم الحديثة التي تولدت كمشتقات استيطانية للقوى الأوربية، فقد بدأت الكتابة التاريخية في مستعمرات أميركا الشمالية كنوع من أدب الرحلات، الذي لم يصمم لرواية الماضي بل لمنح القراء في البلد الأم وصفا للنباتات والحيوانات في المناطق الجديدة، وتوفير حس ما بعادات شعوبها؛ وقد اعتمد ذلك على النموذج الذي برز آنذاك في إنجلترا، الذي كثيرا ما يعرف باسم ‹وصف الأرض *chorography*›، وهو مصطلح مشتق من الجغرافيا القديمة، ويقصد به وصف البلدات أو المقاطعات. وكان أول كاتب ينشئ ‹تاريخا› بمعنى القصة الصادقة إجمالا حول الماضي القريب، وبهيئة سردية، هو المستكشف جون سميث (1579 ـ 1631) في كتابه **رواية صادقة** *A True Relation* (1608) ولاحقا في **تاريخ**

عام لفرجينيا، نيو إنجلند، وجزر سومر [وهي برمودا حاليا] *General History of Virginia/New England/and the Summer Isles* (1624)، وهو عمل صيغ على غرار القصص الإنجليزية المعاصرة عن شعوب الشرق الأدنى كالترك.

في نيو إنجلند على عهد التطهريين *Puritans*، سرعان ما طور التاريخ نغمة العناية الإلهية، التي امتازت بها العديد من المجتمعات البروتستانتية أوائل الحداثة، لم تختف أبدا بالكامل عن رواية أميركا لماضيها. فإن كان الهوس التبشيري في أميركا اللاتينية قد حاول فرض الانسجام العقائدي لحركة مقاومة الإصلاح، فإن المساعي الاستعمارية الإنجليزية/ البريطانية نبعت من نقيضه البروتستانتي. ففي نيو إنجلند، تأثر المؤرخون الأوائل بعدد من التواريخ الإنجليزية الحديثة نسبيا. وكان من أبرزها كتاب جون فوكس *John Foxe* **الأعمال والشواهد** *Acts and Monuments* (أو «كتاب الشهداء» حيث اشتهر بهذا الاسم)، وهو تاريخ كنسي كامل تضمن أمثلة فظيعة عن اضطهاد الكاثوليك للبروتستانت؛ وحيث نشر أول مرة عام 1563، فقد وسع فيما بعد، وأعيدت طباعته مرارا خلال القرن اللاحق؛ ونافسه في الرواج كتاب **تاريخ العالم** (1614) للسير والتر رايلي من حاشية الملكة إليزابيث، الذي تضمن نغمات أخروية من عصر الإصلاح داعبت النزعة البروتستانتية المقاتلة لدى المستوطنين. كما ألف المستعمرون كتبا تاريخية تروي قصة استيطانهم لتلك المناطق الوعرة، مفسرين النجاة شبه الإعجازية لمهاجري سفينة **الماي فلاور** من الجوع والبرد بوصفها برهانا على أن الله قد أراد لمجتمع ورع كهذا أن يؤسس ويزدهر. وفكرة تمييز الخبيث من الطيب ومغفرة الخطايا، التي تقابل تحويل تلك البرية غير المروضة إلى أرض تفيض لبنا وعسلا، تتخلل معظم هذه المواد، وترتبط أحيانا بتوقعات ألفية عن عودة المسيح القريبة. وكما في عصور العهد القديم، فإن المرتدين والمنشقين يطرحون أرضا في العراء.

لا شك في أن التاريخ الاستعماري الأوسع انتشارا في أوائل القرن الثامن عشر، والمورد المناسب لختام هذا الفصل، كان من تأليف كوتون ميذر *Cotton Mather* (1663 ـ 1728). كان كتاب **Magnalia Christi Americana، أو التاريخ الكنسي لنيو إنجلند**، الذي شرع ميذر في تأليفه عام 1693، قد نشر عام 1702. وتمتاز كتبه السبعة ببنية مركبة تذكرنا بنحو غريب بصيغة الحوليات والسير في التدوين

التاريخي الصيني (الذي ليس من الوارد أن يعرف عنه ميذر). بعد أن يفتتح الكتاب بسرد لتأسيس مستعمرات نيو إنجلند في الكتاب الأول، يقدم ميذر ما يملأ كتابين من السير والروايات عن شخصيات عامة مهمة، كنسية أو مدنية، وفي الكتاب الرابع يقص علينا تاريخ كلية هارڤرد، التي كان والده (إنكريز ميذر) رئيسا لها. كانت هذه الكتب مثيرة لشهية الجمهور المتزايدة لسير الحياة المثالية، التي تقدم روايات عن الحياة الورعة للمستعمرين التطهريين. أما الكتب الثلاثة الأخيرة فهي مكرسة للتاريخ الكنسي بحد ذاته، حيث يحمل الكتاب الخامس ـ المتأثر بفوكس بكل وضوح ـ عنوان ‹الأعمال والشواهد للإيمان والنظام في كنائس نيو إنجلند›؛ ويوثق الكتابان الأخيران أمثلة على عناية الرب و‹حروب الرب› بالتعاقب. وفي حين كان ميذر إلى حد كبير نتاجا لتدين القرن السابع عشر الذي دعم محاكم الساحرات بنشاط، فإن بعض جوانب كتابه تلوح للأمام إلى عصر التنوير والثورة؛ وخاصة شعوره بأن مهمة ‹القديسين› المستعمرين كانت تأسيس مجتمع جديد، مستقل عن فساد أوربا القديمة.

الخلاصة

حين أطل القرن الثامن عشر، كانت الثقافة التاريخية العالمية قد تغيرت بشكل واضح عما كانت عليه قبل أقل من ثلاثة قرون، خاصة في أوربا. فقد ظهر الشعور بالماضي كأمر مستقل ومختلف عن الحاضر، وهو شعور مباين لما كان ملازما للعصور القديمة والوسطى. ويمكننا تلخيص أسباب هذا التغير والأدلة عليه كالآتي: جيل بعد جيل من فقهاء اللغة، ظهور ‹المعرفة› بالآثار، حس أدق بالفروق بين العصور، الآثار المحفزة والمقيدة في آن واحد للإيديولوجيا والدين، والاستعداد للفحص بجدية في أسس المعرفة التاريخية ـ كل ذلك بات أعظم أثرا بفضل المعجزة الآلية للطباعة، وظهور التاريخ كصنف تجاري رائج، وتهافت سجل الوقائع بوصفه الشكل الأدبي المسيطر للكتابة التاريخية، إضافة إلى تصاعد نسبة القراءة في العديد من أرجاء القارة. وفي حين كانت بعض تلك التغيرات أقل وضوحا في الإمبراطوريات الصينية الكبرى، فإنها في بعض الأنحاء (والصين في الخصوص) حافظت على البنية المدعومة حكوميا

والأشد انتظاما للكتابة حول الماضي. ولكن أوربا كانت تسارع للحاق بها كما يثبت ذلك ازدهار تدوين التاريخ في البلاط في طيات هذه المرحلة.

سيولد القرن اللاحق قدرة على التعميم والتنظير حول المسار الكلي للأحداث البشرية، مع تركيز على المستقبل يوازي التركيز على الماضي. وفي تلك الأثناء، فإن خارطة العالم قد توسعت وأعيد رسمها أيضا، ثم إن توسع أوربا شرقا وغربا قد ابتدأ ما سيصبح لاحقا نفوذها المهيمن على الفكر والكتابة التاريخية في كل القارات المأهولة.

أسئلة للمناقشة

1. في أي أنحاء انفصل إنسانيو عصر النهضة عن تقاليد الكتابة والفكر التاريخي القروسطي؟ وما هي النواحي التي عجزوا عن التملص منها؟
2. حدد ثلاثة معالم مشتركة في الكتابة التاريخية الأوربية، الإسلامية، والصينية خلال الفترة بين 1450 و1700.
3. هل كانت عملية نشر الأفكار الأوربية عن التاريخ وتقاليد كتابته فرضا من جانب واحد على الشعوب المفتوحة؟ كيف أثرت اللقاءات مع (البرابرة) و(الهمج) في الأوربيين؟
4. ما هي العوامل الكبرى التي شجعت على رواج وإنتاج أوسع للكتابة التاريخية في معظم أرجاء العالم؟
5. هل كان الشعور بالزمن التقويمي والتوقيت شرطا ضروريا لكتابة التاريخ؟ وهل كان لوحده كافيا؟
6. لماذا طور الأوربيون، أكثر من سائر الثقافات، حسا بالتغير التاريخي والتباعد عن العصور القديمة؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Anderson, Benjamin and Felipe Rojas (eds), *Antiquarianisms: Contact, Conflict, Comparison* (Oxford and Philadelphia, 2017)

- Burke, Peter, *The Renaissance Sense of the Past* (London, 1969)
- Rabasa, José, Masayuki Sato, Edoardo Tortarolo and Daniel Woolf (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 3: 1400 – 1800* (Oxford, 2011)
- Schnapp, Alain et al. (eds), *World Antiquarianism: Comparative Perspectives* (Los Angeles, 2013)

عصر النهضة وأوربا القرن السابع عشر

- Cochrane, Eric, *Historians and Historiography in the Italian Renaissance* (Chicago, IL, 1981)
- Grafton, Anthony, *What was History? The Art of History in Early Modern Europe* (Cambridge, 2007)
- Huppert, George, *The Idea of Perfect History: Historical Erudition and Historical Philosophy in Renaissance France* (Urbana, IL, 1970)
- Ianziti, Gary, *Writing History in Renaissance Italy: Leonardo Bruni and the Uses of the Past* (Cambridge, MA, 2012)
- Kagan, Richard L., *Clio and the Crown: The Politics of History in Medieval and Early Modern Spain* (Baltimore, MD, 2009)
- Kelley, Donald R., *Foundations of Modern Historical Scholarship: Language, Law, and History in the French Renaissance* (New York, 1970)
- Kelley Donald R. (ed.), *History and the Disciplines: The Reclassification of Knowledge in Early Modern Europe* (Rochester, NY, 1997)
- Knowles, David, *Great Historical Enterprises: Problems in Monastic History* (London and New York, 1963)
- Ranum, Orest, *Artisans of Glory: Writers and Historical Thought in Seventeenth – Century France* (Chapel Hill, NC, 1980)

- Skovgaard _ Petersen, Karen, *Historiography at the Court of Christian IV (1588 _ 1648)* (Copenhagen, 2002)
- Woolf, Daniel, *The Social Circulation of the Past: English Historical Culture, 1500 _ 1730* (Oxford, 2003)

الكتابة التاريخية الصينية في ظل سلالة المينغ وأوائل التشينغ

- Brook, Timothy, *Geographical Sources of Ming _ Qing History* (Ann Arbor, MI, 2002)
- Franke, Wolfgang, 'Historical Writing during the Ming', in F. W. Mote and D. C. Twitchett (eds), *The Cambridge History of China, Vol. 7: The Ming Dynasty, 1368 _ 1644, Part I* (Cambridge, 1988), 726 _ 82
- Ng, On _ cho and Q. Edward Wang, *Mirroring the Past: The Writing and Use of History in Imperial China* (Honololu, 2005)
- Struve, Lynn A. (ed.), *Time, Temporality, and Imperial Transition: East Asia from Ming to Qing* (Honolulu, 2005), 73 _ 112

تدوين التاريخ خلال أوائل الحداثة في آسيا وأفريقيا المسلمتين

- Fleischer, Cornell H., *Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Ali (1541 _ 1600)* (Princeton, NJ, 1986)
- Hardy, Peter, *Historians of Medieval India: Studies in Indo _ Muslim Historical Writing*, 2nd edn (New Delhi, 1997)
- Meserve, Margaret, *Empires of Islam in Renaissance Historical Thought* (Cambridge, MA, 2008)
- Mukhia, Harbans, *Historians and Historiography During the Reign of Akbar* (New Delhi, 1976)
- Narayana Rao, Velcheru, David Shulman and Sanjay Subrahmanyam,

Textures of Time: Writing History in South India, 1600 _ 1800 (New York, 2003)

- Philips, C. H. (ed.), *Historians of India, Pakistan, and Ceylon* (London, 1961)
- Piterberg, Gabriel, *An Ottoman Tragedy: History and Historiography at Play* (Berkeley, CA, 2003)
- Quinn, Sholeh A., *Historical Writing during the Reign of Shah 'Abbas: Ideology, Imitation and Legitimacy in Safavid Chronicles* (Salt Lake City, UT, 2000)
- Tezcan, Baki, 'The Politics of Early Modern Ottoman Historiography', in V. H. Aksan and D. Goffman (eds), *The Early Modern Ottomans: Remapping the Empire* (Cambridge, 2007), 167 _ 98

لقاءات بالعالم الحديث 1: الأوربيون في آسيا والأميركتين

- Brading, D. A., *The First America: The Spanish Monarchy, Creole Patriots, and the Liberal State, 1492 _ 1867* (Cambridge, 1991)
- Burke, Peter, 'America and the Rewriting of World History', in K. O. Kupperman (ed.), *America in European Consciousness, 1493 _ 1750* (Chapel Hill, NC, 1995), 33 _ 51
- Delgado _ Gómez, Angel, *Spanish Historical Writing about the New World, 1493 _ 1700* (Providence, RI, 1994)
- Pagden, Anthony, *European Encounters with the New World: From Renaissance to Romanticism* (New Haven, CT, 1993)
- Rubiés, Joan _ Pau, *Travel and Ethnology in the Renaissance: South India through European Eyes, 1250 _ 1625* (Cambridge, 2000)

لقاءات بالعالم الحديث 2: تواريخ أصيلة من الأميركتين

- Adorno, Rolena, *Guaman Poma: Writing and Resistance in Colonial Peru* (Austin, TX, 2000)
- Baudot, Georges, *Utopia and History in Mexico: The First Chroniclers of Mexican Civilization (1520 – 1569)*, trans. Bernard R. Ortiz (Niwot, CO, 1995)
- Boone, Elizabeth Hill, *Stories in Red and Black: Pictorial Histories of the Aztecs and Mixtecs* (Austin, TX, 2000)
- Florescano, Enrique, *Memory, Myth, and Time in Mexico: From the Aztecs to Independence*, trans. Albert G. Bork and Kathryn R. Bork (Austin, TX, 1994)
- Julien, Catherine, *Reading Inca History* (Iowa City, 2000)
- Lockhart, James (ed. and trans.), *We People Here: Nahuatl Accounts of the Conquest of Mexico* (Eugene, OR, 1993)
- Mignolo, Walter D., *The Darker Side of the Renaissance: Literacy, Territoriality, and Colonization*, 2nd edn (1995; Ann Arbor, MI, 2003)

لقاءات بالعالم الحديث 3: التاريخ في أوائل فترة أميركا الشمالية المستعمرة

- Arch, Stephen Carl, *Authorizing the Past: The Rhetoric of History in Seventeenth – Century New England* (De Kalb, IL, 1994)
- Gay, Peter, *A Loss of Mastery: Puritan Historians in Colonial America* (Berkeley, CA, 1966)
- Read, David, *New World, Known World: Shaping Knowledge in Early Anglo – American Writing* (Columbia, MO and London, 2005)

محطات	
1712	نشر كتاب **تأملات في التاريخ** لآراي هاكوسيكي
1723	نشر كتاب **التاريخ المدني لمملكة نابولي** لبييترو جيانوني
1725	نشر كتاب **العلم الجديد** لجيامباتيستا فيكو (نقح لاحقا عام 1735 و1744)
1751	نشر كتاب **عصر لويس الرابع عشر** لفولتير
1752	نشر **رسائل حول دراسة واستخدام التاريخ** لهنري سانت جون، فيكونت بولينغبروك بعد وفاته
1770 ـ 87	كتاب **التاريخ الفلسفي والسياسي لجزر الهند** لغيّوم توماس راينالز ينشر في أكثر من ثلاثين طبعة
بين أواسط وأواخر القرن الثامن عشر	يصل الفكر والكتابة التاريخية لعصر التنوير السكوتلندي إلى القمة؛ وتتقدم الرؤية (المرحلية) للتغير التاريخي
1772 ـ 1800	جوانغ شويجينغ يكتب **المبادئ العامة للأدب والتاريخ**
1774	نشر كتاب يوهان غوتفريد هيردر **فلسفة للتاريخ أيضا**؛ وكتاب اللورد كيمز **معالم لتاريخ الإنسان**
1776 ـ 89	نشر كتاب إدوارد غيبون **اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية**
1783	كاثرين ماكولاي تكمل تاريخها لإنجلترا في القرن السابع عشر، وهو عمل كبير لمؤرخة أنثى، امتاز براديكاليته السياسية
1784 ـ 91	نشر كتاب هيردر **تأملات في فلسفة تاريخ الإنسانية**
1795	نشر كتاب **معالم لصورة تاريخية عن تقدم العقل البشري** لماري جان أنطوان نيكولا كاريتات، المركيز دو كوندورسيه بعد إعدامه
1798	موتوئوري نورّيناغا ينتهي من **التعليق على الكوجيكي**
أوائل القرن الـ 19	عصر الرومانسية وتدوين التاريخ البطولي الذي كثيرا ما يربط بحركات التحرر الوطني؛ تجدد الاهتمام بماضي القرون الوسطى في أوربا، وكذلك بالتراث الشعبي
1805	نشر **تاريخ صعود وتقدم ونهاية الثورة الأميركية** لميرسي أوتيس وارن

الفصل الرابع

التنوير والثورة والعودة، ح. 1700 ـ 1830الثقافة التاريخية الأوربية في القرن الثامن عشر

إن فهم القرن الثامن عشر من ناحية تدوين التاريخ، على الأقل داخل أوربا وفروعها الاستعمارية، أمر معقد بسبب ما يبدو على السطح أنه قوى متضادة تعمل لصالح دراسة الماضي وضدها. فمن ناحية كان العصر هو ‹عصر التنوير› الذي يهتم بالمسلمات الطبيعية والفلسفية ـ أي فترة النشاط العلمي الذي تلا كتب نيوتن، وأنشطة التصنيف الذي أنجزها علماء طبيعة مثل بوفون ولينيوس، والحجج الفلسفية حول المفاهيم المجردة للحقوق الطبيعية والحرية. ومن ناحية أخرى، لم يكن البريطاني ديفيد هيوم (الفيلسوف الذي عرف في عصره كمؤلف للتاريخ الأكثر إثارة للإعجاب لبلاده، الذي نشر في القرن الثامن عشر) يتباهى جزافا عندما أعلن أن عصره هو ‹العصر التاريخي› (ومسقط رأسه سكوتلندا هي ‹الأمة التاريخية›). فقد تضخم تدفق التاريخ المنشور الذي أنتج في القرنين الماضيين إلى أبعد مما سبق، حتى أصبح شيوعه بحد ذاته يمثل الآن مشكلة للقراء والنقاد، حيث استخدم الناشرون أساليب تسويق مبتكرة كالاشتراكات (وهي نوع من ‹التمويل الجماعي› المبكر) والنشر المتسلسل (أي إصدار كتب كبيرة جدا دون تجليد وعلى دفعات، كي تروق أصحاب الموارد المحدودة) لبيع بضاعتهم على نطاق أوسع. وقد نشرت المطبوعات الشعبية التاريخ على صعيد جغرافي واجتماعي، وزاد نمو المكتبات العامة والسيارة من عدد القراء حتى لأغلى الكتب. وفي الوقت نفسه، استمرت مكتبات الأبحاث الكبرى مثل مكتبة الملك *Bibliothèque du Roi* الفرنسية في توسيع مجموعاتها من المخطوطات، التي

باتت الآن تشمل مواد من الأميركتين والعالم العربي وشرق آسيا، مما مكن أكثر من إنشاء تاريخ شامل أو عالمي أكثر تفصيلاً.

أنتجت مشاريع النشر الكبيرة التي نفذتها الفرق المتعاونة العديد من هذه المشاريع على مدار القرن، بدءا من **التاريخ العالمي** *Universal History* (1747 ـ 1768) وهو عمل واسع النطاق شمل آسيا في طياته، وكان مختلفا تماما عن التاريخ العالمي في العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، أو حتى المحاورة لبوسويه في أواخر القرن السابع عشر. أما الأشد إثارة للإعجاب فهو **التاريخ الفلسفي والسياسي للجزر الهندية** *Philosophical and Political History of the Two Indies* الذي نشره بعدة أجزاء في أمستردام الأب غيّوم توماس راينال *Guillaume Thomas Raynal* (1713 ـ 1796) عام 1770. كان هذا العمل متعدد المؤلفين، الذي ربما كان فلسفياً أكثر منه تاريخياً، عبارة عن وصف عالمي بحق للعالم غير الأوروبي (فقد غطت ‹الجزر الهندية› في عنوانه، أي الشرق والغرب، مساحة جغرافية واسعة)، ولا سيما نمو التجارة، وهي المحرك البارع للتقدم الاجتماعي والموضوع المفضل للمؤرخ الفلسفي. لقد حقق كتاب **الجزر الهندية** نجاحا مذهلا، حيث نشرت له أكثر من ثلاثين طبعة من 1770 إلى1787؛ حتى إن نابليون بونابرت اصطحبه معه إلى مصر.

كما رأينا في فصل سابق، فقد أصبح مؤلفو الكتابة التاريخية الأوروپية على دراية بأنواعها المتنافسة، وكذلك تدريجيا بعلاقة هذه الأنواع بالأساليب الأخرى لتجسيد الماضي، بما في ذلك الأسطورة والخيال. لقد أدرك المؤرخون الذين قيموا تقنيات التوثيق وسرد الروايات في الأميركتين والهند أن هذه الممارسات مختلفة عن تلك الموجودة في الغرب بدرجة أكبر من التقاليد التاريخية لدى أقرب جيران غير مسيحيين، أي العالم الإسلامي. كما أدى تطور علم اللغة المقارن على يد علماء مثل فقيه اللغة ويليام جونز (1746 ـ 94)، الذي أثر تعرضه للأدب الفارسي بالفعل في إحساسه بالعلاقات بين العائلات اللغوية، إلى فتح الباب للنظر في الملاحم الهندوسية في الهند باعتبارها تاريخا. وقد ظلت القدرة محدودة على فهم الاختلافات الجوهرية بين الأنواع الأوروپية لكتابة التاريخ، والحبال المعقودة *quipu* عند الإنكا على سبيل المثال، وقُسّمت الأشكال غير المألوفة للتذكر والتجسيد على حد سواء بحسب فئات

غربية، بما في ذلك الأنواع الأدبية الغربية التي غالبا ما كانت غير مناسبة. ولكن كان هناك وعي أعمق يتطور حول تميز تدوين التاريخ الأوربي (وكذلك التاريخ الأوربي في نهاية المطاف)، وبطرق ما كان بالإمكان أن توجد خلال العصور القديمة أو العصور الوسطى المسيحية، حين لم يتوفر ما يمكن المقارنة به دون شك.

امتد هذا الوعي (بالآخر) إلى أقصى الشرق حتى الصين، بفضل كتابات أوائل المبشرين والمختصين بالصين مثل المؤرخ وعالم الرياضيات والفيلسوف غوتفريد ڤيلهلم لايبنتز (1646 ـ 1716) القرن السابع عشر. فقد أثبتت جوانب مختلفة من التاريخ والثقافة الصينية شعبيتها، بما في ذلك دراسة الكونفوشية. واعتُرف بأن التأريخ الصيني لا يمكن يوضع في نفس فئة المجتمعات الأصلية التي لا تملك كتابات أبجدية. (وقد اعتقد البعض، مثل القسيس ويليام واربرتون في أوائل القرن الثامن عشر، أن الأحرف الصينية أشبه بالمرحلة الانتقالية بين الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة الأبجدية الحقيقية). ولكن هذا لم يكن مجرد تقليد موازٍ. فمع حلول منتصف القرن الثامن عشر، عندما كانت المقارنة بين الثقافات رائجة بنحو خاص، كان من الممكن إطلاق تعميمات حول الاختلافات بين التأريخ في أوربا وتاريخ الشعوب الأخرى، بنحو يتجاوز تلك المراجعات الداخلية التي أجراها بودان والمؤلفون اللاحقون في **فن التاريخ** *artes historicae*. وقد كان فولتير، على وجه الخصوص، متحمسا لتدوين التاريخ الصيني لحد الاستفزاز. فهو القائل: «إذا كانت أي سجلات تحمل طابع اليقين» (وكلمة (إذا) مهمة هنا: فهو لم يكن متأكدا أبدا من أن أيا منها يتسم بذلك)، «فهي سجلات الصين»، التي نجت من هيمنة الأمثولات والخرافات وأساطير النسب السخيفة. «فأمامك شعب كان يكتب سجلاته يوميا لمدة تزيد على أربعة آلاف سنة». وقد عزا إدوارد غيبون (انظر أدناه، ص 194) المعرفة الحديثة بتاريخ التتار القديم والقروسطي إلى تفاعلات هذا الشعب الأمي مع الدول الأوربية المختلفة، وكذلك للمؤرخين الصينيين، الذين استشهد بأعمال مترجمة للعديد منهم. وقد كان على دراية بالعديد منها، وخاصة (*Sematsien*) (سيما چيان)، من خلال الكتابات السابقة للمؤرخ والأكاديمي الفرنسي البارز نيكولاس فريريه *Nicolas Fréret* (الذي درس اللغة الصينية)، وفي أعمال جوزيف دو غينيه *Joseph de Guignes*، الفرنسي المعاصر

لغيبون والضليع في الصينية. فقد كان كتابه التاريخ العام للهون والترك والمغول وسائر شعوب التتار الغربية (1756 ـ 8) محاولة طموحة لمقارنة الثقافات المتحضرة في أوربا (بما في ذلك كتاباتهم التاريخية) بالمجتمعات البدوية في وسط أوراسيا.

كان التاريخ موضوعا للمحادثة في الصالونات والمقاهي، في حين استمرت نوادي الرجال، والمنظمات السرية مثل الماسونيين ـ الذين انضم إليهم كل من فيلسوف التاريخ الألماني ي. غ. هيردر J. G. Herder والمؤرخ الروسي نيكولاي كارامزين *Nikolay Karamzin* (1766 ـ 1826) ـ وكذلك جمعيات العلماء ***savants*** الأكثر رسمية، من طراز الأكاديمية الفرنسية *Académie française* (أُسِّست 1635) والأكاديمية الملكية للنقوش والميداليات *Académie royale des Inscriptions et Médailles* (أُسِّست 1663؛ وأعيدت تسميتها إلى الأكاديمية للنقوش والأدبيات *Académie des Inscriptions et Belles ـ Lettres* عام 1716) بالظهور في عواصم أوربا وحتى حواضر المقاطعات الأصغر. وقد كان عصر اعتماد المؤرخين على الرعاية الخاصة وكذلك بروز التاريخ ‹الرسمي› أو الذي يرعاه البلاط يقترب من نهايته، على الرغم من استمرار أمثال هذه الوظائف في العديد من الممالك الأوربية فضلا عن الإمبراطورية العثمانية. وأصبح المؤرخون شخصيات عامة، ومعروفة على نطاق واسع في المجتمع المهذب، وباتت صورهم الخاصة ترسم وتنقش في الغالب داخل الكتب. وكان نجاح أعمالهم يعتمد على الأذواق العامة وأنماط الاستهلاك. ففي حين كانت المجلدات بالقطع الكامل وقطع الربع، ذات الثمن الباهظ والتجليد الباذخ، تزين مكتبات الأثرياء والأقوياء، فإنها لم تتناسب مع عادات عدد متزايد من القراء ذوي المكانة المتوسطة. وقد دافع الناشر السويدي كارل كريستوفر يورويل *Carl Christoffer Gjörwell* عن زيادة انتشار الكتب صغيرة الحجم، مشيرا إلى الكتب الأكثر مبيعا مثل كتاب الفرنسي شارل رولان *Charles Rollin* (1661 ـ 1741) **التاريخ القديم** من ثلاثة عشر مجلدا (1734 ـ 9). كانت جودة الكثير من هذه المنتجات مختلطة بطبيعة الحال، وقد أعرب نقاد مثل اللورد بولينغبروك الإنجليزي عن أسفهم لتخلي المؤرخين عن أناقة ثوسيديدس ومصداقيته.

وقد استقطبت التعيينات الجامعية المخصصة للتاريخ، التي ظلت نادرة حتى الآن،

المؤسسات التعليمية الرئيسية في أوربا بنحو أقرب إلى المشروع التاريخي، وأرست أسس الهيمنة الأكاديمية للكتابة التاريخية في العصور اللاحقة. فقد حظيت كل من أكسفورد وكامبريدج بمنصب أستاذ ‹ملكي *Regius*› (أي مرشح من العائلة المالكة) للتاريخ الحديث في عام 1724، وحصلت إدنبرة على أستاذية ‹التاريخ العالمي والآثار اليونانية والرومانية› قبل ذلك بخمس سنوات. وستصبح جامعة غوتنغن الجديدة (أُسِّست عام 1734) المركز الفكري للتنوير الألماني وموقعا ذا أهمية خاصة للتعليم التاريخي. وقد أصبحت النشرة الدورية لأول مرة وسيلة مهمة للمناقشات العامة للتاريخ. فقد تلت المجلات الأدبية في أواخر القرن السابع عشر مثل **مجلة جمهورية الآداب** *Nouvelles de la République des Lettres* لبايل (1684 ـ 7) عدة من العناوين الأخرى في أوائل القرن التالي مثل **تاريخ أعمال المتضلعين** *History of the Works of the Learned* (1699 ـ 1712) و**مجلة الأريب** *Gentleman's Magazine* (1731 ـ 1907) في بريطانيا، التي استجابت للتدفق الملحوظ من قبل للكتب التاريخية عبر تقديم مراجعات لقرائها للأعمال الجديدة والإعلان عن نشرها.

وكانت النساء من بين المستفيدين من انفجار النشر هذا. فقد ازداد عدد قارئات التاريخ بشكل كبير خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، وقد ألفت النساء عددا متواضعا من القصص التاريخية والسير الذاتية. وقد استمر القرن الثامن عشر في هذين الاتجاهين، منتجا أمثال كاثرين ماكولاي *Catharine Macaulay* الإنجليزية (1731 ـ 91)، التي ألفت تاريخا سياسيا راديكاليا لإنجلترا في القرن السابع عشر، والأميركيتين ميرسي أوتيس وارين *Mercy Otis Warren* (1728 ـ 1814) وهانا آدامز (1755 ـ 1831) اللتين كتبتا أعمالا تاريخية ذات قيمة دائمة. وقد احتل التاريخ مكانة مميزة في المكتبات النسائية، حيث أشاد بفضائلها جمع من الكتاب التربويين من كلا الجنسين، سواء في ذلك نساء محافظات مثل هيستر تشاپون *Hester Chapone* (1727ـ 1801) والنسوية ماري وولستونكرافت *Mary Wollstonecraft* (1759 ـ 97). وقد كانت المجموعة الشخصية للقيصرة الروسية إليزابيث (ح. 1741 ـ 61)، المكتوبة أساسا بالفرنسية، زاخرة بكتب التاريخ من مؤلفات القدماء وحتى **التاريخ القديم** لرولان، بينما وجدت كاثرين الكبرى (ح. 1762 ـ 96) بعض الوقت لنشر ‹ملاحظاتها› الخاصة حول التاريخ الروسي. وقد

نشرت النبيلة السويدية شارلوتا فروليش *Charlotta Frölich* (1698 ـ 1770) كتاب تاريخ غفلا من اسمها عام 1759 لمنفعة الفقراء والفلاحين، في حين تمنت المدام رولاند *Madame Roland* (1754 ـ 93)، التي أعدمت بالمقصلة أثناء عصر الإرهاب، في أيامها الأخيرة لو أنها عاشت لتصبح كاثرين ماكولاي الثورة الفرنسية. وبصرف النظر عن الرسائل الدينية وكتيبات تهذيب السلوك، فإن المنافسين الجديرين للتاريخ في الاهتمام الأدبي للمرأة المتعلمة قد ثبت أنهما الرومانسية الفرنسية، وكذلك ابنة عمها عبر القناة: الرواية الإنجليزية.

في محاولة للتأكد من أن رواياتهم جذبت كل من النساء والرجال (فالقراء الذكور باتوا أيضا ينجذبون إلى الأمور العاطفية بنحو متزايد)، تخلى المؤرخون عن دأبهم المعتاد من المعارك والأحداث السياسية مؤثرين عليه الاهتمام الإنساني والشخصية والعاطفة. ولم تكن هذه حرفة انتهازية: فالمؤرخ ليس مجبرا فقط على تصوير السلوك الفاضل في التاريخ الأخلاقي، بل وأخذ خطوة أبعد لإثارة ردود فعل متعاطفة لدى القارئ مع شخصياته. فقد بذل الفيلسوف والفقيه السكوتلندي اللورد كيمز *Lord Kames*، معربا عن رغبته في أن يصبح كتابه **تخطيطات عن تاريخ الإنسان** *Sketches of the History of Man* (1774) عملاً مشهورا «عند الجنس المؤنث بشكل رئيس»، قصارى جهده لترجمة أي اقتباسات أجنبية أو كلاسيكية. وقد صاغ فولتير أفكاره الخاصة حول الكتابة الصحيحة للتاريخ، جزئيا كرد على شكاوى إميلي دو شاتليه *Emilie du Châtelet*، عشيقته في وقت ما، حول التجميعات غير المرتبة من الحقائق والتفاصيل المتناثرة و«ألف سرد للمعارك التي لم تقرر شيئا»، وهو تعليق رددته إحدى شخصيات جين أوستن الخيالية، كاثرين مورلاند. وليس من المبالغة أن نقول إن النمط الأولي في القرن الثامن عشر من 'المنعطف الثقافي' الحديث، بعيدا عن التاريخ السياسي والعسكري، قد سرعت منه رغبة المؤرخين في أن يبدو أكثر ملاءمة للقارئات الإناث.

أكدت ماري وولستونكرافت أن النساء قادرات تماما على فهم التاريخ السياسي، وقد مارسته فعلا عدد من النساء. وتعد ميرسي أوتيس وارين، وهي من أوائل مؤرخي الجمهورية الأمريكية الجديدة، مثالا جيدا على ذلك. فقد كانت عواطف وارين، التي

تراسلت مع «الجمهورية السليطة» كاثرين ماكولاي في إنجلترا، ثورية وديمقراطية تماما. وفي إحدى تقلبات القدر الغريبة، ألفت وارين كتابها **تاريخ صعود وتطور وإنهاء الثورة الأمريكية** *History of the Rise, Progress, and Termination of the American Revolution* (لم يُنشر حتى عام 1805) في المنزل السابق لتوماس هاتشينسون *Thomas Hutchinson* (1711 ـ 80)، الذي كان شخصيا مؤرخا لماساتشوستس وآخر حاكم مدني بريطاني لها قبل الثورة الأميركية. وقد شجعتها على الكتابة امرأة بارزة أخرى، هي أبيغيل آدامز (التي أصر زوجها الرئيس الأمريكي الثاني على أن التاريخ ليس من اختصاص السيدات)، وكانت قدرة وارن على الجمع بين ذكريات شهود العيان من الشخصيات السياسية الكبرى جنبا إلى جنب مع المواد المستمدة من الوثائق في سرد يقدم بمتانة، قد جعلت تاريخها هو الأوسع شهرة من العصر الثوري.

كان تدوين التاريخ في عصر التنوير يعتمد بشدة على العديد من الإنجازات التي تحققت في القرنين الماضيين، وخاصة على مجموعة هائلة من المعرفة «المتضلعة» بهيئة وثائق ونصوص مطبوعة، ونقوش بقايا أثرية ومعمارية، ودراسات مكثفة للأنظمة القانونية المختلفة. وقد شجع قرنان من السفر إلى الخارج العديد من المؤرخين في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر على اتباع نهج مقارن لدراسة الماضي. كانت المقارنة بين الأشخاص أو المواقف جزءا من الكتابة التاريخية منذ العصور القديمة، ولكنها باتت الآن تجرى بشكل متزامن بين البلدان، وكذلك إلى الوراء في الزمن، وبين كيانات جماعية ـ كالمجتمعات والشعوب والعادات والأخلاق. وفي الوقت نفسه، ظهرت درجة صحية من الشك تجاه المقارنات المقلدة لبلوتارك بين الأفراد والأحداث بنحو يفصلها عن سياقاتها. وبات التفكير الخطي في علاقة الحاضر بما جاء قبله يتسرب نحو الهوامش الأدبية ـ ككتب المشورة والنصوص الدينية والأدب الأخلاقي ـ أي البحث الأكثر تقليدية والأقل مبالاة بالزمن عن الأمثلة والدروس أينما أمكن العثور عليها. يبدو أن السياسي الإنجليزي والمعلق على التاريخ، هنري سانت جون، فيسكونت بولينغبروك *Viscount Bolingbroke* (1678 ـ 1751)، كان يؤيد الفكرة القديمة للتاريخ القائلة إنه «تعليم الفلسفة بالأمثلة»، لكنه ردد آراء غويتشارديني

قبل قرنين حول إعطاء الأولوية للتاريخ الحديث على الماضي القديم والعصور الوسطى، على أساس أن الفترات البعيدة كانت مختلفة بما تكفي (وسجلاتها أقل وثاقة بما يكفي) لتقويض قابلية تطبيقها حتى يومنا هذا.

ومن الشك في فائدة المثال المعزول الذي ينتزع من سياق تاريخي بعيد ومختلف، لم يتطلب الأمر سوى خطوة قصيرة نحو تنظير أكثر عمومية حول عملية التغير والتطور البشري، استبقه بالفعل علماء القانون في أواخر عصر النهضة. فبحلول عام 1800، كان الإدراك المماثل للتطور البشري الجماعي، والحاجة إلى التتبع خطوة بخطوة لولادة المؤسسات ونموها وتطورها، قد حوّل الماضي إلى عملية تراكمية ـ أي إلى (التاريخ *History*) بأل التعريف. فهذه هي الفترة التي بات رائجا خلالها تفكير الأوربيين المستجد في تصور التاريخ كتراكم متفتق للأحداث وكذلك الكتابات التي توثق ذلك ـ وهو مزيج مختلط للمعاني لن يتكرر أبدا، كما سيتذكر القراء من الفصل الأول، في الثقافة الصينية قبل العصر الحديث. (وبالتالي فإن القارئ سيلاحظ من هذه النقطة فصاعدا تركيزا متناقصا في المجلد الحالي على الإنجازات الأدبية للمؤرخين الأفراد، الذين سرعان ما باتوا يعدون بالآلاف، واهتماما متزايدا بما كان حتى الآن نادرا نسبيا، مع استثناء أمثال جان بودان ـ أي التنظير حول التاريخ كعملية والتفكير بشكل منهجي حول أفضل طريقة لكتابته). فقد بدأ مفهوما ***res gestae*** و***historia rerum gestarum*** بالاندماج، أي (الأشياء التي تمت) إلى جانب (رواية تلك الأشياء)، وهي ملاحظة أكدها تصريح الفيلسوف الألماني غ.ف.ف. هيغل في أوائل القرن التاسع عشر عن المعنى المزدوج للكلمة الألمانية *Geschichte*:

> في لغتنا، تجمع كلمة (تاريخ) بين المعاني الموضوعية والذاتية، لأنها تشير إلى ***historia rerum gestarum*** وكذلك ***res gestae*** بحد ذاتهما، أي السرد التاريخي والأحداث الفعلية والأفعال والأحداث ـ والتي تختلف تماما بعضها عن بعض بالمعنى الدقيق للكلمة. (محاضرات في فلسفة تاريخ العالم ***Lectures on the Philosophy of World History***، ترجمة هـ. ب. نيسبت، 1975، ص 135)

بالنسبة لهيغل (انظر أدناه، ص 246ـ248)، لم يكن هذا من قبيل الصدفة: فقد ظهرت كتابة التاريخ والتاريخ نفسه، ذاتية كانت أو موضوعية، بنحو متزامن لأنهما كانا

نتاج نظام متسام، وقد أنشأت الدولة كلا منهما بطريقة آلية، وكانت هي في الوقت نفسه الموضوع الأساسي للتاريخ (السرد) وكذلك الصانع والمسجل الواعي بذاته للتاريخ (نمط الأحداث).

التاريخ الفلسفي، التخمين، والمرحلية

إن قصة بحث أوربا في القرن الثامن عشر عن معنى في الماضي ـ مشتق من أي مصدر سوى الدين، ودون أن يكون الغرض الأساسي هو الترفيه أو توفير أمثلة نفعية ـ يمكن أن يقال إنها بدأت مع التواريخ 'الفلسفية' لاثنين من الإيطاليين تُجُوهِلا إلى حد كبير في عصرهما. كان أصغرهما سنا، بيترو جيانوني *Petro Giannone* (1676 ـ 1748)، رجل قانون من نابولي ألف كتاب **التاريخ المدني لمملكة نابولي** (1723)، الذي مزج فيه بين المعرفة التفصيلية بالوثائق (رغم أنها كانت مشتقة غالبا من الأعمال المتبحرة للأجيال السابقة) والتركيز على التاريخ الاجتماعي والنظرة الإصلاحية المعادية للكنيسة، والتي من شأنها أن تميز التفكير التنويري في وقت لاحق. من وجهة نظر جيانوني، فإنه قد ابتكر في 'التاريخ المدني' نموذجا جديدا للكتابة التاريخية، على أنه لم يقلده في ذلك لبعض الوقت إلا قليل من الكتاب. وقد تُجُوهل جيامباتيستا ڤيكو *Giambattista Vico* (1668 ـ 1744)، أستاذ البلاغة اللاتينية في نابولي ومعاصر جيانوني الأكبر سنا، إلى حد كبير لمدة قرن. نُشرت تحفته الفنية **العلم الجديد** *Scienza Nuova* لأول مرة عام 1725 ونُقحت تفصيلا في طبعات لاحقة خلال عامي 1735 و1744. لقد أدرك ڤيكو، الناقد للتاريخ التقليدي، أن البشر في مختلف الأعمار لم يدركوا العالم أو يفكروا فيه أو يجسدوه بنفس الطريقة في جميع الأوقات، خلافا للافتراض الشائع، وهي رؤية عميقة كان لها تأثير في فرض مسافة بين الحداثة والعصور القديمة أكبر مما أدركه أسلافه الإيطاليون في القرن الخامس عشر. وفي تصوره للدور المهم للخيال في مهمة فهم الماضي، كما تلاحظ سيسيليا ميلر، فإن ڤيكو قد استبق أفكار كتاب لاحقين مثل ر.ج. كولينغوود، التي قالت بأننا من منظورنا الحاضر يجب أن نحاول الدخول في أذهان الفاعلين السابقين وعصورهم.

لم تجذب أعمال ڤيكو، بسبب صعوبة قراءتها وغناها بالتلميحات والغموض،

كثيرا من جمهور القرن الثامن عشر، وحتى اليوم ما يزال تأثيره انتقائيا وليس شاملا. وليس من السهل أن نحدد (ما يدور حوله) **العلم الجديد** لأنه يتراوح بين التاريخ وعلم اللغة وما نسميه الآن علم الاجتماع، ومن توصيات لكتابة التاريخ السليم إلى تكهنات حول طبيعة المجتمع المبكر، وحتى مناقشات لقصائد هوميروس ونظرية ڤيكو (التي تبنتها فيما بعد أجيال لاحقة من الباحثين) القائلة بأنها كانت من صنع عدة أياد مختلفة. وإضافة إلى ذلك، فإن محتوى **العلم الجديد** لم يحقق صدى يذكر لدى معظم قراء القرن الثامن عشر. بعدما نبذ الممارسة البالية (الشائعة جدا في أوائل العصر الحديث) المتمثلة في تحقيب التاريخ وفقا للفترات الزمنية المرتبطة بالسلالات والموروثة من كتاب العصور الوثنية وأواخر الأنتيك، سعى ڤيكو لإظهار تقدم الثقافات بمرور الوقت. ولكن هذه الرؤية (التقدمية) للتاريخ جاءت مع شرط مقيد مهم: أن التقدم يحدث خلال دورة متكررة أكبر من الصعود والهبوط *corsi e ricorsi*.

وعلى الرغم من أن ڤيكو قد اعترف (بالتقدم) من عصر إلى آخر، فإنه لم يقر بأي تقدم تراكمي ومطلق في شؤون الإنسانية. ويعد هذا، بنحو ما، إعادة صياغة (وتوسيعا للمدى من الفضاء السياسي إلى الفضاءات العقلية والاجتماعية) لمفهوم الدورات السياسية *anakuklosis politeion* عند پوليبيوس (انظر أعلاه، الفصل 1، ص 56 ـ 57). لقد أقام ڤيكو هذا الصرح على سلسلة مفترضة من دورات التقدم والانحدار، مقسما الماضي إلى سلسلة من العصور المتكررة: للآلهة، والأبطال، والبشر (العصر التاريخي) ـ حيث كانت هناك دورتان من هذا القبيل حتى عصره هو. وقد تميز كل عصر، حدث بدوره في أوقات متغيرة ومتنوعة في أجزاء مختلفة من العالم، بأنماط مميزة من الكلام والفكر والقانون والحكومة، تطورت كلها بإزاء الأفق المتخيل (للتاريخ الأبدي المثالي)، وهو أمر أشبه بالقالب الذي يتفتق أمامه تاريخ جميع الأمم. وقد سمحت هذه البصيرة لڤيكو بشرح الانتقال من حقبة إلى أخرى، وكذلك ظهور الحضارة من حالة الطبيعة قبل الاجتماعية التي اقترحها فلاسفة القرن السابع عشر مثل توماس هوبز وجون لوك.

ومع وجود بعض التقدم بالتأكيد بين عصور ڤيكو الدورية وحتى ضمنها أيضا، فإنه لم يكن مؤمنا بالتقدم البشري المطلق. وفي هذا الجانب المهم، فقد تفرد ڤيكو

عن المؤرخين الفلسفيين في القرن الثامن عشر الذين اتخذ كثير منهم، على العكس من ذلك، مسألة إيمانية من مفهوم التقدم وتطور الحضارات من أحوال بدائية إلى أحوال أكثر تقدما. ومن بين هؤلاء، لم تساهم أي فئة في إعادة صياغة التاريخ كقصة للتقدم البشري، وفي نطاقه العالمي وكذلك تحليل أشكاله غير الروائية بقدر عدد من المفكرين السكوتلنديين. فقد كتب آدم فيرغسون *Adam Ferguson* (1723 ـ 1816) وجون ميلار *John Millar* (1735 ـ 1801) وآدم سميث (1723 ـ 90) وهنري هوم، اللورد كيمز *Lord Kames* (1696 ـ 1782)، من بين آخرين، أشكالا مما بات يُعرف فيما بعد بالتاريخ ‹التخميني›، وهو وصف التصق بهذا الأمر. كان ذلك يتضمن استخدام تكهنات منطقية أو ‹تخمينات› لملء الفراغات التي خلفها السجل التاريخي، لا سيما حين تطبق على الفترات الزمنية الأبعد، وكذلك التوصل إلى تعميمات مستنيرة فيما يتعلق بتاريخ البشرية. كان ذلك المجال مقارنا واسع المعرفة (وإن كان في كثير من الأحيان يتجنب تفاصيل البحث الآثاري)، ولم يركز على السياسة والحرب بل على الثقافة والمجتمع والحكومة والقانون ـ وهو مفهوم مختلف تماما ‹للتاريخ العالمي› عن ذلك الذي مارسه المؤرخون القدامى والقروسطيون، أو حتى كاتب حديث كالأسقف بوسويه. لكنه ظل منحصرا بنفس الحدود الزمنية ـ أي بعالم لا يزيد عمره عن ستة آلاف عام ـ التي قيدت كل المحاولات السابقة لوصف عملية التغير الحضاري طويل الأمد. وهكذا فقد تجنب المؤرخون التخمينيون بنحو لافت أن يحددوا تواريخ للمراحل المختلفة للمجتمع.

كانت مصادر هذا الاندفاع المذهل للطاقة الفكرية من ركن غامض وغير مأهول نسبيا في أوربا مختلفة، واشتملت على الدراسات القانونية في القرن السابع عشر وكذلك المناقشات المنطقية والمتشككة حول كيف يمكن الاحتفاظ بالتاريخ، رغم كل عيوبه ونقائصه الواضحة، كشكل ذي مغزى من المعرفة والأدب. لقد خرج السكوتلنديون عن سجيتهم في القرن الثامن عشر، كمواطنين في المملكة المتحدة حديثة التكوين (1707) لبريطانيا العظمى، وهم حاملون لأفق عالمي بشكل غريزي، وذلك بهدف القضاء على الميول القومية لأسلافهم في العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، وكذلك التنكر لماضي بلادهم الجلف القاسي. «فالشعوب كما الرجال»،

كما لاحظ ويليام روبرتسون، المؤرخ الملكي لسكوتلندا، «يصلون إلى مرحلة النضج تدريجيا، أما الأحداث التي جرت خلال طفولتهم أو شبابهم المبكر... فهي لا تستحق أن نتذكرها».

مثل روبرتسون (الذي سيكون لكتابه **تاريخ أمريكا** تأثير كبير في مؤرخي أمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر)، كان المنظرون الاقتصاديون والاجتماعيون السكوتلنديون على معرفة بالمؤرخين الفرنسيين، لكنهم تعلموا أيضا قدرا كبيرا من رجل فرنسي متقن التفكير لم يكتب أي تاريخ سردي، هو شارل لويس دي سيكوندا، البارون دو مونتسكيو (1689 ـ 1755)، الذي تجلى تركيزه على المجتمع المدني وتحليل الأخلاق والثقافة في كتابه **روح الشرائع** (1748)، إضافة لموارد أخرى من أعماله، بالكامل في أعمال السكوتلنديين. حيث نظر فيرغسون بشكل خاص إلى عمله **مقالة عن تاريخ المجتمع المدني** *Essay on the History of Civil Society* كتفصيل لأفكار مونتسكيو. وكان موقف فيرغسون تجاه التقدم متناقضا: فلكل من السلام والأمن اللذين قدّرهما أثر سلبي، هو إنتاج مجتمع من الدرجة الثانية وثقافة استهلاكية يسيطر عليها رجال ضحلون. وهذا الإضفاء للطابع التاريخي على النظرية القديمة، التي تؤدي فيها الرفاهية إلى التراخي والفساد وفقدان الحرية، قد اقتبسه كارل ماركس بكل تأييد في القرن اللاحق، وليس من الصعب أن نعده سابقا لنقاد ثقافيين لاحقين مثل نيتشه وهويزينغا أو شپنغلر. يجد المرء أيضا عند فيرغسون فهما متعاطفا للمجتمعات السابقة يختلف بشكل ملحوظ عن معظم الباحثين الفرنسيين المعاصرين ويستبق النزعة 'التاريخانية' المبكرة لدى الألمان مثل هيردر (انظر أدناه). فهو القائل: «لكل عصر عزاءاته، ومعاناته أيضا»، وسوف يميل الذين يعيشون في راحة حديثة إلى المبالغة في تصور بؤس 'العصور الهمجية'. ومثل ڤيكو، اعتقد فيرغسون أن الخرافة والأسطورة هما من سمات الفكر البدائي عن الماضي، ولهذا فهما يمثلان ـ على سبيل المفارقة ـ نوعا أفضل من الأدلة مقارنة بالأشكال الأولى للكتابة التاريخية. وبوصفه كلاسيكيا مجددا من ناحية الأسلوب، فقد كان يخص تدوين التاريخ في العصور الوسطى بالنقد، ويجلد من جديد ذلك الحصان الميت، أي 'الراهب المؤرخ'، وعجزه المزعوم عن الإصغاء لما وراء الأحداث المتتابعة المنفصلة.

كان الكثير من مفردات الكتاب السكوتلنديين متوارثا من القدماء بوساطة مفكري عصر النهضة مثل مكياڤيلي، في حين أنه يمكن تتبع اهتمامهم بالعادات والأخلاق إلى زمن بعيد وصولا لهيرودوتس، كما يمكن تلمسه بوضوح في أعمال عصر الفتوحات مثل التاريخ ‹الطبيعي والأخلاقي› لأكوستا. ومع ذلك، فقد أدرك السكوتلنديون في القرن الثامن عشر أنهم لا يعيشون في العصور القديمة ولا في عصر النهضة. وقد كان عليهم أن يأخذوا في الاعتبار مجموعة متنوعة من الأدلة لتكوين صورتهم للماضي التراكمي، بما في ذلك 250 عاما من اللقاءات مع عوالم أخرى، ‹وحشية› كانت (أي القبائل الأشد بدائية في أميركا وأجزاء من إفريقيا) أو ‹بربرية› (أي الشعوب شبه المتحضرة مثل الإنكا، سكان شمال لاپلاند، وقبائل البدو في وسط أوراسيا)، إلى جانب التحول الملحوظ للإمبراطوريات نحو التقدم التجاري بدلاً من الاقتصار على التبجيل السلالي أو الأرستقراطي.

وقد سمحت لهم إضافة هذه المكونات إلى المزيج بالتخلص من بعض الأدوات التفسيرية البالية: كالمخترعين النازلين من السماء، أو المعجزات، وحتى العكاز القديم المعتاد لوجود ‹مشرّعين› مفترضين مثل ليكورغوس في إسپرطة، أو صولون في أثينا، أو حتى موسى نفسه، أي رجال بوسعهم أن يخترعوا ويفرضوا بمفردهم أنظمة شرع قانونية معقدة. كان ڤيكو قد شكك فيما إذا كان أشخاص كهؤلاء موجودين بالفعل؛ ولكن العديد من المفكرين السكوتلنديين، رغم اعتبارهم هذه الشخصيات تاريخية، فقد أنكروا دور المشرعين في السلطة، ونظروا إلى أنواع المؤسسات التي كانت تُنسب إلى عبقريتهم بوصفها مجرد نتيجة طبيعية لمرحلة معينة من التطور؛ فقد تلا بعضها بعضا ليس عبر قفزات كبيرة ولكن ‹تدريجيا›. فالدول، كما قال فيرغسون، «تنتقل من شكل حكومي إلى آخر، من خلال انتقالات سهلة، وفي كثير من الأحيان فإنها تتبنى دستورا جديدا تحت أسماء قديمة»، حيث تحتوي طبيعة بشرية هذه البذور التي تنبت وتنضج في أوقات معينة.

وهكذا فقد حول القرن الثامن عشر الخطاب القديم للقرون الوسطى لأصول الشعوب *origo gentis* إلى مناقشة منطقية للانتقالات من حضارة إلى أخرى، وتأثير الصراع بين الشعوب في تلك المراحل المختلفة. ففي حين شُطِب الآن شعب طروادة

وحزمة ملوكهم المتخيلين إلى حد كبير، لا يمكن الاستغناء تماما عن السكيثيين والقوط وبني إسرائيل وحتى أبناء نوح. فقد ظلت هذه الشعوب تقدم، بالإضافة إلى قصة العهد القديم عن تبلبل الألسن في بابل (سفر التكوين 11: 1 ـ 9)، أنسب تفسير لانتشار سكان العالم وكذلك لنسيان الأحفاد الذين سافروا بعيدا (ومن بينهم الأميركيون الأصليون المهاجرون بحسب أكوستا) لكثير من المعارف القديمة عن أسلافهم الحكماء المؤسسين. ورغم أنهم ورثوا مفهوم هوبز عن ‹حالة الطبيعة› قبل الاجتماعية، فقد استبدلوا هذه الفكرة المجردة واللا زمنية إلى حد ما بمجموعة أكثر واقعية من النظريات، مشتقة تجريبيا من التاريخ الطبيعي وأدب الرحلات؛ حيث وصفت هذه النظريات تطور البشرية من حالات بدائية في فترات حقيقية في الماضي، ولكنها لم تكن دائما **نفس الأوقات** في بلدان مختلفة.

إن الصيغ الأكثر تعقيدا لهذا المخطط التطوري للتقدم الاجتماعي تعرف الآن بمجملها باسم ‹المرحلية *stadialism*›، لكنها لم تكن بدعا من الأمر. فقد تكهن الإغريق والرومان بتقدم البشرية من شكل ما من المجتمعات إلى آخر، وهناك تلميحات لنظرية عن التطور أو ‹التحضر› عند المؤرخ ويليام من مالمزبري في القرن الثاني عشر، بينما رسم العديد من مفكري ومؤرخي عصر النهضة صورة عن التغير الثقافي أو القانوني كعملية بطيئة وتدريجية. وفي أواخر القرن السابع عشر، أكد الباحث القانوني والمؤرخ صموئيل پوفندورف *Samuel Pufendorf* (1632 ـ 94) أن ‹حالة الطبيعة› المفضلة لدى الفلاسفة وفقهاء القانون يجب اعتبارها ظاهرة تاريخية حقيقية، وجزءا من عملية زمنية، وليست محض تجريد نظري ابتدعه هوبز، مبينا مع ذلك أن التواصل التجاري يكمن في نهاية التقدم التاريخي. وبناء على وجهة نظر أكوستا في القرن السادس عشر القائلة بأن ‹المتوحشين› لا يمكن أن يملكوا تاريخا سرديا، وبالتالي يجب دراستهم كفرع من التاريخ الطبيعي، فقد قدم اليسوعي جوزيف فرانسوا لافيتو (انظر أعلاه، ص 168) مقارنة صريحة بين السكان الأصليين في أمريكا الشمالية والمجتمعات القبلية التي وثقها يوليوس قيصر وتاسيتوس وغيرهما من المؤرخين الكلاسيكيين. وهذه الصلة المباشرة بين البرابرة في العصور القديمة والكتابات الأقرب عهدا عن الشعوب الجاهلة الحديثة قد عبّرت عنها ملاحظة واسعة الاقتباس لجون لوك: «في البدء كان كل العالم أميركا».

كانت المساهمة الفريدة للقرن الثامن عشر هي تنظيم قدر وفير من هذا الفكر، بالإضافة إلى إدماج تأثير اكتشافات العالم الجديد ـ بنحو أكفأ بكثير من معظم أسلافهم في القرن السادس عشر والسابع عشر ـ في روايات تطور المجتمع البشري والحضارة. والمرحلية، وهي حالة خاصة من هذا التفكير، ترتبط عموما بالدعاة السكوتلنديين لهذا المنظور في الماضي. فقد افترضت (في العادة) أربع مراحل من التنمية البشرية، عرّفت بشكل أساسي كأنماط للعيش تتراوح من مرحلة الصيد والقطف الوحشية، مرورا بالمرحلة الرعوية/ البدوية ثم الزراعية، وانتهاء بالحداثة تتميز بالمدن والمؤسسات السياسية المتقدمة، وفوق كل شيء: ممارسة التجارة. إن نمط العيش الذي بلغ الذروة، وبات المال والتجارة والعلاقات بين الشعوب من معالمه، سيوفر في النهاية موضوع عمل آدم سميث العظيم، **تحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم** *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* (1776)؛ فقد أزاحت فكرته عن اليد الخفية للاقتصاد بهدوء فكرة أقدم عن العناية الإلهية، تماما مثلما حول كتاب نيوتن **المبادئ** *Principia*، في عالم الطبيعة، تصورنا عن الله إلى خالق بعيد يعمل من خلال قوانين يمكن وصفها رياضيا.

يجب هنا تأكيد اختلاف مهم بين نظرية المرحلية في القرن الثامن عشر والأفكار اللاحقة للتطور البشري (كالمدرسة الوضعية في القرن التاسع عشر أو نظريات كارل ماركس): أن أنصار المرحلية لم يفترضوا حتمية التقدم، حيث أثبت ذلك فشل بعض الناس في التقدم لأبعد من مرحلة معينة. وإضافة إلى ذلك، فيمكن لهذه المراحل أن تتداخل، حتى مع التقارب الجغرافي فيما بينها. كان الإنجاز البشري يحدث نتيجة عوامل بيئية واجتماعية مجتمعة، ولم يكن مجرد نتيجة مباشرة للمناخ، كما أكد ابن خلدون وبودان ومونتسكيو، أو العناية والقدر ـ رغم أنه قد يسمح لكل منهما بمكان. ولم يكن ‹التقدم› هو السرد الشامل الوحيد الممكن، لأن التاريخ ما يزال يشهد على العديد من الأمثلة على التدهور الاجتماعي والسياسي، كما لاحظ فيرغسون في روايته لتهاوي الجمهورية الرومانية. بل إن روما، في الواقع، ظلت تمثل أعظم دراسة حالة للانهيار الإمبراطوري، وسيقع على عاتق إنجليزي وليس سكوتلنديا، هو إدوارد غيبون، لوصف الخطوات الطويلة والتدريجية لزوالها ـ ليس فقط عبر حماقات

الأباطرة أو حتى التفسير التقليدي للترف المفسد، ولكن عن طريق شبكة معقدة من القوى ـ على رأسها «البربرية والدين» ـ التي أثرت على مدى عدة قرون. وما يزال العمل الأكبر لغيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها** (1776 ـ 89)، عملا يُقرأ باستمتاع حتى اليوم. فقد أعجبت أجيال من القراء بجمع مؤلفه بين أناقة الأسلوب، والمعالجة المتشككة للمصادر، والقدرة على التعميم، وثقل سعة الاطلاع التي تلطفها دعابة جيبون الساخرة، وأحكامه المنافية للسائد على الأفراد ـ ولعل أكثرها شهرة موقفه من الإمبراطور يوليانوس المرتد/ الفيلسوف في القرن الرابع ـ وكذلك وجهات نظره الاستفزازية عمدا (التي أغضبت رجال الكنيسة المعاصرين له) حول المسيحية المبكرة. ويعتقد العديد من العلماء المعاصرين أن غيبون قد نجح في إدارة توازن دقيق بين ثلاث تيارات متنافسة للكتابة التاريخية الأوروبية: هي التاريخ المتضلع والفلسفي والسردي.

الفكر التاريخي في حركة التنوير الفرنسية: ڤولتير، كوندورسيه، وروسو

كان غيبون مدينا بنحو خاص لأعمل الباحثين الفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بما في ذلك منشورات أكاديمية النقوش *Académie des Inscriptions* الشهيرة. ومع ذلك، لم تكن سعة الاطلاع الثمينة هذه هي السلالة الأكثر نفوذا في الكتابة الفرنسية عن الماضي. ففي الواقع، كان الفرنسي الذي مارس في القرن الثامن عشر، على المدى القصير على الأقل، أكبر تأثير في الفكر والكتابة التاريخيين خارج وطنه، وهو ڤولتير، صحفيا وكاتب مقالات أكثر من كونه باحثا أو فيلسوفا، وكانت أفكاره عموما مشتقة من مصادر أخرى. لكن ڤولتير (الذي ولد باسم فرانسوا ماري أرويه، 1694 ـ 1778) يستحق اهتمامنا نظرا لسمعته وكذلك النطاق العالمي الطموح لبعض أعماله. فقد كان كتابه **مقالة عن الأخلاق وروح الأمم** يمثل نظرة عامة ونقدا للمؤسسات والعادات كما تطورت على مدى عدة قرون. حيث شمل ڤولتير حضارات غير غربية مثل الصينيين، رغم أن إشاراته خارج الثقافة الأوروبية كانت سطحية في كثير من الأحيان، وبمثابة ترياق مضاد لفكرة التفوق اليهودي المسيحي.

على مدار حياته المهنية الطويلة، أشاد ڤولتير دوما بسمات الحضارات الأخرى

لكنه ظل يخلص إلى القول بأن الثقافة الغربية تمثل أوج العقل البشري، رغم من أن تأثيراتها المفيدة الظاهرية قد قوضتها الخرافات والتعصب الديني. ومع استخفافه بالهمجية القديمة، فقد يكون فولتير مع ذلك متعاطفا مع «الوحشية» المعاصرة للسكان الأصليين في أمريكا الشمالية، وهي حالة أكثر بدائية. لقد ساهم في المعرفة العامة للمجتمعات الغريبة، واستعان في الغالب بقصص السفر المعاصرة كمصادر، وظل يسخر من أنواع الحيل في الاشتقاق اللغوي والأنساب التي لا تزال تستخدم في بعض الأحيان لتلفيق سلاسل نسب زائفة.

لم يصل ڤولتير إلى هذا المنظور العالمي للماضي، مع تأكيده الثقافة والحضارة، إلا تدريجيا. وفي الواقع فإن التزامه بالتاريخ مثير للدهشة من بعض الأنحاء، لأنه ورث قدرا كبيرا من التشكك في أواخر القرن السابع عشر، إلى حد كتابة مقالته الخاصة **البيرونية في التاريخ** *Le Pyrrhonisme de l'histoire* (1769). كان أول ما قدمه كمؤرخ هو عمله الدرامي والمسلي، والتقليدي تماما، **تاريخ تشارلز الثاني عشر** (1731)، مركزا على الإنجازات العظيمة (والفشل النهائي) لذلك الملك السويدي (ح. 1697 ـ 1718)، إلى جانب خصمه التحديثي، أي القيصر الروسي بطرس الأكبر. وبزهو يليق بثوسيديدس، تفاخر فولتير بأنه في **تاريخ تشارلز الثاني عشر** «لم يدون حقيقة واحدة لم يستشر بشأنها شهود عيان على قدر من الصدق لا يرقى إليه الشك». وعلى الرغم من هذا التأكيد الجريء، فإن مزاج فولتير لم يكن مهيئا للسعي وراء التفاصيل؛ فقد فضل ارتداء عباءة **المؤرخ** *historien* الأصيل التي ميزته عن **مدون التاريخ** *historiographe* البحث، أي المجمع للحقائق والوثائق والتواريخ التي يمكن للمؤرخين الحقيقيين استخلاص موادها. أما التفاصيل فلم تكن مهمة إلا إن استطاع المرء أن يتعلم منها شيئا ذا أهمية حقيقية، وإلا فليست جديرة بأن تسود صحائف المؤرخين. ولم يمكن تصديق الوثائق نفسها إلا لو كتبت في عصر مستنير. وفي هذا الموقف كان لديه شيء مشترك مع ديفيد هيوم، الذي شجب «الحرفة المظلمة» للباحث القابع في الأرشيف.

مثلت التحولات في اهتمامات ڤولتير في حد ذاتها علامة على انتقال القرن الثامن عشر من تاريخ كبار **الرجال** إلى تاريخ نوع **الإنسان**. فبعد عشرين عاما من كتابة **تشارلز**

الثاني عشر، نشر فولتير نوعا مختلفا تماما من التاريخ في كتابه **عصر لويس الرابع عشر** *Le siècle de Louis XIV* (1751). ورغم أنه أشاد بهذا الملك، فإن هذا الكتاب لم يكن بأي حال من الأحوال حول لويس ـ على الرغم من حكاياته العديدة المسلية عن البلاط ـ أو حتى حول فرنسا عموما، بل حول ذروة الكياسة والعقل في ظل حكم ملك حكيم بشكل عام. وفي حين ركز قدر وافر منه على المعارك والحياة السياسية أكثر مما قد يرغب مؤلفه في الاعتراف به، إلا أن ڤولتير سرد فيه الكثير حول الثقافة والعلوم والفنون، حيث رأى في القسم الأول من عهد لويس واحدا من أربعة عصور عظيمة حقا في التاريخ الإنساني، جديرا بالمقارنة مع اليونان القديمة، روما في عهد أغسطس، وكذلك عصر النهضة. وقد زود ذلك العهد ڤولتير بمعيار لائق للمطالبة بالإصلاحات الضرورية بشكل عاجل في عصره هو. لكن تفاؤل فولتير كانت له حدود، ولم يدعه أبدا يتحول إلى نسخة حية من شخصيته الخيالية البروفيسور پانغلوس، الزاعم أن كل شيء هو الأفضل في أفضل العوالم الممكنة، خاصة في وقت متأخر من عمره عندما هزت أهوال زلزال لشبونة عام 1755 كل ثقة في عالم خيّر. فقد كان ڤولتير المؤمن بالتقدم الشامل يواجه تحديا مستمرا من ڤولتير الناقد الاجتماعي المعاصر.

أما وجهات النظر الأكثر تفاؤلاً حول التقدم البشري في ذلك القرن فقد تبناها خليفة ڤولتير (ووصيّه الأدبي) في عصر الثورة الفرنسية، ماري جان أنطوان نيكولاس كاريتا، الماركيز دو كوندورسيه (1743 ـ 94). لاقى هذا الفيلسوف الأرستقراطي حتفه في سجن ثوري، لكنه أكمل قبل بضعة أشهر كتابه **المعالم** *Esquisse* أو **معالم لصورة تاريخية عن تقدم العقل البشري** *Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Human Mind* (وكان يقصد منه أن يصبح مقدمة لاستعراض تاريخي *tableau historique* أكبر لم يكتبه أبدا). اقترح كتاب **المعالم** تاريخا من تسع مراحل لتطور البشرية، مع مرحلة عاشرة تمثل ذروة العقل والإنجاز الذي توقع أن يلي حدوث الثورة، لتمثل الجمهورية الفرنسية تتويجا للتقدم المشترك للفضيلة والتنوير. وقد أصبح كتاب **المعالم**، الذي نشر مع بعض التعديلات عام 1795 بعد أن هدأت موجة الإرهاب، بيانا للتقدم؛ وسيؤثر فيما بعد على عدد من المفكرين المهمين في القرن التاسع عشر، من الراديكالي هنري دو سان سيمون إلى الوضعي أوغست كونت.

مونتسكيو، فقد فكر روسو كثيرا في مسار الحضارة ومشكلاتها الحديثة. وبحجة براءة ونبل الإنسان قبل الاجتماعي، فقد تخلى روسو عن فكرة هوبز القائلة بأن حالة الطبيعة العنيفة قد استلزمت نشوء المجتمع البشري، وصيغة لوك منها التي اعتبرت الممتلكات والتجارة، وليس الأمان وحده، من بين الفوائد التي يمنحها المجتمع المدني. ففي الواقع، رأى روسو في الحضارة المبكرة مصدرا للتفاوت الاقتصادي والاجتماعي الذي أصبح راسخا في عصره. لقد أثارت آراء روسو السياسية الراديكالية، التي تبناها الثوار الفرنسيون بعد وفاته، غضب المحافظين أثناء الثورة وبعدها. لكن آرائه حول الملكية والطبقات ستدوم حتى تؤثر في النهاية في كارل ماركس، في حين أن إعجابه بما يعرف ‹بالوحشي النبيل› والحالة الطبيعية سيكون له تأثير قوي في الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر.

حركة التنوير الألمانية

أما في العالم الناطق بالألمانية فقد ظهر عصر التنوير بشكل مختلف إلى حد ما، وكانت بعض التناقضات الواضحة الفكر التاريخي في سائر أرجاء أوربا قبل الثورة الفرنسية وبعدها أكثر دقة عند الألمان. وهذا يعود جزئيا إلى أن عصر التنوير (أو *Aufklärung* كما بات يعرف هناك) جاء متأخراً قليلاً إلى ألمانيا، وبالتالي فيمكن أن يعتمد بنحو انتقائي على خيوط من التفكير طُوِّرَت في أماكن أخرى، وحتى أن يعرّف نفسه بالضد من بعضها؛ ويعود ذلك جزئيا أيضا إلى أنه بالرغم من كراهيتها للتعصب المذهبي *dogmatism* (الموروثة من اللاهوتي ومؤرخ الكنيسة السكسوني غوتفريد أرنولد *Gottfried Arnold* [1666 ـ 1714] في أواخر القرن السابع عشر)، فقد ظلت الولايات الألمانية البروتستانتية معقلا لوثريا ومعمدانيا غير متقبل لڤولتير ومناهضته لرجال الدين من الأساس. وقد تأثر المفكرون الألمان أيضا بغوتفريد لايبنتز ونظرته للكون كسلسلة من ‹‹الأحاديات *monads*› التي يعد فيها أي جزء انعكاسا قائما بذاته للكل، وتمكنوا من استيعاب وجهات النظر المسيحية للماضي بسهولة أكبر ضمن أنظمة معتقداتهم. حيث شمل ذلك إطارا للتاريخ العالمي والتسلسل الزمني كان لدى الألمان التزام علمي قوي به بنحو خاص. ومن الناحية الجمالية، فحيث ظل الكثيرون

في جميع أنحاء أوربا ينظرون إلى روما بوصفها ذروة إنجازات العصور القديمة، كان الذوق الألماني يفضل التأسّي باليونان وخاصة أثينا في القرن الخامس ق.م.

وكما هو الحال في عصر النهضة، فقد قدم فقه اللغة الأداة الرئيسية لفهم العصور الماضية، وقد وضع فريدريش أوغست وولف *Friedrich August Wolf* (1759 ـ 1824) الأساس لنهج متداخل التخصصات لدراسة العصور القديمة في كتابه **مقدمة إلى هوميروس** *Prolegomena to Homer*. وقد كان تصريح وولف الصادم بأن «هوميروس الذي نحمله في أيدينا الآن ليس نفس النص الذي تألق في أفواه الإغريق في عصره، ولكنه نص غُيّر وقُرّب وصُحّح ونُقّح بشتى الأنحاء» مبنيا على فهم شامل لقرون من البحث والتعليق على **الإلياذة والأوديسة**؛ ثم إن إعادة تشكيله لكيفية تأليف الملاحم وانتقالها لاحقا من الشفوية إلى الكتابة ستساعد أيضا في تمهيد الطريق لإحياء الاهتمام بالثقافة الشفهية في أوائل القرن المقبل. أما المعاصر الدنماركي لوولف والأصغر منه سنا، ب.غ. نيبور *B.G. Niebuhr* (1776 ـ 1831)، وهو دبلوماسي اتجه للبحث العلمي، فقد كان رائدا لدراسة شاملة ومتكاملة ومستندة إلى المصادر عن العصور القديمة من جميع جوانبها، كنوع من الأبحاث التي تدور حول المشكلات، ومن شأنها الاستفادة من تقنيات فقه اللغة والتاريخ ودراسة النقوش والنقد الأدبي في دراسة موحدة عن العصور القديمة، أو ما بات يحمل اسم *Altertumswissenschaft*. وسيصبح كتاب نيبور **التاريخ الروماني**، الذي نشرت مجلداته بنحو متفرق ابتداء من عام 1812، هو النص السائد في مجاله خلال معظم القرن التاسع عشر.

كانت لكل ذلك تداعيات على الفكر التاريخي الألماني. حيث تمسك محافظون مثل يوهان كريستوف غاتيرير *Johann Christoph Gatterer* (1727 ـ 99) بقراءة حرفية للعهد القديم وتسلسل زمني مسيحي تقليدي، احتفظ آخرون بإيمانهم لكنهم تخلوا عن التقيد الصارم بالتاريخ الكتابي. ونتيجة لتشككهم في التسلسل الزمني المستمد من النصوص المقدسة، فقد قرأوا العهد القديم على أنه شعر مقدس، ونص نبوي وأخلاقي بدلا من تاريخي، كتبه مؤلفون مختلفون في أوقات مختلفة ولا يجب أن يفهم على أنه سجل حرفي للأحداث، ولكن تناقضاته ذاتها تقدم أدلة على تاريخيته، أي تأليفه المتسلسل على مدى فترة طويلة. وقد ظل تاريخ الكنيسة نوعا فرعيا رئيسيا من

التأليف، وعلى أيدي بعض المؤلفين مثل يوهان لورينز فون موسهايم *Johann Lorenz von Mosheim* (1693 ـ 1755)، مستشار جامعة غوتنغن، توسع نطاقه ليشمل السياسة العلمانية وكذلك تاريخ التعلم والفلسفة. وسوف يتطور التقليد الطويل للهرمينوطيقا الكتابية ـ أي نظرية التفسير كما تطبق على الكتب المقدسة ـ في أيدي الألمان إلى أداة فعالة لنقد جميع أنواع النصوص. لقد طور التنويريون *Aufklärer* فلسفة حركة التاريخ البشري نحو الكمال، مع إبقائهم على الاعتقاد بأن كل فترة فردية كانت جزءا قيما من الكل، وليصبح كلاهما من السمات المميزة للفكر التاريخي الألماني في القرن التاسع عشر. إن التناقض الكلاسيكي الذي كان مفضلا لدى المؤرخين الفكريين، حيث يضع القرن التاسع عشر التاريخي العميق بالضد من الثامن عشر العقلاني وغير التاريخي بسذاجة، لا يبدو أقل إقناعا في أي مكان مما هو عليه بين المؤرخين واللاهوتيين والفلاسفة الألمان.

ومن بين حركات التنوير الأخرى، كانت لبريطانيا آثار كُبرى في المفكرين الألمان قياسا بفرنسا (مع استثناء بارز هو مونتسكيو)، وكان الأثر داخل بريطانيا ذاتها ينسب للسكوتلنديين أكثر من الإنجليز. فقد ترجمت كتب هيوم وروبرتسون بسرعة إلى اللغة الألمانية، ويبدو أن تواريخ فيرغسون حظيت بشعبية استثنائية، مما أكسبه شرفا نادرا بانتخابه في الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم والفنون. وقد غامر عدد من الألمان، المتأثرين بآدم سميث، بالبحث في الفكر الاقتصادي والتجارة والتغير التكنولوجي ودراسة الإحصاء. حيث جذبتهم المقارنة بشدة، إلى جانب استخدام أوجه التشابه بين المجتمعات في مراحل مختلفة من التطور: فقد افتتح أوغست لودڤيغ فون شلوزر August *Ludwig von Schlözer* (1735 ـ 1809)، طالب التاريخ الروسي في غوتنغن، خطابا منشورا حول الأساليب التاريخية بمقارنة صريحة بين مختلف الشعوب القديمة والوسطى والحديثة، ودعا إلى نهج عالمي لدراسة الماضي. وقد عزا التنويريون ذلك التأثير أيضا، بصرف النظر عن العوامل البيئية التي فضلها مونتسكيو، إلى مفاهيم أكثر غموضا مثل ‹الشخصية الوطنية› وما بات يعرف بروح العصر *Zeitgeist*، وهي قوى غير شخصية تمكنت ـ رغم أن هذه لم تكن نيتهم بالتأكيد ـ في نهاية المطاف من إزاحة العناية الإلهية تماما كعوامل سببية فوق بشرية.

وهكذا فقد أصبح الألمان الآن، بعدما كانوا مساهمين مكثرين بالفعل في أدب فن التاريخ *ars historica* منذ أواخر القرن السادس عشر، مؤلفين للعديد من كتب الحواشي والمقدمات والأدلة. لكن كثيرا منهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك لأجل التفكير بنحو أعمق في الماضي، وفي آليات التغيير والدور البشري فيه، وحول التاريخ (كعلم *Wissenschaft*) للتاريخ. كان غاتيرر، وهو مفكر هائل، ينتقد التاريخ الذي يرتب كسرديات قومية متسلسلة تفتقر إلى ارتباط الجزء بالكل. وبدلا عنه فقد دافع عن إحياء التاريخ العالمي المتجذر في الكتاب المقدس، الذي مثل خيطا رئيسيا لفكر التنوير المبكر. واستغل كتاباه **الدليل إلى التاريخ العالمي** *Handbook of Universal History* (1761) و**مقدمة إلى التاريخ العالمي المتزامن** *Introduction to Synchronistic Universal History* (1771)، وهما مثالان مبكران على إنتاجه الغزير للكتيبات التاريخية، ملاحظات التاريخ الطبيعي لشرح مشاكل في الرواية التوراتية للتاريخ المبكر، مثل الأعمار فائقة الطول لرجال ما قبل الطوفان. وفي نهاية المطاف، فقد فرض على التحقيب المسيحي التقليدي للتاريخ تقسيما رباعيا للزمن وفقا لدرجات التنظيم الاجتماعي وأشكال المعرفة، بما في ذلك التاريخ، والأحداث الكبرى في العالم المسيحي وغير المسيحي.

إن استياء حركة التنوير الألمانية من النزعة العالمية العقلانية التي لن تستطيع في النهاية وبنحو ملائم أن تفسر الغضب الثوري الذي انفلت عن السيطرة بعدما انفجر في باريس عام 1789، يظهر جيدا في ذهن يوهان غوتفريد هيردر *Johann Gottfried Herder* (أو فون هيردر، 1744 ـ 1803). كان هيردر، الذي عمل كمدير مدرسة وكاتب رسمي، يمثل قوة مذهلة سواء في مسيرته أو فكره، ورجلا يغير رأيه فجأة حول القضايا والأشخاص، وغالبا ما يتشاجر مع أصدقاء سابقين. ولأنه كان، شأنه شأن روسو، شخصية انتقالية بين عصر التنوير والعصر الرومانسي ما بعد الثورة، فإن هيردر يوفر نقطة مناسبة لإنهاء هذا البند. فبفضل نقده الساخر للتكهنات المجردة في كتابه الجدلي **فلسفة للتاريخ أيضا** *Also a Philosophy of History* (1774) أثبت هيردر أنه قادر على صنع تعميمات فلسفية. وينظر إلى هذا العمل أحيانا بوصفه أول تعبير، عدا ڤيكو، لمبدأ أساس في تاريخية القرن التاسع عشر (انظر أدناه، ص)، وهو أنه يجب الحكم على كل عصر وفقا لشروطه الخاصة وكذلك قيمه الخاصة.

ساعد هيردر، الذي ترجمت أعماله على نطاق واسع، في إعداد الطاولة الإيديولوجية للحركة القومية في القرن التالي، إلى جانب رفضه لذلك الصنف الخاص من العالمية المعممة التي ارتبطت بعصر التنوير. فمن وجهة نظر هيردر، لم تكن جميع الدول متشابهة، ولم تتبع مسارا مشتركا في التنمية؛ وقد كان مغرما بالاستعارات العضوية التي سمحت له برؤية التغير والتنوع من نافذة بيولوجية. فقد كانت كل أمة في نظره جزءا من الطبيعة، لكنها نبتت من بذور مختلفة؛ وستنمو كل واحدة وفقا لميولها الخاصة، حيث يكمن شكل المستقبل جوهريا في الماضي. وقد رفض هيردر النسخة الفرنسية للتقدم التي تنظر إليه كحركة تقدم للعقل البشري، ولفت الانتباه إلى دور العناصر غير العقلانية، بما في ذلك الصدفة: فهو من أوائل المؤلفين المعاصرين الذين توقعوا استخدام التصورات التاريخية البديلة (انظر أدناه، ص 389)، أو لعبة ‹ماذا لو؟› التي تتأمل كيف يمكن أن تسير الأمور، على سبيل المثال، لو أن روما ‹أُسِّست في مكان مختلف› أو ‹كيف كان يوليوس قيصر سيحكم مكان أغسطس›، وهو شكل آخر من سؤال پاسكال عن طول أنف كليوپاترا وأثره في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية. وقد جدد هيردر أيضا اهتمامه بالمصادر الشفهية، حيث استبقت مجموعاته المنشورة من الأغاني الشعبية تلك الأعمال الفلكلورية اللاحقة كقصص الأخوين غريم.

يقترح هيردر أنه على الرغم من أن الحضارات المتعاقبة تمرر شعلة القيادة العالمية من واحدة إلى أخرى، فإنه لا يمكن لأي منها أن يموت حقا لأنه سيُحتوى بلا شك في القصة النهائية للإنسانية *Humanität*، أي جوهر النوع البشري الذي يتقدم نحو تحقيق الأهداف المشتركة عالميا. فالثقافة هي أساس الأحداث وليس العكس، وبالتالي فإن حامل الثقافة ووعاء تاريخ الإنسانية هو الشعب *Volk*. وقد كان ذلك نتاجا للغة (المتغيرة والمقيدة تاريخياً بحد ذاتها)، والعادات الاجتماعية، والأخلاق، والمناخ والخبرة، وهذه القواسم المشتركة تتجاوز الحدود السياسية وعصور التاريخ السياسي. فالدول قد تأتي وتروح، أو يخضعها غزاة خارجيون، ‹لكن الأمة باقية›. فالشعوب لم تكن قابلة للمقارنة بشكل صارم فيما بينها، وذلك لأنها تطورت بمعدلات مختلفة، وليس وفق مقياس فردي للتسارع كالذي خطه كوندورسيه.

وفي حين كان كوندورسيه مترددا تجاه منح الهمج صفة الإنسانية، كان هيردر

واضحا في القول بأنهم مساهمون في القصة الإنسانية الأكبر ولا ينبغي الحكم عليهم بالدونية: فجميعهم يمتلكون أسهما في الإنسانية مع الحفاظ على هوية مميزة. ومع ذلك فإن مسيرة التقدم تظل واضحة، ومجرد تدفق الوقت يضمن أن البشرية ستمضي قدما، لتتعلم من الماضي وتتفوق عليه أيضا. وقد وجه هيردر الانتباه بعيدا عن التاريخ السياسي والعسكري نحو «الحياة الداخلية» للبشر التي يمكن تمييزها من الفن والموسيقى والأدب، في نهج كان من شأنه التطور في نهاية المطاف إلى فكرة التاريخ الثقافي *Kulturgeschichte* في القرن التاسع عشر. وقد شمل، بنحو جارى ڤولتير ولكن مع قدر أقل من التصنع، شعوبا غريبة مثل الصينيين والأفارقة والإسكيمو والهنود الأمريكيين في اختيار عيناته من الإنسانية، مع أنه ظل أوربي المحور في الأساس.

كانت النزعة العالمية التبسيطية عند ڤولتير كريهة في نظر هيردر، الذي رفض بالمثل صياغاته الأكثر دقة والتي اعترفت بالاختلاف الإقليمي. وبدلاً من ذلك، فقد بحث هيردر عند روسو عن أسطورة تفويض يمكن أن تحل محل عالمية الأفق *cosmopolitanism*، مستعيضا بها عن مدح الأخير لاسپارطة والجمهورية الرومانية بمثال تاسيتوس الأقدم عن البساطة والاستقلال غير الملوثين بالرفاهية الحديثة عند القبائل الألمانية المبكرة. ومع ذلك، سيظل يتعين علينا وضع هيردر في موقع هو إلى التقليد عالمي الأفق لعصر التنوير أقرب منه إلى القومية الپروسية والجرمانية في القرن التالي. ورغم عدم اتساق آرائه وتقلبها، فإن عمل هيردر الأكثر نضجا، **تأملات في فلسفة تاريخ البشرية** *Reflections on the Philosophy of the History of Mankind* (1784 ـ 91) يعد في آن واحد توليفا لمناقشات القرن الماضي وكذلك تراجعا عن بعض آرائه السابقة، حيث إنه يقدم نوعا من الرؤية العالمية للتاريخ كان هيردر الشاب سيجده أكثر إشكالية. (وسيثير أيضا انتقادات معلم هيردر وداعمه، الفيلسوف البارز إيمانويل كانط [1724 ـ 1804]، الذي نشر أيضا كتابه **فكرة من أجل التاريخ العالمي من وجهة نظر عالمية الأفق** *Idea for a Universal History from a Cosmopolitan Point of View* في عام 1784). لا يزال هيردر المتأخر يقف بمفرده بعيدا عن وجهة النظر العقلانية التنويرية الأكثر شيوعا لطبيعة ثابتة مشتركة

بين جميع البشر في جميع الأوقات، لكنه استقر على موقف وسط لا يختلف عن ذلك الذي اتخذه جيامباتيستا ڤيكو، الذي شاركه في الشعور بالتعاطف مع العصور السابقة ورؤية الجزء وهو ينطوي على الكل.

حركات التنوير في شرق آسيا

بحلول أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن إمبراطورية الچينغ *Qing*، باعتبارها مشروعا معقدا ومتعدد الأعراق في الشرق شأنها شأن العثمانيين والفرنسيين والبريطانيين في الغرب، تستوعب الصين وحدها بل والمناطق المجاورة مثل التبت ومنغوليا. ومع النظر لظروفها المختلفة للغاية، فقد شهدت الصين تحت حكم الچينغ، وهي سلالة صينية غير أصيلة نشأت في منشوريا، العديد من التطورات التاريخية نفسها التي شهدها الغرب. وقد شمل ذلك تفضيلا لتدوين التاريخ المتجانس على تدوين تاريخ الأقليات: وهكذا فإن التقليد القروسطي المتأخر لتدوين التاريخ المغولي، الذي مر بنهضة في القرن السابع عشر، شُطِب لإعادة كتابته من وجهة نظر المانشو. وبذلك فإن نسخة الچينغ من التاريخ، المدعومة بكتابة التاريخ الرسمية ورسم الخرائط والصروح المادية، قد طغت على النسخ المتنافسة للماضي في معظم الأراضي الخاضعة لحكمها. واشتركت الصين في عهد الچينغ أيضا في ميل الغرب إلى العالمية في القرن الثامن عشر، رغم أنه كان في هذه الحالة نسخة صينية لا أوروبية المركز. ومن الممكن ملاحظة شيء من النزعة التصنيفية في الفكر الأوروبي المعاصر في مبدأ (ترتيب العالم *jingshi*) في أواخر المينغ والچينغ، الذي احتل فيه التاريخ دورا مركزيا.

ومع ذلك، فلو كان هناك تطورات تاريخية متماثلة في الشرق والغرب، فإنها لم تتكشف بنفس الترتيب. وهذا هو أكثر ما يلفت الانتباه في أوائل فترة الچينغ التي شهدت هروبا من التجريد الفلسفي لعصر المينغ وعودة إلى دراسة النصوص عن قرب. وقد وصفها عالم الصينيات بنجامين إلمان *Elman* بأنها انتقال (من الفلسفة إلى فقه اللغة)، حيث ركز العلماء من جديد على البحث استنادا إلى الأدلة. وفي الوقت نفسه، فقدت (الكلاسيكيات) شيئا من عصمتها الثابتة حيث بدأ النقاد في معاملتها مثل أي نص تاريخي آخر. وقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في تصريح الفيلسوف والمؤرخ الأدبي

جانغ شويچنغ *Zhang Xuecheng* أن ‹الكلاسيكيات الست هي تاريخ› ـ بمعنى أنها كانت من إنشاء المؤسسات البيروقراطية للملوك الحكماء القدماء، وألفت لأغراض حكومية محددة، ولم تمثل خبرة هؤلاء الحكماء التي وثقت بالكتابة كحكمة خالدة؛ ولكن ‹نزع القداسة› الأشد تفصيلا لم يحدث إلا أواخر القرن التاسع عشر وبتأثير من التاريخية الألمانية. وهذه العملية تظهر في امتحانات الخدمة المدنية، التي تمثل دوما مؤشرا جيدا لمكانة المعرفة التاريخية في الصين: فبحلول عام 1800، كان يطلب من الطلاب أن يفكروا في تطور الكلاسيكيات القديمة كوثائق أُنشِئت تاريخيا.

ويمكن رؤية بعض هذه الظواهر في أماكن أخرى من شرق آسيا. فقد كانت كوريا تابعة وفية للصين إلى حد كبير منذ عهد التانغ، وكانت أسرة يي التي حكمت المملكة في شبه الجزيرة طوال خمسة قرون موالية بشكل خاص للمينغ، الذين ساعدوا في طرد الغزاة اليابانيين في عقد 1890. واعتمدت الملكية الكورية أيضا اعتمادا كبيرا على فئة الماندرين، وخاصة اليانغبان *yangban*، وهي طبقة وراثية من البيروقراطيين الكونفوشيين، وقد نضج شيء مشابه للأسلوب الصيني لكتابة التاريخ الرسمي بحلول نهاية القرن السادس عشر. ولكن هذه الأواصر بدأت في التلاشي حتى حين اتبع التعلم مسارا مشابها، وحدثت بعض النقلات باتجاه زعزعة مكانة الصين ‹المركزية› في العالم الجغرافي والتاريخي، وهو أمر يعد من تباشير القومية في القرن التاسع عشر. كان يي إيك *Yi Ik* (1681 ـ 1763)، وهو من دعاة ‹التعلم العملي *sirhak*›، سياسيا سابقا تحول إلى مفكر تاريخي، وقد دعا إلى دراسة التاريخ الكوري في حد ذاته. وقد قام تلميذ يي، آن چونغ بوك Bok ـ An Chong (1712 ـ 91) بتأليف أول تاريخ عام لكوريا، ‹تاريخ إجمالي للشرق *Tongsa Kangmok*› (1778)، ودعا بالمثل إلى استخدام دروس الماضي كأداة للإصلاح. ولكن هذا الاهتمام بالمنفعة لم يجعل من الحقيقة، بالمعنى الدقيق للكلمة، هدفه الأسمى حقا: فالأخلاق سوف تتفوق دائما على الأدلة.

بمعنى ما، فإن التحول ذاته الذي حدث في أوربا في القرن الثامن عشر من المعرفة اللغوية الإنسانية ذات التركيز الضيق إلى التكهنات العقلانية والتخمينية حول الماضي كان، في كل من الصين وكوريا، يجري في الاتجاه المعاكس تماما. فقد كان التركيز

في الكثير من هذا التعلم، كما هو الحال في أوروبا، على حل المشكلات الاجتماعية والسياسية. وكما هو الحال في أوروبا أيضا، اعتبر العديد من المفكرين الأشد أصالة أنفسهم علماء في مجالات أخرى غير التاريخ. ولكن السعي وراء الحقيقة الذي قام به علماء الأدلة (أو الكاوجنغ *Kaozheng*) في عصر الچينغ كان من شأنه أن يمهد الطريق في نهاية المطاف، قرب نهاية ذلك العصر، لظهور دعوات أكثر صراحةً وتأثرا بالغرب إلى 'تدوين تاريخ جديد'. فقد استمر الضغط الصيني على أهمية سعة الاطلاع في التطور حتى نهاية القرن الثامن عشر، وتزايد الاهتمام بجمع وتحليل النقوش على البرونز والحجر (لأن اكتشاف العظام والجرار والخيزران كمصادر كتابية لم يحدث بعد) كمكملات أو تصحيحات للنصوص المبجلة، بنحو يوازي بدقة أنشطة أكاديمية النقوش الفرنسية. إن رأي الكاوجنغ القائل بأن التعلم ينجز أفضل كمسعى جماعي، مع متابعة الأقران لنتائج كل باحث، قد دفع الممارسين إلى عدم النظر إلى أعمالهم الخاصة والأقدم كمجرد نصوص قائمة بذاتها بل كأدوات بحث. ثم إن الجهد المبذول لتسهيل توظيف التاريخ القياسي في هذا الصدد من خلال إضافة وسائل مساعدة بصرية مثل جداول الأحداث الرئيسية، يعد نسخة من استخدام الجداول والرسوم البيانية في الأعمال الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كجزء من التحول الأوسع نحو الثقافة الرسومية والمرئية التي تلت ظهور الطباعة.

وسط كل هذا النقد التاريخي، استمر نشاط الحفاظ على الأنواع الرسمية لتدوين التاريخ الصيني. فقد أمرت أسرة الچينغ بتجميع تاريخ المينغ في غضون عام من صعودهم، ولكن على عكس السرعة المطردة التي أنتج بها مؤرخو المينغ الأوائل كتاب اليوانشي *Yuanshi* الأقل شأناً، فقد أخذ مؤرخو الچينغ وقتهم في ذلك. حيث فُرغ من مسودة مؤقتة لتاريخ المينغ في أوائل القرن الثامن عشر، وأجرى الإمبراطور كانغشي *Kangshi* طويل العمر (م. 1661 ـ 1722)، الذي عد نفسه من الباحثين، مراجعات للعمل أثناء إنتاجه. وأدى إصراره على التعليق على كل مسودة متتابعة إلى إيقاف الكتابة وتسبب في تسميم الأجواء في ديوان التاريخ، الذي كان وضع التعيين فيه على أي حال يتدهور بسرعة حتى أصبح مأزقا. وقد استمر نمط التدخل هذا في عهد خلفاء كانغشي. وقد أصبحت الاستقلالية التي لطالما تمدح بها المؤرخ الرسمي

الصيني منذ العصور القديمة، وتم تحديها بالفعل في عصر المينغ، من بقايا الماضي تحت حكم خلفائهم المانشو.

على الرغم من هذا التعنت الإداري الزاحف في الإمبراطورية، ظل التاريخ مزدهرا. حيث رُوجِعَ عدد من التواريخ السابقة في ضوء قرنين من البحث الببليوغرافي والفيلولوجي: وهكذا جمع شاو جينهان *Shao Jinhan* (1743 ـ 96) المواد التي استطاع بفضلها تطهير تاريخ السونغ المعتمد من الأخطاء. وإضافة إلى ذلك، فقد ظهر عدد من الأنواع المهمة الأخرى للكتابة التاريخية خلال هذه الفترة. حيث قدّمت تواريخ المؤسسات، الذي كان ملحقا فيما مضى بالتواريخ المعتمدة وأعمال أخرى، ككتب مرجعية مستقلة. وكذلك استمر **الفانغجي** *fangzhi*، وهو ‹معجم جغرافي› محلي قائم من قبل ويعود تاريخه إلى عصر السونغ، في الانتشار. حيث سلم حتى اليوم ما يقرب من ألف فانغجي من عصر المينغ وخمسة آلاف فانغجي من عصر الچينغ؛ ورغم عدم وجود نظير دقيق لها في البلدان الأخرى، فإن تركيزها المحلي وتأكيدها مصادر متعددة يقبل المقارنة مع كتب التاريخ الطبيعي و‹مسوحات› المقاطعات في أوربا القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

نجد عند جانغ شويچنغ *Zhang Xuecheng* (1738 ـ 1801) بعض أوجه التشابه الوثيقة مع الفكر الأوربي المعاصر. لقد كتب جانغ الكثير عن العديد من الموضوعات المختلفة، بما في ذلك الطريقة الصحيحة لكتابة التاريخ المحلي، وتاريخ العائلة، والحاجة إلى الأسلوب المقروء والإيجاز في الكتابة التاريخية، وموضوع ‹الفضيلة في المؤرخ›، وحول معنى كلمة ‹مؤرخ› بحد ذاتها. وإلى الصفات الثلاثة التي اقترح ليو جيجي، الناقد في عصر التانغ (انظر أعلاه، ص 101)، أنه يجب أن يمتلكها المؤرخ، وهي المهارة الأدبية، وسعة الاطلاع، والبصيرة، أضاف جانغ النزاهة الأخلاقية كصفة رابعة. لقد ولدت العديد من مشاريعه ميتة، مثل التنقيح المقترح للتاريخ المعتمد لعصر السونغ، وفُقد قدر كبير مما كتب. ومع ذلك فإن ما بقي منها ـ بما في ذلك كتابه **المبادئ العامة للأدب والتاريخ** *Wenshi tongyi* ـ يحتوي على بعض الأفكار التاريخية الأكثر إثارة للاهتمام التي أنتجت في ظل تلك السلالة.

لقد دعا جانغ إلى **نقد الكتابات التاريخية**، وهي ببليوغرافيا تصنيفية ستستوعب ما هو أكثر من الأعمال التي تعتبر تدوينا للتاريخ بمعيار ضيق. ذلك أن معظم الأعمال الببليوغرافية ارتكبت خطأ هو افتراض أن التاريخ يمكن حصره بفئة أو أخرى، وكان هذا الجمود على التسميات الرسمية أمرا جافا وغير منتج. إن تحقيقات جانغ في تاريخ التاريخ تميز بشكل صارم بينه وبين مسجلي الوثائق، فالأول يملك صفة ‹الدائرة› والآخر صفة ‹المربع›. فوحده المتصف بالعبقرية والإدراك، المتوجه نحو المستقبل، يمكن أن يكون مؤرخا حقيقيا؛ أما مسجل الوثائق فهو تذكاريّ دؤوب في عمله، وحافظ مفيد للحقائق، متوجه نحو الماضي. ونحن نسمع في هذا شيئا من تمييز فولتير بين المؤرخ ومدون التاريخ *historien et historiographe*. يمكننا أن نرى في نظريات جانغ عن أصول الكتابة القديمة والانتقال من المرحلة الشفهية، وكذلك حركة الإنسان من عصر الحكماء والطقوس الشعرية إلى عصر الفلاسفة والتعبير الأميل إلى النثر، أوجه تشابه واضحة مع فكر ڤيكو السابق ذكره، الذي يماثله في كونه أكاديميا، فقيرا، ومهملا إلى حد كبير لفترة طويلة بعد وفاته. وبالنظر إلى الأمام، في فلسفة جانغ المنظمة حول تطور الحكمة الإنسانية بوصفها تشكلا للطاو *Dao* بفضل نشاط الحكماء المتعاقبين والحكام الحكماء ـ المكافئ عند جانغ ‹الأفذاذ تاريخ العالم› ـ فهناك ظلال لرجل غربي متأخر قليلاً، هو الألماني هيغل، وفكرته حول مسيرة التاريخ وصولا إلى وعي العقل لنفسه.

أما في اليابان المعاصرة، فقد كان مسار الكتابة التاريخية يختلف إلى حد ما. فمن القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، حكم المجلس العسكري الشوغوني أو ‹الباكوفو *bakufu*› الدولة فعليا نيابة عن إمبراطور صوري من خلال **الدايميو** *daimyo* (الوالي) الإقليمي أو أمراء الحرب، وهو نظام يوصف أحيانا ‹بالإقطاعي› بحسب النموذج الغربي للحكم العسكري في العصور الوسطى. وحيث إن الشوغونية اعترفت بأن كل سلطة تستمد في النهاية من الإمبراطور، كان من الممكن نظريا على الأقل أن يدعم المرء الباكوفو ويتشبث بالولاء للإمبراطور. خلال معظم هذه الحقبة، كانت اليابان معزولة عن كل التأثيرات الخارجية، وعُرّض المبشرون المسيحيون للاضطهاد أو الطرد. في أوائل عهد توكوغاوا، سيطرت الكونفوشية الجديدة على الحياة الفكرية

اليابانية، وحماها وعززها الباكوفو في اليابان. حيث استؤنف استخدام اللغة الصينية في الكتابة التاريخية بعد تجارب اليابان في العصور الوسطى مع الأعمال المحلية مثل *Rekishi monogatari*. واستند كتاب **الداي نيهون شي** ***Dai Nihon Shi*** على كتاب **الشيجي** لسيما چيان، حيث استهل مثله بحوليات الأباطرة، وخصص للشوغونات قسما خاصا من السير الذاتية. وقد ظلت الممارسة الصينية في تدوين التاريخ، المتمثلة بكتابة التقييمات النقدية للأباطرة، وتسجيل سقوط السلالات باعتباره تفككا لتفويض السماء، متضاربة مع ثقافة أجنبية لم تستطع تصور حدوث خرق في الخلافة الأسرية؛ حتى إن إصدار تقييمات للأباطرة بدا أمرا غير مناسب وطُهِّرَ من **الداي نيهون شي** خلال القرن الثامن عشر. وإضافة إلى ذلك، فإن المشاعر القومية التي رفضت فكرة التفوق الصيني، وهي خيط التُقِطَ في القرن المقبل، يمكن اكتشافها بالفعل في بعض أجزاء هذا العمل. ومع ذلك، فإن نهج الأدلة الصيني، أو ***Kǎozheng xue***، قد أثبت تأثيره العميق: فقد كان له نظير ياباني فيما عرف باسم ***koshogaku***.

كان هاياشي رازان *Hayashi Razan* (1583 ـ 1657)، وهو راهب بوذي سابق نال حظوة لدى الشوغون، شخصية بارزة في الأبحاث التي أسست أكاديمية الباكوفو الرسمية. ورغم أن اهتماماته لم تكن تاريخية في البداية، فقد كان التاريخ عنصرا أساسيا في الكونفوشية الجديدة، وقد أدركت الشوغون قيمة كل منهما. تأثر رازان بشكل خاص **بسجلات الربيع والخريف** (التي ظل يعتقد حتى ذلك الوقت أنها من عمل كونفوشيوس نفسه) وبتعليق من القرن الثاني عشر على **المرآة الشاملة** لسيما غوانغ أنجزه جو شي *Zhu Xi* (1130 ـ 1200)، الداعية المؤثر للكونفوشية الجديدة في عصر السونغ. في عام 1644، بدأ رازان في كتابة تاريخ جديد لليابان باللغة الصينية الكلاسيكية بناءً على طلب الشوغون. وقد انتقل رأي رازان المفضّل للتواريخ الوطنية الستة الأصلية ونماذجها الصينية كذلك إلى عمله الخاص، الذي كرر الروايات القديمة وترجم النصوص اليابانية إلى الصينية. لكنه أيضا تجشم عناء مقارنة التواريخ الوطنية الستة مع بعض مصادرها الصينية وسعى إلى التوفيق بين المفارقات التاريخية أو الأخطاء التي وجدها في كليهما.

أما في أوائل القرن الثامن عشر، فقد حاز التفكير التاريخي مكانة فكرية أعلى لدرجة

أن أوغيو سوراي *Ogyu Sorai* (1666 ـ 1728) استطاع أن يعلن بثقة أن التاريخ هو أعلى شكل من أشكال المعرفة العلمية. ومن بين معاصريه، يبرز آراي هاكوسيكي *Arai Hakuseki* (1657 ـ 1725) في كتابه **تأملات في التاريخ** *Tokushi Yoron* (1712)، وهي مجموعة من المحاضرات عن الماضي قصد بها أن تكون تعليمات نموذجية للشوغون، واستفادت من مجموعة متنوعة من المصادر. كان هاكوسيكي طفلا معجزة أتقن الكلاسيكيات الصينية عندما كان صغيراً للغاية، وشرع في مسيرة علمية شهدت ترقيه من رعاية داعم إلى داعم آخر، حتى وصل إلى منصب مدرس الشوغون المستقبلي إينوبو *Ienobu* (م. 1709 ـ 12). وحين وصل إينوبو أخيرا بنجاح لمنصب الشوغون، تمكن هاكوسيكي من تطبيق معرفته بالتاريخ على فن الحكم العملي.

استلهمت **تأملاته** من عمل صيني يعود لعصر السونغ، هو **المرآة الشاملة** لسيما غوانغ. وحيث إنه يعتبر كتابا مدرسيا في «الاستبداد الخيري»، فقد يقارن في هذا الصدد مع العديد من التواريخ الأوربية المكتوبة لخدمة المستنير المطلق. كان هاكوسيكي، وهو كونفوشي جديد ملتزم، متشككا بشدة في الأخطاء الواردة في تاريخ اليابان المبكر. وقد حل مسألة الأصول الإلهية للنظام الملكي عن طريق تجنبها ـ ليبدأ تاريخه بالقرن التاسع الميلادي. وحيث كان عليه أن يشير إلى العصور القديمة، فقد استخدم فن الاستنزال *euhemerism*، وهو تكتيك لم يعد الآن رائجا في الغرب، يمكن وفقا له تفسير أفعال الآلهة المفترضة ليس بوصفها أسطورة ولكن كأفعال حقيقية لرجال أحياء صُوّروا كآلهة في العصور اللاحقة، وذلك إلى حد كبير بسبب الأخطاء الإملائية وسوء فهم المصادر القديمة.

كانت المواقف المختلفة من مصداقية التقاليد ممكنة بالطبع. فقد آمن موتوئوري نوريناغا *Motoori Norinaga* (1730 ـ 1801) بالتفسير الحرفي لعصر الآلهة، على العكس من هاكوسيكي، واعتقد أن **الكوجيكي** نتاج لتقليد شفهي دقيق غير منقطع. وكان نوريناغا أحد دعاة مدرسة «التعليم الوطني *kokugaku*» الناشئة، التي رفضت الروايات المتأثرة بالصين عن الماضي لصالح السجل الأسبق المتمثل **بالكوجيكي**، والذي استعاد الآن بفضل عمل نوريناغا المبدع، **الكوجيكي ـ دن** *Kojiki ـ den* (تعليق على **الكوجيكي**)، الذي اكتمل في عام 1798، مكانة لم يتمتع بها منذ ألف عام.

ورفض الكونفوشية الجديدة عند علماء مثل أراي هاكوسيكي وقراءاتهم المجازية للأساطير المبكرة. فقد كتب حوالي عام 1757، «من سوء الفهم العظيم أن يعتقد المرء أنه إذا كان هناك شيء غير موجود في الحاضر، فإنه لم يكن موجودا في الماضي». وبوصفه طبيبا متمرسا وعالما مذهلا، فقد كان محقا في نقطة منطقية أساسية واحدة: أن عدم الدليل، في حد ذاته، ليس دليلا على العدم.

وقد عكس فكر نوريناغا أيضا الجهود الأوروبية لإضفاء العاطفة على دراسة الماضي، وهي حركة ستصل لنضجها في تدوين التاريخ الرومانسي أوائل القرن التاسع عشر. في بداية حياته المهنية، طور نوريناغا مفهوما قصد به أن يشرح ظاهرة واحدة من المشاعر الإنسانية. فلفظة *mono no aware* يمكن أن تترجم بشكل سطحي إلى ‹حزن الأشياء›، ولكن من الأدق القول إنها نظرية للتعاطف، تجمع بين الندم على عدم ثبات الأشياء والتقدير الجمالي حتى للجمال أو الفرح الذي لم يدم طويلا. وقد تطور هذا بشكل مثير للاهتمام في وقت مقارب لمحاولات الأوروبيين لفهم هذا الجانب من علم النفس البشري وإدخاله في كتاباتهم (فقد سعى هيوم صراحة إلى إثارة المشاعر في جمهوره، وخاصة قارئاته الإناث). من الناحية الفنية، فقد زود مفهوم *mono no aware* نوريناغا، وهو المعاصر الأكبر سنا للألمان شيلر وهيردر وغوته، بأداة لفهم جاذبية أعمال العصور الوسطى مثل *Genji monogatari* ـ فقد كان التركيز على الحب في هذه الأعمال يستقطب أقوى المشاعر الإنسانية، نظرا لأنثوية القلب في الأساس سواء عند الرجال أو النساء، حتى عندما تغطيها الفضائل الرجولية ظاهرا. وقد استخدم مثال الساموراي المخلص، المستعد للدفاع عن سيده حتى الموت: فمهما كان هذا الخادم مخلصا، ألن يندم في ساعته الأخيرة على فقدان زوجته وأطفاله، أو يحزن على الإطلاق لأنه لن يرى والديه مرة أخرى؟ وبحلول نهاية حياته، عندما اجتاحت اليابان سلسلة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية (بالإضافة إلى انفجار بركاني مشابه في تأثيره لزلزال لشبونة)، تطور تفكير نوريناغا إلى وجهة نظر مفادها أن الثقافة اليابانية القديمة تمثل الذروة في بلاده، التي بدأت بالانحدار منها تحت التأثير الصيني. وستستمر هذه القومية المحافظة في النمو في القرن ونصف القرن التاليين، وتسلم حتى بعد إعادة إدخال

الثقافة الغربية في أواخر القرن التاسع عشر، وبشكل أساسي من الرقعة الأورپية التي قادت عالم تدوين التاريخ في ذلك الوقت، ألمانيا.

الثورة، الرومانسية، والتاريخية

داخل أوروپا، بات التاريخ التقدمي الآن يرتدي زيه المتميز الذي يمكن للمنظرين العظام في القرن القادم تطويره أكثر. فقد مكن منظرو القرن الثامن عشر، مثل المرحليين، هذا الصنف من التاريخ من المضي قدما؛ لكنهم اعترفوا بأنه يمكن أن يتوقف في طريقه فجأة. وسيكون القرن التاسع عشر أقل استعدادا لإعطاء التاريخ التقدمي كثيرا من الخيارات في هذه الشأن، بنحو يمنحه في بعض الأحيان زخما شبه ميكانيكي ولا يمكن إيقافه (كما في الوضعية) أو مستعدا لمنح دفعة، بفضل السلطة والتعليم، لاستئناف التقدم في الأرجاء ‹المتخلفة› العنيدة من الكرة الأرضية. وفي الوقت نفسه، كان التاريخ المعتاد، وهو نوع أدبي سرعان ما أصبح تخصصا مهنيا، يمر بدوره ببعض التغير. وسيكون هذان الصنفان من التغيرات، وكذلك علاقتهما المتبادلة، هما الموضوع الرئيس في هذا الفصل وجزء كبير من الفصل الذي يليه.

في عام 1815، بدأ نصف الكرة الغربي في التعافي من التجارب المقلقة للثورة الفرنسية والحروب النايليونية. كانت النتيجة شبه الحتمية في العقود الأولى من ذلك القرن، على أنها لن تدوم، هي ثورة ثقافية ضد العقلانية السياسية والفكرية لعصر التنوير المتأخر، وتحديا للجمالية الكلاسيكية الجديدة السائدة في القرن الثامن عشر. وكان لانتقادات الراديكالية في عصر اليعاقبة (الثورة الفرنسية وما تلاها) التي ارتبطت بأمثال إدموند بيرك، من تبناها باعتزاز بين المحافظين الذين استذكروا النظام القديم *ancien régime* بشغف خلال عصر ناپليون وما تلاه، وأبرزهم جوزيف دو ميستر *Joseph de Maistre* (1753 ـ 1821) وفرانسوا رينيه، ڤيكونت شاتوبريان *Chateaubriand* (1768 ـ 1848). وكان ظهور ما نسميه الآن بدراسة القرون الوسطى *medievalism* جزءا لا يتجزأ من هذا المنظور الجديد، بوصفه إعادة تقييم إيجابية للقرون الفاصلة بين سقوط روما وعصر النهضة، والتوظيف الواعي لقيمها وجمالياتها في الفن والأدب. فبالنسبة للكاتب الرومانسي شاتوبريان، كانت إعادة التفكير في العصور الوسطى مرتبطة ارتباطا

وثيقا باستعادة روحانيتها. فقد وصف تجربة الدخول إلى كنيسة قوطية بعبارة: «بدت فرنسا القديمة وكأنها تنتعش بأسرها». وقد قام الروائيون مثل السير والتر سكوت (1771 ـ1832) بخلط التاريخ والخيال في حكاياتهم عن البطولة والنضال القتالي بنحو حقق لهم إشادة عامة كبيرة، وكثيرا ما اختاروا سياقات العصور الوسطى ومجدوا قيم الفروسية. وقد حوّل الفنانون المواقف التاريخية إلى لوحات، وأعادوا تخيل المشاهد الشهيرة من الماضي، حيث أثبتت موضوعات العصور الوسطى شعبيتها بشكل خاص. كانت لوحة بيترو روسي *Pietro Rossi* للفنان فرانشيسكو هايز *Hayez* من البندقية، والتي مثلت البداية الفعلية للرومانسية الإيطالية، مستوحاة من قراءة الفنان للسجلات القديمة وكتب التاريخ الحديثة، ولا سيما كتاب **تاريخ الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى** (1807 ـ 18) للمؤرخ السويسري جان شارل ليونارد دو سيسموندي *Sismondi* (1773 ـ 1842).

ولم يكن الولع بالقرون الوسطى حكرا على المحافظين حصريا. فقد جعل توماس كارلايل (1795 ـ 1881)، الذي ألف أيضا تاريخا عاطفيا للغاية للثورة الفرنسية، ولم يتحول بعد إلى الرجعي الذي اشتهر في حياته اللاحقة، من إعادة كتابة سجل الوقائع لجوسلين من بريكلوند *Jocelyn of Brakelond* (و. 1211) محورا لكتابه الرائج في التعليق الاجتماعي الذي حمل عنوان **الماضي والحاضر** (1843). وقد كتب السياسي المعتدل الفاشل بروسبير دي بارانتي *Prosper de Barante* تاريخا ناجحا للغاية لدوقات بورغندي (1824 ـ 6) على غرار أسلوب فرواسارت، في حين استهل الليبرالي أوغستان تييري *Augustin Thierry*، وهو عالم آثار متحمس ونصير ‹للأبحاث الجديدة›، تاريخه عن غزو النورمان لإنجلترا بإعلان أن احتفاظه بالتهجئة الأصلية لأسماء القرن الحادي عشر كان مسألة حقيقة تاريخية. وقد حرص مؤرخو إنجلترا على مدار القرن، سعيا منهم إلى تأكيد تراث جرماني باقٍ، على منح اهتمام متجدد لماضيهم الأنجلو سكسوني، وأعادوا إحياء محاولات القرن السابع عشر لإيجاد استمرارية في المؤسسات الإنجليزية رغم الفاصلة التي فرضها غزو النورمان.

كانت الفكرة الأساسية لفهم تدوين التاريخ الأوربي (والعالمي بنحو أعم) خلال الفترة من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين هي ‹التاريخية *historicism*›، المأخوذة عن المصطلح الألماني *Historismus*. وقد اكتسبت معاني

كثيرة بقدر معاني (التاريخ) نفسه؛ ربما كان أشهرها (وأقلها نفعا) هو ما ربطه الفيلسوف الحديث كارل پوپر (1902 ـ 94) بنظريات الشمولية والحتمية التاريخية التي كان لم يدركها إلا قلة من دعاتها في التيار الرئيس للتاريخ. لم يكن المؤرخ الألماني فريدريش ماينكه *Friedrich Meinecke* (1862 ـ 1954) هو من صاغ المصطلح في أوائل القرن العشرين، ولكنه اكتسب رواجا بفضل كتابه **نشأة التاريخية** *Die Entstehung des Historismus* (1936)، المعروف بالإنجليزية باسم *Historism*. كان ماينكه يشير بمصطلح (التاريخية) إلى نظرة تاريخية جرمانية بشكل خاص، رغم أنه أولى اهتماما بالأسلاف غير الألمانية لتلك الرؤية العالمية *Weltanschauung*، ومثل العديد من أبناء جيله، فقد كان يميل إلى عرض النهج الألماني باعتباره قابلا للتطبيق عالميا في الدراسات الغربية الحديثة. وبالقدر الذي يهمنا، فمن الأفضل أن نفهم التاريخية على أنها نظرة إلى الماضي تستند إلى جوانب معينة من فكر التنوير بينما ترفض جوانب أخرى. وقد خص ماينكه كتاب **تاريخ أوسنابروك** *History of Osnabrück* للفقيه يوستوس موزر *Justus Möser* (1720 ـ 1794) بالذكر، على سبيل المثال، نظرا لشعوره بتفرد المجتمع المحلي وتركيزه على الجوانب الاجتماعية والثقافية. وقد توقع إدراك هيردر للاختلافات الثقافية بين مختلف الشعوب، وكذلك سلامة الشعب، أيضا عددا من الاتجاهات القادمة في الفكر التاريخي الأوربي. وفي الواقع، فعلى الرغم من اعتياد رسم خط حاد بين عصر التنوير ونقيضه الرومانسي، فإن هناك استمرارية قوية بينهما خاصة في ألمانيا، حيث يطلق على فترة امتدت لقرن بأكمله من عام 1750 إلى عام 1850 اسم فترة الجسر *Sattelzeit*. وكما توضح دراسة حديثة قام بها فريدريك س. بايسر *Beiser*، فقد تطورت التاريخية ـ بنحو لائق ـ على مراحل عبر أعمال الكتاب من موزر وحتى ماكس ڤيبر في أوائل القرن العشرين.

لقد تبنت التاريخية تصورا عن الماضي يميز بين الثقافات والشعوب ويرى أن كلا منها ذات قيمة في حد ذاتها. وحيث كانت تفضل التفسير العضوي للتغيير والنمو (وتأثرت كثيرا بالعلوم الطبيعية في عصرها)، فقد زودت الحركة القومية لاحقا في القرن التاسع عشر بأساس نظري جديد يحل محل الأساطير القديمة التي فقدت مصداقيتها في الماضي. فقد باتت الحجج التاريخية حول الأصول القومية تعتمد

بدرجة أقل على الطروادیین والسكيثيين والأبطال الأسطوريين أو شبه التوراتيين مثل توبال، حفيد نوح، في إسبانيا، ولو كرموز للفضيلة النموذجية؛ حيث بات يمكن تصور مسيرة ماضي الأمة بأكملها على أنها عملية عضوية، طبيعية ويمكن التنبؤ بها تماما كازدهار أي نبات. فمن روح الشعب وشخصيته، كما قال المؤرخ والسياسي التشيكي فرانتيشك پالاكي *František Palacký*، ‹يولد تاريخ الأمة، كزهرة من بذرة وثمرة من زهرة›. وقد سهلت التاريخية أيضا من عملية الاستعانة بشخصيات تاريخية لا جدال فيها ويمكن من ثم أن تنسج حولها مجموعة جديدة من الأساطير. حيث ظلت بعض الصور الأدبية الموقرة ـ كصورة تاسيتوس للمحارب الجرماني الفاضل الحر ونظرائه الوطنيين المختلفين، من التشيك والسلوفاكية والدنمارك وما إلى ذلك ـ تلعب دورا كبيرا.

التاريخ في خدمة الأمم والشعوب

في الوقت نفسه، كان الماضي بمجمله يشكّل دولا وطنية جديدة ومواطنين كان ولاؤهم الأساسي يعود لأمتهم. وهذه هي الفترة التي اقترح فيها المؤرخون الجدد ظهور القومية ‹الحديثة›، بكل مظاهرها كالاحتفالات العامة بالبطولات الماضية، وبناء التماثيل وغيرها من أشكال ‹مواقع الذاكرة *lieux de mémoire* › وحتى ‹اختراع التقاليد› الصريح. ويمكن رؤيتها، بأكثر أشكالها حماسة، في كتابات القوميين من أمثال البريطاني إدوارد أغسطس فريمان *Edward Augustus Freeman* (1823 ـ 92)، أو البروفسور البرليني هاينريش فون ترايتشكه *Heinrich von Treitschke* (1834 ـ 96) المعروف ‹بطليعة الرايخ›، الذي كان كتابه متعدد الأجزاء لألمانيا في أوائل القرن التاسع عشر (1879 ـ 1894) قد قدم سردا تبجيليا لإنشاء الدولة البسماركية، وأشبه بنص رسمي معبر عن الطموحات الإمبراطورية الألمانية في نهاية القرن.

ثمة تغير ملحوظ حدث في اللهجة الفكرية خلال معظم أنحاء أوربا في أعقاب الحروب النابليونية، ووسط رد الفعل الرومانسي لعقلانية التنوير. فبغض النظر عن الاستثناءات الجوهرية مثل هيغل وكونت وماركس والبريطاني هنري توماس باكل (راجع الفصل اللاحق بخصوص كل منهم)، كان الاتجاه العام للفكر التاريخي في

العقود الأولى من القرن التاسع عشر بعيدا عن النظريات الكبرى وتاريخ العالم التأملي، وأميل نحو رواية الفرد والأمة البطولية ـ وهو أمر أقرب من تضييق النطاق الذي رأيناه في أواخر العصور الوسطى. فقد كان الأبطال الوطنيون من العهود البعيدة أو القريبة (مثل وليام تيل السويسري، وشارلمان الفرنسي، وألفريد ملك إنجلترا، وميخائيل الشجاع الروماني) يمثلون موضوعات تاريخية شهيرة. وكان هذا أمرا قابلا للتوفيق تماما مع مفهوم التاريخ الذي أكد أيضا الفاعلية الجماعية للأمة بأسرها، حيث بات الأبطال الآن يقدرون ليس بالنظر لإنجازاتهم فقط، ولكن لأنهم يجسدون الخصائص الوطنية والفضائل التي يجب الاحتفاء بها وغرسها في شباب الأمة.

كان المؤرخون الفرنسيون في أواسط القرن التاسع عشر، مثل فرانسوا غيزو *François Guizot* (1787 ـ 1874) وأدولف تيير *Adolphe Thiers* (1797 ـ 1877)، يفترضون ماضيا موحدا لبلدهم، في حين وجّه معاصرهم الأكثر راديكالية جول ميشليه *Jules Michelet* (1798 ـ 1874) أنظار القراء إلى تاريخ ‹عامة الشعب *Le peuple*› في عمل رائد بهذا العنوان نشر عام 1846. كان ميشليه رجل أدب متعدد الأوجه وعالم طبيعة لبعض الوقت. ورغم كونه ذا أسلوب أدبي لامع، فقد حافظ على مسافة أمان عن الخيال، وغالبا ما استخدم مفردات علمية، ليصف الدراسة التاريخية كنوع من العمليات الكيميائية التي تجري في وعي المؤرخ. وقد تضمنت روائعه التاريخية تاريخا ضخما لفرنسا اكتمل عام 1867 بعد ثلاثين عاما من الكدح، وسبعة مجلدات عن تاريخ الثورة الفرنسية. ورغم أنه كان رمزا وطنيا في عصره، فقد تراجعت سمعته في الجزء الأخير من القرن جراء عبادة الموضوعية وهيمنة التاريخ السياسي، كي يتم إحياؤها لاحقا في القرن العشرين عندما عادت الموجة نحو دراسة الثقافة والمجتمع.

كان لميشليه، من بين الرومانسيين الليبراليين في عصره، تأثير بعيد المدى، ولكن شأنه شأن فيكو (الذي قدمه لقراء القرن التاسع عشر) فإن تأثيره الأكبر لم يجئ وقته بعد. وللحداثة ديون عميقة نحوه: فقد جسّد مارك بلوخ مؤسس مدرسة الحوليات (انظر أدناه، ص 299ـ304) العديد من قيم ميشليه كمؤرخ، بينما أقر زميله لوسيان فيبر علنا بأنه مدين لسلفهما الميت منذ زمن طويل. ويمكن للعديد من تيارات تدوين التاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين أن ترجع جزءا على الأقل من نسبها إليه. فعلى

سبيل المثال، أعاد ميشليه تأكيد قيمة المصادر الشفهية، ليصبح بذلك أبا للتاريخ الشفهي الحديث، ولا يبدو أن احترامه له قد تعارض بأي حال مع شغفه بالوثائق القديمة.

ومع ذلك فقد كان للرومانسية نتائج أكثر فورية من إرث ميشليه في القرن العشرين. فمع أنها كانت في البداية حركة ثقافية نخبوية أو حتى رجعية تفضل الطبيعة على العقل وتعيد تقييم الفترات المهملة مثل العصور الوسطى، أثبتت الرومانسية أنها قابلة للتكيف في العقود اللاحقة لتصبح عقيدة لجيل لاحق من الثوريين الليبراليين، وكذلك للذين يروجون للقضايا القومية. فقد كانت المشاعر القومية نشطة لبعض الوقت، وقد احتفى بحروب الاستقلال المثالية مثل الثورة الهولندية في القرن السادس عشر ضد إسبانيا حتى أمثال فريدريش فون شيلر، الذي لم يكن معجبا بالتعصب أو التطرف، في تاريخ نُشر عام 1788. وقد قدمت الثورة الأمريكية مثالا أكثر حداثة للتحرر.

وهكذا فقد بات من الممكن للشعوب الخاضعة أن تبحث عن الإلهام للنضال في مثال آخر سوى الثورة الفرنسية، التي انحرفت عن مسارها إلى الإرهاب أولاً ثم إلى إمبراطورية مركزية مناهضة للقومية. حيث قدم تعبير هيردر عن الشعب والدور الحاسم للغة أساسا فكريا للمزيد من جهود إعادة الترتيب لحدود أوربا على طول الخطوط العرقية واللغوية خلال القرن والنصف التاليين. ستنشق من ثم دول قومية جديدة عن الإمبراطوريات الأوربية الغربية والعثمانية، مثل ‹رومانيا› (داقيا السابقة)، وهي وحدة سياسية يعكس اسمها روابط بعيدة مع الإمبراطورية الرومانية، أنشئت كي تشمل منطقة يسكنها أشخاص من أصل عرقي ولغة مشتركة، لكنها تحتضن الأقليات اللغوية أيضا.

كان هناك بالتأكيد مؤرخون بارزون في الممالك المنشأة حديثا مثل بلجيكا من قبل ولادتها السياسية. ومع ذلك، فقد فرض الاستقلال حاجة ملحة لتأسيس كل من شكل الماضي القومي والقدرة على التعبير عنه في شكل مكتوب أو مشيّد: فقد غرست النضالات الأخيرة من أجل الاستقلال في قصة رئيسة أطول تضمنت صراعات العصور الوسطى السابقة مع المضطهدين الخارجيين. وحتى تلك المناطق التي لم تحقق الاستقلال السياسي خلال تلك الفترة، مثل بوهيميا، ظلت تحتفل بهويتها المنفصلة

تحت مظلة ممالك هابسبورغ وتعتز بماضيها المميز. وكان من الصعب مقاومة الغواية القومية حتى عند أمثال پالاكي (1798 ـ 1876) الذين اعتقدوا أن التاريخ لا يمكن أن يكون خادما وبغيا في آن واحد. ولهذا النمط أشباهه في أماكن أخرى، بما في ذلك الدول ذات السكان المعقدين بفضل تعدد لغاتهم وأعراقهم مثل بلجيكا، وكذلك سويسرا كمثال على دول أقدم، التي أكد مؤرخوها استمرارية جمهوريتهم حتى عصر البطل الأسطوري ويليام تيل في العصور الوسطى.

ليس من النادر أن يتشكل شعور الناس بهويتهم التاريخية كاستجابة أو رد فعل على تصورات الغرباء. وقد تجلت المحاولة اليونانية لرفض الماضي العثماني والبيزنطي الأقرب وتأسيس دولتهم الجديدة على صلة مباشرة مع الهيلينيين الكلاسيكيين في اعتماد أسماء يونانية كلاسيكية للأطفال بدلا من أسماء المعمودية المسيحية التقليدية. وقد حشد الكتاب اليونانيون وعيهم التاريخي الجديد للتغلب على التحدي الذي واجه استمراريتهم التاريخية والذي اقترحه المؤرخ وعالم الإثنوغرافيا الألماني ياكوب فيليب فالمراير *Jakob Philipp Fallmerayer* (1790 ـ 1861)، الذي ادعى أن السكان اليونانيين المحدثين كانوا في الغالب من الشعوب السلافية منذ أوائل العصور الوسطى. وكان التاريخ الوطني الأول الذي كتبه سپيريدون زامبليوس *Spirídon Zambélios* (1815 ـ 1881) ردا عليه في عام 1852 قد بدأ كمقدمة من 600 صفحة لمجموعة من الأغاني الشعبية؛ وسرعان ما لحقه صدور عمل أصبح أساسا لتدوين التاريخ اليوناني الحديث، وهو كتاب قسطنطينوس پاپاريغوپولوس *Konstantinos Papparigopoulos* (1815 ـ 1891) **تاريخ الأمة اليونانية من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر**.

لم تكن القومية بالضرورة أمرا جيدا للتاريخ في جميع الظروف. فرغم أن المؤرخين ذوي التوجهات الوطنية مثل پالاكي لم يروا أي تناقض بين ترويجهم لأجندة سياسية وواجبهم تجاه «المهنة» الناشئة، كانت هناك نقاط صراع حتمية ـ أشار إليها تحذير پالاكي من جعل كليو (ربة التاريخ) بغيا ـ بين الإخلاص الصارم للأدلة والدافع نحو رواية سرد متماسك يؤكد استمرار الهوية الوطنية. وحالة هنغاريا (المجر) مناسبة لإيضاح التوترات بين بناء الأمة وكتابة التاريخ الدقيق، التي كانت أكثر حدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر حين أنشأ مؤرخون مثل إستڤان

هورڤات *Istvan Horvath* (1784 ـ 1846) ماضيا تاريخيا رائجا (وإن كان خياليا للغاية) للشعب المجري.

يمكن أن يكون التاريخ القومي ضيق الأفق بشكل غير عادي (وعلى الرغم من كل ميوله نحو الفلكلور والتقاليد الموروثة) أرستقراطيا في صوته ـ ألم تكن الأغلبية الساحقة من أبطال الماضي العظماء من النبلاء والملوك وليسوا رجالا عاديين؟ لقد ظلت بعض التواريخ المتأثرة القومية متشبثة بالأساطير العرقية القديمة والمؤسسين الوهميين لعصر مبكر. حيث استخدم فلكلوريون مثل النرويجي پيتر أندرياس مونش *Peter Andreas Munch* (1810 ـ 63) الماضي القديم لبلادهم لبناء تواريخ وطنية بطولية لم تكن موجودة من قبل. وقد صاغ المؤرخ السويدي إريك جوستاف غيّر *Eric Gustave Geijer* (1783 ـ 1847)، وهو قومي رومانسي أصبح أستاذاً في جامعة أوپسالا عام 1817، كتابه **تاريخ الشعب السويدي** ***Svenska folkets historia*** الذي أشاد بحفاظ بلاده على الحرية والاستقلال خلال فترة العصور الوسطى. وقد تحفز الوعي التاريخي في فنلندا بفضل مؤلفين من طراز الصحفي والمربي والروائي زكرياس توپيليوس *Zacharias Topelius* (1818 ـ 98)، وهو نظير فنلندي للسير والتر سكوت.

من بين أهم التركات التاريخية للقومية وأكثرها ديمومة نجد بعض المؤسسات التي ترتبط لدينا بالمنهج الحديث لدراسة التاريخ. كان هذا الجانب في كثير من الأحيان، وإن لم يكن دائما، يتمركز في الأكاديميات الوطنية وخاصة في الجامعات، التي استطاع تدوين التاريخ الأكاديمي فيها تدريجيا أن يهمش نمط كتابة التاريخ المرتبط بالنبلاء في أوقات فراغهم، وكذلك بالأساطير التأسيسية المشبوهة بشكل متزايد والأباطيل غير القابلة للتوثيق. فقد أنشأت رومانيا، التي نالت استقلالها عام 1877، أكاديمية وطنية بعيد ذلك بقليل، وأنشئت أقسام التاريخ في جامعاتها المنشأة حديثا. ثم إن التطلعات البولندية إلى الاستقلال والإصلاح السياسي تتجلى أيضا في الكم الهائل من المصادر المنشورة في أوائل القرن التاسع عشر، مثل تاريخ بولندا متعدد الأجزاء الذي كتبه يواخيم ليليڤل *Joachim Lelewel* (1786 ـ 1861)، وهو قومي شرس قضى العقود الثلاثة الأخيرة من حياته منفياً في فرنسا أو بلجيكا.

كان هذا لا يزال عصر الإمبراطوريات متعددة الجنسيات، وليس الدول القومية فقط، ولا ينبغي افتراض أن هذه الأخيرة كانت أكثر تعددية وأقل قمعا من الأولى؛ بل إن الأقليات العرقية واللغوية تمتعت في الواقع بحماية وحريات أكبر بكثير داخل الامتداد الواسع لـ (بعض) الإمبراطوريات في كثير من الأحيان، بإزاء ما واجهته في النطاق الضيق لأمة جديدة تكافح من أجل تحقيق التجانس الطموح في الوقت الحاضر، المبني على إعادة كتابة مشكوك فيها للماضي. ولكن كلتا الحالتين لم تخل من استثناءات. فليس من المستغرب أن تستثنى الأقليات العرقية من كتابة الماضي القومي في روايات كتبها مؤرخون روس، پولنديون، أو ألمان، أو تندرج ببساطة في الروايات الوطنية للدول الأكبر، كما هو الحال مع العديد من السكان التابعين لروسيا، والأوكرانيين بالأخص. سنتناول في الفصل التالي بشكل أكثر وضوحا علاقات الإمبراطوريات بالأطراف، وعلاقات التواريخ السائدة مع التابعة، ولكن من المهم هنا أن نلاحظ أن نفس الحراك الذي يمكن ملاحظته بين الغرب وسائر العالم كان قد ظهر بالفعل في تعامل الدول الأورپية الكبرى مع رعاياها من الأقليات.

غالبا ما أدت إعادة رسم الخرائط إلى مسارات متباينة في تفسير الماضي. ففي أمريكا الشمالية البريطانية، انفصلت المستعمرات تاريخيا وكذلك سياسيا بعد الثورة الأمريكية. أما المستعمرات الشمالية ـ التي استحالت في النهاية إلى كندا ـ فقد ظلت ثابتة داخل المدار الإمبراطوري البريطاني (على الرغم من وجود أغلبية كاثوليكية فرنكوفونية مميزة داخل مقاطعة كيبيك المستقبلية). أما في الجنوب، فقد أُنشِئ بالفعل نمط أولي لتدوين التاريخ القومي في كتابات الحقبة الاستعمارية التي اعترفت بمكانة المستعمرات في الإمبراطورية، ولكنها احتفلت أيضا بجوانب تميز العالم الجديد. حيث برز تدوين التاريخ القومي الأمريكي بسرعة كبيرة بعد الاستقلال عن بريطانيا، حيث قصّ لنا مؤرخو الجمهورية الأوائل مثل ميرسي أوتيس وارين وديفيد رامزي *David Ramsay* (1749 ـ 1815) ظهور الولايات المتحدة كدولة حرة مبنية على القيم الديمقراطية. وقد ساعد واشنطن إيرڤنغ *Washington Irving* (1783 ـ 1859) وكتّاب سير آخرين لشخصيات بارزة مثل جورج واشنطن في إنشاء مجموعة من الأبطال القوميين على غرار أولئك الذين تم إنشاؤهم أو إحياؤهم في أورپا. وقد قلد روائيون

تاريخيون مثل جيمس فينيمور كوپر *James Fenimore Cooper* (1789 ـ 1851) السير والتر سكوت في خلق رؤية بطولية رومانسية للغاية للماضي.

كان كل من التاريخ الأمريكي والعالمي يتمتع بشعبية كبيرة بين القراء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، لكن كتاباتهم ظلت مجالا للسادة المرفهين (مع بعض النساء المتناثرات مثل وارين) أو الصحفيين. ولدينا مثالان شهيران، عانى كلاهما من ضعف البصر الشديد خلال معظم حياتهما المهنية، هما ويليام هيكلنغ پريسكوت *William Hickling Prescott* (1796 ـ 1859) راوية الفتوحات الإسبانية، وفرانسيس پاركمان *Francis Parkman* (1823 ـ 1893) مؤرخ الولايات الغربية. كان كلاهما عضوا في نخبة مثقفة شمال ـ شرقية (يقع مركزها في بوسطن ونيويورك) تضمنت أيضا جون لوثروپ موتلي *John Lothrop Motley* (1814 ـ 1877) الذي تدرب في غوتنغن، وأصبح مؤرخا للجمهورية الهولندية ووزيرا مفوضا للولايات المتحدة في النمسا، وشخصيات أدبية من أمثال كوپر وإيرڤنغ. وعلى الصعيد الدولي، كان المؤرخ الأمريكي الأوسع شهرة عضوا آخر من 'براهمة بوسطن'، هو جورج بانكروفت *George Bancroft* (1800 ـ 91)، الأستاذ السابق في جامعة هارفارد الذي تحول إلى دبلوماسي، وأحد الأميركيين الأوائل الذين حصلوا على درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات الألمانية، وهو اتجاه كان من شأنه التزايد في النصف الثاني من ذلك القرن.

ربما لم يكن دور التاريخ في إنشاء دول جديدة أوضح في أي مكان مما كان عليه الوضع في مناطق أميركا الجنوبية، حيث تحررت معظم أجزاءها القارية من الحكم الأوربي المباشر بحلول منتصف القرن وسط حروب الاستقلال العديدة والصراعات الداخلية اللاحقة. وقد لعبت تواريخ عصر التنوير، مثل كتاب ويليام روبرتسون، دورا في تعزيز القيم التقدمية ـ فقد كان كتاب راينال **تاريخ جزر الهند**، وهو نقد مبكر للعبودية، مؤثرا بشكل ملحوظ في تمرد هايتي الناجح ضد فرنسا. ولكن لو كان من الممكن أن تزود التواريخ القديمة المتمردين بالإيديولوجيا، فإنها لم توفر أساسا كافيا لبناء دول جديدة تماما.

ففي جميع أرجاء أمريكا اللاتينية، شجعت القيم الليبرالية لعصر التنوير المتأخر

على كتابة تواريخ جديدة خلال القرن التاسع عشر، أولاً في أعمال المؤرخين الدستوريين الذين ركزوا على المؤسسات القانونية الأوربية الموروثة التي كانت تقف وراء الاستقلال، وثانيا في نوع أكثر استقلالية ورومانسية من الكتابة التي شددت بدلاً من ذلك، على غرار هيردر وميشليه، على أهمية روح الشعب في إنشاء مجتمعات جديدة حيوية في عصر ما بعد الاستعمار. كانت هناك جمعية أدبية تشيلية في منتصف القرن تعقد اجتماعات منتظمة تُقرَأ فيها مختارات من هيردر ومؤرخين آخرين من القرن الثامن عشر. وقد وظف المؤرخون الأوربيون بشكل كبير في مهمة تأليف الكتب المناسبة لأطفال المدارس، وهي مهمة شديدة التسييس. وقد وجه المؤرخ التشيلي الليبرالي والمناهض للكنيسة دييغو باروس أرانا *Diego Barros Arana* (1830 ـ 1907)، الذي ناقش اختيارات الكتب المدرسية في عقد 1850، انتقاده لأحد تلك الكتب لأنها سرقت فقرات كاملة من روبرتسون. أما اللجنة التي كان باروس أرانا عضوا فيها فقد استقرت في النهاية على اختيار آمن لعمل فرنسي، هو كتاب ڤيكتور دوروي *Victor Duruy* (1811 ـ 1894) **مسار للتاريخ العالمي**، كي يشغل دور كتاب مدرسي عام، ليكمله من ثم كتاب باروس أرانا شخصيا الخلاصة الوافية للتاريخ الأمريكي (1865) الذي نشر في مجلدين.

الخلاصة

إن الفترة بين عام 1700 وأواسط القرن التاسع عشر تمثل انتقالة مهمة أخرى في التاريخ الحديث للتاريخ، ونقطة التقاء يبدأ عندها عدد من التيارات الفكرية التي كنا نتتبعها طوال عدة قرون بالاندماج. ومن التقائها، الذي تحقق بالكامل في أوائل القرن العشرين، انبثقت معظم الموضوعات التي لا تزال، ولو بطرق مختلفة، تشغل بال المؤرخين اليوم. وبغض النظر عن تأسيس التاريخ بشكل نهائي كملك للعلوم الإنسانية، فقد طور عصر التنوير المفاهيم القائلة بأن التاريخ ككل يتمتع بنمط ومعنى معا، وأن المجتمع والأعراف والظروف الاقتصادية مواضيع مشروعة للوصف التاريخي، وأن المقارنات بين الشعوب وأنظمة الفكر يمكن أن تولد حقائق عالمية. وقد ساهمت الحركة الرومانسية التي تلت ذلك، والتي تفاعلت من نواحٍ

عديدة مع عقلانية القرن الثامن عشر، في إحياء الانتباه إلى الفاعلية التاريخية للفرد والاستعداد لإعادة تقييم العصور التي كانت مهملة من قبل كالعصور الوسطى؛ لكن شكوك عصر التنوير في المسلّمات القديمة كالمؤسسين الذين منحوا المدن أسماءها، وسلاسل النسب الأسطورية، جعل إعادة تخيلها رومانسيا تبدو خيالية وبلاغية بشكل أشد وضوحا. لم تقتصر هذه الشكوك على أوربا، كما تشير كتابات بعض المؤلفين اليابانيين والصينيين المذكورين أعلاه، وقد شهدت هذه الفترة أيضا زيادة في الألفة بين الثقافات الآسيوية والأوربية. وبذلك مهد الطريق للتطور الذي قد يعد الأكثر أهمية في مائة العام القادمة، أي انتشار التاريخ الغربي إلى معظم بقية العالم، بالقوة أحيانا، ولكن غالبا عن طريق الدعوة.

أسئلة للمناقشة

1. ما هي الخصائص الكبرى لتدوين التاريخ في عصر التنوير؟ وكيف كانت تختلف بين جزء وآخر في أوربا؟
2. لماذا سلط مفكرو القرن الثامن عشر تركيزا شديد المدى على فكرة التقدم البشري؟ وكيف استعانوا بالتاريخ لدعم حججهم؟ وأي دور لعبت اكتشافات العالم الجديد (التي نوقشت في الفصل السابق) في تصورهم الإجمالي لمسار التاريخ؟
3. هل مثلت الثورة الفرنسية ورد الفعل عليها قطيعة مع أفكار عصر التنوير حول التاريخ؟
4. بأي أنحاء كان الفكر والكتابة التاريخية في شرق آسيا خلال القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يشابهان نظيرهما في أوربا ومستعمراتها؟ وبأي أنحاء اختلفا؟
5. ما هي المعالم الرئيسة للرومانسية؟ ماذا عن التاريخية؟ وهل هما مختلفتان؟
6. بأي أنحاء أثبت التاريخ نفعه في خلق أمم جديدة، وتكوين ما سماه الباحث الراحل بنديكت آرنولد (بالجماعات المتخيلة)؟ وهل اختلف ذلك بين أوربا والأميركتين؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Burns, Robert M. and Hugh Rayment _ Pickard (eds), *Philosophies of History: From Enlightenment to Post _ Modernity* (Oxford, 2000)
- Miller, Peter N. and François Louis (eds), *Antiquarianism and Intellectual Life in Europe and China, 1500 _ 1800* (Ann Arbor, MI, 2012)
- Phillips, Mark Salber, *On Historical Distance* (New Haven, CT, 2013)
- Rabasa, Jose, Masayuki Sato, Edoardo Tortarolo and Daniel Woolf (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 3: 1400 _ 1800* (Oxford, 2011)
- Trevor _ Roper, Hugh, *History and the Enlightenment* (New Haven, CT and London, 2010)

الثقافة التاريخية الأوربية في القرن الثامن عشر

- Cañizares _ Esguerra, Jorge, *How to Write the History of the New World: Histories, Epistemologies and Identities in the Eighteenth _ Century Atlantic World* (Stanford, CA, 2001)
- Davies, Kate, *Catharine Macaulay and Mercy Otis Warren: The Revolutionary Atlantic and the Politics of Gender* (Oxford, 2005)
- Davis, Natalie Zemon, 'Gender and Genre: Women as Historical Writers, 1400 _ 1820', in Patricia H. Labalme (ed.), *Beyond their Sex: Learned Women of the European Past* (New York, 1980), 153 _ 82
- Looser, Devoney, *British Women Writers and the Writing of History, 1670 _ 1820* (Baltimore, MD, 2000)
- Pocock, J. G. A., *Barbarism and Religion*, 6 vols (Cambridge, 1999 _ 2015)
- Wolloch, Nathaniel, *History and Nature in the Enlightenment: Praise*

of the Mastery of Nature in Eighteenth – Century Historical Literature (Farnham, UK and Burlington, VT, 2011)

التاريخ الفلسفي، التخمين، والمرحلية

- Kidd, Colin, *Subverting Scotland's Past: Scottish Whig Historians and the Creation of an Anglo – British Identity, c. 1689 – 1830* (Cambridge, 1993)
- Miller, Cecilia, *Giambattista Vico: Imagination and Historical Knowledge* (Basingstoke and New York, 1993)
- Phillips, Mark Salber, *Society and Sentiment: Genres of Historical Writing in Britain, 1740 – 1820* (Princeton, NJ, 2000)
- Phillipson, Nicholas, *David Hume: The Philosopher as Historian* (New Haven, CT, 2012)
- Pittock, Murray, 'Historiography', in Alexander Broadie (ed.), *The Cambridge Companion to the Scottish Enlightenment* (Cambridge, 2003), 258 – 79
- Pompa, Leon, *Vico: A Study of the 'New Science'*, 2nd edn (Cambridge, 1990)
- Smitten, Jeffrey R., *The Life of William Robertson: Minister, Historian and Principal* (Edinburgh, 2017)
- Verene, Donald Phillip, *Vico's Science of Imagination* (Ithaca, NY, 1981)
- Womersley, David, *The Transformation of 'The Decline and Fall of the Roman Empire'* (Cambridge, 1988)

الفكر التاريخي في حركة التنوير الفرنسية: فولتير، كوندورسيه، وروسو

- Gearhart, Suzanne, *The Open Boundary of History and Fiction: A Critical Approach to the French Enlightenment* (Princeton, NJ, 1984)

- Manuel, Frank E., *The Prophets of Paris: Turgot, Condorcet, Saint – Simon, Fourier, and Comte* (New York, 1965)
- O'Brien, Karen, *Narratives of Enlightenment: Cosmopolitan History from Voltaire to Gibbon* (Cambridge, 1997)
- Pierse, Siofra, *Voltaire Historiographer: Narrative Paradigms* (Oxford, 2008)

حركة التنوير الألمانية

- Beiser, Frederick C., *The German Historicist Tradition* (Oxford, 2011)
- Berlin, Isaiah, *Three Critics of the Enlightenment: Vico, Hamann, Herder*, ed. H. Hardy, 2nd edn (Princeton, NJ, 2013)
- Iggers, Georg G., *The German Conception of History: The National Tradition of Historical Thought from Herder to the Present*, rev. edn (Middletown, CT, 1983)
- Mah, Harold, 'German Historical Thought in the Age of Herder, Kant, and Hegel', in Lloyd Kramer and Sarah Maza (eds), *A Companion to Western Historical Thought* (Oxford, 2002), 143 – 65
- Reill, Peter Hanns, *The German Enlightenment and the Rise of Historicism* (Berkeley, CA, 1975)

حركات التنوير في شرق آسيا

- Brownlee, John S., *Japanese Historians and the National Myths, 1600 – 1945: The Age of the Gods and Emperor Jinmu* (Vancouver and Tokyo, 1997)
- Crossley, Pamela Kyle, *A Translucent Mirror: History and Identity in Qing Imperial Ideology* (Berkeley, CA, 1999)
- Elman, Benjamin A., *From Philosophy to Philology: Intellectual and Social Aspects of Change in Late Imperial China* (Cambridge, MA, 1984)

- Matsumoto, Shigeru, *Motoori Norinaga*, 1730 – 1801 (Cambridge, 1970)
- Nakai, Kate Wildman, *Shogunal Politics: Arai Hakuseki and the Premises of Tokugawa Rule* (Cambridge, 1988)
- Nivison, David S., *The Life and Thought of Chang Hsüeh – ch'eng* (1738 – 1801) (Stanford, CA, 1966)

الثورة، الرومانسية، والتاريخية

- Armenteros, Carolina, *The French Idea of History: Joseph de Maistre and His Heirs, 1794 – 1854* (Ithaca, NY, 2011)
- Bann, Stephen, *Romanticism and the Rise of History* (New York, 1995)
- Crossley, Ceri, *French Historians and Romanticism: Thierry, Guizot, the Saint – Simonians, Quinet, Michelet* (London and New York, 1993)
- Flitter, Derek, *Spanish Romanticism and the Uses of History: Ideology and the Historical Imagination* (London, 2006)
- Heffernan, James A. W. (ed.), *Representing the French Revolution: Literature, Historiography, and Art* (Hanover, NH, 1992)
- Iggers, Georg G., 'Historicism: The History and Meaning of the Term', *Journal of the History of Ideas* 56.1 (1995): 129 – 52
- Meinecke, Friedrich, *Historism: The Rise of a New Historical Outlook*, trans. J. E. Anderson, 2nd edn (trans. rev. H. D. Schmidt) (London, 1972)
- Mitzman, Arthur, *Michelet, Historian: Rebirth and Romanticism in Nineteenth – Century France* (New Haven, CT and London, 1990)
- Rearick, Charles, *Beyond the Enlightenment: Historians and Folklore in Nineteenth – Century France* (Bloomington, IN and London, 1974)
- Rigney, Ann, *Imperfect Histories: The Elusive Past and the Legacy of Romantic Historicism* (Ithaca, NY and London, 2003)

التاريخ في خدمة الأمم والشعوب

- Berger, Stefan with Christoph Conrad, *The Past as History: National Identity and Historical Consciousness in Modern Europe* (Basingstoke and New York, 2015)
- Berger, Stefan, *Mark Donovan and Kevin Passmore (eds), Writing National Histories: Western Europe Since 1800* (London, 1999)
- Berger, Stefan and Chris Lorenz (eds), *Nationalizing the Past: Historians as Nation Builders in Modern Europe* (Basingstoke and New York, 2010)
- Brading, D. A., *The First America: The Spanish Monarchy, Creole Patriots and the Liberal State, 1492 _ 1867* (Cambridge, 1991)
- Cheng, Eileen Ka _ May, *The Plain and Noble Garb of Truth: Nationalism and Impartiality in American Historical Writing, 1784 _ 1860* (Athens, GA, 2008)
- Crane, Susan A., *Collecting and Historical Consciousness in Early Nineteenth _ Century Germany* (Ithaca, NY, 2000)
- Furtado, Peter (ed.), *Histories of Nations: How their Identities were Forged* (London, 2012)
- Tollebeek, Jo, 'Historical Representation and the Nation _ State in Romantic Belgium (1830 _ 1850)', *Journal of the History of Ideas* 59.2 (1998): 329 _ 53
- Zimmer, Oliver, *A Contested Nation: History, Memory and Nationalism in Switzerland, 1761 _ 1891* (Cambridge, 2003)

1801	عبد الرحمن الجبرتي يكمل كتابه **مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**
1811 ـ 12	نشر أول مجلدين من **التاريخ الروماني** لبارتولد غيورغ نيبور (أما المجلد الثالث فنشر بعد وفاته عام 1832)
1817	نشر **تاريخ الهند البريطانية** لجيمس ميل
1824	نشر **تاريخ الأمم اللاتينية والتيوتونية من 1494 إلى 1514** لليوبولد فون رانكه
1830 ـ 42	نشر **مساق في الفلسفة الوضعية** لأوغست كونت
1837	نشر **محاضرات حول فلسفة تاريخ العالم** لـ غ.ف.ف. هيغل بعد وفاته
1852	نشر **الثامن عشر من بروميير لويس نابليون** لكارل ماركس
1858	نشر **سرد لمبادئ التاريخ** ليوهان غوستاف درويسن
1858	تأسيس **المجلة التاريخية**
1860	نشر **حضارة عصر النهضة في إيطاليا** لياكوب بوركهارت
1874	فريدريش نيتشه يكتب **حول منافع التاريخ ومضاره للحياة**
1875	كتاب **معالم لنظرية الحضارة** لفوكوزاوا يوكيتشي يستعين بشكل واسع بالكتابات الأوربية الغربية
1883	نشر كتاب **مقدمة إلى العلوم الإنسانية** لفيلهلم ديلتي
عقد 1890	يشعل كارل لامبريخت، بدعوته إلى توجه متداخل إلى التاريخ أو تاريخ ثقافي، نزاع المناهج بين المؤرخين الألمان
1892	قضية كومي، وهي الأولى بين عدة مواقف تتضمن باحثين تاريخيين يشككون في التقاليد الوطنية اليابانية
1897	صمويل جونسون يؤلف **تاريخ اليوروبا منذ أقدم العصور حتى بداية الحماية البريطانية**؛ نشر شارل لانغلوا وشارل سينوبوس كتابهما **مقدمة إلى الدراسات التاريخية** باللغة الفرنسية
1902	نشر ليانغ جيشاو كتابه **تدوين التاريخ الجديد**
1917	نشر كتاب **نظرية وتاريخ تدوين التاريخ** لبنديتو كروتشه
1919	الهند تؤسس **لجنة السجلات التاريخية**

1928	خه بينغ سونغ ينشر ترجمة صينية للانغلوا وسينوبوس
1932 ـ 5	كارل بيكر وتشارلز أ. بيرد يروجان «للنسبية» التاريخية في مجلة المراجعة التاريخية الأميركية
1942	نشر **لمحات من تاريخ العالم** لجواهر لال نهرو
1942	انتخاب نيلي نيلسون رئيسة للجمعية التاريخية الأميركية، لتصبح الرئيسة الأولى والوحيدة بين عام 1884 و1987
1946	نشر كتاب **فكرة التاريخ** لـ ر.ج. كولينغوود

الفصل الخامس

إخضاع الماضي لمنهج: التخصصية، الإمبريالية، والعلم، 1830 ـ 1945 استعراض تقديمي

إذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر في الغرب يتميز بالكتابة التاريخية الأدبية في سياق رومانسي وقومي، فقد يتميز النصف الثاني بالنمو السريع لما يمكن تسميته بشكل فضفاض (بالتاريخ المحترف). ورغم أن هذا بدوره كانت له جوانب قومية أيضا، لكنه لم يرتبط (بالأمة) بالمعنى العرقي أو اللغوي فحسب، بل بظهور (الدولة القومية) الحديثة وأجهزتها السياسية البيروقراطية أيضا. ففي فرنسا، على سبيل المثال، روجت الجمهورية الثالثة الوليدة (1870 ـ 1940) نسختها من القومية الفرنسية من خلال مؤرخين شبه رسميين مثل إرنست لاڤيس *Ernest Lavisse* (1842 ـ 1922)، وهو مؤلف كتاب مدرسي مؤثر. وتقدم إيطاليا مثالاً على العلاقة المتطورة (وكذلك التوتر غير المتقطع) بين القومية والاحتراف. فقد شجع النظام الجديد الكتابة التاريخية وعزز علم أصول التدريس، مثلما مهد المؤرخون المشهورون أنفسهم، في وقت سابق من القرن، الطريق لحركة التوحيد الوطنية *Risorgimento*. أما قبل ذلك فقد كان التاريخ يتمتع بدور هامشي في أفضل الأحوال في الجامعات الإيطالية، مع وجود كراسي من التاريخ في قلة مختارة منها فقط مثل پاڤيا وتورينو. وقد تغير هذا في ستينيات القرن التاسع عشر حيث أُنشِئت مناصب أستاذية وعُيّن شاغلوها مباشرة من قبل وزير التعليم العام. ولكن في نظر العديد من المؤرخين الأكثر نفوذاً في الجزء الأخير من القرن، كانت الوطنية المتشددة في العقود السابقة بحاجة الآن إلى أن تفسح المجال لتوجه أكثر منهجية (علمية)، تجسد في علماء مهمين مثل پاسكوالي ڤيلاري

Pasquale Villari (1827 ـ 1917). وقد شددوا على أهمية البحث في حقائق الماضي الإيطالي؛ فلم يعد الغرض الأساسي من تدوين التاريخ عندهم هو الترويج الصريح للأجندة القومية، رغم أن التاريخ السياسي ظل موضوع البحث المهيمن بشكل ساحق.

خلال العقود الوسطى والمتأخرة من القرن، وفي أعقاب موجة أخرى من الثورات في عام 1848 والإمبراطورية النابليونية الثانية، أعادت الليبرالية الرومانسية للاستقلال الوطني والحركات الموحدة تشكيل نفسها في كثير من أرجاء أوربا إلى نظام محافظ مؤسسي كرس نفسه مجددا للحفاظ على الاستقرار الاجتماعي وترسيخه. وقد أشير إلى التغييرات بفضل عدد من التطورات (كان العديد منها خارج نطاق «المنهج» الأكاديمي الناشئ للتاريخ) كالنمو الكبير في الفصول المختصة التي أوجدت سوقا للتاريخ، وكادر من الأساتذة والمعلمين في المدارس لتعليمه، وتوفير كتب مدرسية جاهزة لهم لاستخدامها ـ حيث دأبت الصور البطولية على بث الحياة فيها ـ وكذلك موظفي خدمة مدنية يعملون لتطبيق دروسه والمهارات الأساسية التي قدمتها دراسته. لقد جعلت التغييرات التكنولوجية مثل الطباعة الآلية الكتب ميسورة التكلفة إلى حد كبير لجمهور عريض، كان يعتمد في السابق على المنشورات المتتابعة أو المكتبات العامة.

من بين التغييرات الأكثر أهمية، التي أثرت بشكل خاص في المهنة التاريخية الناشئة، يجب على المرء أن يلاحظ ما يلي بنحو خاص: دعم الدولة للنشاط التاريخي، بما في ذلك برامج النشر الخاصة؛ توسع الأنظمة الجامعية وتحول العديد منها بحلول نهاية القرن إلى تدريب رسمي على البحث التاريخي؛ إضافة مكون البحث إلى اكتساب لقب الدكتوراه المكتسبة؛ تنظيم أنظمة السجلات العامة؛ ظهور جمعيات مهنية جديدة، مصحوبة في كثير من الأحيان بنمط جديد من الدوريات أو المجلات العلمية الخاضعة لتحكيم الأقران؛ الاستمرار في نشر الوثائق الأرشيفية، التي غالبا ما تكون تحت رعاية الحكومة (كما في حالة الدعم البروسي للباحث جورج پيرتز ونشره الواسع لوثائق ونصوص العصور الوسطى، في مجموعة *Monumenta Germaniae Historica*) وبمعايير صارمة للدقة بنحو متزايد؛ وأخيراً، التقارب المنهجي لمهارات المعرفة التي نضجت على مدى القرون الثلاثة الماضية (علم الخطاطة *paleography*،

علم الوثائق *diplomatic*، علم العملات *numismatics*، وعلم النقوش *epigraphy*) ضمن علم تاريخي شامل (*Geschichtswissenschaft*).

لم يكن الارتباط بين التاريخ والعلم محض مصادفة. فبعد ثورة أخرى، هي الثورة الصناعية والاقتصادية التي استشعرت بريطانيا وأمريكا آثارها بشكل حاد للغاية، سيشهد هذا القرن خطوات هائلة في العلوم والتكنولوجيا وتفاؤلا هائلا بقدرة الإنسانية المتحضرة على تحسين العالم. كان للتصنيع والميكنة نقاد على طرفي الطيف الأيديولوجي، سواء من المحافظين الذين لم يعجبهم تفكك المجتمع والقيم الزراعية القديمة، أو من منظرين اجتماعيين راديكاليين مثل ماركس، الذي تبنى وجهة نظر مادية للتاريخ لشرح صعود الرأسمالية وتناقضاتها الداخلية، والتنبؤ من ثم بسقوطها النهائي. وبالنسبة للمتدينين، سرعان ما واجهت العودة إلى قيم المسيحية بعد عام 1815 تحديات جديدة، مثل كتاب **حياة يسوع** (1835) المثير للجدل لديڤيد فريدريش شتراوس *David Friedrich Strauss* (1808 ـ 74)، الذي أزال الهالة عن المسيح وتحدى الاعتقاد بألوهيته. وقد ظلت مناهضة الكنيسة جذابة في نظر بعض المؤرخين ـ فقد انضم ميشليه ومعاونه إدغار كينيه *Edgar Quinet* (1803 ـ 75) إلى النقاد الليبراليين للكنيسة في عقدي 1830 و1840، واستهدفوا اليسوعيين باعتبارهم تأثيرا خبيثا بنحو خاص. وقد اشتهر ماركس بالسخرية من الدين باعتباره أفيون الجماهير، وعكازا يتمسك به المضطهدون في مواجهة الظلم الاجتماعي الطاغي. ومما زاد الطين بلة بالنسبة للمؤمنين أن المخطط الكتابي للتسلسل الزمني، بما في ذلك قصة الخلق، التي عُرّضت لضغوط شديدة لمدة قرنين من الزمان على الأقل، قد اهتز بشكل لا رجعة فيه بفضل كتاب **مبادئ الجيولوجيا** (1830 ـ 3) لتشارلز لايل *Lyall*، وبعد جيل واحد، كتاب **أصل الأنواع** (1859) لتشارلز داروين.

ومع ذلك فإن هذا العصر لم يكن كافرا بحق. ففي حين اعتنق العديد من المؤرخين وجهات نظر معادية للكهنوت فيما يخص تأثير الكنيسة في الشؤون العلمانية، فقد استمروا في أخذ معتقداتهم الشخصية على محمل الجد. حيث كان العديد من المؤرخين الأكثر شهرة في إنجلترا الفكتورية، كالسير جون سيلي *Sir John Seeley* (1834 ـ 1895) وجيمس أنتوني فرود *James Anthony Froude* (1818 ـ 94) وصمويل روسون

غاردينر *Samuel Rawson Gardiner* (1829 ـ 1902)، يحملون توجهات دينية، وكان المؤرخ الاجتماعي جون ريتشارد غرين *John Richard Green* (1837 ـ 83) قسيسا مكرسا. وكذلك كان ماندل كرايتون *Mandell Creighton* (1843 ـ 1901) وويليام ستابز *William Stubbs* (1825 ـ 1901)، اللذين تخليا عن كراسي الأستاذية في كامبريدج وأكسفورد على الترتيب لتولي رتبة الأسقفية. ولكن المؤرخ الفرنسي إرنست رينان (1823 ـ 1892) نجا من أزمة إيمان الشباب ليصبح مؤرخا للعرق والدين معا، ومؤلفا لكتاب عن حياة يسوع (1863) شأنه شأن ديفيد شتراوس. وقد استنهض التقليد الديني الفرنسي المتسم بسعة الاطلاع الباهرة، والذي توقف بسبب إلغاء الثورة للجمعيات والأكاديميات الملكية، في وقت مبكر يعود إلى عام 1795 ـ 6، حين أعيد تأسيس الأكاديميات القديمة تحت عنوان معهد فرنسا *Institut de France*. واستمر التقليد المتين لتدوين التاريخ السردي الكاثوليكي (على يد رجال الدين والمؤلفين العاديين على حد سواء) في الازدهار طوال القرن التاسع عشر في البلدان ذات الأغلبية الكاثوليكية مثل إيطاليا وفرنسا، وكذلك في البلدان البروتستانتية رسميا مثل إنجلترا، حيث كان كاتب المقالات الكاثوليكي (والمثير للجدل ذات مرة) اللورد أكتون *Lord Acton* (1834 ـ 1902) يخطط بحلول نهاية القرن لتأليف **تاريخ كامبريدج الحديث** *Cambridge Modern History* (1902 ـ 12) من منصبه كأستاذ ملكي في كامبريدج.

المحوّل الأعظم: رانكه ونفوذه

ولم يكن ليوبولد فون رانكه *Leopold von Ranke* (1795 ـ 1886) بالملحد أيضا. فقد كان رانكه، وهو بروتستانتي متدين يعتقد أن بحثه الوثائقي في الماضي يمكن أن يوفر نظرة ثاقبة للخطة الإلهية للإنسانية، يعتبر مارتن لوثر من أهم إلهاماته الفكرية. كان رانكه في البداية طالبا للتاريخ القديم وفلسفة اللغة، ولم يكن لديه في البداية سوى القليل من الوقت للتاريخ الحديث، حيث اعتبره شكلاً أدنى من الكتابة مقارنة بالكلاسيكيات. ولكن هذه البداية كباحث في الكلاسيكيات لم تكن بداية خاطئة، ولكي نفهم رانكه علينا أولا أن نقدر تأثير اثنين من كبار الباحثين في العصور القديمة، هما بارتولد غيورغ نيبور *Barthold Georg Niebuhr* وفريدريك كارل فون سافيني

Friedrich Carl von Savigny. كانوا جميعا في وقت واحد في جامعة برلين التي أُسِّسَت حديثا (1811) (وتعرف الآن باسم جامعة همبولت في برلين *Humboldt University of Berlin*)، التي كانت ستشغل في البحوث الألمانية نفس المساحة المهيمنة التي احتلتها جامعة غوتنغن الأقدم في القرن الماضي.

إن تعريف فقيه اللغة نيبور (انظر أعلاه، ص 199) لعصر بأكمله، بوصفه كائنا يجب دراسته من خلال منهجية ذات مجموعة مميزة من القواعد والمعايير، سوف يكمله ويعززه طالب القانون الروماني ساڤيني (1779 ـ 1861)، الذي توارث عدة قرون من فقه القانون الروماني وصولا إلى عصر النهضة الفرنسي. لقد نادى ساڤيني بدراسة القانون بوصفه نتاجا لعصور وظروف معينة ـ أي مجموعة متغيرة تاريخياً من القواعد والعادات ـ بدلاً من اعتباره الانعكاس المطلق الثابت (للحق) المثالي. فإذا كانت القوانين تميز الحضارة في فترة معينة، فإن ذلك يعني أن الفترات نفسها مميزة وغير قابلة للمقارنة بشكل صارم، وأنه يلزم دراستها بشكل مستقل، وكأنها كيانات عضوية.

من بعض النواحي، سيكون إنجاز رانكه النهائي هو دمج الأساليب اللغوية المتطورة لنيبور مع إحساس سافيني بالتطور التاريخي وتطبيقها على دراسة التاريخ السياسي بعد عام 1500. وبسبب اهتمامه المتزايد بالقضايا المعاصرة جزئيا، فقد تخلى عن التاريخ القديم لأجل تاريخ العالم الحديث، بدءا من كتابه **تاريخ الأمم اللاتينية والتيوتونية من 1494 إلى 1514** *The History of Latin and Teutonic Nations from 1494 to 1514* 1824))، وهو كتاب يغطي نفس الفترة تقريبا التي تناولها قبل ذلك بثلاثة قرون كتاب **تاريخ إيطاليا** لفرانشيسكو غويتشارديني. وقد ألحق رانكه بعمله هذا أحد تصريحاته النظرية الأولى، **نقد المؤرخين المعاصرين** *A Critique of Modern Historians*، الذي أعيد نشره بشكل منفصل في نفس العام؛ ففي خطوة جريئة من مؤرخ لا يزال صغير السن، تولى رانكه في هذا المقال محاكمة عدد من سابقيه في كتابة التاريخ الحديث المبكر، لكنه لم يظهر قسوته مع أي منهم كما فعل مع غوتشيارديني، الذي كان استخدامه المتفاخر للوثائق الأصلية مبالغا فيه بشكل كبير في نظر رانكه. وسرعان ما تجلت أساليب البحث الخاصة برانكه، المعتمدة على مصادر مثل تقارير سفراء البندقية إلى بلاطات أوربا المختلفة في القرن السادس عشر، تاريخه **للإمبراطورية**

العثمانية والإسبانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر *The Ottoman and the Spanish Empires in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (1827) والكتاب التالي **تاريخ البابوات** *History of the Popes* (بناءً على محفوظات رومانية خاصة، حيث لم يسمح له بالوصول إلى مكتبة الفاتيكان لكونه بروتستانتيا)، الذي احتل مكانا في فهرس الكتب المحظورة [الذي تصدره الكنيسة الكاثوليكية].

وخلال العقد ذاته، بدأ رانكه في تجميع وجهات نظر حول التاريخ العالمي كان من شأنها أن ترشد بقية حياته المهنية. فبحلول نهاية عقد 1830، ظهر الجزء الأول من أحد أعظم كتبه، **تاريخ الإصلاح في ألمانيا** *The History of the Reformation in Germany*، حيث وجد أخيرا موضوعا يربط بين الصراع بين الدين العالمي والقومية الخاصة. وقد تتبعت أعمال رانكه اللاحقة ظهور نظام الدولة الأوروبية الذي أعجب به جدا هذا الموظف العام الألماني المخلص، بوصفه مصدرا للحضارة الحديثة والحرية الفردية. وقد اختتمت مسيرته المهنية بكتاب لم يكتمل من عدة مجلدات في **تاريخ العالم** *Weltgeschichte* كان، بغض النظر عن عنوانه، يركز بشكل كبير على أوربا ـ وذلك رغم أن رانكه الشاب كان يقر بأهمية الثقافات الأخرى، واعتقد ذات مرة بأن لغات مثل العربية مهمة بقدر اللاتينية.

وعلى اختلافه الشديد مع التكهنات الفلسفية لزميله في برلين ذات يوم، غ.ف.ف. هيغل (انظر أدناه، ص 246ـ248)، لم ير رانكه شخصيا أي تناقض بين إدراكه لخصوصية التاريخ، الذي يظهر من خلال اهتمامه شديد الدقة والعناية حتى بوثيقة واحدة، والعلاقات المتبادلة بين البشر والأمم، وبين الأمم نفسها، وبين كل من سبق ذكرهم والله. لقد كانت الدولة، الوحدة السياسية الأساسية في رواياته (التي تشمل أكثر من مجرد الحكومة)، جديرة بالدراسة بشكل بارز ـ وليس بمفردها ولكن كقناة يصل المرء من خلالها إلى ماضي «الأمة» الأوسع. أما الأمم فهي بدورها النوافذ التي يرى المرء من خلالها التاريخ التراكمي للبشرية. وقد كشفت الدراسات الدقيقة التي أجراها مؤرخون معاصرون مثل الراحل غيورغ إيغرز *Georg Iggers* (1926 ـ 2017) أن هناك في الواقع توترات في فكر رانكه. فقد ظل المؤرخ الذي اشتهر بتوقيره للفردية التي وهبها الله (*Eigentümlichkeit*) وخصوصية كل عصر، مؤمنا بشيء مثل التقدم،

وقد أكد أيضا أن هناك أفكارا خالدة ومتسامية، خاصة في الأخلاق. ولكن ما لم يقبله هو التوحيد بين هذين الأمرين بالطريقة التي صاغها فيلسوف مثل هيغل. فالأفعال الفردية، وليس الأفكار المتشابهة، هي التي قادت حركة الجنس البشري عبر الزمن، تحت عين العناية الإلهية.

يرتبط رانكه، بشكل رئيس، بفكرة أن واجب المؤرخ بادئ ذي بدء هو نقل الماضي **كما حدث بالفعل** *wie es eigentlich gewesen* ـ أي دون حكم أو تزويق. وغالبا ما تكون هذه العبارة الشهيرة هي الشيء الوحيد الذي يعرفه العديد من الطلاب عن رانكه. لقد قالها في وقت مبكر من حياته المهنية ولم تكن أكثر من مجرد استطراد، ولذا فإنها لم تكن ومضة من البصيرة المنهجية ولا حتى فكرة أصيلة تماما بالنسبة له: فقد اقترح ثوسيديدس ملاحظة مماثلة في العصور القديمة، كما فعل تاسيتوس؛ وأعلن مؤسس جامعة برلين، ڤيلهلم فون همبولت *Wilhelm von Humboldt* (1767 ـ 1835)، الذي يعد بدوره شخصية مهمة في تطور التاريخية الألمانية، عام 1821 أن ‹مهمة المؤرخ هي تقديم ما حدث بالفعل›. وتظهر صياغة رانكه الخاصة لهذه الفكرة في مقدمة كتاب **الشعوب اللاتينية والجرمانية**، في سياق محدد هو استخدام مؤلفنا المكثف لمحفوظات البندقية، بدلاً من اللجوء إلى التعميم الفلسفي. وبذلك فإنه يحمل معه ـ رغم أن هذه كانت قضية ثانوية على الأرجح بالنسبة رانكه ـ تنازلا عن الدور القضائي ـ التعليمي القديم للمؤرخ. ‹لقد كلفه التاريخ بمهمة الحكم على الماضي وتوجيه الحاضر من أجل صالح العصور المستقبلية. لكن العمل الحالي لا يدعي هذه الدرجات العالية: لأنه يسعى فقط إلى إظهار ما حدث بالفعل›. قد لا يكون ذلك في الواقع الترجمة الأكثر دقة لعبارة *wie es eigentlich gewesen*، التي قد تصاغ بدقة أكبر بهيئة ‹الماضي كما كان في الأساس›. وبالقدر الذي يهمنا، فإن ما قصده رانكه من هذه العبارة أقل أهمية من النحو الذي فسرها به بعض المعجبين اللاحقين في أماكن أخرى من العالم. فقد اعتقد الكثير منهم خطأً أن المعلّم كان يقصد التجنب الكامل لأي شيء لا يستند إلى حقيقة محددة وكذلك نبذ التخمين أو التفسير، وبالتالي تجاهل الجانب الأخلاقي والفلسفي لكتابات رانكه، الأمر الذي بات شديد الوضوح في الأعمال اللاحقة لدرجة تفنيد أقواله المبكرة المزعومة ضد النزعة التعليمية.

مؤسسات التاريخ وبدايات ‹التخصص› في أوربا وأميركا الشمالية

بفضل رانكه، وتلاميذه المباشرين مثل غيورغ ڤايتز *Georg Waitz* (1813 ـ 1886) وهاينريش فون سيبل *Heinrich von Sybel* (1817 ـ 95) وبيئة الندوات الجامعية الشهيرة، كانت البحوث الألمانية تهيمن على الحياة الفكرية الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده. فقد تأثر مؤرخ جامعة السوربون إرنست لاڤيس في البداية بنجاحات رانكه لدرجة أنه أدخل الندوة التاريخية إلى التعليم العالي الفرنسي. وليس هناك شك في أن الأبحاث الألمانية استحوذت أيضا على خيال العديد من المؤرخين البريطانيين البارزين، مثل ستابس وإدوارد أغسطس فريمان (1823 ـ 92)، الذين لم يكن من السهل ثنيهم عن حماسهم للحريات الجرمانية القديمة. حيث صاغ ف.و. ميتلاند *F.W. Maitland* (1850 ـ 1906) أبحاثه القانونية على غرار ساڤيني، الذي ترجم أحد أعماله. وقد تدرب أكتون مع العالم الكاثوليكي الألماني يوهان يوسف إغناز فون دولينغر *Johann Joseph Ignaz von Döllinger* (1799 ـ 1890). وقد حاكى ستابس نقد المصادر عند رانكه، وسيقوم تلاميذه أو أتباعه بدورهم ‹بتحديث› المهنة التاريخية البريطانية في العقود التي سبقت الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك، فقد ظل هدفها الشامل هو التعليم بدلاً من البحث لأجل ذاته. وفي الواقع يمكن القول، بحلول نهاية القرن، إن التاريخ في الجامعات البريطانية قد أصبح برنامج التلقين النهائي للشباب في الاضطلاع بواجبات الإمبراطورية جنبا إلى جنب مع امتيازات واستحقاقات الطبقة.

يمكن القول إن التأثير الألماني بعد رانكه كان خارج أوربا الغربية أقوى من داخلها. ففي الشرق، على سبيل المثال، استمدت عدة أجيال من المؤرخين الرومانيين في أوائل القرن العشرين الإلهام من ألمانيا، بما في ذلك عالم الآثار ڤاسيلي بارفان *Vasile Pârvan* (1882 ـ 1927) والمنهجي ألكسندرو زينوبول *Alexandru Xenopol* (1847 ـ 1920). أما إلى الشمال، فقد قضى الدنماركي كريستيان إرسليف *Kristian Erslev* (1852 ـ 1930) والنرويجي غوستاف ستورم *Gustav Storm* (1845 ـ 1903) فترات طويلة في الندوات الألمانية. تقدم الكتابة التاريخية الروسية مثالا مناسبا بشكل خاص لانتشار توجهات أوربا الغربية نحو الشرق. فقد استمرت في التأثر بالتواريخ

القومية الأخرى (وخاصة الفرنسية والألمانية) في أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما حدث في زمن شلوزر *Schlözer* وكارامزين *Karamzin*. وكما في أماكن أخرى، فقد بذل نشاط كبير في حقبة ما بعد نابليون لجمع ونشر المواد المصدرية، وخاصة الوثائق الحكومية، تحت قيادة المستشار نيكولاي ب. روميانتسيف *Nikolai P. Rumiantsev* (1754 ـ 1826). حيث أجرت «اللجنة الآثارية» مسحا شاملا للبلاد لكل الأرشيفات والمستودعات، بنحو مماثل لما قامت به لجنة المخطوطات التاريخية البريطانية (أُسِّسَت 1869) اللاحقة في العصر الفكتوري. وبحلول مطلع القرن، فقد رُبِط بين التاريخ والعلم في روسيا أيضا، كما أعلن پاڤيل نيكولايڤيتش ميليوكوف *Pavel Nikolaevich Miliukov* (1859 ـ 1943)، الذي كان يدرّس دورات في التأريخ بجامعة موسكو، عام 1892 أن الموضوع المناسب للتاريخ العلمي كانت عملية تطور الشعب. وهكذا فقد أصبحت منهجية أوربا الغربية هي المفتاح لإثبات عبقرية الشعب الروسي على أساس الأدلة.

أما عبر المحيط الأطلسي، فقد كان الطلاب الأمريكيون يتدفقون بنحو متواتر إلى ألمانيا، ليعودوا بعدها إلى بلادهم لتدريس التاريخ في الكليات والجامعات في الولايات المتحدة، بما في ذلك الكليات الجديدة ذات التوجه البحثي مثل جونز هوبكنز. فمن بين المؤرخين الذين عملوا في الجامعات الأمريكية في عقدي 1880 و1890، أمضى نصفهم تقريبا بعض الوقت في الدراسة في ألمانيا، على أن المدة التي قضوها كانت في كثير من الأحيان أقصر مما ينبغي لأن يتمكنوا حقا من استيعاب المنهج التاريخي الألماني ـ ناهيك بأسسه الفلسفية المعقدة ـ بشكل شامل. غالبا ما ينسب شعار «الموضوعية» الذي تردد في التأريخ الأمريكي لعقود عديدة إلى استيراد نسخة ساذجة من مذهب رانكه كان يبجّل رانك نفسه كصنم، لكنه كان يسيء فهم الجوانب الدقيقة لفكره أو يتجاهلها (أما الدرجة التي أمعنوا بها في ذلك فقد باتت مثار شك عند المؤرخين الأميركيين المعاصرين). في الواقع، فقد كانت أسطورة رانكه أقوى بكثير في أمريكا من أساليبه. ولم يستمتع كل طالب أمريكي بوقته في ألمانيا. فقد عانى المؤرخ والتربوي الأميركي ـ الأسود البارز، و.إ.ب. دوبوا *W.E.B. Du Bois* (1868 ـ 1963)، الذي سيؤسس التاريخ الأسود لاحقا في القرن العشرين، من التنديد

العنصري لمؤرخ برلين القومي الاستعماري هاينريش فون ترايتشكه *Heinrich von Treitschke* (1834 ـ 96) عام 1890. حتى إن بعض العلماء الأمريكيين، مثل هنري آدامز، الذي قدم نظام الندوة في جامعة هارفارد، لم يكن ينظر إلى نظام الجامعات الألمانية بأكمله بوافر التقدير. ومع ذلك، فقد ظلت هالة «الاحتراف» المنبعثة من طموح الأبحاث الموضوعية الخالية من أحكام القيم هي الأكثر جاذبية، وبدا أن ألمانيا تقدم النموذج الأكثر تقدما لكليهما. حيث أيدت الجمعية التاريخية الأمريكية المؤسسة حديثا (1884) المعايير المهنية التي حددت عقيدة «التاريخ العلمي»، وأشرف عليها أكاديميون مؤثرون مثل ج. فرانكلين جيمسون *J. Franklin Jameson* (1859 ـ 1937) الذي تدرب في جامعة جونز هوبكنز، وأصبح أول محرر لصحيفة المراجعة التاريخية الأميركية *American Historical Review (AHR)*.

كانت مجلة *AHR* هي الشاهد الرئيس لأمريكا الشمالية على تطور رئيسي آخر في القرن التاسع عشر، نابع من ألمانيا أيضا: هو المجلة التاريخية المهنية. لقد ظهر التاريخ بشكل بارز في دوريات قبل ذاك، في المراجعات الأدبية وإصدارات الأكاديميات العلمية. كما ظهرت مجتمعات التاريخ المحلية، التي ركزت بشكل أساسي على الآثار، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. لكن المجلة الأكاديمية المستقلة والمحررة، التي يمكن أن يقدم إليها بحث تاريخي جديد لمراجعة الأقران وينشر من ثم، كانت من صنع ألمانيا في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أصبح سيبل، تلميذ رانكه والأستاذ في ميونخ والمؤرخ البارز للثورة الفرنسية، عام 1859 المحرر المؤسس **للمجلة التاريخية** *Historische Zeitschrift (HZ)*. وبفضل بقائها وطول عمرها، وتفانيها الحصري للتاريخ، وإصرارها على معيار مشترك للمعرفة، أنارت المجلة الألمانية الرائدة الطريق للمقلدين في أماكن أخرى. فقد قام غابرييل مونود (1844 ـ 1912)، المصلح للدراسات التاريخية الفرنسية الذي تدرب في ألمانيا، بإنشاء نسخته الخاصة من *HZ* بعنوان **المراجعة التاريخية** *Revue historique (RH)* عام 1876. وتلتها المراجعة التاريخية الإيطالية *Rivista Storica Italiana* (1884)) والإنجليزية *English Historical Review* (1886 ،*EHR*)؛ وفي عام 1895 أُنشِئت *AHR* كمنشور رسمي للجمعية التاريخية الأميركية. ومن المثير للاهتمام أن

المجلات بدأت، في العديد من الحالات، على يد أشخاص خارج المؤسسة نسبيا سعوا إلى تغيير ممارسة الأبحاث التاريخية في بلادهم. وسرعان ما يتطور المبتكرون إلى منتمين للمؤسسة، وحراس محافظين للأرثوذكسية التاريخية، وأساليبها «السليمة» و«الموضوعية»؛ ثم يقوم المتمردون الجدد بإقامة أماكن منشقة أو منافسة لنشر أعمال حول مواضيع مستبعدة سابقا. وقد أُنشِئ العديد من أفضل الدوريات اليوم مثل **الحوليات** *Annales* و**الماضي والحاضر** *Past and Present* منذ عقود تحديدا لغرض ملء الفجوات في الأبحاث السائدة؛ وهذا النمط من الانشطار وإعادة الانشطار المنهجي ما زال مستمرا اليوم.

إذا كانت المجلات الجديدة تمثل طليعة البحث التاريخي (مع التركيز الشديد على الماضي القومي، أو ماضي الفرد أو الآخرين)، فقد دعمت الكتيبات علم أصول التدريس التاريخي، الذي كان ينشأ في الخلف. كان بعضها قد احتفظ، مثل خلاصات كارل پلوتز *Carl Ploetz* (1819 ـ 1881) التي نشرت بشكل واسع، بالتنسيق الأقدم الموروث من القرن الثامن عشر (وكذلك صيغة **فن التاريخ الأقدم**) الذي يلخص الأحداث التاريخية العالمية. ومع ذلك، فقد أوجز آخرون عناصر البحث التاريخي. وقد استُوعبت المناقشات المنهجية والتحسينات الإجرائية في القرن التاسع عشر ونُشِرت بين الطلاب من خلال سلسلة من هذه الكتيبات، بدءا من يوهان جوستاف درويسن *Johann Gustav Droysen* (1808 ـ 1884) واستمرارا مع أوتوكار لورينز *Ottokar Lorenz* (1832 ـ 1904) وإرنست بيرنهايم *Ernst Bernheim* (1850 ـ 1942). وقد أثبت كتاب بيرنهايم الضخم **الدليل إلى المنهج التاريخي** *Lehrbuch der Historischen methode* (1889)، الذي توسع في طبعة عام 1908 إلى أكثر من 800 صفحة، تأثيره حتى في أماكن بعيدة كاليابان. أكد بيرنهايم بثقة أن العديد من حقائق التاريخ يمكن أن تُعرف على وجه اليقين، رغم تصوره أنه لا يمكن تصور البعض الآخر إلا بوصفها «محتملة».

هذا الاتجاه نحو الانشغال الضيق إلى حد ما بالمنهج ـ الذي مثل في جوهره تكوين المنهج الناشئ لسياج من القواعد والأعراف التي ميزته من الأنواع الأخرى من الدراسات الإنسانية (وفي النهاية عن العلوم الطبيعية، على أن هذا لم يكن الهدف

الأصلي) ـ كان ملحوظا أيضا في فرنسا عند نهاية القرن. فقد تشكل جهاز تدوين التاريخ الفرنسي الحديث مع تأسيس مركز الدراسات العليا الشهير، **المدرسة العملية للدراسات العليا** *École pratique des hautes études*، في عام 1868 وكذلك مجلة **المراجعة التاريخية**. وربما يمكن العثور على التعبير الأكثر براءة عن الثقة الاستدلالية بجذور التاريخ العلمي ـ أي الإيمان بالأساس الوثائقي المتين والتقدم المستمر من خلال نقد المصادر للمعرفة التاريخية، دون اختزال كل المعرفة البشرية بالعلوم الطبيعية ـ في نظير فرنسي أكثر إيجازا لدليل بيرنهايم. فكتاب **مقدمة إلى الدراسات التاريخية** (1897)، الذي كان دليلا ناجحا للغاية إلى المنهج، واعتمد على مجموعة من محاضرات السوربون، لعالم العصور الوسطى والحفريات شارل ڤيكتور لانغلوا *Charles ـ Victor Langlois* (1863 ـ 1929؛ أصبح لاحقا مدير الأرشيف الوطني) ومؤرخ السياسة في القرن التاسع عشر شارل سينيوبوس *Charles Seignobos* (1854 ـ 1942)، سرعان ما تُرجم حرفيا أو مع بعض التعديل إلى عدة لغات أخرى.

كان كل من لانغلوا وسينيوبوس باحثين جادّين في مجالات تخصصهما، ولذا فمن المؤسف إلى حد ما أنهما عرفا بشكل أساسي بفضل كتاب أصبح بامتياز رمزا للثقة الساذجة بالأبحاث الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر، مع تحديدها التدريجي للعمليات التحضيرية والتحليلية و(التركيبية) المطلوبة في كتابة التاريخ. وقد صاحبت ذلك بعض التصريحات الجريئة بشكل محفوف بالمخاطر لما يعد (وما لا يعد) طريقة مناسبة، وكذلك إعلانات رنانة عن اعتماد التاريخ على الكتابة. إن عملية تجميع الحقائق المتباينة من وثائق متعددة في تاريخ متماسك، كما يقول لانغلوا وسينيوبوس، تشبه التشييد العلمي للمبنى. ولذا يتعين على المرء أن يختار المواد بعناية، لأن المواد الخاطئة ستمنع تنفيذ أي تصميم. فسيكون الأمر، كما قال المؤلفان المتضلعان، أشبه باقتراح بناء برج إيفل من الحجر.

التاريخ، العلم، والحتمية

إحدى المفارقات العديدة في القرن التاسع عشر هي أنه مثّل العصر العظيم للتاريخ كتحفة أدبية، وفي نفس الوقت للحجة التي قدمها الكثيرون أنه حين يجرى بشكل

صحيح سيعد أيضا ‹علما›. وهذا التناقض بالنسبة لنا أكثر وضوحا مما كان عليه في نظر للمعاصرين، حيث كان العلم في ذلك الوقت مصطلحا أوسع لا يزال يحتفظ بشيء من معنى كلمة *scientia* في عصر النهضة، أو المعرفة بشكل عام؛ وهذه ليست مشكلة في لغات مثل الفرنسية والألمانية، اللتين تستخدمان مصطلحات (science, Wissenschaft) أكثر شمولاً وأقل وثاقة من صلة الكلمة الإنجليزية بالمجالات التجريبية والرياضية. إضافة إلى ذلك، ففي القرن التاسع عشر، كان لا يزال بإمكان المثقفين التنقل بين العلم والأدب من حين لآخر (رغم أنه كان أمرا أقل سهولة مما كان عليه في الفترات السابقة)، وكانت الطبيعة تمثل بنحو مهم مصدر إلهام مشتركا لكليهما. وقد بدا في الواقع أن التاريخ هو النشاط ‹البرمائي› الأهم الذي يمكن أن يتجاوز الحدود بين العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي. وهكذا وسعت الربة كليو من مجالها، وتطورت ‹التأرخة *historicization*› الأكثر شمولاً للتوقعات في الثقافة الشعبية والمتعلمة على حد سواء، لتتطرق تقريبا إلى كل مجالات النشاط الفكري.

ليس من قبيل المبالغة أن يقال بأن التاريخ أصبح ‹المجال الرئيس› لذلك القرن، وكان في نفس الوقت مصدرا لمواد الخيال الأدبي، ومصطلحا يدين لبيكون وهيرودوت مشيرا إلى جمع الطبيعة واستعراضها، وأساسا لفقه اللغة المقارن وقاعدة لأساليب جديدة للدراسة كعلم الاجتماع. فحين أعلن الفقيه الفرنسي ف.ف. بونسيليه *F.F. Poncelet* عام 1820 أن التاريخ مصدر كل العلوم الإنسانية، كان يقصد ما نسميه الآن بعلم الاجتماع، وهو مصطلح ظهر للتو آنذاك. أدرج إرنست رينان كلاً من فقه اللغة والتاريخ ضمن تعريفه للعلم. كان المؤرخ الإنجليزي هنري توماس باكل *Henry Thomas Buckle* (1821 ـ 1862) مقتنعا جدا بأهمية التاريخ للإنجازات البشرية لدرجة أنه اعتبر حالة الثقافة التاريخية لأي مجتمع مؤشرا رئيسيا على تقدمه العام، وأدرج في كتابه **تاريخ الحضارة في إنجلترا** فصلا خصصه ‹التاريخ التاريخ›، كي ‹يضمّنه تحقيقا في تقدم تاريخ الإنسان، وتحقيقا آخر في تقدم التاريخ نفسه›. وحتى عام 1900، حين بدأ العلم بالتحرك في اتجاه أكثر تقانة وتخصصا، لم يكن من المستغرب أن يعلن باحث البيزنطيات ومؤرخ التقدم جون باغنيل بري *John Bagnell Bury* (1861 ـ 1927) أن التاريخ علم، ‹لا أقل وليس أكثر›.

بالنسبة إلى بعض مفكري القرن التاسع عشر، كان التاريخ التقدمي ـ وهي شخصية متكررة في عمل مثل **الثورة الفرنسية** لتوماس كارلايل، حيث يشار حرفيا إلى التاريخ متجسدا بشكل متكرر ـ يمثل قبل كل شيء قوة تقدمية تطالب بسرد قصتها. حيث خصص الروائي ليو تولستوي خاتمة مطولة لرواية **الحرب والسلام** للتأمل في المكائد الكبرى للتاريخ (كانت هذه الخاتمة، كما لاحظت تيسا موريس سوزوكي، قفزة مفاجئة في النبرة تتعارض تماما مع سائر تلك الرواية التي ركزت على المشاعر الفردية ووصف مناظر طبيعية حية). ومع أن الاتجاه العام لتدوين التاريخ في القرن التاسع عشر كان يميل عن التكهنات الفلسفية نحو البحث النقدي، فقد ولّدت هذه الفترة مع ذلك عددا من المخططات للتفسير الشامل لمجمل الماضي البشري، وهي من عمل غير المؤرخين في الغالب. سيعرف الكشف عن الاتجاه النهائي للتاريخ في النهاية باسم ‹الحتمية› التاريخية، ومع أنه تمتع بالعديد من الممارسين المشهورين، ومن بينهم باكل، فقد اتضح بنحو أشهر على يد أوغست كونت *Auguste Comte* وغ.ف.ف. هيجل وكارل ماركس. ومع أن الأنظمة الفكرية المرتبطة بهذه الأسماء كانت مختلفة تماما، فإنها تشترك في الإيمان بالزخم التقدمي الذي لا يقهر لأحوال الإنسانية.

لقد طور كونت (1798 ـ 1857)، الذي يُنسب إليه الفضل في نشر مصطلح ‹علم الاجتماع› الذي كان غامضا من قبل، فلسفة محددة أطلق عليها اسم ‹الوضعية›، مع خصائص أساسية واضحة. تفترض الوضعية أن التقدم ليس **ممكنا** فحسب (كما اعتقد مفكرو القرن الثامن عشر) بل هو أمر **لا مفر منه**. وهي تنسب هذا التقدم إلى قوى أخرى غير العناية الإلهية؛ وتعتقد أن السلوك البشري، ومن ثم التاريخ، يعمل وفق ‹قوانين› شبيهة بقوانين العالم الطبيعي. تلقى كونت تدريباً في الرياضيات منحه مرتبة من الثقة بالقوانين الطبيعية هي أعلى مما كان يمتلكه العديد من معاصريه الذين تلقوا تعليما إنسانيا أكثر تقليدية. ومع ذلك فقد كان لديه الكثير من القواسم المشتركة مع الفكر التاريخي في أوائل القرن التاسع عشر، وخاصة الحركة الرومانسية. بالنسبة إلى كونت، يكمن مفتاح فهم أي ظاهرة حالية (وتطورها المستقبلي) في البحث عن أصولها التاريخية. حتى إن ‹مكتبته الوضعية› المثالية تضمنت قسما عن التاريخ مع مجموعة مختارة من المؤلفين، من عهد هيرودوت حتى عصره هو. لقد حدد عمل

كونت متعدد الأجزاء، الذي يعرف في الإنجليزية باسم **مساق في الفلسفة الوضعية** *Course in Positive Philosophy* (1830 ـ 1842) التاريخ الكامل للفكر البشري بثلاث مراحل، هي العصر اللاهوتي والميتافيزيقي والوضعي. وهناك نجد أصداء لتصور ڤيكو عن عصور الآلهة والأبطال والرجال، ولأنماط الحياة المتغيرة في المرحلية، وكذلك مراحل كوندورسيه التسع للتاريخ.

كان عصر كونت ‹الوضعي›، الذي يتعرف الناس فيه القوة الحاكمة للقوانين المتعلقة بالسلوك البشري، يقف بانتظارنا، وكان كل نمط من المعرفة يسلك مسارا متوازيا خلال مراحل متتالية لأجل التلاقي في هذه الوجهة المشتركة. وبصرف النظر عن ميتافيزيقيتها الحتمية اجتماعيا، كان تصور كونت التاريخي يحمل معه نظرية معرفة تنظر إلى جميع أشكال العلم (ومن بينها التاريخ) بوصفها تقدمية وتراكمية. وقد أدى ذلك إلى تطبيق مصطلح ‹وضعي› على أي تفكير تاريخي يفترض تحسينات مطردة في المعرفة، بنحو يشبه التقدم التجريبي في العلوم الطبيعية. حيث يشار أحيانا إلى نهج رانكه بمجمله في القرن التاسع عشر وكذلك استمراره في القرن العشرين بلقب ‹الوضعي›، وهو انحراف مضلل للغاية عن المعنى الأصلي للمصطلح (والمصطلح الأدق بقليل، على أنه لا يزال غير دقيق، قد يكون ‹تجريبي›). وهو يطبق بشكل أكثر إنصافا إلى حد ما على نموذج ‹التحسن التراكمي والمطرد› للمعرفة التاريخية، ولكن حتى هذا القياس سيظل يمثل مشكلة. لقد أصبحت ‹الوضعية› في دراسة التاريخ في عصرنا هذا، إلى حد ما، أشبه بكبش فداء يمكن أن تتراكم عليه خطايا جميع الآراء ‹الساذجة› السابقة للمعرفة التاريخية، وخاصة مدرسة التجريبية الاستدلالية، ثم تطرح خارجا نحو صحراء الأفكار السيئة.

إضافة على ذلك، فإن الاستخدام المبتذل للمصطلح يؤدي عن غير قصد لتعظيم التأثير الفعلي للوضعية الحقيقية. فرغم تأثيرها في بعض المدارس الفلسفية مثل النفعية، وكذلك جاذبيتها الطبيعية لعصر كاد يعتبر التقدم من أركان الإيمان، نالت أفكار كونت في الواقع رواجا أقل نسبيا مما قد يظن المرء بين مؤرخي أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر، مع استثناءات مثل باكل، والداروينى الاجتماعي هربرت سپنسر (1820 ـ 1903) والفرنسي هيپوليت تاين *Hippolyte Taine* (1828 ـ 93)، وبشكل

انتقائي فقط حتى بعد قبولها. ولكن الوضعية حققت نجاحا أكبر في أماكن أبعد. ففي وضع مشابه لصيغة رانكه للتاريخية، أنتج بعد المسافة من المصدر تقبلاً أكبر. ففي أوربا الشرقية، قدمت الوضعية بديلاً لماركس: فقد كان الروسي ميليوكوف كونتيا متحمسا. ووجد التشيلي خوسيه ڤكتورينو لاستاريا *José Victorino Lastarria* (1817 ـ 1888) في كونت تأييدا مفيدا لأفكاره الخاصة. أما المؤرخ البرازيلي جواو كاپيسترانو دي أبريو *João Capistrano de Abreu* (1853 ـ 1927)، الذي تأثر في شبابه بكل من باكل وتاين، فقد اتبع نهجا وضعيا في أعماله المبكرة لفترة وجيزة، ولكنه سرعان ما اقتنع، بمجرد أن أمضى وقتا في المكتبة الوطنية، أن التاريخية الألمانية قدمت نهجا أكثر جاذبية.

كانت الوضعية إحدى المدارس الفكرية حول اتجاه التاريخ، والمثالية الألمانية مدرسة أخرى، بدأت من كانط والقومي الألماني ي.غ. فيشته *J.G. Fichte* (1762 ـ 1814) ووصلت إلى أوجها مع فلسفة هيغل في تاريخ العالم. ينتمي هيغل زمنيا إلى الفصل السابق، وهو ينتمي لعصر التنوير المتأخر وما بعد الثورة. ولكن من الأفضل، بالنسبة لأغراضنا، أن ندرسه مع تلاميذه وخصومه من منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخره. كان التاريخ بالنسبة لهيغل هو الإدراك الذاتي التدريجي للعقل في الوقت المناسب من خلال عملية ‹الديالكتيك›، أي الصراع المستمر بين الأطروحة والنقيض ومآلهما إلى التوليف (وهو ثالوث لم يصغه هيغل نفسه لأول مرة، بل اقترضه من فيشته). تعود جذور آراء هيغل إلى مفكري عصر التنوير الأوائل، لكنه رفض بشكل قاطع الفكرة الكلاسيكية القديمة القائلة بأن التاريخ هو ‹تعليم الفلسفة بالأمثلة›. واستعاض عنها بعلاقة مختلفة بين التاريخ والفلسفة، حيث أصبح تاريخ الفلسفة في حد ذاته قصة لتطورات الفهم البشري، حيث أفسحت النظم الفكرية الطريق لنظم لاحقة أرقى، مما يشير إلى حركة نحو الوعي الذاتي لروح العالم. لم يكن التاريخ في الواقع ‹معلّم العالم *magistra vitae*› الذي تحدث عنه شيشرون ـ أو لم يكن بالمعلم الجيد جدا على الأقل. بل كان التاريخ عملية جارية وفي نفس الوقت سردا متماسكا لتلك العملية. إضافة إلى ذلك، ومع أن التاريخ البشري كان بحد ذاته عالميا على الأقل، اعتقد هيغل أن محاولات كتابة التاريخ العالمي بالمعنى الأعم كانت إشكالية ـ ومن المفارقات أن ما سماه ‹بالتاريخ المتخصص› (أي النظر

إلى الكل من زاوية موضوع معين مثل الفن أو القانون) كانت أوفر حظا في النجاح. والفيلسوف لا المؤرخ هو من بات يجب عليه استيعاب معنى التاريخ، الذي لم يكن من الممكن إدراك معرفته الكاملة حتى ينتهي التاريخ نفسه: (فبومة منيرڤا)، على حد تعبيره، لا تنشر أجنحتها إلا عند الغسق.

حين ننظر إلى الوراء، يبدو أن هيغل احتل في أوائل القرن التاسع عشر ما كان ڤيكو يحتله في أوائل القرن الثامن عشر، أي دور المنشق الأكاديمي المعقد والغامض في العادة الذي لا يمكن تصنيفه: حيث لم يكن مؤرخا وفق نمط رانكه، ولم تصبح (المثالية المطلقة) خاصته خطا مهيمنا في الميتافيزيقا الفلسفية. ولكن هيغل، على عكس ڤيكو، لم يكدح في الخفاء كي تنقذه الأجيال اللاحقة. بل كان مشهوراً في عصره وجذب تلاميذ بارزين أو مريدين معجبين أصبحوا بدورهم نجوماً فيما بعد، في الغالب من خلال صياغة وجهات نظر كرد فعل على أستاذهم. وبالرغم من سمعته كمحافظ، فقد كان لديه عدد كبير من الزملاء الميالين لليسار. كان من بينهم (الهيغليون الشباب)، وهم زمرة قامت بتأثير من لودڤيغ فويرباخ *Ludwig Feuerbach* (1804 ـ 1872) بقلب فلسفة هيجل المثالية إلى (مادية) محورها الإنسان.

لقد استقبل رانكه وزملاؤه في برلين هيغل ببرود في عام 1818، وكانت أفكاره مثيرة للجدل. وسيستخدمه أعداؤه قرابة قرن كامل كرمز شيطاني تصاغ فلسفاتهم الخاصة ضده، من سورن كيركغور وآرثر شوبنهاور وحتى مارتن هايدغر وبرتراند راسل. وكان هيغل، أكثر من أي شخص آخر في القرن التاسع عشر، هو من لخص حصيلة ما يقرب من قرنين من نبذ الأوروبيين للثقافات غير الغربية، ولاسيما افتقارها إلى التاريخية، وذلك بمعنيين هما عدم وجود إحساس بالماضي، وانعدام المكان في الحبكة الرئيسية للسرد البشري. وهكذا فقد كان الأفارقة وبعض الشعوب الأوربية مثل السلاف بلا **تاريخ** (أي شكل من الكتابة) وبأهمية لا تكاد تذكر في **مسيرة التاريخ** (أي مسار الأحداث الذي يتحرك جدليا للأمام). لم تحتسب من شعوب الأرض إلا آسيا (بنحو انتقائي) وأوربا الغربية فقط، وكانت الأخيرة تقف على الطرف الأكثر تقدما من مضمار التاريخ. وليس من المستغرب أن يمثل هذا الموقف أيضا منطلقا لانتقادات الحداثة وما بعد الحداثة للمركزية الأوربية والاستشراق (انظر أدناه، ص 345ـ348)، ولكن بداعي الإنصاف

لهيغل، يجب الإشارة إلى أن أسباب تبنيه لذلك الموقف كانت تختلف تماما عن الأسباب التقليدية في أوائل القرن الثامن عشر - أي غياب الكتابة الأبجدية والاعتماد المفرط على الشفهية. فبالنسبة لهيغل، وحده المعيار الرئيس «للدولة» (الذي لا يعني بالضرورة «الدولة القومية» الحديثة) يمكن أن يمنح الشعب مكانة في التاريخ وينتج كتابة للتاريخ. وقد أكد أن الدولة هي التي وفرت المحتوى المناسب للأدب التاريخي والظروف التي يمكن إنتاجه فيها، حيث يقصد به تسجيل تطورها.

إن أهم جزء من فلسفة هيغل للتاريخ ومحركها الديالكتيكي، لو قيمناه من حيث التأثير الشعبي فحسب، يجب أن يكون بالتأكيد تكييفه من قبل كارل ماركس (1818 - 1883)، الذي كان ذات يوم هيغليا شابا، وتحويله إلى نظرية مادية عن التغيير الاقتصادي والاجتماعي الذي يفضي من العصور البدائية، عبر الأطوار الإقطاعية والرأسمالية، إلى الشيوعية وانتصار البروليتاريا. فقد طور ماركس فلسفته للتاريخ بشكل مجزأ من خلال أعمال نظرية مبكرة مثل **الإيديولوجيا الألمانية** (1846). وقد كتب عملاً واحدا على الأقل يمكن اعتباره تاريخا سياسيا، وهو **الثامن عشر من برومير لويس نابليون** (1852؛ وفي بعض الطبعات، «لويس بونابرت»)؛ وهذا هو مصدر ملاحظته الشهيرة، المقتبسة أيضا عن هيغل، أن الأحداث التاريخية تحدث مرتين، مرة أولى كمأساة، ومرة أخرى كمهزلة.

بدون استثناء، لم يكن لأي نظرية عن التاريخ في العصر الحديث تأثير أكبر من المادية التاريخية، من حيث الأعداد الهائلة للأتباع، خاصة بين المعجبين بماركس في نهاية المطاف من السوفييت وأوربا الشرقية والصين. وقد كان ماركس، سواء بمفرده أو مع شريكه فريدريش إنغلز (1820 - 1895)، غزير الإنتاج ومعقدا، ولن تجرى هنا أي محاولة لتلخيص فكره التاريخي كاملا. لم تقدم نظرياته في الواقع كنظام متماسك في عمل واحد، بل كانت مبعثرة بين أعماله الواسعة. باختصار، تعمل النظرية الماركسية للتاريخ بالنحو التالي. لقد مرت البشرية، أو ستمر، بسلسلة من المراحل الاجتماعية: تبدأ بحالة بدائية يكون فيها الشكل الأول للترابط هو الأسرة، ومن ثم تطوير الملكية واستغلالها، ثم الإقطاع، وفي النهاية تصل إلى الرأسمالية قبل أن تنتهي بالدولة الاشتراكية التي تمثل بداية التاريخ «الحقيقي». وبشكل أكثر تحديدا، يميز ماركس

بين أربعة عهود، هي العصر الآسيوي (وهو هنا يستعير المفهوم الراسخ «للاستبداد الشرقي»)، والعهود القديمة والإقطاعية والبرجوازية، التي يعد كل منها محكوما بالترتيبات الاقتصادية والاجتماعية. ولكن مع المرحلة الخامسة المستقبلية وحدها، التي تلي انهيار الرأسمالية، سيظهر مجتمع لا طبقي ويتوقف المحرك الديالكتيكي للتغيير التاريخي، إن صح التعبير.

لا تختلف الحركة من حقبة إلى أخرى عن تلك التي اقترحها المرحليون في القرن الماضي، ولكن كل عناصر العناية الإلهية أو خرق الطبيعة قد أُزِيلت تماما، ثم إن أنماط **الإنتاج**، لا أنماط **الكفاف**، هي التي تقيد الترتيبات الاجتماعية وتدفع التاريخ إلى الأمام في آن واحد. لا تحدث التحولات من مرحلة إلى أخرى (وهذا جانب لم تفسره المدرسة المرحلية بشكل كافٍ) في كل مكان في نفس الوقت، ولا بالمعدل نفسه. ثم إنها ليست حتمية تماما بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنه لم يكن هناك كثير من الحوافز نحو التنمية في العصر الآسيوي. فالتغييرات تحدث في بعض الأحيان بسبب قوى خارجية. ومع ذلك، فإنها تحدث في كثير من الأحيان بسبب التناقضات والصراعات الداخلية، وخاصة الصراعات الطبقية، التي تنتج عند ماركس ظواهر مثل الاغتراب والوعي الطبقي والثورة في نهاية المطاف، حيث يضغط الزناد المعبأ في مسدس التغيير: وبهذا ينتقل «ديالكتيك» هيغل من عالم الأفكار إلى عالم الحياة الاقتصادية والمادية. إن قمة كل مرحلة من مراحل الوجود الإنساني هي نتيجة ديالكتيك الصراع، واكتساب السلطة من قبل طبقة كانت تابعة سابقا. والتركيبة الجديدة الناتجة ـ أي المرحلة التالية ـ ليست سوى استقرار مؤقت، حيث سيبدأ الديالكتيك من جديد. وكل جوانب الحياة الأكثر وضوحا ـ السياسية والدينية والإيديولوجية ـ أشبه بنسبة العُشر الذي يطفو فوق السطح من جبل جليدي هائل. فهي مجرد «بناء فوقي» يتحدد تكوينها مسبقا على يد «القاعدة» المادية والاقتصادية التي تقوم عليها. وفي سياق تلخيص هذه النظرية، صاغ ماركس عددا من المفاهيم الأساسية التي باتت الآن مؤثرة في التحليل الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي لأكثر من قرن، وقد نجا العديد منها من انهيار الشيوعية في أوربا الشرقية في أوائل عقد 1990: كنظرية العمل لتفسير القيمة، التراكم البدائي، الصراع الطبقي، وديكتاتورية البروليتاريا، على سبيل المثال لا الحصر.

أنتجت ألمانيا أيضا نظريات مهمة أخرى تتعلق بصيغ الفكر المختلفة حول تكشف التاريخ، وحول طبيعة المنهج التاريخي، وتركز في النهاية على تمايزه من العلوم الطبيعية ـ وهو الموقف الذي لم يكن في الواقع من سمات فكر التاريخية المبكرة (انظر أعلاه، ص 213ـ215). حيث جادل مؤرخ بروسيا والمنظر لبعض الوقت ي. غ. درويسن *J.G. Droysen*، الذي آمن بإمكانية تحسن المعرفة التاريخية، في كتابه **التاريخيات** *Historik* (وكذلك موجزه الأقصر **سرد لمبادئ التاريخ** *Outline of the Principles of History*)، لصالح نظرة أقل سذاجة إلى علاقة المؤرخ بالنصوص. وقد رأى درويسن، وهو الناقد المعتدل لمعلمه السابق رانكه، أن عبادة الموضوعية، إلى جانب تركيزها على نقد المصدر، قد أخذت التاريخ في المسار الخطأ. وكان القصد من «التاريخيات *Historics*» عنده هو دراسة الماضي التاريخي بنحو يوازي ما فعلته الشعريات *Poetics* (أي ما يعرف اليوم بالنظرية الأدبية) لعالم الخيال المصطنع.

بعد ذلك بجيل، قدم ڤيلهلم ديلتي *Wilhelm Dilthey* (1833 ـ 1911) مراجعة مهمة لمفهوم المعرفة التاريخية. يمكن رؤية الابتعاد عن هوس ما بعد رانكه بالوثائق في تأكيد ديلتي أن الكتابة التاريخية تفترض مسبقا تفكيرا تاريخيا يتطلب في حد ذاته فعلا فكريا للفهم (*Verstehen*)، حيث يجب اشتقاق معنى الأحداث من تجربتنا الداخلية؛ ولا يمكن أبدا أخذه مباشرة من المصادر. كما هو الحال مع تمييز درويسن بين عالم الطبيعة، حيث يوجد التكرار المطرد فحسب، وعالم التاريخ، حيث يعد التقدم ممكنا، كان موقف ديلتي مناهضا للوضعية، ولكن بشكل أكثر حدة. فقد افترض درويسن من قبل أن الفهم، وهو «الشكل الأكثر كمالا للإدراك» الذي أتيح للبشر، لا يزال بإمكانه الوصول إلى حقيقة موضوعية. أما ديلتي فقد افترض أن الأحداث الماضية يمكن إدراكها بطريقة لا تنطبق على الإطلاق على ساحة العلم، بسبب جوهرنا الإنساني الذي نتشاركه مع الشخصيات التاريخية، وقدرتنا على فهم العالم من خلال «التجربة الحية *Erlebnis*». فالتاريخ الذي نعيش خلاله جميعا ينتمي إلى *Geisteswissenschaften* (العلوم الإنسانية أو «الأخلاقية») وليس إلى العلوم الطبيعية *Naturwissenschaften*، ولكن مع أن أساليب الأولى كانت مختلفة، فقد ظلت قادرة تماما على تحقيق الصرامة شأنها شأن العلوم الطبيعية. في كتابه **مقدمة إلى العلوم الإنسانية** *Introduction to*

the Human Sciences (1883) نوّه ديلتي بشاغل فكري إشكالي، موجود منذ عصر النهضة، يتعلق بإخضاع الظواهر التاريخية لمبادئ التحليل المستمدة من دراسة الطبيعة؛ حيث أدى ذلك إلى نقص في الاعتراف باختلافاتها عن الظواهر الطبيعية، وبالتالي إلى إفقار النظرية التاريخية.

وقد ترك الأمر لڤيلهلم ڤينديلباند *Wilhelm Windelband* (1848 ـ 1915) كي يرفض سذاجة المؤرخين (بما في ذلك السابقون) الذين أصروا على رؤية تخصصهم وكأنه غير قابل للتمييز من ناحية منهجية ومفاهيمية من العلوم الطبيعية. ففي عام 1894، أعاد ڤينديلباند صياغة مبدأ أرسطو القديم القائل بأن التاريخ يتعامل مع التفردات، ويتمتع بمكانة الممارسة ‹الإيديوغرافية *ideographic*› (أي تمثيل الفريد والمفرد) بدلاً من ‹الناموسية *nomothetic*› أو المولدة للنواميس الطبيعية الحاكمة. لكن هذا التمييز ينطبق فقط على ‹أنماط البحث› وليس على ‹محتويات المعرفة نفسها›، حيث إن التاريخ والعلوم الطبيعية ينتميان معا إلى المظلة الأكبر ‹للعلوم التجريبية›. في كتابه **التجربة وأنماطها** *Experience and its Modes* الصادر عام 1933، طور الفيلسوف البريطاني مايكل أوكشوت *Michael Oakeshott* (1901 ـ 90) هذا التمييز بين التاريخ والعلم بنحو أوسع، محتجا بأن التاريخ والعلوم الطبيعية هما ‹أنماط› متعارضة يمثل الواقع من خلالها، وأن مناهجهما ليست مختلفة فحسب، بل هي متنافية. جادل أوكشوت أيضا، متأثرا بهيغل، بأن التمييز بين ‹التاريخ كما حدث› و‹التاريخ كفكر› (أو كما يدرس) لا معنى له، لأنه لا يوجد تاريخ خارج تجربة المؤرخ الخاصة ـ فالماضي نفسه ليس شيئا، ولا يمكن أن ‹ينبعث› ببساطة.

البدائل الثقافية والاجتماعية لتوجه رانكه

وسط كل هذا يحق المرء أن يتساءل: ما الذي حدث لتوجه القرن الثامن عشر إلى تاريخ الإنسان، ولمنظور فولتير الثقافي في عهد لويس الرابع عشر، وللتحليل المرحلي للمجتمعات السابقة؟ للوهلة الأولى، يبدو أن التركيز المتجدد في القرن التاسع عشر على السياسة والسيرة الذاتية قد ألقى بها جانبا مع معارضتها للتكهنات المنهجية في نمط هيجل. ومع ذلك فإن هذه ليست بالصورة الدقيقة، لأن هذا القرن قدم بعض

البدائل لرانكه (كان من بينهم كونت وماركس)، ولتدوين التاريخ الأوربي الذي كان يركز على الدولة، وللقيود المنهجية لكل منهما. وقد قدمت هذه البدائل طريقا سلكته هموم عصر التنوير نحو القرن العشرين والحادي والعشرين.

ظهر أول تحد رئيس لنموذج رانكه في أعمال ياكوب بوركهارت *Jacob Burckhardt* (1818 ـ 1897)، وهو مؤرخ سويسري حضر ذات مرة محاضرات رانكه في برلين لكنه قضى معظم حياته في بازل وزيورخ. وبوصفه مؤلفا لأعمال تضمنت «تاريخا ثقافيا» لليونان القديمة، كان كتاب بوركهارت الأكثر شهرة، **حضارة عصر النهضة في إيطاليا** *The Civilization of the Renaissance in Italy*، دراسة رائعة لفن وثقافة عصر النهضة، وعلاقة الجمالية بالحياة السياسية ـ فقد عالج «الدولة» باعتبارها «عملا فنيا» ـ وكذلك ظهور «الفردية». لا يزال كتاب **الحضارة** أحد تلك التواريخ النادرة التي تعود إلى القرن التاسع عشر ولا تزال قيد الطباعة حتى الآن، وتذكر بانتظام في المساقات الجامعية عن عصر النهضة. وقد مارس بوركهارت في طيه، إن لم يكن قد اخترع أصلا، شكلا من أشكال الاستقصاء التاريخي يعرف باسم التاريخ الثقافي *Kulturgeschichte*، وتحدى تقاليد المنهج التاريخي الناشئ عن طريق تجنب النمط السردي، وتقديم سلسلة من المقالات التأملية حول جوانب مختلفة من عصر النهضة. ورغم الترحاب الذي نالته (حيث عرض على بوركهارت، وسحب منه لاحقا، أن يشغل كرسي رانكه في برلين)، فقد ظلت تحفته فريدة من نوعها لعدة عقود.

وقدّم المؤرخ الفرنسي القديم العظيم في منتصف القرن التاسع عشر، نوما دينيس فوستل دو كولانج *Numa Denis Fustel de Coulanges* (1830 ـ 1889) بديلاً آخر. كان فوستل دو كولانج عالما مثيرا للإعجاب، ينتمي إلى التراث الاجتماعي للتاريخ الذي امتد من كونت إلى ماكس ڤيبر. وبوصفه وضعيا معتدلا، بالمعنى المعرفي للكلمة، يعتقد حقا أن التاريخ يمكن أن يتحدث عن نفسه من خلال الوثائق، وبالتالي فهو «علم رصدي». وكان غير نفور من التنظير والتعميم ـ حيث كان تلميذه تشارلز سينوبوس من الذين اعتقدوا أن معلمه السابق كان مخلصا جدا للأفكار المنهجية. وفي الوقت نفسه، كان باحثا واسع الثقافة والتضلع، معروفا بدراسته للديانة والقانون والمؤسسات اليونانية والرومانية، في كتاب **المدينة العتيقة** *The Antique City* (1864). ومع ذلك

فقد كان تنظيره وسعة معرفة ذوي منشأ محلي: فقد ظل فوستل دو كولانج مقاوما حتى نهاية أيامه لسرد رانكه أو حتى لعلم العصور القديمة *Altertumswissenschaft* عند نيبور. وسينضم إليه آخرون في نهاية المطاف: فقرب نهاية القرن، وبعد كارثة الحرب الفرنسية البروسية، باتت التأثيرات الألمانية مثار شك بشكل متزايد، وستقوي الحرب العالمية الأولى من هذا الشعور. حتى إن إرنست لاڤيس، المؤيد الفرنسي السابق للندوة الرانكية، رأى أن تطوير التدريب اللائق للمؤرخين الفرنسيين وسيلة أخرى «المحاربة الألمان»، رغم من أن العلماء الأصغر سنا مثل باحث العصور الوسطى فرديناند لوت *Ferdinand Lot* (1866 ـ 1952) ظلوا مستائين من تهافت بنية التعليم في بلادهم مقارنة بالجامعات الألمانية.

ظهر تحديان مختلفان للنسخة الرانكية لتدوين التاريخ الجرماني بعد مضي جيل، من داخل ألمانيا نفسها هذه المرة. كان الأول هو «النزاع حول المنهج *Methodenstreit*» الشهير في عقد 1890، الذي أثاره كارل لامپريخت *Karl Lamprecht* (1856 ـ 1915)، واستهلّ بعض النقاشات التي استمرت حتى عصرنا الحاضر. فقد صرح لامپريخت، الذي كان أكثر تعاطفا مع الوضعية من درويسن أو ديلتي، بالحاجة إلى تاريخ «جديد». وألقى بظلال من الشك على فائدة التاريخ الذي يُنظر إليه كسرد لقادة وأحداث معينة بخلاف مجموعات أكبر لا تكاد تذكر، وذكّر بضرورة التحالف مع العلوم الاجتماعية الناشئة، بما في ذلك علم النفس؛ وجادل بأن الثقافة هي التعبير الخارجي عن الروح الجماعية للشعب (*Volksseele*)، وعنها ينتج مسار التاريخ. كان لامپريخت مؤرخا منشقا من عدة أنحاء. ففي عام 1895، ترشح دون نجاح لشغل منصب التحرير الشاغر **للمجلة التاريخية** *Historische Zeitschrift*، مقترحا دمجها مع مجلتين أخريين كان يشارك فيهما. ولكنه هزم على يد المؤرخ القومي ترايتشكه (الذي سيشغل المنصب لمدة عام فقط) ومن قبل ماينكه، علاّمة التاريخية في المستقبل، الذي سرعان ما سيصبح بنفسه مديرا للتحرير بعيد ذلك. وعلى الرغم من تهميش مؤسسة التأريخ الألمانية له خلال حياته المهنية، فقد كان لامپريخت محل إعجاب في الخارج. فمن بين تلاميذه كان المؤرخ الروماني الرائد للجيل القادم، نيكولاي إيورغا *Nicolae Iorga* (1871ـ1940)، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، رأى عدد من مؤرخي ألمانيا الشرقية أنه قدم بديلاً لرانكه. وكان

للامبريخت معجبون آخرون في شمال أوربا، لا سيما باحثين في العصور الوسطى، هما المؤرخ الاقتصادي البلجيكي هنري پيرين *Henri Pirenne* (1862 ـ 1935) والمؤرخ الثقافي الهولندي يوهان هويزينغا *Johan Huizinga* (انظر أدناه، ص 283ـ284)، اللذين وفرا بدورهما جسورا مهمة منذ مطلع القرن إلى تطورات لاحقة مثل مدرسة الحوليات (انظر أدناه، ص 299ـ304) والتاريخ الثقافي الحديث.

كانت أفكار لامپريخت، والاستجابة العدائية لها، نتاجا للتوترات التي ظلت دون حل في نهاية القرن التاسع عشر بين التاريخ والفلسفة من ناحية، والعديد من فروع المعرفة الحديثة المجاورة من ناحية أخرى، بما في ذلك علم النفس والاقتصاد والإناسة والاجتماع ـ أي العلوم الاجتماعية الحديثة. وغالبا ما كانت تتفاقم جراء المنافسات الشخصية والتحيزات الاجتماعية، مثل معاداة السامية التي أثارها مفكرون عامون مؤثرون مثل ترايتشكه. ولا تزال التداعيات المفصلة لهذا الأمر تتفتق حتى اليوم على الحدود بين هذه المواضيع. فقد أقدم معاصرون ذوو تفكير تاريخي كالفيلسوف المنحدر من أصول يهودية غيورغ زيمل *Georg Simmel* (1858 ـ 1918) الذي حُرم من كرسي الأستاذية حتى وقت متأخر من حياته، والاقتصادي السياسي ماكس ڤيبر (1864 ـ 1920) واليهودي الفرنسي إميل دوركهايم (1858 ـ 1917)، وهو تلميذ سابق لفوستل دو كولانج، على دمج دراسة الماضي مع علم الاجتماع (بعدما جُرِّد من العناصر الأكثر تخمينية في عمل كونت قبل عدة عقود). وقد تمتع علم الاجتماع بعلاقة ثابتة وإن كانت متقلبة مع المنهج الأم منذ ذلك الحين. وبالمثل فقد اتجه المؤرخون الاقتصاديون (بدون مساعدة من ماركس) إلى تاريخ الثقافة المادية والصناعة وحتى العمل. فقد تحدث الاقتصادي غوستاف فون شمولر *Gustav von Schmoller* (1838 ـ1917) باسم مدرسة الاقتصاد الألمانية التي اعتبرت البيانات التاريخية حجر الزاوية في هذا التخصص. وغالبا ما كان استقبال هذه الأفكار، التي انصب تركيزها على ‹المجتمع› بدلاً من ‹الدولة› الأكثر تقليدية، أكثر ودية خارج بلد ميلادهم: ففي أمريكا، وجدت أفكار لامپريخت لها مستمعين بين جيل من المؤرخين غير الراضين عن الأجندة الأميركية لتدوين التاريخ. وسرعان ما رسخ التاريخ الاقتصادي نفسه كتخصص مواز واقعيا في بريطانيا ـ بفضل ويليام جيمس آشلي *William James Ashley* (1860 ـ 1927) ـ وفي

النهاية أميركا. أما الهجوم القصير على هيمنة التاريخ السياسي من قبل جيمس هارفي روبنسون *James Harvey Robinson* (1863 ـ 1936) من جامعة كولومبيا، وما عرف ‹بالمؤرخين الجدد› قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، فسيفتح الباب أمام التاريخ الاجتماعي في أميركا الشمالية خلال عقدي 1960 و1970.

قام فريدريش نيتشه (1844 ـ 1900)، الذي ربما كان أكثر مفكري أواخر القرن التاسع عشر نفوذاً، بتحويل تعليمه الإنساني التقليدي إلى حد كبير إلى إعادة تقييم مذهلة للطبيعة البشرية والثقافة والأخلاق والتاريخ نفسه. وإذا كان يمكن وصف لامپريخت، مثل هيردر قبل قرن من الزمان، بأنه التلميذ للفكر التاريخي في أواخر القرن التاسع عشر، فقد سعى نيتشه إلى حرق المدرسة الحالية وبناء مدرسة جديدة من تصميمه الخاص. حيث كانت وجهات نظر نيتشه حول التاريخ والثقافة والتعلم نتاجا لتدريبه اللغوي الصارم (الذي بدأ، بنحو المفارقة، في نفس المدرسة الثانوية التي تخرج فيها رانكه ذات مرة) ولكنه نقله إلى موقف رفض قدرا كثيرا من إرث النزعة الإنسانية الذي امتد لأربعة قرون. لقد أثر توجهه ‹الأنسابي *genealogical*› نحو الماضي، الذي ينظر إلى الوراء عبر الزمن عن أصول أشياء مثل الأخلاق أو العقل الحديث، وكذلك تحولاتها وتعديلاتها التاريخية، بعمق في شخصيات من القرن العشرين مثل ميشيل فوكو (انظر أدناه، ص)، وقد تناولته (بشكل غير دقيق أحيانا) حركة ‹ما بعد الحداثة› في تدوين التاريخ، التي سنطالعها في الفصل التالي. ولذا فإن أفكاره تستحق مزيدا من الدراسة هنا.

رغم أن نيتشه بات في نهاية المطاف معاديا لكثير من بنود أجندة تدوين التاريخ في القرن التاسع عشر، فقد كان معجبا بالثقافة الكلاسيكية على وجه الخصوص ولم يكن بأي حال من الأحوال غير مبالٍ بالماضي ككل، بل كما أوضح أنتوني ك. جنسن في كتاب قريب، قد تخلل الماضي كتاباته بشكل أو بآخر طوال حياته المهنية، وقد أعجب بعدد من المعاصرين الأكبر سنا مثل زميله في بازل في وقت ما، ياكوب بوركهارت (الذي سيشاركه نزعته المحافظة ونفوره من الثقافة الجماهيرية) والمؤرخ الفرنسي هيپوليت تاين. ورغم أنه أضحى يعتقد، على العكس من تدريبه اللغوي، أنه لا يوجد أي رواية للماضي يمكن أن تمثل ذلك الماضي ‹بشكل واقعي›، فإنه لم ينكر أن الماضي نفسه

كان حقيقة، ولم يدع أن محاولات تشكيل روايات مقنعة عنه لا قيمة لها. لم يكن نيتشه مؤيدا للبيرونيين في القرن السابع عشر، ولم يكن نسبيا من أوائل القرن العشرين (انظر أدناه، ص 283). وإذا كان لدى نيتشه هدف حقا، فهو لم يكن إنكار إمكانية التاريخ في حد ذاته، أو حتى المنفعة المستمدة منه، ولكن ببساطة «تدمير الإيمان بالماضي التاريخي الذي قد يتعلم منه الإنسان أي حقيقة واحدة جوهرية»، وإنقاذ الماضي من الجفاف الخانق للأكاديمية الألمانية في القرن التاسع عشر من ناحية، ومن التكهنات الميتافيزيقية غير القابلة للإثبات على غرار هيغل من ناحية أخرى.

تطورت آراء نيتشه حول التاريخ والتاريخ التقدمي على مر العديد من أعماله الكبرى، وبنحو أبرز كما يبدو في العمل الذي بات لاحقا يكرهه شخصيا، الذي غالبا ما يشير إليه القراء باسم «محاسن التاريخ ومساوئه»، ولكن عنوانه الأنسب هو **حول منافع ومضار التاريخ في الحياة** *On the Uses and Disadvantages of History for Life*، ونشر لأول مرة عام 1874 بوصفه الحلقة الثانية في سلسلة نيتشه **أفكار في غير أوانها** *Untimely Meditations*. لقد شهد التاريخ، كما اقترح نيتشه في هذا البحث، دورات من التقدم والانحلال، بدءا من البربرية البدائية، ومرورا بعبقرية فكر ما قبل سقراط، وخاصة المأساة الأسخيلية، يليه انحدار إلى نظام الاستبداد المزدوج للدين والعلم الذي خنق الإبداع. ومثل ڤيكو قبل حوالي قرن ونصف، رأى نيتشه أن عصره يمثل جزءا من مسار منحدر نحو بربرية وشيكة. فالعالم الذي صنعه الإنسان نفسه ينبع من المنافسة بين مبدأين، القوة الديونيسية للطاقة الفوضوية والإبداعية والقوة الأبولونية للنظام: كلاهما ضروري للحالة الإنسانية، لكن غلبة أحدهما على الآخر ضارة.

بقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة التاريخية، فهي أداة وعبء في نفس الوقت: أداة لأنها تتيح لنا الوعي بديوننا للماضي وشعورنا بوجود وضع متفوق في المستقبل يمكن النضال من أجله؛ وعبء لأنه يمكن أن يمنعنا من العيش في الوقت الحاضر وتحقيق الأشياء العظيمة في عصرنا. وعلى الضد من المعادلة التقليدية بين التاريخ والتذكر، والذاكرة كميزة أساسية للإنسانية، يحث نيتشه على **النسيان** كضرورة، لا يمكننا بدونها الفرار من عملية الصيرورة اللا نهائية. فلكي نعيش، علينا أن ننسى بشكل انتقائي، بنحو أشبه بارتداء سماعات الرأس للتخلص من الضوضاء المحيطة؛ «فتشبع» عصر

ما بالتاريخ «معاد وخطر على الحياة». ومع ذلك، لا يمكننا العيش بدون تاريخ تماما: فبعضه ضروري للوجود البشري، وهو يميزنا من الحيوان الذي يعيش في لحظة لا نهاية لها (ولو «بدرجة من السعادة» ودون ملل أو رياء). فالتاريخ ليس للضعفاء، لأنه «لا يمكن أن تتحمله إلا الشخصيات القوية» أما الكائنات الأوطأ فستذهل أمامه.

في **محاسن التاريخ ومساوئه** (ولكن ليس فيما تلاه)، اشتهر عن نيتشه تقسيم المؤرخين إلى ثلاثة أنواع مختلفة، بنحو يعكس على الترتيب وجود أمثلة ثلاثة للإنسان باعتباره كائنا «يعمل ويكافح»، وآخر «يحفظ ويوقر» وثالثا «يعاني ويسعى إلى الخلاص»: ويسميهم على التوالي بالمشيد والآثاري والنقدي. يكتب المؤرخ المشيد التاريخ التقليدي «للرجال العظماء» وإنجازاتهم. ويعلمنا أن الأشياء العظيمة كانت قابلة للتحقيق في الماضي، وقد تكون كذلك مرة أخرى، لكن فائدتها كمنبع للأمثلة ذات الصلة محدودة، لأنه لا توجد حالتان متماثلتان من العظمة، حتى لو دفعهما المؤرخون كي تبدوا متشابهتين؛ ويتجاهل التاريخ المشيد الأسباب أيضا بحجة الاحتفال بالنتائج.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الشكل الآثاري يستعيد تفاصيل الماضي دون تمييز، ويبحث عن القيمة في كل شيء، والصلات بين كل شيء. وهو يؤدي للتحنيط أو التحجر إذا سُمح له بالسيطرة على الشكلين الآخرين للتاريخ: ذلك أنه يتدهور «منذ اللحظة التي لم يعد فيها متحركا أو مستوحى من الحياة الجديدة للحاضر». يمكن للمرء أن يرى في وصف هذين النوعين الأولين من التاريخ حجم دين نيتشه للفكر المتشكك السابق، أي إنكار غويتشارديني لإمكانية المقارنة بين الأحداث التاريخية وكذلك رفض القرن الثامن عشر لسعة الاطلاع دون غرض اجتماعي، على أن نيتشه يأخذ بهذه الحجج إلى تداعيات منطقية أشد تطرفا من سابقيه.

أما الشكل الثالث، وهو التاريخ النقدي، فيعرض الماضي أمام محكمة الحاضر، «التي تدرسه بدقة وتدينه في النهاية»، ليس استنادا لأي مبدأ أخلاقي أو عدالة ولكن استمدادا من قوة الحياة المطلقة، تلك «القوة المظلمة الدافعة المتعطشة إلى نفسها بلا هوادة». يذيب التاريخ النقدي بالضرورة أي قصة أو عملية موجودة مسبقا، ويتعامل مع الماضي كمجموعة من العناصر (أو النوتات الموسيقية، وفق تشبيه نيتشه المفضل) التي يمكن

تجميعها معا حسب الحاجة لخدمة الأهداف الأخلاقية والجمالية الفورية. لكن التاريخ النقدي مدمر في الأساس وليس خالقا، وهو المشكك في الماضي الذي يخاطر، دون تقيد بالآثاري أو المشيد، بالتخلص من جميع التقاليد، بما فيها تلك التي نشأ منها.

هاجم نيتشه، في هذا العمل والأعمال اللاحقة، ما اعتبره سذاجة من تدوين التاريخ الرانكيّ من حيث اعتقاده بأن الاعتماد على المصادر المأمونة يمكن أن ينتج تدوينا تاريخيا موضوعيا. وبالنسبة إلى نيتشه، الذي كان يعرف جيدا أوجه الغموض في المواد المصدرية، لا يمكن للمؤرخ بأي حال من الأحوال أن يمثل الماضي بموضوعية، لأنه يمتلك قيما تدفعه إلى دراسة شيء ما دون آخر، ثم إنه يخضع للدوافع والنزعات النفسية، غير الواعية في الغالب، مما يؤدي إلى ثني تفكيره نحو اتجاهات معينة. إن ‹إرادة القوة› التي افترضها في عمل متأخر، هو **أصل الأخلاق وفصلها**، باعتبارها أهم الدوافع البشرية، دفعت حتى رغبة المؤرخ، كما يلاحظ جنسن، في تعزيز تفوق روايته الخاصة على روايات الآخرين. ولن تكون الموضوعية المطلقة في التاريخ مفيدة للغاية إذا كانت ممكنة بالفعل، لأن كل فرد يجب أن يكون حراً في استخراج ما يحتاج إليه من التاريخ لمواجهة الحياة، التي يختبرها الأفراد الذاتيون فقط. ولذلك فإذا كانت الموضوعية موجودة على الإطلاق في تمثيل الماضي، فهي نسبية وعرضية لا أكثر. أما التسلسلات السببية، أي الخيوط ذاتها التي تربط بين الأحداث في روايات المؤرخ، فليست أكثر من اختراع عقلي للمؤرخ أو فرض منه على الأحداث لصلات لم تكن موجودة في حد ذاتها. إن موقف نيتشه من الذاتية، وكذلك إدراكه للجانب اللاعقلاني ورفضه لكثير من بنية تدوين التاريخ المحترف، يشير إلى أن كل شيء لم يكن متناغما بحق داخل معبد كليو الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر. وسوف نستكشف بعض الآثار المترتبة على هذا بشكل أكبر.

الإمبريالية في تدوين التاريخ؟ بصمات الطرق والنماذج الغربية خارج الفضاء الأوربي

بقدر ما كان الجهاز الإمبراطوري الغربي بأسره هائلاً، لم يكن بإمكانه تحويل تاريخ شرق آسيا القديم والراسخ إلى أساليب ‹حديثة› (بمعنى ‹غربية›) لولا ميول

الإصلاحيين في تلك الدول لتبني الممارسات الأوروبية، وكذلك مرونة الممارسات وتنوعها بنحو يجعلها قابلة للتكيف مع تربة مختلفة تماما. فقد أدرك مثقفون مثل ليانغ چيچاو *Liang Qichao* في الصين أن بلدانهم متقهقرة عن أوروبا التي تنعم الآن بالازدهار في عصر (حديث)، بينما يقبعون هم في سجن من الماضي. واعتقدوا أن الطرق التقليدية لعمل التاريخ كانت جزءا من المشكلة، ذلك أنها لم ترو قصة التقدم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أو تروج لمستقبل تقدمي. في بعض أجزاء العالم تُبُنّيت الرواية التنويرية للتقدم بحماسة، ومنحت إما صيغة ديالكتيك هيغل أو وضعية كونت التي فقدت مصداقيتها منذ أمد بعيد في وطنها. يقتبس ألين وول **Allen Woll**، الباحث الحديث في أمريكا اللاتينية، ملاحظات سلفادور براو ***Salvador Brau*** (1842 ـ 1912) المؤرخ الرسمي لبورتو ريكو من عام 1896 حول غرض المؤرخ ـ أي استخدام الأدوات الحديثة للفهم التاريخي كوسيلة لتعريف الهوية المميزة لشعبه والإفصاح عنها:

نعم! لدينا تاريخ وعلينا أن نفهمه لكي نسير... بخطى ثابتة ومحسوبة نحو المستقبل. ويجب أن نجعل الجميع يفهم هذا التاريخ حتى تميز شخصيتنا الإقليمية نفسها... بحيث لا يخلط أحد بيننا وبين أي شعب آخر.

من وجهة نظر القرن العشرين، كان من السهل أن يتوصل معظم مؤرخي التاريخ إلى استنتاج أن الأساليب الغربية والأنواع الأوروبية انتصرت لأن العناصر الأشد تقدمية في مجتمعات آسيا وأفريقيا أدركت تفوقها المتأصل. وهناك الكثير من الأدلة على هذا التفسير في كتابات غير الأوروبيين أنفسهم، الذين تبنوا بحماسة الأساليب التاريخية الغربية (في البداية على الأقل). ففي نظرهم، يجب اقتلاع الأسطورة والخرافة والأخطاء واستئصالها من روايات الماضي، وتطبيق النقد الصارم على الأدلة كأساس لرواية قصة التقدم نحو الأمام. وكان انتشار إمبراطورية كليو في البداية يبدو أمرا لا يمكن وقفه. فبعد قرون من الجدل حول أفضل السبل لدراسة التاريخ والكتابة عنه، بدا أخيرا وكأنها قد رتبت منزلها الخاص ـ وفرضت (المنهج) على دراسة الماضي ـ مع ظهور الممارسات البحثية الرانكية، وعلمنة التعلم التاريخي وإضفاء الطابع المؤسسي عليه في الجامعات والمجلات والكتب المدرسية والجمعيات العلمية ومراجعات

الكتب. وحتى لو ظلت أوربا منقسمة سياسيا بشكل ميؤوس منه، فقد بدا ـ على الأقل بالنسبة للغرباء غير القادرين على اكتشاف صدوع لا تكاد ترى ـ أنها ترتكز على أسس متينة من الناحية التاريخية. ولكن هذا كان في الواقع وهما بصريا عن الصلابة والتوافق نشأ بفضل بعد المسافة وفارق اللغة. فقد كانت الانقسامات والاختلافات في التأريخ الغربي، التي اتضحت في الأقسام السابقة من هذا الفصل، إما أقل وضوحا للجمهور الآسيوي والأفريقي، أو تعتبر ببساطة، على الأرجح، أقل أهمية من أوجه التشابه.

ربما يكون تحول التدوين التاريخي في الهند وصولا إلى الاستقلال عام 1947 هو الحالة الأكثر وضوحا للفرض والاستيراد المباشر للممارسات التاريخية من «العاصمة» الإمبريالية إلى «الأطراف» الاستعمارية، بالمعنى المزدوج الذي يوضح عملية التغريب الناجحة وكذلك إعادة الاستغلال اللاحقة لأدوات التأريخ الأوربي ضد المستعمر. كان جيمس ميل *James Mill* (1773 ـ 1836) أحدا أوائل المعلقين الاستعماريين الذين كتبوا عن التاريخ الهندي، دون أن تطأ أقدامهم جنوب آسيا على الإطلاق. كان ميل نتاجا للنظام التعليمي السكوتلندي، وصديقا مقربا لفيلسوف النفعية الإنجليزية جيريمي بنثام، ووالد الفيلسوف الأوسع شهرة جون ستيوارت ميل. في عام 1817 نشر ميل الأب العمل الذي خلد ذكره بأفضل شكل، **تاريخ الهند البريطانية** *The History of British India*. كان ميل منتقدا للتدخلات البريطانية السابقة في الهند، ورأى شبه القارة الهندية بمثابة مختبر كبير للتجارب الاجتماعية وفق فلسفة بنثام. كما أتاح الماضي القريب للهند فرصة للتعليق على الأعراف والقيم الحالية لبلاده هو. كان افتقاره للتجربة المباشرة مع البلد، كالتي اكتسبها عالم اللغة السير ويليام جونز قبل بضعة عقود، أو أي من براعة جونز الاستثنائية في اللغات، عنصر قوة كبيرا لميل لأنه سمح له بتحليل أكثر موضوعية ونزاهة للموضوع مما يمكن أن يكتبه أولئك الذين عاشوا في الهند أو تحدثوا بلغاتها.

لقد ولّد **تاريخ الهند البريطانية** قرنا من تدوين التاريخ الإمبراطوري، وأثر بحد ذاته في السياسة الاستعمارية بشكل مباشر بحق. ومن المفارقات أن افتقاره الشديد إلى العمق والبحث الأصيل جعلها الأداة التفسيرية المثالية للاستعمار في الهند. وتضمن رفضا سيئ السمعة للتاريخ الهندوسي الأصيل، مقارنة بتاريخ الإسلام.

نظرا لأن كل معارفنا مبنية على الخبرة، فإن تسجيل الماضي لتوجيه المستقبل هو أحد الآثار التي تتكون منها فائدة فن الكتابة بشكل أساسي. لقد كان الهندوس معدمين تماما في هذا الفرع الأكثر أهمية من الأدب. أما بين المحمديين في الهند، فقد ارتقى فن تأليف التاريخ إلى كمال أبرع من أي جزء آخر من آسيا. (**تاريخ الهند البريطانية**، 1817، ج 1، ص 648)

لم تكن آراء ميل بشأن فقر التاريخ الهندوسي أصيلة ولا فريدة. فقد كرر المؤرخ البريطاني الأكثر احتراما في النصف الأول من القرن، توماس بابينغتون ماكولاي *Thomas Babington Macaulay* (1800 ـ 1859)، الذي كان من المعجبين بميل، المفهوم المألوف الذي كان يقيس الدونية الثقافية الشرقية من خلال إخفاقاتها التاريخية، زاعما في عام 1834 على سبيل المثال أن جميع المعلومات التاريخية التي ضمتها الكتب المدونة باللغة السنسكريتية أقل قيمة من معظم الكتب المدرسية الابتدائية في المدارس الإنجليزية. وقد أصبح تاريخه الشهير لإنجلترا نصا رئيسا تمت دراسته في مستعمرات بريطانيا في الخارج، حاملاً معه أجندته الإصلاحية الخاصة بالإمبريالية الليبرالية، وأجندة مبنية على مفاهيم العرق والتقدم وواجب الرجل الأبيض في (تحسين) أحوال المستعمرات الأدنى منه.

كان العديد من الكتاب الاستعماريين في ماضي الهند مؤرخين بالصدفة، موظفين في شركة، أو موظفين مدنيين منحتهم حياتهم المهنية اطلاعا على الهند، سواء أمضوا أي وقت هناك أم لا. فقد كان ميل نفسه موظفا في شركة الهند الشرقية بلندن. أما من أولئك الذين زاروا الهند بالفعل، فقد قام حاكم بومباي ماونت ستوارت إلفينستون *Mountstuart Elphinstone* (1779 ـ 1859) بتأليف كتاب **تاريخ الهند** (1841)، الذي استخدم على نطاق واسع في التعليم الهندي (وكان أكثر تعاطفاً مع ماضي الهند من رواية ميل). وفي أوائل القرن العشرين، استمر هذا النمط مع ڤنسنت آرثر سميث *Vincent Arthur Smith* (1848 ـ 1920)، أحد سكان دبلن الذي قضى ثلاثين عاما في الخدمة المدنية الهندية. وقد أظهر كتابه **تاريخ الهند المبكر** *Early History of India* (1904) و**تاريخ أكسفورد للهند** *Oxford History of India* (1919) تأثير قرن من التغير البحثي في أوربا، حافظ مع ذلك على قناعة راسخة بأن فهم الماضي يمكن أن يساعد في حل المشاكل الحالية.

أصبح **تاريخ أكسفورد** الذي كتبه سميث كتابا مدرسيا شائعا. ومع ذلك، لم تكن الكتابة التاريخية الهندية ذات الطابع الغربي ملكا حصريا للقوة المحتلة. فقد شُجّع الهنود أنفسهم على كتابة تاريخهم وفقا للنماذج الأوروبية؛ وفي وقت مبكر من عام 1802، نشر العالم البنغالي رامرام باسو *Ramram Basu* (ح. 1751 ـ 1813) أول تاريخ على النمط الغربي للهند بلغة وطنية. وعلى مدار القرن، اختير العديد من الهنود الآخرين من قبل المؤسسات الإمبراطورية لتولي مسؤولية كتابة تاريخهم الخاص. وقد فعل البعض ذلك من أجل تعزيز الهوية الهندية وانتقاد حكم الراج، بما في ذلك الروائي بانكيم شاندرا چاترجي *Bankim Chandra Chatterjee* (أو چاتوبادياي *Chattopadhyay* 1838 ـ 1894) والشاعر رابندرانات طاغور (1861 ـ 1941). كان چاترجي من بين عدد من المؤلفين الذين وفرت لهم السرديات الخيالية المستندة إلى المواد التاريخية فرصة لتقديم الماضي بطرق جذبت المشاعر الوطنية الكامنة. ومع ذلك فقد كان في موارد أخرى يندب الغياب الواضح للتاريخ الهندي. ذلك أن هذا النقص قد أعاق التجديد السياسي للهند، ولذا فقد حث بني شعبه على بذل جهد جماعي لملء الفجوة، وخاصة لإنشاء تواريخ تؤكد الإنجازات البطولية السابقة للهنود.

كان المؤرخون الهنود، بغض النظر عن ميولهم السياسية، يتطلعون غربا للبحث عن النماذج والأساليب. فقد تبنوا الممارسات المنهجية للمؤرخين الأوروبيين وكذلك البرنامج الحضاري للبريطانيين، حيث يرتبط الأول ارتباطا وثيقا بتعزيز الأخير. ولكن لم يكن من الضروري التصديق على الأجندة الاستعمارية ولا حتى دعم الراج من أجل رؤية التاريخ والتاريخ التقدمي من منظور غربي. بصفته مستشرقا، كان لميل خليفة ربما كان سيبعث فيه الفخر، تمثل بنداء بانكيم چاترجي عام 1874 إلى ‹تدوين تاريخ هندي للهند›. في الواقع، فقد ساعد تبني الأساليب التاريخية البريطانية وانتشار الكتب المدرسية التاريخية في تصنيع ذلك الشعور القومي للهند على وجه التحديد، بنحو تجاوز الاختلافات الإقليمية أو اللغوية (ولم يعد يعتمد على أساطير الأصل المشترك)، وسيؤدي في النهاية إلى إسقاط صرح الاستعمار. لقد قدم البريطانيون للهند فكرة أن هناك طريقة حديثة وصحيحة لرواية الماضي، مشتقة من النماذج الأوروبية ومتخذة من الدولة القومية بؤرة لها، وبالتالي مكنت للوعي القومي الهندي خلال هذه العملية.

هاجرت المفاهيم الفكتورية المتأخرة عن التاريخ العلمي إلى الهند خلال الثلث الأول من القرن العشرين على يد مؤرخين هنود تدربوا في بريطانيا ثم عادوا إلى ديارهم للتدريس. لدواع تعود جزئيا إلى نفوذ العلماء مهرة تقنيا مثل عالم اللغة السنسكريتية السير ر.ج. بهندراكار *R.G. Bhandarkar* (1837 ـ 1925)، وابنه د.ر. بهندراكار *D.R. Bhandarkar* (1875 ـ 1950)، المختص بعلم النقوش والنقود، وباحث العصر المغولي السير جادوناث سركار *Jadunath Sarkar* (1870 ـ 1958)، فقد قام الجهاز المؤسسي لتدوين التاريخ الغربي باستنساخ نفسه تدريجيا في الخارج، بدءا من لجنة السجلات التاريخية عام 1919 ومؤتمر التاريخ الهندي الذي أُسِّس عام 1935. وقد رأى سركار، وهو المولع بأوربا والداعي الدائم إلى ‹التاريخ العلمي› في الهند، والمعجب بالرجال العظماء الذين أسسوا دولا في القرن الماضي، في التطبيق الصارم للأساليب الغربية أمرا ضروريا للتنمية الوطنية، وعارض ما اعتبره ‹وطنية زائفة›. وكما أشار كاتب سيرته الذاتية الأخير ديبش چاكرابرتي *Dipesh Chakrabarty*، لم يكن التحدي يكمن آنذاك في إقناع الناس بأن التاريخ مهمٌّ، بقدر ما تعلق بإيجاد أي اتفاق حول ما يعنيه التاريخ ‹العلمي› بالضبط.

كُرِّرَت الاتجاهات التاريخية في أوربا في الخارج، بما في ذلك التحديات لشكل التاريخ السياسي الذي مارسه مؤرخو التيار السائد مثل سركار. وقد تردد صدى نجاح التاريخ الاقتصادي في بريطانيا في ترسيخ نفسه كمنهج مواز تقريبا في أواخر القرن التاسع عشر في الهند أيضا، بفضل موظف الخدمة المدنية الهندية المتقاعد روميش چندر (أو چاندرا) دوت *Romesh Chandra Dutt* (1845 أو 1848 ـ 1909) وكتابه **التاريخ الاقتصادي للهند** (1902 ـ 1904). ألفت العديد من هذه الأعمال من منظور قومي، وحتى معتدل في مناهضة الاستعمار، سوف يزدهر في عقد 1930 و1940 ويحتل أهمية أكبر بعد الاستقلال عام 1947. كان جواهر لال نهرو (1889 ـ 1964)، وهو أول رئيس وزراء في الهند بعد الاستقلال، شخصياً قد ألف كتابه **لمحات من تاريخ العالم** *Glimpses of World History* (نُشر عام 1942) في شكل سلسلة من الرسائل إلى ابنته إنديرا (التي أصبحت بدورها رئيسة وزراء الهند لاحقا) حين كان مسجونا قبل عقد من الزمن. ولعب إنتاج الطبعات النقدية للنصوص الأصلية في الهند دوره

في توطين الماضي، تماما كما فعل في أوربا في القرن التاسع عشر. فبعد الاستقلال في عام 1947، أخرج راميش چاندرا مجومدر *Ramesh Chandra Majumdar* (1888 ـ 1980) سلسلة **تاريخ وثقافة الشعب الهندي** *The History and Culture of the Indian People* (11 مجلدا، 1951 ـ 1977). وهكذا فقد أصبح التاريخ، الذي كان أداة المستعمر، أداة لتحرير للنخب السياسية في الهند، وإن لم يكن كذلك حتى الآن بالنسبة لطبقة السكان «التابعين *subaltern*» الهائلة التي تقبع تحتها.

كانت الرقعة الجغرافية الكبيرة الأخرى التي اعتقد المستعمرون الأورپيون (بشكل خاطئ كما هو الحال مع الهند) أنها قاصرة في الأدب التاريخي هي إفريقيا. فقد ظهرت الكتابة التاريخية الحديثة هناك لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر ـ بعد وقت قصير من إنشائها في أوربا. كان الأمر في البداية حكرا على المستعمرين، والمبشرين خاصة، الذين كانوا مهتمين بدمج أطفال المدارس الأفارقة في الماضي المسيحي والأورپي. ومع ذلك فقد ظهرت بعض الاستثناءات المحلية البارزة، التي لم يلاحظها أحد في ذلك الوقت، مثل صمويل جونسون *Samuel Johnson* (1846 ـ 1901)، ابن أحد رجال تحرير سيراليون الذي انتمى لشعب اليوروبا، وعاد إلى أرض والديه في نيجيريا كمبشر. قام جونسون، الذي تأثر بشدة بالمؤرخين الكلاسيكيين مثل زينوفون، بتأليف **تاريخ اليوروبا** *History of the Yorubas* (نُشر بعد وفاته عام 1921). وقد استند فيه إلى حد كبير على الروايات التاريخية الشفهية لأرض اليوروبا (*itàn*) وروايات شهود العيان، بالإضافة إلى الوثائق الاستعمارية. وكان هدف جونسون، كما صرّح في بداية كتابه، هو ضمان «ألا يضيع تاريخ وطننا في غياهب النسيان، خاصة وأن أجدادنا القدامى يموتون بسرعة». كانت كل هذه الأعمال تركز على الإثنية، أي أنها كرست لاسترداد ورواية ماضي قبيلة معينة. وقد ضمنت الوظائف الكنسية لمعظم هؤلاء المؤرخين وجود نفوذ مسيحي إصلاحي قوي. أما في المناطق التي استعمرها الألمان مثل تنجانيقا (وهي جزء من تنزانيا الحديثة)، ظهرت الأعمال التاريخية السواحلية في أوائل القرن العشرين، بدءا من كتاب عبد الله بن حميدي العجمي (1835 ـ 1912) **سجلات كيليندي** *Chronicles of the Kilindi* (جمع عام 1904)، وهو سجل واسع ضافٍ للسلالة التي حكمت

المنطقة في القرن التاسع عشر، مستمد من التقاليد الشفوية ومن ذكريات المؤلف عن الأحداث الأخيرة.

تتضح عملية التغريب في كتابة التاريخ الأفريقي بشكل جيد في الحياة الطويلة والمسيرة المهنية الطويلة - التي تتجاوز الحدود الزمنية لهذا الفصل - لأوادياي جيكوب إيغاريڤبا *Uwadiae Jacob Egharevba* (1893 - 1981) في بنين، ضمن نيجيريا الحديثة. تلقى إيغاريڤبا تعليمه في إقليم اليوروبا أثناء سفره مع والديه التاجرين، وسرعان ما تخلى عن التجارة للعمل في مهنة أدبية بدوام كامل. في كتابه **تاريخ قصير لبنين** *A Short History of Benin*، وهو أشهر أعماله التاريخية والأدبية التي يزيد عددها على ثلاثين، استغل إيغاريڤبا صلاته بالزعماء و(مؤرخي البلاط) في بنين، بما في ذلك أولئك المسؤولين عن قائمة ملوك بنين، وأصبح مقتنعا بأن بقاء تقاليد شعبه في المستقبل يعتمد على تسجيلها وتوثيقها. وقد نشر **التاريخ القصير** في عام 1933 بلغة إيدو، وسرعان ما ترجمه إلى الإنجليزية في العام التالي. وقد أثبت العمل شعبيته لدرجة نشر العديد من الطبعات اللاحقة في العقود التالية، ولكن سرعان ما انغمرت مصادره الشفوية الأصلية، كما أظهرت دراسة حديثة، جراء الإضافة التدريجية للكتابات الغربية التي أجبرت إيغاريڤبا على التوفيق بين الروايات المتضاربة في رواية واحدة، مما أدى إلى استبعاد أو تشويه الكثير من مواده الأصلية.

كثيرا ما جاء استيراد وتبني الأساليب والأساليب الأوروبية في المناطق المستعمرة مثل الهند وإفريقيا على حساب تهميش الأشكال القديمة من المعارف والكتابة التاريخية أو القضاء عليها تماما. وقد تكررت على نطاق أوسع (والآن مع توافر الطباعة بكميات ضخمة) هذه العملية التي رأيناها سابقا في الأميركتين أوائل الحداثة، وتجلت أيضا في مجتمعات (المستوطنين) في جنوب أفريقيا وكندا وأستراليا، على حساب ممتلكات السكان الأصليين وماضيهم. كان جنوب شرق آسيا أبطأ في تجربة هذا الإعدام لأنواع تدوين التاريخ لصالح النماذج الأوروبية، وربما يرجع ذلك جزئيا على الأقل إلى تعدد اللغات والأديان (الإسلام والبوذية والهندوسية) في المنطقة، ولو أن الحال لم يكن كذلك في الهند. قد يكمن تفسير أفضل في الوضع الجغرافي للممالك المتنوعة في المنطقة التي تقع إما على حافة كل من الهند والصين (فيتنام، مالايا، تايلاند، بورما،

وكمبوديا، على سبيل المثال)، أو متناثرة في أرخبيل (إندونيسيا، الفلبين، وسلاسل جزر بحر الجنوب).

طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، عرّف المسؤولون الأوربيون في أجزاء من جنوب شرق آسيا جمهور السكان في الداخل على تاريخ المستعمرات الجديدة، بينما بدأوا بهدوء العملية التي استغلت، وهمّشت في الوقت نفسه، تواريخ السكان الأصليين التي كان يفترض بهم استخدامها كمصادر. وكما هو الحال في الهند، فقد أشركت النخب المحلية في نهاية المطاف في استخدام الأنواع الغربية. كما لم يكن الاحتلال الإمبراطوري ضروريا لنشر الممارسات التاريخية الأوربية. ففي تايلاند (سيام) الملكية غير المستعمرة، حيث أذن ملك سلالة الچاكري ذو التفكير التاريخي راما الرابع (أو مونغكوت *Mongkut*، حكم 1851 ـ 1868) بإصدار طبعة رسمية من **سجلات أيوتهايا**، لم يظهر التاريخ الحديث والكتب المدرسية على النمط الغربي حتى عقد 1920. وفي الوقت نفسه، أدى إدخال الطباعة إلى توسيع انتشار الأعمال التاريخية، بما في ذلك العديد من الأعمال من الخارج، خلال الفصول الدراسية التايلاندية.

لقد أُسِّس تقليد تدوين التاريخ الملكي القومي على يد ابن مونغكوت الأصغر، الأمير دامرونغ راجانوباب *Damrong Rajanubhab*، أو راچانوپاپ *Rachanuphap* (1862 ـ 1943)، وهو سياسي ومصلح تربوي اتجه إلى التاريخ بعد تقاعده. نظرا لإعجابه برانكه والأبحاث الغربية بشكل عام، تجسد أعمال دامرونغ التاريخية استخدام نقد المصدر مع الاحتفاظ بالتركيز السلالي على شكل أصيل وأقدم للكتابة التاريخية التايلاندية يسمى *phongsawadan*. كان دامرونغ مسؤولاً عن نشر سلسلة واسعة من التواريخ، بعنوان **التواريخ المجمّعة** *Prachum phongsawadan* ـ يمكن اعتبارها المكافئ التايلاندي لسلاسل نصوص تاريخية أوربية هائلة مثل *Monumenta Germaniae Historica* أو «سلسلة رولز *Rolls Series*» البريطانية لسجلات العصور الوسطى.

حدثت عملية مماثلة من التغريب التاريخي في الشرق الأوسط، حيث تنافست القوى الغربية والإمبراطورية العثمانية على النفوذ خلال القرن التاسع عشر. فكما

أوضح يوسف شويري في دراساته عن تدوين التاريخ العربي، فإن المثقفين في الأجزاء العربية وغير العربية من العالم الإسلامي على حد سواء بدأوا بين منتصف القرن وأواخره بكتابة تواريخ مكرسة لتأسيس الماضي القومي، الذي أصبح الآن يشمل الفترات قبل الإسلامية. فقد رفض المؤرخون الإيرانيون في القرن التاسع عشر، كما يلاحظ محمد توكّلي طَرقي، الأشكال الموروثة للتاريخ المتأثرة بالإسلام لصالح السرديات التي سلطت الضوء على التقدم والتطور الخطي. وانطلاقا من إعجابهم بالتقدم الكبير الذي حققته أوربا، فقد ألقوا باللوم على تخلف بلادهم الواضح على العرب والإسلام، وعلى أساس من الأدب الأصلي قبل الإسلام والنقد الغربي للثقافة ‹الشرقية›، فقد بنوا ماضيا قوميا ربط بلاد فارس بأوربا بدلاً من العالم الإسلامي. وبمعنى من المعاني، يمكن أن يقال إنهم قد جعلوا ماضيهم مستشرقا بذاته.

ولكن الدوافع الثقافية والدينية الأقدم للوحدة الإسلامية لم تقل أهمية أبدا عن القومية العربية وغير العربية الأحدث: فقد كان على شعوب الشرق الأوسط من مختلف الأديان مواجهة معضلة التعايش مع القوى الغربية. حيث بدأ الفكر الإسلامي الحديث، المتأثر بالعلم والتقنية الغربية، يتشكل أيضا في أيدي إصلاحيين ناشطين مثل جمال الدين الأفغاني (1838 ـ 1897)، الذي ألف كتابا عن تاريخ أفغانستان. وكانت الأصول الاجتماعية للمؤرخين واهتماماتهم مختلفة تماما عما كانت عليه في العصور السابقة. فقد صاحب الوجود الأوربي تراجع دور ‹العلماء›، أي الطبقة العابرة للقوميات من رجال الدين المتعلمين الذين أثروا في الكتابة التاريخية في العالم الإسلامي طوال قرون، وكان كثير منهم متعددي التخصصات ومفكرين علميين لا مؤرخين فحسب. وستحل محلهم طبقة ‹برجوازية› (من أطباء ومحامين وصحفيين)، غالبا ما كانت ذات توجه غربي للغاية، ووريثة لنظرة العصور الوسطى إلى التاريخ كفرع من الأدب أو فن القصة بدلاً من خادم للدين. وخلال هذه الفترة، بذلت الجهود لطباعة المصادر التاريخية، وأنشئت العديد من الجمعيات العلمية ذات الاهتمامات التاريخية.

تقدم مصر دراسة حالة جيدة. ففيها استهل عبد الرحمن الجبرتي (1753 ـ 1825) اتجاهات فكرية لاحقة بفضل سرده المناهض للفرنسيين عن الاحتلال النابليوني لمصر (1798 ـ 1801)، **مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس** (جمع ح. 1801) وسرد

تاريخي أطول للأحداث من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر [هو **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**]. جاءت أعمال الجبرتي في نهاية فترة بوار طويلة، حيث كانت الكتابة التاريخية في مصر تحت حكم العثمانيين شحيحة نسبيا وذات جودة رديئة بشكل عام، ولكن سرعان ما ظهر مؤرخون آخرون. ومع ذلك، فإن الظروف السياسية التي دعمت هذا النوع من تدوين التاريخ كانت على وشك التلاشي في أوائل القرن التاسع عشر، وهي فترة من شأنها أن تشهد القومية العربية الصاعدة وهي تندد بوحدة المسلمين، التي تمثلها اسميا الإمبراطورية العثمانية المتدهورة، وهي خصم أشد وطأة في الوقت الحالي من الأوربيين.

هناك مصري آخر، هو رفاعة رافع الطهطاوي (1801 ـ 1873)، أمضى خمس سنوات في باريس، وأصبح واسطة رئيسية بدأ من خلالها التأريخ الأوربي الحديث يتدفق إلى العالم العربي. فقد ترجم إلى العربية أو أشرف على ترجمة العديد من أعمال التنوير، بما في ذلك كتاب **شارل الثاني عشر** لڤولتير و**كارل الخامس** لروبرتسون، وقدّم الطهطاوي تاريخ مصر القديمة في عمل [هو **أنوار توفيق الجليل**] (1868 ـ 1898) مزج فيه بين الأشكال التاريخية الكلاسيكية والحديثة في الإسلام. وقد ظل يشدد على بعض القيم الراسخة في تدوين التاريخ الإسلامي كما حددها مؤلفون مثل ابن خلدون (الذي رعى الطهطاوي طباعة **مقدمته** عام 1857) ومن قبلها الأحاديث النبوية. وبينما أقر الطهطاوي بدور الإسلام في التاريخ المصري، فإن أعماله تعاملت مع البلاد كوحدة وطنية مميزة كانت موجودة بشكل مستمر من العصور القديمة إلى العصر الحديث، واحتفت بمصر كمقر للحضارة العالمية والتعلم (بنحو يشابه دفاع المؤرخين اليونانيين المعاصرين عن استمراريتهم مع هيلاس [اليونان] القديمة). وتقسيمه للتاريخ إلى مجالات بشرية ومقدسة، وتقسيم الأول إلى قديم وحديث (مع تصنيف الموضوع بنحو أدق إلى ‹عالمي› أو ‹خاص›)، يظهر بوضوح علامات التأثير الغربي.

كان للطهطاوي دور فعال في إصلاح المناهج الدراسية المصرية، التي كانت تتضمن التاريخ تقليديا بحلول عقد 1870. وقد أُسِّسَت الجامعات في أوائل القرن العشرين، وصاحبها التدريب الأكاديمي للباحثين في التاريخ والفنون والعلوم

الأخرى. أما التأريخ الأكاديمي فقد بدأ ببطء في عصر ما بعد العثمانيين بدءا من عشرينيات القرن الماضي، على أيدي علماء مدربين من أمريكا الشمالية وأوربا في البداية، بنحو توسعت معه هيمنة التاريخ الأكاديمي وفق النمط الغربي على التقاليد التاريخية المميزة للعالم الإسلامي. كان شفيق غربال (1894 ـ 1961) من بين جمع من المؤرخين المصريين، كان منهم أيضا محمد صبري (1890 ـ 1978) خريج جامعة السوربون، درسوا جميعا في أوربا واستخدموا المصادر الأوربية في أبحاثهم. تلقى غربال تعليمه في إنجلترا، أولاً في ليڤرپول ثم في معهد لندن للبحوث التاريخية، حيث قدم أجزاء من كتابه المستقبلي للحصول على درجة الماجستير، تحت إشراف آرنولد ج. توينبي في شبابه (انظر أدناه، ص 284-285). كانت النصوص المنهجية الغربية منتشرة أيضا في الشرق الأوسط، رغم التلكؤ الذي روج لأفكار باتت عتيقة بالفعل في موطنها الأوربي: فقد نشر المؤرخ السوري أسد رستم (1897 ـ 1965) دليلاً باللغة العربية عن المنهج التاريخي الغربي في عام 1939، كان مأخوذا إلى حد كبير من الكتاب المدرسي الشهير للانغلوا وسينوبوس، الذي كان تأثيره يتضاءل آنذاك في وطنه فرنسا.

كانت الميول القومية والعلمانية ملموسة أيضا في الإسلام غير العربي، ولم تكن أقوى في أي مكان مما كانت عليه في الحاضرة الإمبراطورية للإسلام، تركيا العثمانية، حيث استمرت التقاليد القديمة للكتابة التاريخية خلال القرن الثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر. ظل المؤرخون الرسميون يختارون بالتعيين خلال هذه الفترة، كما أدى انتشار الطباعة والقراءة إلى إثارة شهية الجمهور للأعمال التاريخية. وحتى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، استمر مؤلفو الحوليات المعينون من قبل البلاط أو المتزلفون في الهيمنة على الساحة، وكان تدوين التاريخ المستقل أمرا نادرا بحق. وقد أمضى المؤرخ الأبرز لتلك الفترة، أحمد جودت باشا ***Ahmet Cevdet Paşa*** (1822 ـ 1895)، ثلاثة عقود في إعداد تاريخ من اثني عشر مجلداً للأحداث الإمبراطورية منذ عام 1774 وحتى 1826، نال بفضل مجلداته الأولى تعيينه في منصب مؤرخ رسمي. وكما هو الحال في سائر العالم العثماني، كانت هذه فترة انتقالية نما خلالها الاهتمام بالثقافة الأوربية وكتابة تاريخها جنبا إلى جنب مع معرفة اللغات والآداب الغربية. وقد ظهرت أنواع أدبية جديدة، بما في ذلك المذكرات والتواريخ

المحلية التي كانت أكثر من مجرد سير ذاتية لوجهاء محليين. كما بدأت «التخصصات الفرعية» للتاريخ، مثل علم الأختام والنقوش والعملات، بالظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتبعت ذلك نشأة التدريب الأكاديمي على النمط الغربي حين أعيد تنظيم جامعة إسطنبول (1924) على نحو قريب من شكلها الحديث.

في أعقاب انهيار الإمبراطورية في نهاية الحرب العالمية الأولى، أعاد زعيم الدولة التركية الجديد، مصطفى كمال أتاتورك (1881 ـ 1938)، وهو القارئ الجيد للتواريخ الأوربية، إحياء التاريخية العثمانية السابقة تحت عنوان الجمعية التاريخية التركية (1931). وفي عام 1935 أنشأ أتاتورك كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا في أنقرة بهدف صريح هو توفير مؤسسة أكاديمية على النمط الغربي يمكن للعلماء الشباب نيل التدريب فيها. وقد وفر دعما قويا للكتابة التاريخية من منظور قومي في محاولة لإزاحة الصور القديمة للعثمانيين كمستبدين شرقيين ضعفاء عبر تقديم «أطروحة تاريخية تركية» (*Türk Tarih Tezi*) تمجد الأمة التركية وماضيها الأوربي؛ وكان ذلك مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاحتلال التركي لمنطقة الأناضول في العصور الوسطى، حيث كان أتاتورك يرغب في تثبيط أي مغامرات إمبراطورية «للشعوب التركية» خارج هذه الحدود، وكذلك ربط الأتراك بأوربا «البيضاء» وآسيا الوسطى، حيث افترض أن كل الحضارات نشأت هناك، بدلا من شرق آسيا «الصفراء». (وهذا تذكير جدير بأنه لا ينبغي لنا افتراض أن تطبيق عدسة عنصرية على التاريخ كان حكراً بأي حال على الإمبريالية الغربية وحدها).

أُنشِئت لجنة الأبحاث التاريخية التركية عام 1931، وفي العام التالي أُعلِنَت الأطروحة التاريخية التركية بوصفها العقيدة الرسمية للدولة التركية. ورغم عدم تعاطف المؤرخين الجمهوريين مع الإمبراطورية المترنّحة في مائتي العام الماضية، فقد تبنوا نجاحات عصر المجد العثماني بين القرن الثالث عشر والسابع عشر. حيث بدأ المؤسس الأكاديمي لتدوين التاريخ التركي الحديث، محمد فؤاد كوپريلي *Mehmet Fuat Köprülü* (1890 ـ 1966)، في توضيح هذه الرؤية خلال عقد 1930 في سلسلة من المحاضرات في جامعة السوربون، سرعان ما نُشرت تحت عنوان **قيام الدولة العثمانية** *The Origins of the Ottoman Empire* باللغة الفرنسية والتركية

(نشرت الطبعة الإنجليزية عام 1992). والمهمة التي تبناها جيله من المؤرخين الأتراك، وهي فصل الأسطورة عن الحقيقة وتحقيق التوازن بين الإثنية والدين وسائر المؤثرات، تذكرنا بتدوين التاريخ القومي الرومانسي في أوائل القرن التاسع عشر، وبشكل أكبر بمناقشات عصر النهضة حول الأصول القومية، وإن كان ذلك يتم الآن بأدوات الأبحاث الحديثة.

قدمت لنا منطقة شرق آسيا خلال هذا الكتاب المثال الأكثر استدامة عن تقليد لتدوين التاريخ، أو مجموعة من التقاليد المتميزة والمنفصلة عن تقاليد أوربا، وكذلك مثالا تطور وترقى بالتوازي معه بدلاً من التفاعل، إلا في بعض الأحيان. ولكن هذا التطور المنفصل انتهى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. يجب علينا هنا عكس ممارساتنا السابقة، أي معاملة إمبراطورية جزيرة اليابان بعد جارتها الأكبر الصين، لأن اليابان اتجهت إلى التحديث والنفوذ الغربي قبل الصين بجيل كامل، وعلى عكس الصين لم يتطلب الأمر الإطاحة بإمبراطوريتها من أجل تحقيق ذلك. كانت اليابان مغلقة منذ فترة طويلة أمام الغرب خلال عهد توكوغاوا، لكنها انفتحت على النفوذ الدولي في السنوات التي سبقت وتلت استعادة الميجي عام 1868، التي أنهت ما يقرب من سبعة قرون من حكم الباكوفو المتعاقبين نيابة عن الأباطرة الصوريين. تمثل استعادة الميجي قطيعة حادة مع ما كان يجري من قبل - بما في ذلك ممارسات تدوين التاريخ التي مثلت أساس النظام القديم، وذلك بعيد الاستعادة بوقت قصير.

رغم الجهود المبكرة لإضفاء طابع مؤسسي على الكتابة التاريخية، فإن محاولة تجميع **تاريخ الأزمان لليابان العظمى** *Dai Nihon hennenshi*، وهو تاريخ جديد على غرار **التواريخ الوطنية الست**، قد ولدت ميتة. إذ لم يعد من الممكن ببساطة إحياء الأشكال القديمة للكتابة التاريخية، أو تصميم المؤسسات على غرار أسلافها القدامى، لأسباب ليس أقلّها أن الهدف الرئيسي لمهندسي عصر الاستعادة كان إنجاز ما فشل الشوغون في القيام به خلال قرنين من الانعزالية: أي التعامل مع الوجود الذي لا مفر منه للغرب على أساس أرقى بكل وضوح، والتعلم من الأوربيين والأمريكيين دون التضحية بالهوية اليابانية خلال ذلك. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت الرعاية المركزية للتاريخ (الرسمي) (على عكس الدعم المالي الحكومي للكتابة التاريخية المستقلة،

ولغرض الحفاظ على المصادر ونشرها) بحد ذاتها ممارسة عفّى عليها الزمن في كثير من أنحاء العالم، ولم تعد تحظى باحترام كبير في الدول الأوروبية ذاتها التي كان يفترض أن تقدم مثالا لإصلاح تدوين التاريخ. فهناك كانت الجامعات تحتل الصدارة. انتقل ديوان كتابة التاريخ قصير العمر، الذي أُسِّس بعد وقت قصير من الاستعادة، إلى جامعة طوكيو الإمبراطورية في عام 1888، وأُسِّس هناك قسم للتاريخ الياباني في عام 1889.

جاء الحل من تجاوز النماذج الأصلية لتمثيل الماضي، إلى جانب أساليبها ومصادرها الصينية، والتطلع نحو الغرب. في وقت مبكر من عام 1878، أُرسِلَ موظف شاب (أصبح في وقت لاحق سياسيا مؤثرا) يُدعى سويماتسو كينچو *Suematsu Kencho* (1855 ـ 1920) إلى لندن لتقديم تقرير عن تدوين التاريخ الفرنسي والبريطاني، وكانت العديد من الأمثلة عليهما متاحة بالفعل باللغة اليابانية. ورسائله تشير إلى الإعجاب الشديد بالتقاليد الكلاسيكية للتاريخ السياسي من ثوسيديدس مرورا بكلارندون ووصولا إلى غيزو، والاحترام الصحي للنهج الوضعي لدى باكل (من جديد: إما فشلا منه في رؤية الاختلافات الجوهرية أو تجاهلها طوعا). وفي غضون عقد من الزمان، رتب مدير مكتب تدوين التاريخ شيغينو ياسوتسوغو *Shigeno Yasutsugu* (1827 ـ 1910) لمجيء أحد تلاميذ رانكه الأباعد، وهو اليهودي الألماني لودفيغ ريس *Ludwig Riess* (1861 ـ 1928)، إلى اليابان كي يصبح أول أستاذ للتاريخ في جامعة طوكيو الإمبراطورية عام 1887. وقد احتفظ ريس بهذا المنصب حتى عام 1902، حيث استطاع خلال تلك الفترة أن يدرب عددا كبيرا من أساتذة التاريخ الياباني في الجيل القادم. وقد تبع ذلك نقل مكتب تدوين التاريخ إلى الجامعة كمعهد أبحاث فرعي، والتعيين الرسمي لكومي كونيتاكي *Kume Kunitake* وشيغينو ومؤرخين آخرين كأساتذة هناك. كما أصبح للتاريخ الياباني قسمه المنفصل في عام 1889 واكتسب كرسيا خاصا به في عام 1904. وفي غضون ذلك، كان العلماء ذوو العقلية الإصلاحية والموالون للغرب عموما مثل فوكوزاوا يوكيچي *Fukuzawa Yukichi* (1835 ـ 1901)، وهو قارئ لألكسيس دي توكفيل، باكل، سبنسر، وغيزو، قد صاغوا نظرية للحضارة تتبنى مبدأ التفوق الغربي وضرورة أن تلحق اليابان ببقية العالم بعد قرون من العزلة.

ولكن كما هو الحال في أوربا، لم يتقبل الجميع قيمة تدوين التاريخ الأكاديمي. كان ياماجي آيزان *Yamaji Aizan* (1864 ـ 1917) مؤرخا هامشيا وشعبيا ينتقد بشدة عقم الأبحاث في جامعة طوكيو الإمبراطورية، وكذلك ‹التاريخ الميت› (وكأنه متأثر بنيتشه؟). كما دعا إلى كتابة روايات تغطي طيفا واسعا من الموضوعات، على عكس التركيز الذي ترعاه الحكومة على نقد الوثائق والتحقق من الوقائع. صاغ ياماجي مصطلح ‹ الأبحاث التاريخية الخاصة ***minkan shigaku***› لتمييز نوع تاريخه عن ذلك الناتج عن رعاية الدولة. إضافة إلى ذلك، فإن الأبحاث الناتجة عن نقد المصدر الذي تبناه أصدقاء ريس اليابانيون لم تكن موضع ترحيب دائما، خاصة بين القوميين المحافظين، ورثة موتوئوري نوريناغا، الذين كانوا مصممين على الحفاظ على تراث الدور الاجتماعي والأخلاقي لتدوين التاريخ والصحة الحرفية للتقاليد القديمة. كان شيغينو ذاته (الذي كان أيضا رئيسا للجمعية التاريخية التي تأسست عام 1889) يلقب أيضا ‹بالدكتور الماحق ***Dr Obliterator***› نظرا لهجماته على الحقائق التقليدية مثل وثاقة كتاب **التايهيكي** ***Taiheiki***، وهو أحد أكثر التواريخ اليابانية احتراما في العصور الوسطى، وتاريخية بعض شخصياته. كما أُجبر زميله كومي كونيتاكي (1839 ـ 1931) على الاستقالة من منصبه عام 1892 نظرا لاستخدامه أساليب علمية لتقويض تاريخية إحدى الأساطير التأسيسية لليابان. في عام 1911، أدى الجدل حول الكتب المدرسية إلى خسارة العديد من المؤرخين لمناصبهم، ليدفع بالتاريخ الأكاديمي والتاريخ الدراسي (أو التاريخ ‹التطبيقي› وفق تصنيف أقدم) في طرق متباينة استمرت في اليابان حتى يومنا هذا. وفي عام 1942، أُدِينَ المؤرخ تسودا سوكيتشي *Tsuda Sokichi* لطعنه في الأساطير الوطنية **للكوجيكي** (التي ما زالت مبجلة آنذاك) في عمل كان قد نشره قبل ثلاثة عقود تقريبا حول البلاط الإمبراطوري القديم. فقد كانت شكوكه حول تاريخية الإمبراطور جيمّو وخلفائه المباشرين غير مقبولة تماما في دولة عسكرية توسعية أحيت الذكرى الـ 2600 للإمبراطور المؤسس في عام 1940 مع احتفالات وطنية.

ستزود التجارب اليابانية تدوين التاريخ الغربي بميناء يدخل عبره إلى سائر دول شرق آسيا. وقد بلغ هذا ذروته في كوريا خلال فترة الاحتلال الياباني بين عامي 1910

و1945، وهو حلقة من الإمبريالية داخل آسيا حطّمت سلسلة طويلة من تدوين التاريخ الكوري القائم على السلالات، بينما قدمت الأدوات الحديثة تاريخا أكثر قومية مكتوبا وفق خطوط تقدمية. ومع ذلك، فإن التغيرات الأشد وقعا في تدوين تاريخ شرق آسيا ستظهر في الصين، موطن الكونفوشية ذاتها، بالتزامن مع العقود الأخيرة لسلالة الچينغ والإمبراطورية ذاتها. وكما لوحظ في الفصل السابق، فقد شهد أواخر القرن السابع عشر وكذلك الثامن عشر تطورات بارزة في أساليب البحث التاريخي، ولا سيما التحقيقات التجريبية للغاية التي أجراها باحثوها ذوو التوجهات اللغوية. وإضافة إلى ذلك، فبحلول أوائل القرن التاسع عشر، بدأ المؤرخون الصينيون بتقبل فكرة أن تنظيم الماضي على أساس خطوط السلالات يمكن التخلي عنه أو تحاشيه على الأقل؛ وقد عرفوا أن بدائل نموذج التاريخ القياسي كانت موجودة لقرون بهيئة باقة متنوعة من الأنواع المختلفة لكتابة التاريخ الخاصة فضلا عن الرسمية. إن فهم الظروف الكامنة وراء الانهيار المفاجئ لإمبراطورية عمرها 22 قرنا أمر ضروري لفهم كيف أن الصينيين، الذين ربما كانوا الأشد اكتفاءً بذاتهم بين كل الحضارات العالمية (إلى جانب فترات توسعهم الخارجي واستيراد الديانات الأجنبية مثل البوذية)، بدأوا فجأة في استيعاب الممارسات التاريخية الغربية في نهاية القرن التاسع عشر. وأهمية ذلك تتضاعف لأن مؤرخين مثل كانغ يووي *Kang Youwei* (1858 ـ 1927)، وعالم اللغة فو سينيان *Fu Sinian* (1896 ـ 1950)، فضلاً عن منظرين اجتماعيين ذوي تفكير تاريخي مثل ليانج كيشاو *Liang Qichao* (1873 ـ 1929)، كانوا أيضا في طليعة حركات الإصلاح الاجتماعي أو حتى الثورة.

كانت الأعمال الغربية تتقاطر إلى الصين بأعداد أكبر خلال القرن التاسع عشر، وأنشئ مكتب للترجمة في غوانجو *Guangzhou* عام 1839. وبفضله أصبحت النصوص الرئيسية في الفلسفة السياسية الأوروپية والتاريخ متاحة للقراء. ولكن للوهلة الأولى لم يُشتَقّ تدوين التاريخ الغربي مباشرة من أوروپا ولكن من جهة ثانية، أي عبر اليابان. لقد حظيت الجزيرة المجاورة للصين ببداية قوية على طريق التحديث، وكانت نجاحاتها الحديثة في البداية أكثر إرعابا للصينيين في نهاية المطاف من تلك التي حققتها القوى الأوروپية. ففي 1894 ـ 1895 تغلبت اليابان على الصين في الحرب

الصينية اليابانية، والتي خاضتها إلى حد كبير بهدف السيطرة على كوريا. وفي عام 1905 كان النموذج الياباني للنجاح الشرقي من خلال الحداثة (*gendaika*) أكثر إثارة في هزيمته المذهلة لإمبراطورية أخرى مريضة، هي روسيا القيصرية. لطالما كان الفكر التاريخي الصيني يميل إلى وجهات النظر الدورية للتاريخ كسلسلة من الفترات المتناوبة من النظام والفوضى، ترتقي خلالها سلالات فردية ثم تسقط. وفي مواجهة التغيير السياسي السريع والشعور بالأزمة المتكررة، قد يلجأ المؤرخون بدلاً من ذلك إلى تفسير الماضي باعتباره تطورا خطيا على مدى سلسلة من الفترات، وإلى فهم بلدهم لا بوصفها *tianxia* (،كل ما تحت السماء،) ولكن كدولة قومية محدودة زمنياً ومقيدة جغرافياً (*guojia*).

خلال هذه الفترة، يمكن تقسيم المؤرخين على نطاق واسع إلى ثلاثة أصناف: الكونفوشيين التقليديين، القوميين الليبراليين، ثم الماركسيين الذين تطوروا في وقت لاحق. في السنوات الأخيرة من حكم الچينغ، أسست مجموعة من القوميين حركة ،الجوهر القومي،، ونشروا أبحاثا تاريخية وروجوا لكتابة تاريخ صيني جديد. والأهم من ذلك، أن المصلح القومي الليبرالي ليانغ چيشاو قد نفي إلى اليابان وأماكن أخرى لمدة اثني عشر عاما (1899 ـ 1911)، وأثناء وجوده في اليابان اكتسب اللغة بسرعة وتواصل مع وجهات نظر الإصلاحيين مثل فوكوزاوا يوكيتشي. وعبر فوكوزاوا وغيره من المؤلفين اليابانيين تعرف ليانغ النظريات الوضعية لهنري باكل، التي انتشرت بشكل جيد في شرق آسيا، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية، بعد فترة طويلة من رفضها بشدة من قبل زملائه البريطانيين. وأثناء وجوده في اليابان، كتب ليانغ مقالاته الخاصة عن مفكرين أوروپيين مثل روسو وبنثام وداروين وكانط. في عام 1902 نشر دليلاً للكتب اليابانية تضمن مسردا لكتب التاريخ المعتمدة آنذاك، وهي قائمة تضم ميشليه وغيزو بالإضافة إلى العديد من المؤرخين اليابانيين.

نظر ليانغ أيضا إلى الغرب، بدلاً من البدائل الصينية القديمة، من أجل تحقيب غير سلالي للتاريخ؛ وأشار إلى التقسيم الشائع للزمن إلى عصور قديمة ووسطى وحديثة ومعاصرة، الذي قدمه بعد ذلك إلى الصين، رغم تأكيده على أن عهودها لم تكن متزامنة بدقة مع نظيراتها في الغرب. وقد رفض ليانغ النموذج الحوليّ للكتابة التاريخية الصينية

وأعرب عن أسفه لعدم وجود تاريخ وطني تراكمي. لقد كانت الصين مساهماً رئيساً في ثقافة العالم لآلاف السنين، ولكن قصتها «لم تُرو من قبل من ناحية تاريخية»، حيث غطى عليها تقطيع ماضي البلاد على طول خطوط السلالات. وكان أيضا يعتقد أنه لا يمكن تأسيس فهم حديث للتاريخ لو استمرت الصين في رؤية نفسها كعالم قائم بذاته بدلاً من أمة، وأجرى مقارنة صريحة مع روما القديمة، مشتقة من قراءته لغيبون: ففي كلا البقعتين، كما جادل، أدى الافتقار إلى تقدير مكانة بنيتها السياسية «كأمة» ضمن عالم أوسع، بالإضافة إلى الشعور الرضيّ بالتفوق على الشعوب الأخرى، إلى تدمير الوطنية الحقيقية. ونظرا لاهتمامه بالتاريخ وكذلك التاريخ التقدمي ـ وإدراكه للعلاقة بين الاثنين ـ توصل ليانغ إلى استنتاج مفاده أن الأوان لم يفت الصين بعد كي تحدّث نفسها وتلتحق ببقية العالم.

لم يكن ليانغ نفسه غير حساس لدور «الرجل العظيم» في التاريخ: فقد جرب كتابة السيرة الذاتية واستخدم الشخصيات البطولية بشكل متكرر لتوضيح حججه على غرار كارلايل، الذي اقتبس منه بصراحة في سيرة حياة غير مكتملة للإنجليزي أوليڤر كرومويل. ولكن إذا سمعنا هنا أي نغمات جرمانية، فهي تعود إلى لامپريخت لا رانكه، وربما اشتقها ليانغ من فوكوزاوا في محاكاة للحركات الأمريكية المعاصرة، التي باتت الآن تتسلل أيضا إلى الممارسة التاريخية الصينية. في أعقاب حركة الثقافة الجديدة «الرابع من مايو» التي بدأت عام 1919، سرعان ما تُرجِم كتاب **التاريخ الجديد** *The New History* لجيمس هارڤي روبنسون إلى اللغة الصينية على يد أحد المعجبين بروبنسون، خه بينغ سونغ *He Bingsong* (1890 ـ 1946). درس خه بينغ سونغ في وسكونسن وپرينستون، وقام لاحقا بتكييف (بدلاً من ترجمة) النص الأكثر تقليدية للانغلوا وسينوبوس إلى اللغة الصينية بعنوان **المبادئ الجديدة للتاريخ العام** *New Principles of General History* (1928). يبدو أن أسلوب روبنسون في **التاريخ الجديد** قدم مسارا أكثر جاذبية للحداثة من ذلك الذي قدمته التاريخية المتأثرة برانكه. وبالنسبة لفو سينيان *Fu Sinian*، وهو زعيم طلابي خلال حركة الرابع من مايو، فإن هذه النظريات والطرق الغربية الجديدة قدمت حلاً واضحا لمشاكل الصين. وكما اتضح لاحقا، فقد كان مفرط التفاؤل، وستتخذ الصين في النهاية طريقا مختلفا تماما نحو

التحديث تحت قيادة مفكر أوربي آخر، هو كارل ماركس، ومعجبه الصيني الرئيس، ماو تسي تونغ.

النساء واحتراف التاريخ، 1800 ـ 1945

شهد القرن التاسع عشر شيئا آخر لم يسبق له مثيل من الناحية التاريخية، ألا وهو المشاركة الأوسع بكثير للنساء في الكتابة التاريخية في أوربا وأمريكا الشمالية. كانت النساء بالطبع قارئات للتاريخ لعدة قرون، وقد ورد ذكر بعض المؤرخات في فصول سابقة من هذا الكتاب. ولكن عدد النساء اللواتي كتبن في التاريخ الشعبي والسيرة الذاتية قد تزايد بعد عام 1800، وبحلول عام 1900 بدأن فعلا في دخول ‹المهنة› الناشئة. ولكن المقاومة التي واجهنها هناك كانت هائلة. فقد ظلت الندوة البحثية *seminar* (وهي كلمة ذات أصل ذكوري واضح، كما هو الحال بالنسبة للمصطلح الأكاديمي المستخدم في كثير من الأحيان ‹الرئيس/ المنوي *seminal*›) حكرا على الذكور بخلاف المحاضرة الجامعية المفتوحة للعموم ـ بل إن ترايتشكه بالفعل أعلن أن القبول بحضور النساء لدروسه في برلين سيكون إهانة لتلاميذه الذكور.

أما خارج الجامعات، فقد تركت النساء بصماتهن بطرق مختلفة، بما في ذلك استضافة صالونات فكرية، كما فعلت زوجتا رانكه وأوغستان تييري. وقدم التاريخ العائلي والاجتماعي منفذا جاهزا للاهتمامات التاريخية النسائية، كما فعلت البيئة المادية للمنزل والمصنع: فالأميركية لوسي مينارد سالمون *Lucy Maynard Salmon* (1853 ـ 1927) ستحول اهتمامها بعلم الآثار الكلاسيكي إلى عمل رائد في تاريخ الثقافة المادية. وسيظل سؤالا مفتوحا إذا كانت النساء قد اتجهن إلى موضوعات كهذه لأنهن لن يؤخذن على محمل الجد في مجالات أكثر تقليدية كالتاريخ السياسي والعسكري، أو كانت تلك التوجهات القديمة لا تهمهن كثيرا ببساطة. وتقترح جولي دي جاردان مثال آن وارتون *Anne Wharton*، التي لاحظت في عام 1893 أن ‹قراءة المجالس والمؤتمرات والمعارك لا تكفي: فالرجال والنساء يرغبون في معرفة أمور أكثر حميمية وشخصية عن الحياة في الماضي›.

يقع جزء كبير من أعمال فرز المواد وتحريرها وفهرستها في المحفوظات، وكذلك

نشر ملخصات عنها أحيانا، على عاتق باحثين من خارج المؤسسة الأكاديمية. وكانت النساء على وجه الخصوص، اللاتي اقتصرن سابقا على كتابة السير الذاتية (كسلسلة حياة الملكات في عدة أجزاء للأخوات ستريكلاند الإنجليزيات) وكتب الأطفال، من بين أشد المساعدين في الأبحاث اجتهادا (وأكثرهم تعرضا للاستغلال) ـ وغالبا ما أغفل ذكرهن المؤرخون الذكور الذين استعانوا بأعمالهن. فقد أقامت الإيرلندية ماري أغنس هيكسون *Mary Agnes Hickson* (1825 ـ 99) ذكرا لنفسها عبر تحرير مصادر التاريخ الإيرلندي في القرن السابع عشر، بينما تطورت ماري آن إيڤريت غرين *Mary Anne Everett Green* (1818 ـ 95) من كونها كاتبة سيرة للأميرات الملكيات إلى مؤلفة العديد من 'التقويمات' (أي الملخصات) لأوراق الدولة غير المفهرسة. وقد كتب غيرهن أعمالا خاصة، تحت وطأة ثقيلة لأحد الذكور عادة. وقد كلف المؤرخ البريطاني إدوارد أغسطس فريمان مجموعة من النساء (مفضلاً إياهن على أقرانه من الذكور الذين لن 'يذعنوا' لإرادته) بتأليف عدة عناوين ضمن سلسلة من النصوص المدرسية عن التاريخ البريطاني تحت إدارته؛ وأشار صديقه ج.ر. غرين *J.R. Green* إلى هذا بأنه 'حريم تاريخي'. وتأثرت إيديث طومسون *Edith Thompson*، التي ألفت جزء إنجلترا من هذه السلسلة، بنفور فريمان كما يبدو من الحكايات والأقاصيص بشدة لدرجة أن غرين نفسه وجد العمل مملا. وقامت أرملة غرين، أليس ستوپفورد غرين *Alice Stopford Green* (1847 ـ 1929) بتأليف العديد من الكتب، بما في ذلك دراسة محترمة عن الحياة في بلدات إنجلترا في القرن الخامس عشر، بينما نشرت لويز، زوجة ماندل كرايتون (1850 ـ 1936)، عددا من كتب التاريخ للأطفال.

شرعت النساء في نيل درجة الدكتوراه في التاريخ في أوائل القرن العشرين في جميع أنحاء أوربا وأمريكا الشمالية. وشمل ذلك عددا من النساء الأمريكيات السود، اللائي واجهن عقبة العنصرية الإضافية، مثل المعمرة آنا جوليا كوپر *Anna Julia Cooper* (1858 ـ 1964) التي دافعت عن أطروحتها في جامعة كولومبيا وهي في الستينيات من عمرها. وقد أدت الشحة النسبية في فرص التوظيف الأكاديمية حتماً إلى تخلي بعضهن عن التاريخ من أجل مساعٍ أخرى: فقد حصلت المؤرخة السويسرية ماريا ڤازر *Maria Waser* (قبل الزواج: كريبس، 1878 ـ 1939) على درجة الدكتوراه

في جامعة بيرن عن التاريخ السويسري في القرن الخامس عشر، لكنها سرعان ما تركت هذا التخصص وآثرت دخول سلك الأدب. وكان بعض آخر منهن أوفر نجاحا في بناء مكانتهن الخاصة. فالتاريخ الاقتصادي سيثبت، الذي أصبح الآن راسخا كبديل قوي للتاريخ السياسي داخل الجامعات، أنه جذاب للنساء بنحو خاص. ورغم حرمان الأمريكية هيلين سمنر وودبري *Helen Sumner Woodbury* (1876 ـ 1933) من منصب الأستاذية، فقد شغلت مناصب جامعية وحكومية أصبحت فيها من أوائل المدافعين عن تاريخ العمل. وأصبحت ليليان نولز *Lilian Knowles* (1870 ـ 1926) الخريجة من كامبردج عضوا ناجحا في كلية لندن للاقتصاد *London School of Economics (LSE)*. وكانت من بين تلاميذها أليس كلارك *Alice Clark* (1874 ـ 1934)، وهي ناشطة سياسية وسيدة أعمال بارزة لم تشغل منصبا أكاديميا مطلقا، ولكن كتابها **الحياة العملية للنساء في القرن السابع عشر** *Working Life of Women in the Seventh Century* (1919) أصبح نصا تأسيسيا لتاريخ المرأة. وشقّت إيلين پاور *Eileen Power* (1889 ـ 1940)، المعاصرة الأصغر سناً لكلارك، وهي من الباحثين البارزين في القرون الوسطى في أوائل القرن العشرين، المعقل الذكوري للدراسات الأرشيفية الأوروبية عندما دخلت المدرسة الوطنية للمواثيق *École Nationale des Chartes* كطالبة دراسات عليا في عام 1910. ومثل نولز من قبلها، فقد أصبحت پاور أستاذة للتاريخ الاقتصادي في كلية لندن للاقتصاد (1931)، وكانت رائدة في حقل التاريخ الاقتصادي المقارن وكذلك تاريخ المرأة في العصور الوسطى. كانت پاور محاضرة مشهورة، امتازت أيضا لموهبة الإتيان بمواضيع أكاديمية جافة في الظاهر إلى المجال العام، في حالتها من خلال برامج إذاعية مبكرة للتاريخ.

كانت التحديات التي واجهت المؤرخات الأكاديميات الأوائل وفيرة، والأمثلة على سوء معاملتهن واستغلالهن غزيرة أيضا. ففي فرنسا، حيث كانت مدرسة الحوليات (انظر أدناه، ص 299-304) ترسم اتجاهات جديدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ساهمت نساء مثل سوزان دونيون *Suzanne Dognon* (1897 ـ 1985) في الأبحاث؛ لكنهن في الوقت نفسه كافحن من أجل الحفاظ على هويتهن واستقلالهن عبر الاشتراك مع أكاديميين ذكور أقوياء مثل زوج دونيون الأكبر سنا، لوسيان فافر. كما

مثلت المهاجرة اليهودية لوسي ڤارغا *Lucy Varga* (1904 ـ 41)، زميلة فاڤر لبعض الوقت وعشيقته لفترة وجيزة، رابطا بين عالم الحوليات وعالم الأبحاث الألمانية. وكان الاعتراف بهن شخصيا كأكاديميات أصعب تحقيقا من المشاركة الوثيقة في عمل الزوج الأشهر. فقد هربت أرملة المؤرخ الألماني أوتو هينتزه *Otto Hintze* (1861 ـ 1940)، هيدويغ هينتزه (1884 ـ 1942)، وهي المتخصصة المبدعة في الثورة الفرنسية، إلى هولندا بسبب أصلها اليهودي، لتنتحر عشية الترحيل إلى آوشڤيتز. وهناك حالة أقل دموية، ولكن قد تكون أكثر نموذجية، توضح وجود ‹السقف الزجاجي› لمهنة التاريخ: هي الحالة المغمورة لجيسي ويب *Jessie Webb* (1880 ـ 1944)، وهي مدرّسة أسترالية في ملبورن لسنوات عديدة، كانت تحمل عبئا تعليميا أعلى من أقرانها الذكور لكنها لم ترتق أبدا عن رتبة محاضر.

كان هناك بالتأكيد عدد أكبر من النساء الناشطات في الكتابة التاريخية عند نهاية الحرب العالمية الثانية مما كان عليه الحال في جميع العصور السابقة مجتمعة تقريبا، وقد برز بعضهن بشكل خاص كمؤلفات مشهورات خارج الساحة الأكاديمية. ومع ذلك، فقد كان هذا النجاح موزعا بنحو متفاوت، وظلت الإناث مواطنات من الدرجة الثانية في هذه المهنة، وهو أمر تثبته ملاحظة التوزيع الجنسي لطاقم أي قسم أكاديمي للتاريخ حتى عقد 1960. حيث لم تنتخب الجمعية التاريخية الأمريكية سوى رئيسة واحدة فقط، هي باحثة القرون الوسطى نيلي نيلسون *Nellie Neilson* (1873 ـ 1947)، خلال القرن الأول من عمرها. ثم إن دراسة النساء بحد ذاتهن كموضوعات تاريخية لم تتطور إلى ما هو أبعد من السيرة الذاتية. إن تعليق زينب فواز (ح. 1860 ـ 1914)، وهي امرأة عربية من أوائل القرن العشرين، الذي اقتبسه أنطوني غورمان، القائل بأن ‹التاريخ، وهو أفضل العلوم، يهيمن عليه الرجال إلى حد كبير... [ولم يخصص أي منهم] فصلا واحدا لمناقشة النساء اللاتي يمثلن نصف الجنس البشري›، يذكرنا بأن التقدم الحقيقي للنساء كمؤلفات وموضوعات للكتابة التاريخية كان بطيئا للغاية، ولن يكتب له أن يتسارع إلا في عقدي 1970 و1980.

أزمة التاريخية؟ مطلع القرن العشرين

قد يشعر المؤرخون الذين يجرون مسحا للعالم في نهاية القرن التاسع عشر، من مكتبة في فرنسا، أو كلية مدرسين في الهند أو دراسة في طوكيو، بحماس شديد تجاه موضوعهم ـ الذي أصبح الآن (تخصصا). فالتاريخ لم يكتف بتأسيس مجموعة من التقاليد الأكاديمية والمبادئ المنهجية، التي لا تزال اليوم مستخدمة إلى حد كبير؛ وقد حقق أيضا هيمنة عالمية، وتفوقا امتد الآن إلى أجزاء من العالم كانت حتى ذلك الحين تمارس أنماطا تاريخية مختلفة تماما عن أنماط أوروبا. من السهل التغاضي عن حقيقة أنه من أجل الازدهار في مناخات مختلفة، فقد كان تدوين التاريخ الغربي في كثير من الأحيان مضطرا للتكيف مع الحقائق الثقافية والمؤسسية المحلية، وأنه بذلك لم يفلت تماما من التحول ـ وكذلك الاستحواذ ـ على يد نفس الشعوب الذين يفترض أن رسل الغرب ومبشريه قد استطاعوا هدايتهم. ولكن ذلك لم يحدث بنفس الطرق دوما، كما يتضح من ردود الفعل المختلفة على مؤرخين ومنظرين تاريخيين متنوعين، مثل رانكه وكونت وماركس وبوركهارت.

كان قدر من الثقة والجذل شعورا طبيعيا في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن حتى حين جذب الغرب العالم غير الأوروبي إلى حضنه ثقافيا، كانت المشكلات تعتمل في الداخل، لتنبع عنها تحديات خطيرة لصرح تدوين التاريخ في القرن التاسع عشر. حيث كان الإجماع الذي انعقد بحلول القرن التاسع عشر حول مكانة التاريخ، وظيفته الاجتماعية، تفوقه المعرفي، وكذلك منهجيته، أمرا سائبا وهشا. وحتى داخل الفكر التاريخي الألماني، الذي غالبا ما ارتبط بدور توجيهي لأوروبا وبقية العالم على حد سواء، ظهرت بالفعل انشقاقات نظرية ومنهجية كبيرة. وفي غضون بضعة عقود تالية، حدثت أمور ثلاثة: أولا، ضمن التخصص الأكاديمي، تعرضت أولوية التاريخ السياسي ومركزية الدولة القومية للتحدي. ثانيا، فتح الباب أمام تكاثر غير محدود كما يبدو للتخصصات التاريخية وجماعات المصالح الأيديولوجية (وهي عملية (الانشطار) المشار إليها أعلاه)؛ وثالثا، رُفض بشكل قاطع وضع التاريخ بوصفه نظاما موحدا بين العلوم الإنسانية، إلى جانب أي وهم متبق حول أن معرفة الماضي يمكن أن

تكون تحسّنا أبدا، أو تكون في نظر البعض ـ في عودة واضحة إلى الپيرونية في القرن السادس عشر ـ أكثر من مجرد خيال.

لم تتسبب الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 18) وحدها في ظهور هذه الشكوك، ولا بد من الأخذ في الاعتبار أنها ظهرت وسط تطورات فكرية وثقافية مهمة مثل نظرية النسبية، ومبدأ اللا حتمية، ومدارس التكعيبية والتعبيرية في الفن، والموسيقى اللا نغمية. لكن الحرب قوضت بالتأكيد ثقة العديد من المؤرخين في كل من إمكانية مشروعهم والغاية منه. كما مزقت الحرب العلاقات الدولية بين المؤرخين الأوروپيين، مع استثناءات قليلة، حيث اصطفّ العلماء الوطنيون مع حكوماتهم. وقد خامر علاقة الحب العظيمة مع الأبحاث الألمانية برود واضح في أوروپا الغربية، وبدرجة أقل في أمريكا الشمالية. لم تلتئم هذه الانقسامات بحلول الوقت الذي وصل فيه النازيون إلى السلطة في عام 1933، واستمرت عزلة العلماء الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، على الرغم من وجود بعض الفروق المهمة، بما في ذلك هروب أعداد كبيرة من المؤرخين الألمان وغيرهم من المؤرخين الأوروپيين، وكان العديد منهم يهودا، إلى بريطانيا وأمريكا، حيث أصبحوا مشرفي دكتوراه متنفذين في حقبة ما بعد الحرب. وفي أعقاب الهزيمة الثانية لألمانيا، سينقسم مجتمعها العلمي، شأنه شأن البلاد، إلى نصفين: أحدهما ليبرالي ديمقراطي غربي وآخر شيوعي شرقي منذ عام 1949 وحتى 1990.

على الرغم من شكوك بعض المثقفين، فقد ازداد الطلب على كتب التاريخ والأدب التاريخي بعد الحرب العالمية الأولى. ففي جامعات مثل كامبريدج، لم تغير الحرب إلا القليل في المناهج الدراسية، وهيمن الانخراط في مجال التاريخ على سائر العلوم الإنسانية، رغم أن المزيد من الطلاب بدأوا في التركيز على التاريخ الحديث. فقد أصبح الماضي بالنسبة للكثيرين ملاذا من المشكلات المعاصرة. وبشكل عام، استمرت الاتجاهات المتبلورة في القرن التاسع عشر خلال النصف الأول من القرن العشرين، على أن تحديات آينشتاين وپلانك للفيزياء النيوتنية، التي سرعان ما أعقبتها أهوال الخنادق ونهاية الإمبراطوريات القديمة، قد هزت الإيمان بالتقدم والعلم وحتى الموضوعية. وفي عالم المؤرخ الأكاديمي، تجلى عدم اليقين هذا بعدد من الطرق،

بما في ذلك مغازلة قصيرة (للنسبية) في عقدي 1930 و1940. وقد ارتبط ذلك بشكل خاص (بالتقدميين) الأميركيين: كارل بيكر *Carl Becker* (1873 ـ 1945) ومعاصره تشارلز أ. بيرد *Charles A. Beard* (1874 ـ 1948).

لم يقصد مقال بيكر عام 1932 (كل رجل مؤرخه الخاص) الإشارة إلى عدم وجود حقائق تاريخية موثوقة؛ بل إنه أظهر، بدلا من ذلك، أن (التاريخ) يصنعه العقل المدرك حين يتذكر الأحداث؛ إذ يمكن لأي فرد أن يفكر تاريخيا في الأحداث الماضية، ويرتبها في تسلسل ذي معنى؛ وبهذا فإن أي قصة من هذا القبيل تصبح بالتالي تاريخا محتملا (وهو ما قد يبدو بديهيا إلى حد ما لعقل من أوائل القرن الحادي والعشرين). ولكن نظرة بيرد كانت أكثر راديكالية. ففي مقال بعنوان (هذا الحلم النبيل)، نُشر، مثل مقال بيكر، عام 1935 في المجلة التاريخية الأمريكية، استهدف بيرد عبادة (الموضوعية) بشكل مباشر، مؤكداً أنها هدف وهمي وغير قابل للتحقيق. لم تكن النسبية بهذا الشكل أصيلة بأي نحو خاص، بل كانت في بعض النواحي ببساطة آخر حلقة دورية من الشك في (الحقيقة) التاريخية ضمن تقليد يعود إلى شكوكية عصر النهضة. فهي لم تكن (حركة) أصلا ولم تدم طويلاً، ولكن يمكن اعتبارها مع ذلك محطة على الطريق إلى انتقادات لاحقة أكثر روعة من الناحية الفكرية لإمكانية المعرفة التاريخية، بدأت من عقد 1970 واستمرت حتى عصرنا هذا (انظر أدناه، ص 339-344).

وخففت النزعة القومية، ومعها التركيز على الدولة القومية، من قبضتها إلى حد ما في أعقاب الحرب العالمية الأولى (على الرغم من تأسيس عدد من الدول القومية الجديدة من أنقاض العديد من الإمبراطوريات المنهارة). فقد كرّست بعض الأعمال الأشد طموحا في تدوين التاريخ ما بين الحربين، بما في ذلك المغامرات التخمينية العظيمة في تاريخ العالم، لأجل التزام نظرة أكثر عالمية، وحتى كوكبية، تجاه الماضي. كان هذا رد فعل مفهوما خلال فترة وجيزة نسبيا من المجاملات الدولية الهشة، تميزت بالصراع الطبقي، وصعود الفاشية، والخوف في الغرب من عدوان البلشفية الروسية. وقد أنتج التشاؤم الفكري الذي أعقب الفوضى غير المسبوقة في الحرب بعض جواهر التاريخ الثقافي، التي بنيت على موضوعات تدهور الحضارة، مثل دراسة المؤرخ الهولندي هويزنغا *Huizinga* المتألقة للفن والدين والأدب في العصور الوسطى

المتأخرة، المتأثر ببوركهارت، **خريف العصور الوسطى** (1919)، التي يمكن قراءتها اليوم كرمز للانحطاط الجمالي والثقافي قبل الحرب. أما بالنسبة لآخرين، مثل التربوي الألماني أوزوالد شپنغلر *Oswald Spengler* (1880 ـ 1936)، فقد أتاح فجر القرن العشرين فرصة لإعادة التفكير في مجرى الحضارة العالمية بشكل عام. كان كتابه تدهور الحضارة الغربية (1918 ـ 1922) عملاً من أعمال التعميم الرجعي والنسبية الثقافية المتطرفة، اتكل على انبعاثات حديثة للنظرية الدورية كي يفترض فترات متناوبة من النمو والانحلال، مع امتلاك كل ثقافة علومها وأشكالها العقلية الخاصة، وبالتالي القليل من القواسم المشتركة مع الثقافات الأخرى: فقد أصبح كل من التقدم التراكمي وكذلك إيجاد أي أرضية مشتركة مستحيلا ضمن هذا المخطط.

نُشر المجلد الأول من كتاب شپنغلر، الذي اكتمل إلى حد كبير قبل بدء الحرب، وسط ضجة كبيرة في سبتمبر 1918، قبل أسابيع قليلة من فرض الهدنة. وكان من شأنه أن يلهم فكرة بريطانية مغامرة بنفس القدر حول الحضارات المقارنة، هي **دراسة للتاريخ** لآرنولد ج توينبي *Arnold J. Toynbee* (1889 ـ 1975). رغم استهجانه للحتمية وكذلك لنسخة شپنغلر عن النسبية، فقد رأى توينبي العالم من منظور ديني، كما هو حال مؤرخ آخر أصغر سنا منه بقليل امتاز بتوسع مماثل مع دقة أكثر، هو هربرت باترفيلد *Herbert Butterfield*. بخلاف شپنغلر، لم ير توينبي في عملية الانحدار شيئا حتميا، مما وفر مساحة أكبر للطوارئ والحوادث. وعندما ماتت الحضارات عند توينبي، لم تكن أسباب الانهيار 'قوى كونية خارجة عن سيطرة الإنسان' ولا تدهورا عرقيا، بل عوامل أخرى مختلفة تشمل الانقسام في 'الجسد الاجتماعي'، وفشل الإرادة أو العزم وكذلك فقدان السيطرة على البيئة (وهو عامل يبدو تنبؤيا بالأحرى، في غمرة الهموم البيئية للقرن الحادي والعشرين). وإذا كان لدى توينبي مثال فكري سابق كمؤرخ عالمي فقد يكون ابن خلدون، الذي أعرب عن إعجابه به فعلا.

ستزداد شعبية **دراسة للتاريخ** بين عموم القراء في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد تكون أحد أفضل الأمثلة على الفجوة، التي اتسعت منذ أوائل القرن العشرين، بين التأريخ الأكاديمي وعموم القراء الأوسع. فقد كان النقاد الأكاديميون لتوينبي أقل

سخطا على طموحاته العالمية منهم على إخضاعه الأدلة للنظرية. حيث كان المؤرخون الغربيون على مدى القرنين الماضيين متشككين بعمق في «النظرية الكبرى»، ولم يكن ذلك الأمر في أي مكان أوضح منه حين يتعلق بالتاريخ التقدمي. لكنه أقل صحة إلى حد ما فيما يتعلق بالتاريخ الأعم كنوع من الكتابة، نمط للتفسير، فعل عقلي، نوع من السرد، أو (باستخدام أحدث المصطلحات) «بناء لغوي» أو «خطاب». يمكن رؤية ردود الفعل الأكاديمية على التاريخ العلمي الصارم بالمعنى الوضعي الضيق، التي تعكس تحفظات ديلتي السابقة، أولا في نهج عرف باسم «المثالية» (لا ينبغي الخلط بينه وبين المثالية الألمانية في عصر كانط وهيجل). وكان الممثل الأكثر تميزا وتأثيرا لهذا الاتجاه هو الفيلسوف والمؤرخ الإيطالي بنديتو كروتشه *Benedetto Croce* (1866 ـ 1952).

كان كروتشه، المؤرخ والفيلسوف المتمرس، نتاجا لتاريخية القرن التاسع عشر التي كان عليه تكييفها لتلائم عالم القرن العشرين. وقد أطلق كروتشه في النهاية على نظرته التاريخية لقب «التاريخية المطلقة» لتمييزها من الصنف الألماني الأقدم. رفض كروتشه الوضعية، مثل ديلتي من قبله، مجادلا بدلا منها باستقلالية التاريخ عن العلم، وعدم فصل التاريخ عن التجربة الحية. فقد قال كروتشه إن السجلات والوثائق لا تملك أهمية كبيرة إلا بقدر ما يمكن للبشر الأحياء أن يفكروا فيها، بل ويستحضرونها في الواقع؛ وعلى العكس من ذلك، فإننا لا نفهم الحياة إلا عبر التفكير فيها تاريخيا. فالموتى يملكون حياة أخرى يعيشونها فينا. وهذا هو السبب في اعتبار تشييد النصب والمقابر عملا أخلاقيا. في ملاحظته الشهيرة القائلة بأن «كل التاريخ تاريخ معاصر»، لم يقصد كروتشه أن جميع الأحداث الماضية حاضرة وراهنة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل عنى أن كل جيل يجب أن يختار ماضيه وينظمه على أساس السياق والظروف التي يجد نفسه فيها ـ فالأسئلة التي يطرحها المؤرخ ستحددها متطلبات العالم الذي يحيطه. فمن دون سؤال أو مشكلة ملحة، لا يمكن فهم الماضي، بل يكتفى بنسخ وإعادة ترتيب مواده الوثائقية. وفي الواقع، فإننا من خلال الكتابة عن الماضي تحديدا ـ أي تحويله إلى تاريخ ـ سنحرر أنفسنا من العبودية له.

الخلاصة

لقد جذبت آراء بنديتو كروتشه العديد من الأوروبيين في النصف الأول من القرن، وهم أولئك الذين لم يعجبوا بالماركسية أو الوضعية. وقد كان له نظير بريطاني في شخص عالم الآثار الذي تحول إلى الفلسفة ر. ج. كولينغوود (1889 ـ 1943). يندرج كتاب كولينغوود الذي نُشر بعد وفاته، **فكرة التاريخ** *The Idea of History* (1946)، شأنه شأن عمل كروتشه ضمن تقليد أوسع للفكر التاريخي يمكن إرجاع جوانب معينة منه إلى القرن الثامن عشر، ويوفر بالفعل نقطة مناسبة لاختتام هذا الفصل. فقد قدم كولينغوود فكرة أن ‹كل التاريخ... هو تاريخ الفكر›، واقترح أن على المؤرخ أن يتعاطف مع موضوعاته، ويدخل في ‹باطن› الحدث التاريخي (أي فكر الفاعل وراء الحدث) و‹يستحضره› ذهنيا ـ بالاعتماد على تجربته الحياتية ـ من أجل إعادة سرده. ولم يكن هذا في حد ذاته بالفكرة الجديدة. فمديونيته واضحة لفكرة الفهم *Verstehen* لدى درويسن وديلتي، وكان غيورغ زيمل قد صاغ فكرة عن الفهم عبر الاستحضار قبل عدة عقود. لكن التشديد على الفهم من خلال الأحداث الماضية من خلال تشابهها مع تجربتنا التي نعيشها مثّل الإضافة المميزة التي طرحها كولينغوود، وبفضلها أصبح معروفا في العالم الناطق بالإنجليزية.

جُمِع **فكرة التاريخ**، وهو كتاب معقد أكثر فلاسفة التاريخ من دراسته، بعد وفاة كولينغوود من محاضرات كتبت أساسا قبل بداية الحرب، ولم يكن مؤلفه يقصد نشره بالشكل الذي ظهر به. ومما لا يثير الدهشة أنه عمل منقوص. لاحظ النقاد الوديون، والفلاسفة منهم خاصة، أنه على سبيل المثال فضفاض بشكل محبط في استخدامه لمصطلحات مثل ‹العلم›، وحتى ‹التاريخ› نفسه، وصامت عن المجالات التي تناولها بعض أسلاف كولينغوود، كالعلاقات بين التاريخ والعلوم الاجتماعية. ويمكن للمرء أن يضيف، من منظور الكتاب الحالي، أن **فكرة التاريخ** بقدر ما يحتوي على مسح موسع لتاريخ التاريخ، فإنه يشترك مع معظم أسلافه في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في المركزية الأوروبية الصريحة التي تستبعد كل أشكال تدوين التاريخ عدا النمط الغربي.

في عالم كان قد عانى للتو من صراعين عالميين مروعين ولكنه لم يمر بعد

باستقطاب السياسات النووية للحرب الباردة أو عملية إنهاء الاستعمار والتحديات المصاحبة للهيمنة الأوروبية الأمريكية (الواقعية والفكرية) التي تنتظرنا، فإن فكرة التاريخ مثل من بعض النواحي تأكيدا مطمئنا للآراء القديمة حول طبيعة الفكر والكتابة التاريخيين. لا يزال كولينغوود، الذي حاز مدحا وافرا من المؤرخين على مدى عقود، وخاصة الذين لم يكن لديهم وقت كافٍ (لفلسفة التاريخ)، يقرأ على نطاق واسع وبمستوى معقول حتى اليوم، ولكن جوانب أخرى من فكره تبدو أقل تأخرا. فبالخصوص، عادت صياغة كولينغوود لمفهوم (الخيال التاريخي) إلى الرواج على مدار الثلاثين عاما الماضية مع ظهور ما بعد الحداثة، التي لم يكن كولينغوود نفسه ليفهمها ولا يقبلها. وهذا، إضافة إلى الكثير غيره مما حدث في تاريخ التاريخ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، هو موضوع الفصل قبل الأخير.

أسئلة للمناقشة

1. إلى أي درجة كان المؤرخون من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ورثة للأجيال السابقة (وصولا إلى العصور القديمة) وإلى أي درجة كانوا مبتكرين؟
2. ما هو الدور الذي لعبته المؤسسات القائمة، كالجامعات والمدارس والحكومة، في انتشار الممارسات التاريخية (الحديثة) في أوربا وخارجها؟
3. إلى أي درجة كان إدخال الممارسات التاريخية للقرن التاسع عشر والمفاهيم الغربية للتاريخ في آسيا وأفريقيا أشبه باستئصال للأنواع والمعتقدات الأصلية؟ وإلى أي درجة ثبت أنها (محررة)؟
4. سعى المؤرخون الآسيويون ذوو العقلية الإصلاحية في القرن التاسع عشر إلى التخلي عن التفسيرات الدورية التقليدية للتاريخ لأجل تفسيرات التطور الخطي على غرار النموذج الأوربي. فهل أجبرهم ذلك أيضا على تبني النظرة الغربية للتقدم والتحديث على حساب تقاليدهم وممارساتهم؟
5. ما هي التغييرات الرئيسة التي جرت للتفكير التاريخي ومشروع تدوين التاريخ بعد الحرب العالمية الأولى؟

6 - كيف كانت آراء نيتشه وسائر المشككين، مثل النسبيين الأمريكيين، وريثة لفترات سابقة من الشك في معرفة الماضي، أو في فائدته؟

7 - هل كانت هناك «أزمة» للتاريخية في أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين؟

8 - لماذا توقفت النماذج الإمبراطورية الصينية واليابانية القديمة لتدوين التاريخ بشكل مفاجئ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟ وهل كان تدوين التاريخ الغربي، كما أعلن أتباعه، أداة تحديث؟

9 - هل كانت النساء تميل «بشكل طبيعي» إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، والسيرة الذاتية، والمساعي الأرشيفية، لا إلى التاريخ العسكري أو السياسي (كما ادعى البعض)؛ أم أنهم لم يؤخذوا ببساطة على محمل الجد كمؤلفين للتاريخ «السائد»؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Bentley, Michael, *Modern Historiography: An Introduction* (London and New York, 1999)
- Iggers, George G., Q. Edward Wang with S. Mukherjee, *A Global History of Modern Historiography* (Harlow, UK, 2008)
- Kramer, Lloyd and Sarah Maza (eds), *A Companion to Western Historical Thought* (Oxford, 2002)
- Macintyre, Stuart, Juan Maiguashca and Attila Pók (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 4: 1800 – 1945* (Oxford, 2012)

استعراض تقديمي

- Beiser, Frederick C., The German Historicist Tradition (Oxford, 2011)
- Berger, Stefan and Chris Lorenz (eds), *The Contested Nation: Ethnicity, Class, Religion and Gender in National Histories* (Basingstoke, 2008)

- Burrow, J. W., *A Liberal Descent: Victorian Historians and the English Past* (Cambridge, 1981)
- Crossley, Ceri, *French Historians and Romanticism: Thierry, Guizot, the Saint _ Simonians, Quinet, Michelet* (London, 1993)

المحوّل الأعظم: رانكه ونفوذه

- Dorpalen, Andreas, *Heinrich von Treitschke* (New Haven, CT, 1957)
- Gilbert, Felix, 'Historiography: What Ranke Meant', *The American Scholar* 56.3 (1987): 393 _ 97
- *History: Politics or Culture? Reflections on Ranke and Burckhardt* (Princeton, NJ, 1990)
- Iggers, Georg G. and James M. Powell (eds), *Leopold von Ranke and the Shaping of the Historical Discipline* (Syracuse, NY, 1990)
- Krieger, Leonard, *Ranke: The Meaning of History* (Chicago, IL, 1977)

مؤسسات التاريخ وبدايات ‹التخصص› في أوربا وأميركا الشمالية

- Baár, Monika, *Historians and Nationalism: East _ Central Europe in the Nineteenth Century* (Oxford, 2010)
- Berger, Stefan, *The Search for Normality: National Historical Consciousness in Germany since 1800* (London, 1997)
- Boer, Pim den, *History as a Profession: The Study of History in France, 1818 _ 1914* (Princeton, NJ, 1998)
- Breisach, Ernst, *American Progressive History: An Experiment in Modernization* (Chicago, IL, 1993)
- Fitzpatrick, Ellen, *History's Memory: Writing America 's Past, 1880 _ 1980* (Cambridge, 2002)

- Gazi, Effi, *Scientific National History: The Greek Case in Comparative Perspective (1850 – 1920)* (Frankfurt, 2000)
- Novick, Peter, *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession* (Cambridge, 1988)
- Porciani, Ilaria and Lutz Raphael (eds), *Atlas of European Historiography: The Making of a Profession, 1800 – 2005* (London, 2010)
- Porciani, Ilaria and Jo Tollebeek (eds), *Setting the Standards: Institutions, Networks and Communities of National Historiography* (London, 2012)
- Ross, Dorothy, 'Historical Consciousness in Nineteenth – Century America', *American Historical Review* 89 (1984): 909 – 28
- Sanders, Thomas D. (ed.), *Historiography of Imperial Russia: The Profession and Writing of History in a Multinational State* (London, 1999)
- Stieg, Margaret F., *The Origin and Development of Scholarly Historical Periodicals* (Tuscaloosa, AL, 1986)
- Torstendahl, Rolf, *The Rise and Propagation of Historical Professionalism* (London and New York, 2014)
- Ziolkowski, Theodore, *Clio the Romantic Muse: Historicizing the Faculties in Germany* (Ithaca, NY, 2004)

التاريخ، العلم، والحتمية

- Assis, Arthur A., *What is History For? Johann Gustav Droysen and the Functions of Historiography* (New York, 2014)
- Ermarth, Michael, *Wilhelm Dilthey: The Critique of Historical Reason* (Chicago, IL, 1978)
- Hesketh, Ian, *The Science of History in Victorian Britain: Making the Past Speak* (London, 2011)

- Hirst, Paul Q., *Marxism and Historical Writing* (London, 1985)
- Hobsbawm, Eric, 'Karl Marx's Contribution to Historiography', in R. Blackburn (ed.), *Ideology in Social Science: Readings in Critical Social Theory* (London, 1972), 265 _ 83
- Mazlish, Bruce, *The Riddle of History: The Great Speculators from Vico to Freud* (New York, 1966)
- Morris _ Suzuki, Tessa, *The Past Within Us: Media, Memory, History* (New York and London, 2005)
- Perry, Matt, *Marxism and History* (Basingstoke, 2002)
- Rigby, S. H., *Marxism and History: A Critical Introduction*, 2nd edn (Manchester, 1998)
- Southard, Robert, *Droysen and the Prussian School of History* (Lexington, KY, 1995)
- White, Hayden, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth Century Europe* (Baltimore, MD, 1973)
- Wilkins, Burleigh Taylor, *Hegel's Philosophy of History* (Ithaca, NY, 1974)

البدائل الثقافية والاجتماعية لتوجه رانكه

- Antoni, Carlo, *From History to Sociology: The Transition in German Historical Thinking*, trans. Hayden White (London, 1962)
- Chickering, Roger, *Karl Lamprecht: A German Academic Life (1856 _ 1915)* (Atlantic Highlands, NJ, 1993)
- Hinde, John R., *Jacob Burckhardt and the Crisis of Modernity* (Montreal, 2000)
- Hofstadter, Richard, *The Progressive Historians: Turner, Beard, Parrington* (New York, 1968)

- Iggers, Georg G., 'The «Methodenstreit» in International Perspective: The Reorientation of Historical Studies at the Turn from the Nineteenth to the Twentieth Century', *Storia della Storiografia* 6 (1984): 21 _ 32
- Jensen, Anthony K., *Nietzsche's Philosophy of History* (Cambridge, 2013)
- Richardson, John and Brian Leiter (eds), *Nietzsche* (Oxford, 2001)
- Roth, Guenther and Wolfgang Schluchter, *Max Weber's Vision of History: Ethics and Methods* (Berkeley, CA, 1979)

الإمبريالية في تدوين التاريخ؟ بصمات الطرق والنماذج الغربية خارج الفضاء الأوربي

- Alagoa, E. J., *The Practice of History in Africa: A History of African Historiography* (Port Harcourt, Nigeria, 2006)
- Ali, Daud (ed.), *Invoking the Past: The Uses of History in South Asia* (New Delhi, 1999)
- Aung _ Thwin, Michael and Kenneth R. Hall (eds), *New Perspectives on the History and Historiography of Southeast Asia* (London, 2011)
- Brownlee, John S., *Japanese Historians and the National Myths, 1600 _ 1945: The Age of the Gods and Emperor Jinmu* (Vancouver and Tokyo, 1997)
- Chakrabarty, Dipesh, *The Calling of History: Sir Jadunath Sarkar and his Empire of Truth* (Chicago, IL, 2015)
- Choueiri, Youssef M., *Modern Arab Historiography: Historical Discourse and the Nation _ State* (London, 2003)
- Cowan, C. D. and O. W. Wolters (eds), *Southeast Asian History and Historiography: Essays Presented to D. G. E. Hall* (Ithaca, NY, 1976)
- Crabbs, Jack A. Jr, *The Writing of History in Nineteenth _ Century Egypt: A Study in National Transformation* (Detroit, MI, 1984)

- Fage, J. D., 'The Development of African Historiography', in J. Ki – Zerbo (ed.), *General History of Africa, Vol. 1: Methodology and African Prehistory* (Paris and London, 1981), 25 – 42
- Falola, Toyin (ed.), *African Historiography: Essays in Honour of Jacob Ade Ajayi* (Harlow, UK, 1993)
- Falola, Toyin and Saheed Aderinto, *Nigeria, Nationalism, and Writing History* (Rochester, NY and Woodbridge, UK, 2010)
- Gorman, Anthony, *Historians, State, and Politics in Twentieth Century Egypt: Contesting the Nation* (London, 2003)
- Guha, Ranajit, *An Indian Historiography of India: A Nineteenth – Century Agenda and its Implications* (Calcutta and New Delhi, 1988)
- Hall, Catherine, *Macaulay and Son: Architects of Imperial Britain* (New Haven, CT and London, 2012)
- Hama, B. and J. Ki – Zerbo, 'The Place of History in African Society', in Ki – Zerbo (ed.), *General History of Africa, Vol. 1: Methodology and African Prehistory* (Paris and London, 1981), 43 – 53
- Koditschek, Theodore, *Liberalism, Imperialism, and the Historical Imagination: Nineteenth – Century Visions of a Greater Britain* (Cambridge, 2011)
- Kwong, Luke S. K., 'The Rise of the Linear Perspective on History and Time in Late Qing China', *Past and Present* 173 (2001): 157 – 90
- Majeed, Javeed, *Ungoverned Imaginings: James Mill's 'The History of British India'and Orientalism* (Oxford, 1992)
- Mehl, Margaret, *History and the State in Nineteenth – Century Japan* (Basingstoke, 1998)

- Reid, Anthony and David Marr (eds), *Perceptions of the Past in Southeast Asia* (Singapore, 1979)
- Tanaka, Stefan, *Japan's Orient: Rendering Pasts into History* (Berkeley, CA, 1993)
- Tavakoli – Targhi, Mohamad, *Refashioning Iran: Orientalism, Occidentalism, and Historiography* (Basingstoke and New York, 2001)
- Wang, Fan – sen, *Fu Ssu – nien: A Life in Chinese History and Politics* (Cambridge, 2000)
- Wang, Q. Edward, *Inventing China through History: The May Fourth Approach to Historiography* (Albany, NY, 2001)
- Williams, Eric, *British Historians and the West Indies* (New York, 1966)
- Woll, Allen, *Puerto Rican Historiography* (New York, 1978)

النساء واحتراف التاريخ، 1800 — 1945

- Baym, Nina, *American Women Writers and the Work of History, 1790 – 1860* (New Brunswick, NJ, 1995)
- Berg, Maxine, *A Woman in History: Eileen Power 1889 – 1940* (Cambridge, 1996)
- Davis, Natalie Zemon, 'Women and the World of the Annales', *History Workshop Journal* 33.1 (1992): 121 – 37
- Des Jardins, Julie, *Women and the Historical Enterprise in America: Gender, Race, and the Politics of Memory, 1880 – 1945* (Chapel Hill, NC, 2003)
- Goggin, Jacqueline, 'Challenging Sexual Discrimination in the Historical Profession: Women Historians and the American Historical Association, 1890 – 1940', *American Historical Review*, 97.3 (1992): 769 – 802

- Schöttler, Peter, 'Lucie Varga: A Central European Refugee in the Circle of the French «Annales», 1934 _ 1941', *History Workshop Journal* 33 (1992): 100 _ 20
- Smith, Bonnie G., *The Gender of History: Men, Women, and Historical Practice* (Cambridge, MA, 1998)
- Smith, Nadia Clare, *A 'Manly Study'? Irish Women Historians, 1868 _ 1949* (Basingstoke, 2006)
- Spongberg, Mary, Barbara Caine and Ann Curthoys (eds), *Companion to Women's Historical Writing* (Basingstoke, 2005)
- White, Deborah Gray (ed.), *Telling Histories: Black Women Historians in the Ivory Tower* (Chapel Hill, NC, 2008)

أزمة التاريخية؟ مطلع القرن العشرين

- Bambach, Charles R., *Heidegger, Dilthey, and the Crisis of Historicism* (Ithaca, NY, 1995)
- Costello, Paul, *World Historians and Their Goals: Twentieth _ Century Answers to Modernism* (De Kalb, IL, 1994)
- Dray, William H., *History as Re _ enactment: R. G. Collingwood's Idea of History* (Oxford, 1995)
- Farrenkopf, John, *Prophet of Decline: Spengler on World History and Politics* (Baton Rouge, LA, 2001)
- Inglis, Fred, *History Man: The Life of R. G. Collingwood* (Princeton, NJ, 2009)
- Jacobitti, Edmund E., *Revolutionary Humanism and Historicism in Modern Italy* (New Haven, CT, 1981)

- O'Sullivan, Luke, *Oakeshott on History* (Exeter, 2003)
- Roberts, David D., *Benedetto Croce and the Uses of Historicism* (Berkeley, CA, 1987)
- Stromberg, Roland N., *Arnold J. Toynbee: Historian for an Age of Crisis* (Carbondale, IL, 1972)

محطات

1910 ـ 14	نشر كتاب **تاريخ روسيا: منذ أقدم العصور إلى صعود الرأسمالية التجارية** لميخائيل نيكولايڤتش پوكروڤسكي في خمس مجلدات
1929	تأسيس مجلة **الحوليات**
1938	نشر كتاب س.ل.ر. جيمس **اليعاقبة السود**، الذي بات سلفا لما سيصبح أبحاث ما بعد الاستعمار بعد عدة عقود
1939	نشر كتاب **مجيء الثورة الفرنسية** لجورج لوفاڤر بالإنجليزية
1939	نشر كتاب **المجتمع الإقطاعي** لمارك بلوخ
1940	تأسيس مجلة **تاريخ الأفكار**
1941	نشر كتاب فان وينلان **تاريخ الصين العام** بالصينية
1946	نشر كتاب ماري ريتر بيرد **المرأة كقوة في التاريخ**
1949	نشر كتاب فرناند بروديل **البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني**
1952	تأسيس مجلة **الماضي والحاضر**
1956	سحق الثورة الهنغارية؛ تلاه انفصال العديد من المؤرخين الماركسيين عن الحزب الشيوعي البريطاني
1958	ظهور 'التاريخ النفسي' الحديث، المعتمد على فرويد، كما يشهد عليه كتاب إ.ه. إريكسون **لوثر الشاب**
1963	نشر كتاب إ.پ. ثومبسون **تكوين الطبقة العاملة البريطانية**
1964	استهلال اليونسكو لمبادرة **تاريخ أفريقيا العام** (أكمل في التسعينيات)
1966	بداية الثورة الثقافية في الصين
1973	نشر كتاب هايدن وايت **الميتا ـ تاريخ: المخيال التاريخي في أوروپا القرن التاسع عشر** في الولايات المتحدة
1974	نشر كتاب **وقت على الصليب** لروبرت ويليام فوغل وستانلي إنغرمان

1978	نشر كتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد
1982	نشر أول مجلد من **دراسات التابع** تحت قيادة راناجيت گوها
1986 ـ 9	**نزاع المؤرخين** في ألمانيا
1988	نشر بحث جون والاش سكوت **الجندر وسياسات التاريخ**؛ بداية «حروب التاريخ» في أستراليا
1989	سقوط جدار برلين وتباشير انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية؛ تزايد التفاعل بين المجتمعات الأكاديمية الغربية والشرقية
1992	ثوران الجدال في الولايات المتحدة حول الاحتفالات بالذكرى الخمسمائة لرحلة كولومبوس؛ ونشوب صدامات لاحقة حول الكتب الدراسية، المناهج المدرسية، ومعارض المتاحف
1996 ـ 2000	محاكمة التشهير بين إيرڤنغ وليپشتات، حول اتهامات ديبورا ليپشتات لكتابات ديفيد إيرڤنغ حول المحرقة بعدم الدقة

الفصل السادس

الانتقالات: الكتابة التاريخية من فترة ما بين الحربين حتى اليوم

مؤرخو الحوليات والتاريخ الدقيق

لعل الظاهرة الأبرز في تدوين التاريخ خلال النصف الأول من القرن العشرين، وما يزال نفوذها قويا بعد عقود تسعة، هي ما أصبح في النهاية يعرف (بنحو يبالغ في تماسكها) «بمدرسة» الحوليات. وقد ظهرت في فرنسا ما بين الحربين، وهي تدين باسمها لمجلة **الحوليات** *Annales* التي ظهرت لعالم النشر عام 1929 في جامعة ستراسبورغ تحت رعاية مارك بلوخ *Marc Bloch* ولوسيان فافر *Lucien Febvre*. كان كلا الرجلين متأثرين بالأعمال السابقة لعالم الاجتماع إميل دوركهايم والفيلسوف ـ الجغرافي هنري بير (1863 ـ 1954)، الذي كان محرر مجلة تدعى **مراجعة التلخيص التاريخي** *Revue de synthèse historique* ومناديا مبكرا بالحاجة إلى توجه أكثر شمولا نحو دراسة الماضي. وقد كان لبلوخ وفافر صلات وثيقة مع عالم العصور الوسطى البلجيكي هنري پيرين.

مرت هذه المجلة وكذلك ممارسات المساهمين فيها بالتطور عبر الأجيال المتعاقبة، لكنها ظلت قوة مؤثرة في فرنسا وحازت إعجابا واسعا خارجها. فقد انتقد مؤرخو الحوليات التاريخ السياسي ضيق الأفق وفضلوا عليه **تاريخا كليا** *histoire totale* يدرس أيضا الجغرافيا، المناخ، الاقتصاد، وأنماط الزراعة والتجارة، بالإضافة إلى الأخلاق، في إحدى كرّات الرقّاص المتعاقبة في ذوق تدوين التاريخ الأوربي بين الاجتماعي والسياسي، وبين العام والخاص، وبين الشامل والانتقائي، التي تعود حتى هيرودوتس وثوسيديدس.

لقد أصبح بلوخ (1886 ـ 1944) أقرب ما يكون إلى بطل شعبي في مجال تدوين التاريخ خلال العقود التي تلت إعدامه على يد النازيين عقابا لنشاطاته في المقاومة. وما تزال معظم أعماله متوفرة كمطبوعات في عدة لغات، بما فيها **حرفة المؤرخ** *The Historian's Craft*، وهي مجموعة من الأبحاث والتأملات حول التاريخ نشرت بعد وفاته. كان بلوخ قد شارك بنحو متميز في الحرب العالمية الأولى ثم شغل وظيفة في ستراسبورغ قبل أن يحتل كرسي تاريخ الاقتصاد في السوربون. وقد أصبح أول كتاب مهم له، وهو **اللمسة الملكية** *Les rois thaumaturges* (1924) حول الممارسة القروسطية للمس الملوك كعلاج لداء الخنازير (أو داء الملك) *scrofula*، نصا مؤسسا في التاريخ الثقافي للطقوس. أما أعمال بلوخ اللاحقة، التي كتبها بعدما تعاون مع فافر على تأسيس مجلة **الحوليات**، فتتضمن **الشخصيات الأصيلة في التاريخ الريفي الفرنسي** *Les caractères originaux de l'histoire rurale française* (1931)، الذي اشتهر بمعالجته العاطفية للريف على مدى فترة طويلة من الزمن، و**المجتمع الإقطاعي** *La société féodale* (1939) الذي سلك أيضا توجها إناسيا واجتماعيا نحو الإقطاع، غير مكتف باعتباره نظاما عسكريا بل اجتماعيا وثقافيا أيضا، وكذلك نحو العقليات *mentalités* التي وقفت وراءه.

ربما لم تحظ أعمال فافر (1878 ـ 1956) بتقدير لاحق كالذي حظيت به أعمال بلوخ، لكنها لم تكن أقل أهمية في عصرها. ففي كتابه الأكبر **مشكلة الكفر في القرن السادس عشر** *Le problème de l'incroyance au XVIe siècle* (1942)، استكشف فافر فكرة الإلحاد وصلتها بكاتب عصر النهضة فرانسوا رابليه، مجادلا بأن العادات الفكرية للأوربيين في القرن السادس عشر لم تسمح بظهور الإلحاد الحقيقي، مهما بدا الكاتب لا دينيا أو مبتدعا. وقد أصبح فافر مهتما بثقافة الطباعة، حيث زرع بذورا لموضوع تصدى له من ثم **مؤرخو الكتاب** *historiens du livre* الفرنسيون مثل روجيه شارتييه (و. 1945) وعلماء من أميركا الشمالية مثل روبرت دارنتون (و. 1939). ساعد فافر أيضا في تأسيس القسم السادس الشهير في باريس من الكلية العملية للدراسات العليا *École pratique des hautes études*. كانت هذه الكلية (التي أُسِّست عام 1868) مؤسسة لتدريب الدراسات العليا فقط، أريد منها أن تكمّل منهج الجامعات ولا تكرره.

وقد كرس هذا القسم الجديد تحديدا للأبحاث المتقدمة في العلوم الاجتماعية، وفي عام 1975 أصبح معهدا مستقلا بحد ذاته، باسم كلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية *École des hautes études en sciences sociales (EHESS)*.

لقد غير توجه الحوليات في البحث من هدفه عدة مرات في العقود الثمانية الماضية، ولذا يعد من الأنسب اعتباره تقليدا متطورا وليس 'مدرسة'. وفي الواقع فإن قدرته على تجديد ذاته ردا على تيارات جديدة، المتمثلة رمزيا بعدة تغيرات في العنوان الثانوي لمجلة **الحوليات**، هي علامة على قوته وسبب لاستمرار أهميته. وقد جاء أول تحول كبير بعيد الحرب العالمية الثانية فورا، وتمثل أحد دوافعه بالتجربة الأوسع مع العلوم الاجتماعية (انظر أدناه). وقد خطط له مؤرخو حوليات من 'الجيل الثاني'، وهم ثلة متميزة كان يرأسهم فرناند بروديل *Fernand Braudel* (1902 ـ 85)، أحد تلامذة فافر. كثمرة لاهتمامات بلوخ وفافر معا، وخاصة تركيزهما على الجغرافيا، روج بروديل بقوة فكرة الأرض والبحر كعوامل للتغيير. ونادى بإخضاع تاريخ الأحداث ***histoire événementielle*** (الأفعال البشرية قصيرة الأمد، كما في عالم السياسة) لدراسة فترات متوسطة الطول من الظروف *conjonctures* الاجتماعية، المادية، والاقتصادية، وحتى تغيرات أبطأ في الجغرافيا والمناخ حدثت خلال أمد طويل ***longue durée*** استمر لقرون. ويعني بهذا الأخير الفضاء الذي تحكمت به القوى الطبيعية، لتوفر القيود والبنى التي تحدث ضمنها عوالم التغير الثانوية والثالثية، وكذلك الأحداث المنفردة. وفي حين كان لفكرة التأثير المناخي في الأحداث البشرية تاريخ طويل، فقد تخلى بروديل عن الصلة القديمة بين المناخ و'الشخصية الوطنية' لصالح علاقة أشد تعقيدا وحركية تتيح مجالا أوسع لقدرات الإنسان. والتعبير النموذجي عن هذا التقسيم الطبقي للتاريخ إلى عصور هو ما نجده في دراسة بروديل **البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني** ***La Méditerranée et le monde méditerranéen*** *à l'époque de Philippe II* (1949). أما الدرجة التي ينطبق بها هذا التوجه في الواقع على موضوعات مختلفة فتظل غير واضحة. فنقاد كتاب **البحر المتوسط** والأعمال اللاحقة مثل **الحضارة المادية، الاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر** *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe ـ XVIIIe*

siècle (1967 ـ 79) قد أشاروا إلى أن بروديل لم يكن ناجحا في التوفيق بين المستويات الثلاثة للزمن؛ لكنه كان ناجحا بتفوق في رسم أجندة الأبحاث اللاحقة في مجالات فرعية لم يكن تصورها مكتملا آنذاك، كما هو شأن التاريخ البيئي.

إن الميول الكمية في هذه المرحلة من تدوين التاريخ بحسب الحوليات، التي تتضح أيضا في عمل معاصر أكبر سنا لبروديل لا ينتمي للحوليات هو إرنست لابروس *Ernest Labrousse* (1895 ـ 1988)، قد فصلها مؤرخون عادة ما يعتبرون جزءا من «جيل» بروديل رغم أنهم أصغر منه بعقد أو عقدين في الواقع، مثل پيير شونو *Pierre Chaunu* (1923 ـ 2009). أما في العقود الأحدث فقد حصل تغير آخر في هذا التقليد. فقد انعطف العديد من مؤرخي الحوليات، وآخرون من غير الفرنسيين الذين اعتبروا أنفسهم معجبين أو معاونين لهم، عن الدراسة الكمية نحو دراسة العقليات *mentalités* على طريقة بلوخ وفاڤر، واضعين تركيزا أكبر بوضوح على المعتقدات الفردية والاجتماعية، وعلى الحياة التي تختبر في سياقات محلية. وقد تحول باحث القرون الوسطى جورج دوبي *Georges Duby* (1919 ـ 96)، الذي تدرب أصلا كجغرافي تاريخي، إلى هذا الاتجاه خلال عقد 1970، ليستكشف شؤونا مثل طريقة التفكير الفروسية، والتصورات الفرنسية للأحداث الماضية. أما خارج فرنسا فقد عمل آخرون على مستويات أدق قصدا، مثل المناصرين الألمان **لتاريخ الحياة اليومية** *Alltagsgeschichte* خلال عقد 1980، كرد فعل مواز ضد التجريد في «العلوم الاجتماعية التاريخية» الألمانية.

لقد ظهر «التاريخ الدقيق *microhistory*» ـ الذي ميز أواخر عقد 1970 و1980 و1990 ـ في البدء في إيطاليا، حيث عرف هناك باسم *microstoria* وارتبط تحديدا بمجلة *Quaderni Storici* (أُسِّسَت عام 1966)، وسرعان ما انتشر في فرنسا، ألمانيا، بريطانيا، ومن ثم أميركا. وأمثلته المبكرة تضم أعمالا على شاكلة كتاب عمانويل لو روي لادوري *Emmanuel Le Roy Ladurie* (و. 1929) **مونتايو: أرض ميعاد الأخطاء** *Montaillou: The Promised Land of Error* (دراسة لقرية كاثارية في العصور الوسطى) وكتاب كارلو غينزبرغ (و. 1939) **الجبنة والديدان: عالم طحان في القرن السادس عشر** *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a*

Sixteenth ـ Century Miller، وهما عملان حققا مبيعات وافرة في سوق الكتب الأكاديمية والتجارية وأثارا العديد من الأمثلة الإضافية حول العالم. كما استمد الممارسون اليابانيون لفنّي *seikatsushi* و*seishinshi*، اللذين يقابلان إجمالا **تاريخ الأحداث اليومية** و**تاريخ العقليات** على الترتيب، إلهامهم أيضا من النماذج الألمانية والفرنسية. بل إن التاريخ الدقيق في الواقع عنوان وجيز مفيد لوصف عدة أنحاء مختلفة لدراسة الظواهر العامة من خلال الأمثلة الخاصة: حيث تتناول إحدى صيغه دراسة مجتمع معين على مر عدة عقود أو قرون حتى، متتبعة صلات القرابة والمجتمع والاقتصاد. أما الصيغة الأشهر فتعنى بمدة زمنية أقصر وتركز أحيانا على قصة أو موقف محدد جدا، مثل دراسة روبرت دارنتون *Robert Darnton* ‹المجزرة› القطط على يد عمال المطابع الفرنسيين، وهي طقس كانت فيه السنانير تعيسة الحظ بديلا عن أسياد وسيدات أولئك العمال.

إن نقاط قوة التاريخ الدقيق، وخاصة في شكله اللاحق، هي أنه مقروء للغاية (حيث يروي لنا قصة في العادة) ويتضمن أفرادا تاريخيين محددين تثير أعباؤهم وصفاتهم البشرية شعورا متعاطفا، يستعيد لنا إنسانية تضيع أحيانا في السياق الضخم لتاريخ الحوليات على طريقة بروديل. فمن ذا لا يحركه الأسى لمعاناة مينوكيو كما يرويها غينزبرغ، وهو يخلق بكل عناد رؤية عالمية خيالية مهرطقة في طريقه إلى المحرقة، أو كاثار العصور الوسطى عند لوروي لادوري؟ ولعل المثال الأشهر (الذي أصبح فلما معروفا) هو الحكاية المذهلة للمنتحل ‹مارتن غيرّ *Martin Guerre*› في فرنسا القرن السادس عشر، كما وثقتها ناتالي زيمون ديڤيس (و. 1928)، حيث تحكي لنا حكاية ممتعة وهي ترسم مشهدا أخاذا لحياة ومعتقدات القرويين والسلطات القضائية معا. تبدي التواريخ الدقيقة كفاءة في توفير تفاصيل ضئيلة، ليست مهمة جدا للنقاط الرئيسة في القصة، لكنها تضفي على روايتها صيغة قوية جدا مما سماه الناقد الأدبي الفرنسي رولان بارت (1915 ـ 80) ‹بتأثير الواقع› الشهير. ومن جهة أخرى، فقد تساءل كثير من النقاد حول بعض هذه الدراسات ‹ثم ماذا؟›، مشككين في الدرجة التي يمكن عندها إطلاق تعميمات سائغة حول المجتمعات الماضية، وكيف تنطلق من هذه الأمثلة ‹الدقيقة›، أو درجة التخمين والظن التي تتطلبها. كما قيل أيضا بأنها حين

تجعل شخوصها يبدون مألوفين في أنظارنا، فهي تنطوي على إمكانية حذف الفروق بين الماضي والحاضر، وكذلك حس المسافة الذي كان طوال قرون ثلاثة يعد عنصرا أساسيا في التفكير حول التاريخ.

التاريخ والعلوم الاجتماعية

إن مدرسة الحوليات والتاريخ الدقيق كليهما نتاج لمغازلة التاريخ المترددة نسبيا مع العلوم الاجتماعية، وهي ظاهرة تعود أصولها لما قبل الحداثة. فقد كانت لدى العقول الميالة للنظرية خلال عصر التنوير تجاربها مع الماضي: حيث ظن عالم الرياضيات والفيزياء جان دالمبير *Jean d'Alembert* (1717 ـ 83) أن الشكوك حول معرفتنا بالماضي يمكن أن تحل عبر توجه علمي نحو دراسته. كما ربط المرحليون السكوتلنديون، وهم من بين الدعاة الأوربيين الأوائل لما نسميه اليوم «بالتاريخ المقارن»، بشكل وثيق بين دراسة الماضي والنظريات حول أصول وتطور المجتمع والأنظمة الاقتصادية. وقد رأينا أيضا عددا من الأمثلة غير الأوربية، كان أشهرها على الإطلاق هو ابن خلدون. وقد كان مؤرخو القرن التاسع عشر بنحو رئيس يضمرون شكوكا تجاه العلوم الاجتماعية الناشئة، نظرا لهيمنة الرانكيّة وتأكيدها التاريخ السياسي، وللتركيز التاريخاني العام على الفرد أكثر من المجتمع، ولرواج السير والتواريخ البطولية لدى جمهور القراء. ولكن قرب نهاية القرن بدأ ذلك بالتغير، ففي خضم السجال حول علاقة التاريخ بالعلوم الطبيعية، بدا أن العلوم «الإنسانية» تمثل حلا وسطا.

فقد ظهر التاريخ الاقتصادي كمبحث فرعي قدير، وأثر باحثون ألمان مثل غوستاف فون شمولر مجددا في تطوراته في سائر أرجاء العالم. كما رسم ماركس بالطبع ملامح صيغة خاصة من علاقة التاريخ بالاقتصاد، في حين ربطه آخرون مثل أوغست كونت بالمبحث الأحدث المعروف بعلم الاجتماع. وقد شرع المؤرخ الروسي غير الماركسي في أواخر عصر الإمبراطورية، ف. أ. كلوشيفسكي *V.O. Kliuchevskii* (1841 ـ 1911) في دراسة تأثير الطبقة والجغرافيا في التاريخ، لينشق بذلك عن التاريخ السياسي السائد. وقد كان **النزاع حول المنهج** *Methodenstreit* الألماني في

جزء منه جدالا حول طبيعة العلاقة بين التاريخ وهذه المجالات وغيرها، وخاصة علم الإناسة، الجغرافيا، وعلم النفس، كما أثار **التاريخ الجديد** لجيمس هارڤي روبنسون له دعاة في الضفة الأخرى من الأطلسي (وكما رأينا من قبل، في شرق آسيا).

من بين المؤسسين للتاريخ الحديث الذي تحركه العلوم الاجتماعية، يبرز عالما اجتماع مبكران آخران: هما الفرنسي إميل دوركهايم والألماني ماكس ڤيبر، اللذان كانا مهتمين بشدة بالماضي. فقد نظر دوركهايم للتاريخ بوصفه قاصرا عن اعتباره علما، لكنه مع ذلك يوفر مصدرا مفيدا للبيانات لمنفعة العلوم الاجتماعية. وقد وصف الظواهر الجمعية التي توجد بشكل مستقل عن الشواهد الفردية لها، وشجع على دراستها بحياد صارم وشبه طبي في كتابه الكلاسيكي **الأشكال الأولية للحياة الدينية** (1912)، وهو عمل يمتاز أيضا بالاتساع العالمي لمجموعة مراجعه. أما ڤيبر، الذي يصفه فريدريك بايسر بأنه ممثل متأخر جدا لنفس التراث التاريخاني الذي يعود إلى هيردر، فيعرف اليوم كعالم اجتماع بالرغم من أنه شخصيا اعتبر نفسه أقرب للمؤرخ طوال أكثر سنواته. ومع أنه كان ناقما بالمثل على الأبحاث التاريخية الألمانية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر وكذلك الانتقادات الوضعية لها، فقد انضم رغم ذلك في التنديد بلامپريخت خلال النزاع حول المنهج. لقد تأثر فكر ڤيبر الاجتماعي بإيضاح ديلتي للفروق بين العلوم الطبيعية والإنسانية. وفي حين أصر ڤيبر على عقلانية تلك الأخيرة وحاجتها إلى أفكار وممارسات واضحة، فقد شدد أيضا على العنصر الذاتي في البحث، وعلى الفجوة بين الواقع المعاش حقا والتمثيلات المنظمة له بوصفها (أنماطا مثالية). كان ڤيبر أيضا باحثا مقارنا متينا، مهتما بعدة أمور من بينها تفسير الفروق بين الثقافات الشرقية والغربية، واستكشاف الصلات بين عالم الاقتصاد والإيديولوجيا ـ كما يشهد بذلك كتابه الشهير **أخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** (1904 ـ 5). وقد شهد النصف الأول من القرن العشرين توجه الاجتماعيين البريطانيين والأميركيين خاصة نحو التاريخ (وهو طريق لا يذهب عادة في الاتجاهين). حيث قام جورج هومانز *Homans* (1910 ـ 89) مثلا بتدريس علم الاجتماع والتاريخ معا في هارڤرد، وكان أحد أقدم أعماله دراسة **القرويون الإنجليز في القرن الثالث عشر**. وسيجمع أحد أبرز تلامذته في الجيل التالي، تشارلز تيلي *Tilly* (1929 ـ 2008)، أيضا بين هذين

المجالين طوال مسيرته المديدة، وكذلك فعلت عالمة الاجتماع ثيدا سكوكپول *Theda Skocpol* (و. 1947) في هارڤرد.

لقد أصبح علم الاجتماع، والاقتصاد بنحو أخص، مبحثين كميين للغاية، ولطالما كان القياس التجريبي مكونا مهما في التاريخ المتأثر بالعلوم الاجتماعية ـ وأحيانا حتى في التاريخ السياسي كما يشهد له التوجه الخصائصي أو ‹سيرة الحياة الجماعية› لدى مؤرخين مثل السير لويس نامير البريطاني *Lewis Namier* (1888 ـ 1960). ومع أن للتوجه الكمي نسبا قديما، فقد ظهر بأوضح صورة ‹كرصاصة فضية› محتملة [كناية عن الحسم، حيث تستخدم هذه الرصاصة لقتل مصاصي الدماء في الأساطير] لمنفعة المؤرخين الحريصين على ربط حرفتهم بمصاف العلوم ‹الصلبة› بعد الحرب العالمية الثانية. وقد كان جيل بروديل من مؤرخي الحوليات، كما رأينا من قبل، مبهورا للغاية بالتكميم، حتى إن أحد أبرع تلامذة بروديل، وهو عمانويل لو روي لادوري، تجرأ مرة على التنبؤ بأن كل المؤرخين سيحتاجون قريبا لأن يصبحوا مبرمجي حاسوب.

ورغم الوفرة اللاحقة للحواسيب الشخصية على طاولات المؤرخين حاليا، فإن هذا لم يحدث بعد حتى الآن على الأقل، رغم أن العديد من المؤرخين قد ضموا التكميم إلى عدة أدواتهم ـ فقد أسس مؤرخ الحوليات پيير شونو فكرة ‹التاريخ التسلسلي› (أي تجميع البيانات لأجل سلسلة زمنية طويلة)، وقد تابعه في ذلك ديمغرافيون تاريخيون مثل لويس هنري (1911 ـ 91)، توني ريغلي *Wrigley* (و. 1931)، وپيتر لاسليت *Laslett* (1915 ـ 2001) للتوصل إلى حجم السكان في الماضي، وكذلك لتخطيط الحركة الاجتماعية، البنية العائلية، العلاقات الجنسية والتزاوج، ومعدلات الولادات والوفيات. وقد ركز انتباه العموم أحيانا، بنحو مضلل بعض الشيء، على مجموعة جزئية صغيرة نسبيا من الباحثين الكميين، وخاصة أولئك المهتمون والمختصون عادة بالإحصاء المتقدم ونظرية القياس الاقتصادي.

لقد ظهر ‹التاريخ الاقتصادي الجديد› أو ‹القياس التاريخي *cliometrics*› لأول مرة في عقد 1960. وهو لا يكتفي بتوليد مجاميع البيانات الضخمة والاستنتاجات العريضة التي يغرم بها المؤرخون الكميون، بل يضيف إليها أمرا آخر، هو استخدام

أسئلة ‹ماذا لو؟› أو ‹البدائل للواقع›. وبنحو مختلف بعض الشيء عن الأشكال الكيفية والتخمينية من التفكير المضاد للواقع (انظر أدناه، ص 389)، فإن القياس التاريخي يتضمن بناء نموذج لتفاعل عناصر شتى ضمن نظام ماض، وإزالة واحد منها أو أكثر لرؤية التغير الذي قد يحدث. وهكذا فقد بحث روبرت ويليام فوغل *Robert William Fogel* (1926 ـ 2013) في دور سكك الحديد في أميركا (1964)، وعبر حذفها من نموذجه الاقتصادي أثبت أن أشكالا أخرى من التنقل ربما كانت ستتطور أو تتوسع دون تأثير جسيم طويل الأمد على الرفاهية.

ولكن الأكثر إثارة للجدل، نظرا لأنه ضرب الأعصاب الأشد حساسية في البنية السياسية الأميركية، أي العرق والعبودية، كان كتابه اللاحق **وقت على الصليب** *Time on the Cross* (1974، شارك في تأليفه ستانلي إنغرمان، و. 1936). فقد استخدم سجلات مزارع العبيد ليشير إلى أن العبودية في الجنوب كانت كفؤة نسبيا في الواقع، وأبعد ما تكون عن نظام رجعي وغير منتج اقتصاديا؛ ولم يكن السود غير الأحرار شخصيات كسولة عديمة الحيلة في القرن العنصري الذي تلا تحريرهم، بل كانوا مجدين ومنجزين في الواقع. وبغض النظر عن الاعتراضات التي قد يطلقها غير المؤرخين ضد أي دفاع عن ‹المؤسسة الغريبة› للعبودية (وقد حرص المؤلفان على الإفصاح عن اعتراضاتهما الأخلاقية الشخصية عليها)، فقد انتقد الكتاب نظرا لمدى واسع من العيوب المنهجية والافتراضات المشكوكة.

ولكن عددا من المؤرخين المتبعين للمنهج السائد بدأوا بتقديم حجج علنية ضد استخدام المنهج الكمي، وكثيرا ما أدمجوه برمته مع القياس التاريخي. فمنذ عام 1962، قبل عامين من ظهور كتاب فوغل عن سكك الحديد للنور، أدلى كارل برايدنبو *Carl Bridenbaugh* (1903 ـ 92)، وهو مؤرخ لأميركا في العصر الاستعماري، بأقسى هجاء حفظته الذاكرة ضد ‹تلك الإلهة البغيّ، المنهج الكمي› في خطابه الرئاسي للجمعية التاريخية الأميركية. وقد هاجم المؤرخ المعمر جاك بارزون *Jacques Barzun* (1907 ـ 2012) من جامعة كولومبيا سائر القياسيين التاريخيين (إلى جانب المؤرخين النفسانيين) في كتابه **كليو والأطباء** *Clio and the Doctors* عام 1974. وناقش جيفري إلتون *Geoffrey Elton* (1921 ـ 94)، وهو مؤرخ ألماني المولد

لتاريخ إنجلترا التيودورية في جامعة كامبردج، ومتشكك في التكميم المتأثر بالعلوم الاجتماعية، مزايا هذا التوجه مع فوغل في كتاب تقاسما تأليفه.

مثلت الفترة بين أواخر عقد 1950 وأوائل عقد 1970 أوج هذا الطور من التحالف بين علم الاجتماع والتاريخ، الذي تجلى في أعمال عن ‹علم الاجتماع التاريخي› والمحاولات المبكرة للمقارنة بين المجتمعات في مجالات مثل **دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ** *Comparative Studies in Society and History* (أُسِّسَت 1958) و**الماضي والحاضر** *Past and Present* (أُسِّسَت 1952). وفي أواسط عقد 1970، بدأت أسهم علم الاجتماع والاقتصاد معا بالهبوط في أوساط المؤرخين، حيث بدأ بعضهم بالنظر في مجالات أخرى من العلوم الاجتماعية، وخاصة علم الإناسة *anthropology*، ابتداءً بالصنف ‹البنيوي *structuralist*› الذي جسده كلود ليڤي شتراوس (1908 ـ 2009). وقد كان كيث توماس (و. 1933)، المؤرخ بجامعة أكسفورد، من أوائل الذين استخدموا بصائر مستقاة من علم الإناسة، أول مرة في بحث عام 1963 بمجلة **الماضي والحاضر** ومن ثم في دراسة موسوعية للسحر في أوائل الحداثة وجوانب أخرى من المعتقدات الشعبية الإنجليزية، حملت اسم **الدين وتهافت السحر** *Religion and the Decline of Magic* (1971). وقد تزامن ذلك مع شروع تدوين التاريخ الأوروبي في التراجع عن تركيزه على الأنماط والأنظمة الكبرى والاتجاه بدل ذلك نحو دراسة حالات خاصة ومحلية، نمطية حينا وحينا آخر لا نمطية جدا (كما يشهد بذلك التاريخ الدقيق).

ثم إن السياق الغريب في العادة، آسيويا كان أو أميركيا لاتينيا أو أفريقيا، من البحث الإناسي قد وفر بعدا مقارنا جذابا للباحثين في أوروبا الذين يرغبون في التعميم لما وراء خبرتهم المباشرة. حيث قدم إناسيون ثقافيون مثل مارغريت ميد *Margaret Mead* (1901 ـ 78)، كليفورد غيرتز *Clifford Geertz* (1926 ـ 2006)، مارشال سالينز *Marshall Sahlins* (و. 1930) وڤيكتور تيرنر *Victor Turner* (1920 ـ 83) ضوابط موثوقة لهذا الانتقال من البنيوي والواسع إلى المحلي والخاص (وبالتالي فقد أضفوا بعدا نظريا على التاريخ الدقيق، الذي نوقش في أعلاه). وقد تعامل سالينز بالخصوص مع الماضي مباشرة، ليعيد تفسير حادث مقتل المستكشف الكاپتن كوك في جزر

ساندويتش (هاواي) مثلا، وهو موقف يقدم مثالا واقعيا حول ‹كيف يفكر السكان الأصليون›. وكان غيرتز، وهو حامل إرث ماكس ڤيبر في العلوم الاجتماعية أوائل القرن العشرين، مؤثرا بنحو خاص: فمصطلحه الشائع ‹الوصف العريض› وتحليلاته لأحداث رائجة مثل هراش الديكة في جزيرة بالي، قد أصبحت إحالات معتمدة لدى العديد من المؤرخين الثقافيين وحتى الفرع ‹التاريخاني الجديد› من البحث الأدبي الذي ظهر في أوائل عقد 1980.

إن الحوار المستمر بين التاريخ والعلوم الاجتماعية يعد في جزء منه امتدادا للحوار السابق الذي جرى في أواخر القرن التاسع عشر حول التاريخ والعلوم **الطبيعية**، وهو جدل كتب له أن ينجو من تدخلات ڤيندلباند وكروتشه. وسيؤول به الأمر للانشطار إلى ثلاث مجالات أخرى، هي فلسفة التاريخ، فلسفة العلوم الاجتماعية، وتاريخ وعلم اجتماع العلم، كي ترتد جميعا لتصب في بحث التاريخ ذاته. في الحالة الأولى، قام الفيلسوف الألماني المهاجر كارل هيمپل *Carl Hempel* (1905 ـ 97) بتدخل مهم عام 1942 عبر نشر مقالة جادل فيها بأن الوظيفة الجوهرية للبحث التاريخي هي تقديم تفسيرات بدلالة قوانين ‹عامة› أو ‹فضفاضة›، وأن التفسيرات التي لم تقترح أو تطور قوانين كهذه تعد غير مرضية. وقد أدت هذه المقالة لإثارة جيل من المجادلات ضمن ما يعرف عادة بفلسفة التاريخ ‹التحليلية›. وفي هذه الحوارات، التي ركزت على أسئلة مثل طبيعة التفسير التاريخ وشكله السليم، رفضت آراء هيمپل إلى حد كبير على يد معظم المؤرخين وكذلك العديد من أبناء منهجه، بما فيهم فلاسفة التاريخ التحليليون: الأميركي آرثر دانتو *Arthur Danto* (1924 ـ 2013)، البريطاني پاتريك غاردينر *Patrick Gardiner* (1922 ـ 97)، والكندي ويليام هـ. دري *William H. Dray* (1921 ـ 2009)، حيث يعتبر الأخير حجة في فكر ر. هـ. كولنغوود.

أما التطور الآخر فقد تضمن العلم أيضا ـ وخاصة تاريخه هو وعلم اجتماعه كذلك. ففي عام 1962 نشر توماس كوهن *Thomas Kuhn* (1922 ـ 96)، وهو فيزيائي اتجه للتاريخ، كتابا صغيرا غير لافت بعنوان **بنية الثورات العلمية**. بدلا من محاولة الحفاظ على الرؤية شديدة الوضعية والغائية للتقدم العلمي المستمر والمحتوم كما يبدو (كما تمثلها ما أصبحت تعرف بالتواريخ ‹الداخلية› للعلم)، فقد اقترح كوهن أن العلم كان

يجري في نمطين مستقلين: في العادة ‹كعلم اعتيادي›، يعمل فيه الباحثون تحت ظل افتراضات وقواعد مشتركة كي يزيدوا تدريجيا من البيانات والمعرفة؛ وأحيانا في نمط ‹الأزمة› الذي تتحطم خلاله تلك الافتراضات القديمة ـ بنحو أساس تحت وطأة البيانات التي تناقضها الآن ـ ويضطر الأمر لتوليد افتراضات جديدة لا تتوافق كليا مع تلك السابقة. وقد أطلق كوهن على مجموعة الافتراضات والممارسات الحاسمة وصف ‹الإطار *paradigm*›، وبهذا فقد أسبغ هذه الكلمة على العلوم الاجتماعية بنحو أعم. فوفقا لآرائه، تحدد الأطر أجندة التجارب وحتى البرامج العلمية بأسرها؛ أما التطورات الكبرى في المعرفة، كالانتقال من الكون القروسطي إلى النيوتني، لا تحدث نتيجة للتقاليد والتقدم المطرد خطوة بخطوة، بل على العكس من ذلك ـ عبر تقطعات جذرية بين الأطر العلمية.

لقد ترك تفسير كوهن للتغير العلمي أثرا جسيما، ولو أنه خارج المجتمع العلمي كان أكبر من داخله. ففيما يخص تدوين التاريخ بنحو عام، كان لفكرتي ‹تبدل الإطار› و‹العلم الاعتيادي› تأثيران مهمان. فأولا، وضمن تاريخ العلم ذاته ـ الذي تطور خلال أواخر القرن العشرين إلى مبحث قائم بذاته ـ ساعد نموذج كوهن على ظهور نمط مختلف من التاريخ، أقل حرصا على التفسير المفصل للأفكار العلمية السابقة وأكثر عناية بسياقاتها الاجتماعية والثقافية (وكذلك الحدود والقيود التي تفرضها على توليد المعرفة) بغض النظر عن مكانتها المعيارية أو توافقها الداخلي. وقد وسع مؤرخو علم أقرب عهدا، مثل ستيڤن شاپين *Steven Shapin* (و. 1943) ولوراين داستون *Lorraine Daston* (و. 1951)، من هذا التوجه. أما النحو الآخر الذي أثرت به أفكار كوهن في تدوين التاريخ فيتجاوز تاريخ العلم إلى مجالات أخرى. فعلى سبيل المثال، لو كان نموذجه يفسر التغير العلمي، فهل يمكن أن ينطبق أيضا على فهمنا لكيفية التغير الحاصل في تدوين التاريخ ذاته؟ وهل يمكن لتاريخ التاريخ نفسه، وهو موضوع كتابنا هذا، أن يروى بهيئة سلسلة من تبدلات الإطار يشاد فيها بذكر بضعة مفكرين محوريين من الماضي على حساب البقية الذين يعتبرون مجرد ‹حلالي مشاكل›، أفنوا أعمارهم في سد الثقوب في الإطار المهيمن وبالتالي فقد أدوا مهمة التاريخ ‹الاعتيادي›؟ إن توجها كهذا سيلفت بالتأثير انتباه المؤرخين نحو العوامل الاجتماعية والثقافية الخارجية

التي تقود المرء لتبني إطار ما بدل غيره، لكنه سيهمش بالضرورة من مكانة أصناف البحث التاريخي الأخرى العاجزة عن الوصول لمرتبة الإطار ـ وذلك يتضمن معظم الأصناف غير الغربية. ولكن (إطار) كوهن هذا قد استغل بنجاح أكبر نسبيا كي يفسر صعود وسقوط تفسيرات تاريخية حول أحداث أو مشكلات معينة (كما هو الحال مع الثورة الفرنسية أو مناشئ الحرب العالمية الأولى). وهو مصطلح مرن بما يكفي يسمح بقدر وافر من التنويع في استخدامه، ولذا فهو أقل انغلاقا من لفظ (المدرسة).

التاريخ في ظل النظم المستبدة والسلطوية

كان الفيلسوف كارل پوپر (انظر أعلاه، ص 214) شديد الريبة تجاه الصلات بين التاريخ والعلوم الإنسانية، حيث اعتقد بأنها تقود إلى محاولات عنيفة وقمعية لهندسة المجتمعات وفقا لأنماط تاريخية (حتمية) بحسب الظاهر. وفي حين أخطأ پوپر عندما ساواها (بالتاريخانية)، فقد أصاب دون شك في نقطة جوهرية: هي أن القرن العشرين قد شهد (وما زال القرن الحادي والعشرون يشهد) كيف أخضع التاريخ بمعنييه (التقدمي والمعتاد *History & history*) لخدمة عدد من الأنظمة المستبدة والعسكرية والشمولية على يسار ويمين الطيف السياسي، وشهد ممارسة مستوى من التحكم والقمع جعل تدخلات الدولة أو التاج في القرون السابقة تبدو مبتدئة ولطيفة.

كانت أسوأ تلك الأنظمة صيتا على اليمين هي قوى المحور: إيطاليا الفاشية، اليابان الإمبراطورية، وألمانيا النازية خلال عقدي 1930 و1940. ففي إيطاليا خلال عهد موسوليني، خلقت انقسامات بين اليسار واليمين في تدوين التاريخ ولم تختف بعد حتى الآن. وهرب المؤرخ المعادي للفاشية غايتانو سالڤيميني *Gaetano Salvemini* (1873 ـ 1957) من البلاد في عقد 1920، ليصبح مواطنا أميركيا قبل أن يعود إلى إيطاليا بعد الحرب. ولكن آخرين فروا للأبد، بما فيهم عالم الكلاسيكيات وتدوين التاريخ أرنالدو موميليانو *Arnaldo Momigliano*، الذي خسر منصبه بعد تطبيق الفاشية لقوانين ضد اليهود عام 1938؛ وقد عاود دوره العلمي في أكسفورد ولندن، ومن ثم في شيكاغو. لكن الفاشيين لم يكتفوا، مثل بعض الأنظمة، بتصفية الأعداء المعروفين: بل استعانوا بمؤرخين مثل جواكينو ڤولپي *Gioacchino Volpe* (1876 ـ 1971) لكتابة

تواريخ ملائمة إيديولوجيا. وقد سلكت اليابان سبيلا مشابها في عقد 1930، عبر التنويه بصلاتها بالماضي الإمبراطوري المجيد والنجاحات العسكرية الأحدث ضد قوى مجاورة مثل روسيا. أما المؤرخون المعارضون فقد اضطهدوا، مثل نورو إيتارو **Noro** *Eitaro* (1900 ـ 34)، المؤرخ الاقتصادي الماركسي والناشط السياسي الذي قضى نحبه في حجز الشرطة. وكما في إيطاليا، فقد تلقت الحكومة العسكرية دعما مباشرة من مؤرخين ميالين للإمبراطورية. ولكن الرد الذي جاء بعد الحرب أفضى إلى ردة عن النزعة العسكرية في الماضي وانعطافا نحو التاريخ الاجتماعي غير الماركسي أو الثقافي أو حتى ‹الشعبي›.

أما في ألمانيا، فقد وفرت النزعة القومية الضارية والمفعمة بالحنين سندا إيديولوجيا متينا لتدوين التاريخ النازي وسوغت تطهير طبقة المؤرخين وكذلك المثقفين بنحو أوسع. فقد فر المؤرخون اليهود واليساريون من ألمانيا خلال عقد 1930، ليحلوا بنحو رئيس في بريطانيا والولايات المتحدة، حيث سيكون لهم تأثير جسيم في مجالات التاريخ بعد الحرب في كلا البلدين. ولكن آخرين في أرجاء أوربا الواقعة تحت النازية قضوا نحبهم في معسكرات الاحتجاز. إن الكتابة التاريخية في العهد النازي هي تماما ما قد يتوقعه المرء، بتشددها في العداء لليهود والشيوعية، وتشبعها بنزعة عنصرية (تستمد من معتقدات مفرطة حول الأصول الآرية لشعوب أوربا التيوتونية) أفضت لاحقا لتسويغ الإبادة. لكننا لن نتوقف عندها طويلا، رغم أن أحد نتاجاتها، أي **تاريخ الأمة** *Volksgeschichte*، يستحق اهتماما عابرا: فقد مثل أوجا مريعا لتراث طويل من ‹التيوتونية› في تدوين التاريخ بدأ من تاسيتوس، وتبناه الإنسانيون في عصر الإصلاح الديني، وأعاد صياغته الفيلسوف فيشته في مطلع القرن التاسع عشر.

ولكن الأهم من ذلك هي عواقب تدوين التاريخ النازي منذ 1945، ومراجعة التاريخ الألماني، وعملية التأمل الصعبة، والمؤلمة في الغالب، في ماضيه القريب المميز. فقد حدثت الانتقالة الكبرى بعد نهاية الحرب، مع انهيار المقاومة التقليدية لهذا التخصص لمناهج العلوم الاجتماعية. وبحث بعض المؤرخين المحافظين من الحرس القديم مثل غيرهارد ريتر *Gerhard Ritter* (1888 ـ 1967)، وحتى بعض الممارسين السابقين التائبين لتاريخ الأمة، عن جذور النازية في فشل الديمقراطية وضعف المجتمع الكتلي.

ولكن آخرين من اليسار مثل هانز أولريش ڤيلر *Hans - Ulrich Wehler* (1931 - 2014)، المؤرخ الاجتماعي من بيلفلد، آثروا النظر إلى تحديث المؤسسات السياسية والاجتماعية في القرن التاسع عشر. وقد دعا ڤيلر إلى «علم اجتماع تاريخي»، آخذا بجوانب من علم الاجتماع البريطاني والأميركي إلى جانب أفكار مستمدة من ماكس ڤيبر وماركس و«النظرية النقدية» عند جماعة أخرى، كانت للتو عائدة إلى ألمانيا من المنفى، تعرف باسم مدرسة فرانكفورت. ستصبح المشكلة الرئيسة التي تتناولها عدة أجيال من المؤرخين بعد الحرب هي ظهور النازية، وستكون قناتهم الأبرز هي مجلة **التاريخ والمجتمع** *Geschichte und Gesellschaft* (تأسست عام 1975).

في العقود الستة الماضية، أثار السجال حول «الطريق الخاص *Sonderweg*» لألمانيا إعصارين كبيرين في تدوين التاريخ، هما أزمة فيشر في مطلع عقد 1960 و«نزاع المؤرخين *Historikerstreit*» في أواخر عقد 1980. اندلعت الأولى جراء عمل نشر لنازي سابق تائب يدعى فريتز فيشر *Fritz Fischer* (1908 - 99) حول دوافع الحرب العالمية الأولى. ففي كتابه **أهداف ألمانيا في الحرب العالمية الأولى** *Griff nach der Weltmacht: Die Kriegszielpolitik des Kaiserlichen Deutschland, 1914/18* (1961))، لم يؤكد فيشر مسؤولية ألمانيا عن الحرب العالمية الثانية فحسب، كما يتقبل ذلك معظم المؤرخين السائدين، بل عن حربها السابقة، وهو رأي لم يكن بالسائغ آنذاك. ففي نظره يمكن رسم خط مستقيم من سياسات رجال الدولة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر إلى لحظة اندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان القادة الألمان يسعون لأن تصبح ألمانيا قوة عالمية قبل نشوب الحرب. وقد كان الغضب فوريا؛ حيث قصف مكتب ناشر الكتاب بقنابل نارية، وهاجم عدد من المؤرخين المحترمين (من بينهم ريتر) مناهج فيشر ومصادره.

أما الجدال الثاني فقد شب بعد حوالي ربع قرن، حول موضوع منفصل لكنه لا يفتقر للصلة، وعلى مسرح أشد علنية في النهاية. ففي حين كانت قضية فيشر تدور بنحو غير مباشر فحسب حول الحرب العالمية الثانية، كان نزاع المؤرخين يركز عليها بنحو مباشر، وخاصة على حلقتها الأشد حسما أخلاقيا، أي الإبادة اليهودية. حيث كان السؤال هنا يدور حول كون الإبادة فعلا شاذا لزمرة صغيرة من المجرمين (هم

قادة النازية) أو أمرا أشد شرا من ذلك - أي تجسدا بشعا لمشكلات بنيوية عميقة ضمن المجتمع الألماني. فلعل مكامن الضعف الاجتماعية هذه، التي عجل من سيرها تقدمها السريع نحو الحداثة ونشوء الدولة في القرن التاسع عشر (بالإضافة إلى (طريق مستقل) للتحديث عن سائر الديمقراطيات في أوربا الغربية)، هي ما قاد إلى الحرب العالمية الأولى وفشل الديمقراطية في عقد 1920، واستغلها النازيون من ثم في صعودهم للسلطة؛ وهكذا فإنها على المدى البعيد قد أفضت إلى الحرب العالمية الثانية وفي النهاية إلى (الحل النهائي). وفقا لهذه النظرة فإن شعبا بأكمله (وليس عصبة صغيرة فحسب من قادة النازية وأعوانهم) ستظل تحمل عبئا ضخما من الذنوب.

وقد بدأ الجدل حين ادعى إرنست نولته *Ernst Nolte* (1923 - 2016)، وهو مؤرخ محافظ، أن الإبادة كانت (ضمن ألمانيا) فعلا شاذا قامت به حلقة صغيرة من معادي اليهود المتعصبين، وأن آوشڤيتز مثلا لم تكن سوى إجابة ومحاكاة لمعتقلات الغولاغ السوڤييتية. وقد صدر الرد السريع على ذلك من اليسار أساسا، ابتداء من الفيلسوف والمنظر الاجتماعي يورغن هابرماس (و. 1929) في صحيفة *Die Zeit* الذي اتهم نولته بمحاولة (تخفيف الأضرار)، والقيام بحركة تبرئة لدفن ما لا يمكن دفنه. وقد أدى تدخل هابرماس في مسألة ربما كانت عصبة المؤرخين ستعالجها بهدوء أكبر، لتحويل القضية من جدال منهجي إلى مشهد علني أوسع انتشارا.

على صعيد عالمي، شهد النصف الثاني من القرن العشرين بسط عدة أنظمة سلطوية وفاشية جديدة سلطتها على الكتابة التاريخية وقمعها للمعارضة. وكما في مثالي إيطاليا وألمانيا، فقد اتخذ ذلك هيئة مبادرة ومستجيبة معا. تمثل الجانب المبادر بالدعم الحكومي النشط لتأليف تواريخ وطنية طموحة، كثيرا ما تقع في عدة مجلدات - حيث ظل التراث القديم لتدوين التاريخ الرسمي، الذي همش منذ أمد بعيد في ديمقراطيات أوربا والأميركتين، حيا معافى في شرق وجنوب شرق آسيا. أما الجانب المستجيب من هذا الضبط فيتضح أيضا في هذه الأنظمة، يمينية كانت أو يسارية، حيث يروج القمع والرقابة، تقيد قنوات النشر بقسوة، وتلاحق الآراء بكل حرص، ويعاقب الاعتراض بالطرد من الوظيفة الأكاديمية، النفي، أو السجن. وتقدم إندونيسيا (النظام الجديد) في عهد سوهارتو (1966 - 98) مثالا على الدمج بين كلا التوجهين. فقد ظهر هناك تاريخ

‹رسمي› عسكري بتوجيه من نوغروهو نوتوسوسانتو Nugroho *Notosusanto* (1931 ـ 85)، وهو مؤرخ وجندي ووزير للتعليم. فقد أعد في عقد 1970 تاريخا من عدة أجزاء لإندونيسيا، اتسم ‹بالوطنية› والعداء الضاري للشيوعية، بعنوان *Sejarah Nasional Indonesia* (نشر عام 1978؛ ونقح في 1984)، وكان مزيجا غير سائغ من التاريخ الرسمي وأعمال المؤرخين الجامعيين. ولكن في أعقاب استقالة سوهارتو، ظهرت تحديات معلنة لتدوين التاريخ الرسمي من قبل عدد من الرؤى المنافسة للماضي، بما فيها تلك التي تمثل عدة مناطق وأقليات إثنية شتى. ورغم إعلان مؤرخي إندونيسيا استقلالهم عن تحكم الدولة، فما زال من غير الواضح اليوم إن كان مشروع ‹تصحيح التاريخ *pelurusan sejarah*› يمثل ببساطة استبدال زمرة من اليقينيات الإيديولوجية بزمرة أخرى جديدة. ففي عام 2007 ظهرت إشارة للعودة إلى مناهضة الشيوعية في عهد سوهارتو عبر أمر المدعي العام الإندونيسي بمصادرة كتب التاريخ.

أما على أقصى اليسار، فإن ظروف تدوين التاريخ خلال أكثر القرن العشرين كانت مماثلة بنحو ملحوظ. فقد كان مهندسا تدوين التاريخ الماركسي السوڤييتي في المقام الأول رجلين، أحدهما مؤرخ محترف والآخر لا، لكنهما عملا معا على صياغة تدوين تاريخ ماركسي قبل وقت طويل من ثورة أكتوبر. لم يطل الأمر بالثاني منهما، وهو غيورغي پليخانوف (1856 ـ 1918)، كثيرا بعد الثورة. وكان قد ألف عام 1891، بوصفه منظرا، نصا محوريا في الماركسية بعنوان **التصور المادي للتاريخ** *The Materialist Conception of History*، تلاه عام 1895 **تطور الرؤية الأحادية للتاريخ** *The Development of the Monist View of History*. أما الشخص الآخر، الأوضح نفوذا في تدوين التاريخ الأكاديمي، فقد كان تلميذا سابقا للمؤرخ ڤ. أو. كلوشيڤكي، ويدعى ميخائيل نيكولايڤتش پوكروڤسكي *Mikhail Nikolaevich Pokrovskii* (1868 ـ 1932). ذهب پوكروڤسكي إلى المنفى في أعقاب ثورة 1905 الفاشلة، حيث كان أول من واجه المشكلة الأبرز لتدوين التاريخ الثوري، ليزيح الرواية الإمبراطورية المتعارفة عن توحيد روسيا ويستبدلها برواية ماركسية. ويتضح الموقف المبكر لپوكروڤسكي من التاريخ الروسي في كتابه ذي المجلدات الخمسة **تاريخ روسيا: منذ أقدم العصور إلى صعود الرأسمالية التجارية** *History of Russia:*

From the Earliest Times to the Rise of Commercial Capitalism (1910 ـ 14 ترجم للإنجليزية عام 1931). وقد علق پوكروڤسكي حظوظه، وهو الحصيف سياسيا، في أوائل العشرينيات على نجم جوزيف ستالين (1878 ـ 1953) الصاعد، وبحلول عام 1928 أصبح هو الصوت الأبرز في تدوين التاريخ السوڤييتي. ومع توطيد ستالين لسلطته خلال السنوات القليلة اللاحقة، ضاقت فسحة الآراء أكثر.

لقد ظل نفوذ پوكروڤسكي مسيطرا بادئ الأمر بعد وفاته، وفي مطلع عام 1934 دافعت عن سمعته أبرز مؤرخات البلاد، آنا ميخائيلوڤنا پانكراتوڤا *Anna Mikhailovna Pankratova* (1897 ـ 1957)، ولكن في نهاية ذلك العام أدانه ستالين بعد وفاته نظرا لافتقاره للشعور الوطني وتفسيره الأقرب للحتمية لتأثير القوى الاقتصادية في الأحداث. فتصويره لروسيا قبل الثورة كبلاد رجعية كما تصورها ماركس لم يعد يتناسب مع تشجيع ستالين على الفخر الروسي والاعتقاد بأن البلاد لم تتبع بالضبط نفس المسار التاريخي الذي سلكته أوروپا الغربية. ومع الإضعاف والانحلال لجمعية المؤرخين الشيوعيين الذي وازى تلك الأحداث، وهي التي كانت محركا لقدر وافر من الجدل حول الماضي، وتأسيس معهد التاريخ ضمن الأكاديمية الشيوعية، أفسح مناخ عقد 1920 المتسامح نسبيا المجال لضغوط الدولة الصارمة، ومارست الدولة من ثم نفوذا مسيطرا على كتابة التاريخ. حيث اندرج مؤرخون بين ضحايا حملات التطهير في عقد 1930. وإلى جانب مفكري الحزب المعادين مثل ليون تروتسكي (1879 ـ 1940)، استهدف مؤرخون قوميون لا ينتمون للقومية الروسية: فقد نفي ميخائيلو هروشيڤسكي *Mykhailo Hrushevsky* (1866 ـ 1934)، المؤرخ المحترف الأوكراني الرائد، إلى القوقاز حيث قضى نحبه فجأة في ظروف غامضة.

وصلت الرقابة القاسية لأوج قدرتها في السنوات الأخيرة من حكم ستالين، التي كان على كل شكل من التاريخ خلالها، سواء ورد في كتاب، فلم، أو بث، أن يعكس الأحكام الواردة في الكتاب الستاليني **تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوڤييتي (البولشڤيك): مساق قصير**، الذي نشر عام 1938، وهو العام ذاته الذي أصبحت فيه إدارة الأرشيف السوڤييتي تحت سلطة وكالة الأمن الحكومية (*NKVD*). وبعد وفاة ستالين، ظل التاريخ تحت إشراف الحزب والدولة، ولكنه لم يسلم من إنتاج بعض

المنشقين عن الماركسية الرسمية، مثل المؤرخ الثقافي القروسطي آرون غوريڤتش *Aaron Gurevich* (1924 ـ 2006) والناقد والمنظر الأدبي ميخائيل باختين *Mikhail Bakhtin* (1895 ـ 1975). ومع صعود الحرب الباردة، سرعان ما انتشر إشراف الحزب خارج حدود الاتحاد السوڤييتي ليشمل «حلفاء» اتفاق وارسو في رومانيا، پولندا، بلغاريا، ألمانيا الشرقية، هنغاريا، وتشيكوسلوڤاكيا، التي فرض كل منها درجات متفاوتة من القيود على المؤرخين.

فخلال فترة الهيمنة السوڤييتية، كثيرا ما جارى تدوين التاريخ، مع بعض فروق التوقيت، تجربة الاتحاد السوڤييتي ذاته. وقد أبقت الأنظمة الشيوعية المختلفة قبضة قوية على نشاطات المؤرخين، رغم أن ضغطها طبق بنحو متفاوت: فقد بدأت هنغاريا مثلا تجنح نسبيا لليبرالية بعيد فشل ثورة 1956. وكذلك فعلت پولندا التي شهدت ثورة مجهضة أيضا في العام ذاته. حيث أعيدت صلات ما قبل الحرب بين المؤرخين الپولنديين والفرنسيين، وترجمت أعمال بكلا اللغتين بنحو متبادل، ونشر عدد من المؤرخين الپولنديين مثل ڤيتولد كولا *Witold Kula* (1916 ـ 88) المتأثر ببروديل، وكذلك المنظر جيرزي توپولسكي *Jerzy Topolski* (1928 ـ 98)، أعمالا في مجلة *Annales*. أما في أجزاء أخرى من الكتلة السوڤييتية، كالجمهورية الديمقراطية الألمانية (ألمانيا الشرقية)، فقد أثبتت الأنظمة الحاكمة أنها أشد قمعا وتدخلا. ففي بلغاريا مثلا، أعلن عدد من عام 1968 لمجلة التاريخ الأكاديمي الرائدة في البلاد أن المكتب السياسي قد قرر التكليف بكتابة تاريخ وطني للبلاد، وعين لكتابته حصرا أولئك الأكاديميين الذين حظوا بثقة المكتب. وستكتب السلسلة المرجوة، التي تقع في عشر مجلدات، وفقا لمبادئ ماركسية ـ لينينية صارمة. وقد صدر الجزء الأول من هذا «التاريخ الشعبي» عام 1979 في 50.000 نسخة ـ فقد كانت السلطات حريصة بوضوح على منح هذا العمل انتشارا واسعا.

أما فرض ماركسية الدولة على تدوين التاريخ في المعقل الرئيسي الآخر للشيوعية، أي الصين (جمهورية الصين الشعبية، منذ عام 1949)، فقد كان أمرا معقدا، نظرا إلى أنه كان لا بد من فرض العقيدة الماوية على مجتمع لم يزل منظما بعدة أنحاء وفق المبادئ الكونفوشية، مما يقدم لنا مثالا آخر على اضطرار الوتد المربع لشكل غربي

من التفكير التاريخي للتكيف مع الفتحة المستديرة لثقافة مستقبلة مختلفة تماما. ولم يكن التكيف مباشرا؛ فقد نظرت الكونفوشية إلى العالم بوصفه سلسلة متصلة مستقرة يتخللها صعود وهبوط السلالات، أما الماركسية فرأته ساحة للتقدم المطرد؛ وحيث رأت الكونفوشيوسية النظام والوئام، جنحت الماركسية إلى الصراع الطبقي والتمرد. ومع ذلك، أصبحت الصين ثاني أكبر موطن لكتابة التاريخ الماركسي خلال القرن العشرين، ولا تزال اليوم آخر دولة عظمى تحتفظ بالماركسية كأيديولوجية رسمية على الرغم من تحررها الاقتصادي الحديث. ورغم أن الكلاسيكيات القديمة فقدت سلطتها الهائلة بسرعة بعد ثورة 1911 السابقة، لم يستطع الجمهوريون الليبراليون ولا الماركسيون التخلص بسهولة من الهيكل الكونفوشي بأكمله. بل لقد ثبت في الواقع أن تبنيه أسهل من التخلي عنه. فقد صيغ كونفوشيوس الحكيم المحافظ القديم مجددا بصورة منظر مبكر للتقدم، وعذرت صلاته مع الطبقية والإقطاع لأنها كانت مناسبة لعصره الذي تلاشى الآن، هو وترتيباته الاجتماعية معا.

إن إعادة النظر إلى الماضي الصيني من خلال تصنيفات تاريخية أوربية (كالإقطاع) قد أكملت عملية تغريب تدوين التاريخ الصيني التي بدأت في عقد 1890. وبنحو فاق حتى ليانغ چيچاو *Liang Qichao* أو مؤرخي الرابع من مايو الجمهوريين، فقد شرع المؤرخون الماركسيون الصينيون الأوائل في هندسة قطيعة دائمة مع الممارسات التعليمية والأخلاقية التي هيمنت على خمسة وعشرين قرنا من كتابة التاريخ. كان فان وينلان *Fan Wenlan* (1893 ـ 1969) من أوائل أتباع الماركسية المهمين، ويعتبر كتابه **تاريخ الصين العام** (1941) علامة فارقة في التأريخ الماركسي الصيني. ومع تأسيس جمهورية الصين الشعبية بعد فترة الاحتلال الياباني الفوضوية وما تلاها من حرب أهلية بين الشيوعيين والقوميين، أصبح التأريخ الماركسي عقيدة قويمة ترعاها الدولة. وقد عُيّن فان وينلان، الشيوعي منذ عقد 1920، في النهاية لرئاسة معهد التاريخ الحديث.

لقد تدرب العديد من المؤرخين البارزين الذين شملت حياتهم المهنية كلا الفترتين، أي الجمهورية والشيوعية، في أوربا أو أمريكا، وكانت دراستهم عابرة للخطوط الإيديولوجية. تلقى چين ينكه *Chen Yinke* (1890 ـ 1969)، وهو الحجة المعتبرة في تاريخ عصر التانغ والسوي، تعليمه في هارفارد وبرلين. وألف هو شيه

Hu Shih (1891 ـ 1962)، المؤرخ المتدرب في كولومبيا (الذي سيعود لاحقا إلى الولايات المتحدة كسفير لبلاده)، كتاب **تاريخ الفلسفة الصينية** مستعيرا من مصادر أوربية متباينة مثل ڤيندلباند ولانغلوا وسينوبوس. وربما كان تلميذه غو جيغانغ *Gu Jigang* (1893 ـ 1980) أروع عقل في هذه المجموعة. فقد قام غو بفضح النصوص القديمة الزائفة بلا هوادة سالكا ذات التراث اللغوي العالمي العظيم الذي تضمن لورنزو ڤالا وف.أ. وولف، ونشر كتابا مدرسيا شهيرا يضع الصين في سياقها من تاريخ العالم. وحيث كان يشكك في التاريخ الصيني المبكر قبل سلالة التشو في القرن الحادي عشر ق.م، فقد أصبح من ثم في أوائل القرن العشرين قطب «مدرسة الشك في العصور القديمة *Doubting Antiquity*» (التي ربما خفف من شكوكها اكتشاف نقوش عظام الاستنباء من عصر الشانغ، التي باتت مصدرا جديدا لإعادة السلالات المبكرة إلى الزمن التاريخي، وعززت بشكل كبير من الإيمان بمصداقية المؤرخين الأوائل مثل سيما چيان).

ابتداء من أوائل عقد 1950 وحتى في عقد 1970، تحول تركيز الأبحاث الصينية إلى تاريخ الفلاحين والرأسمالية، مع تصوير انتصار الشيوعية كأمر لا مفر منه. وكان «تاريخ الحزب *Dangshi*» موضوعا مهما بحد ذاته في المناهج الجامعية منذ قيام جمهورية الصين الشعبية، لدرجة أن بعض الجامعات أنشأت أقساما مخصصة له. ولا تزال النصوص التي تصدر في شؤون تتعلق بتاريخ الحزب خاضعة لرقابة دقيقة ومنسقة من أعلى، بنحو يجعل المؤرخين البيروقراطيين في عصر التانغ يبدون أكثر فردية بالمقارنة. فمنذ عام 1949، عانى المؤرخون في أوقات مختلفة من الاضطهاد بسبب تصريحاتهم المعارضة، أما داخل الحزب الشيوعي نفسه فقد سعت فصائل مختلفة للحصول على دعم تاريخي لمواقف سياسية متنافسة. فقد أحدثت القفزة العظيمة للأمام *The Great Leap Forward* (1959 ـ 1961) شرخا بين العلماء الماركسيين الأكبر سنا والأصغر سنا، ودفعت المؤرخين الأكاديميين نحو نبذ متشدد لتاريخ السلالات «الإقطاعية» أو «البرجوازية»، مما أدى إلى تطهير الأعمال اللاحقة من الإشارات إلى السلالات والأباطرة والأحداث السابقة. وقد رافقت ذلك توجيهات لإخضاع الماضي لسلطة الحاضر، وتطويع التاريخ لخدمة النظرية، بطريقة ساذجة

قاومها الأكاديميون المعتدلون مثل نائب رئيس جامعة بكين المؤرخ جيان بوزان *Jian Bozan* (1898 ـ 1968) الذي كان اختلافه عن التحليل الماركسي الأرثوذكسي سيصنفه ضمن خصوم النظام.

وقد كان للثورة الثقافية *Cultural Revolution* تأثير أشد فظاعة بعد بضع سنوات. فقد بدأ الأمر بهجوم على مؤرخ محترم لعصر المينغ يدعى وو هان *Wu Han* (1909 ـ 1969). كتب وو مسرحية قبل عدة سنوات بعنوان **إقالة هاي روي** *The Dismissal of Hai Rui*، عن موظف حقيقي في سلالة المينغ اشتهر بميوله الشعبوية ومعارضته للفساد. وقد أدي هذا العمل لأول مرة في عام 1961، ونظرا لانتقاداته المستترة للنظام الحالي والقفزة العظيمة للأمام، فسرعان ما أثار شكوك المتشددين المقربين من ماو، واستهلّ عشر سنوات من الاضطهاد العنيف للمثقفين والمفكرين الصينيين. حيث ألقي بأفواج من الأكاديميين في السجن أو تعرضوا للتعذيب أو النفي للعمل القسري في الريف. وفي حين نجت بعض الشخصيات البارزة مثل فان وينلان المقرب من ماو من حملة التطهير، فقد كان العديد غيرهم أقل حظا. فقد لقي وو نفسه وجيان بوزان حتفهما (على الرغم من العفو اللاحق عنهما بعد وفاة ماو). ومنذ بداية تحرير الاقتصاد في أواخر عقد 1970 فقد فتح الباب مجددا لدراسة العصور السابقة بأكملها، على الرغم من محاولة قرار حزبي صادر عام 1981 أن يوقف المناقشات التاريخية الجارية للفترة الماوية باسم الوحدة. وفي الربع الأخير من القرن العشرين، بدأ التأريخ الصيني أيضا بالتفاعل مرة أخرى مع الغرب، حيث تدرب الأكاديميون الصينيون في معاهد الدراسات العليا الغربية وترجمت العديد من الكتب الغربية إلى اللغة الصينية (على الرغم من انخفاض حركة الكتب الصينية في الاتجاه الآخر). وقد استمرت هذه الحركة المعادلة (للشفافية *glasnost*) الروسية السوڤييتية إلى حد كبير، على الرغم من بعض الانتكاسات القصيرة مثل رد الفعل في ميدان تيانانمين عام 1989. يبقى فقط أن نرى ما إذا كانت لعودة ظهور (الرجل القوي) في هيئة الزعيم الصيني (الأبرز) شي جين پينغ، أو نظيره الروسي ڤلاديمير بوتين، آثار طويلة الأمد تتمثل بتقييد الكتابة التاريخية في تلك الدول ـ ففي عام 2009 دشنت روسيا لجنة رئاسية للتصدي (التزوير التاريخ الذي يتعارض مع مصالح روسيا) وترميم الصورة السوڤييتية المحطمة.

التاريخ من الأسفل

ربما يخرج المرء من المقطع السابق بانطباع عن تباين حاد بين الدول الديمقراطية وغير الديمقراطية، فيما يخص حرية البحث والتفسير التاريخي. ولكن التعنت السياسي ليس حكرا على الدول السلطوية، والقيود على حديث المؤرخين ونشرهم تفرض حتى في ظل حكومات ديمقراطية، كما سيكتشف بعض المؤرخين الماركسيين والاشتراكيين في الغرب خلال عقد 1950 و1960.

فمن دون سلطة الدولة التي تدعمها، لم تحقق الماركسية الأكاديمية مكانة الاحتكار في الغرب، وقد خبا نفوذها بعض الشيء منذ عقد 1980، خاصة في أميركا الشمالية. لقد بدأ تدوين التاريخ الماركسي، الاشتراكي، أو الميال لليسار بشكل عام بالظهور في مطلع القرن العشرين. إن جزءا من صمود اليسار لم يستمد من استقامته الصارمة بل من نقيضها، أي الميل الواسع نسبيا للاختلاط بالأجندات الأخرى والتلاقح مع توجهات أخرى إلى التاريخ. فقد ألف جان جوريه *Jean Jaurès* (1859 ـ 1914)، وهو سياسي اشتراكي فرنسي اغتيل على أبواب الحرب العالمية الأولى، عملا غير ماركسي هو **تاريخ اشتراكي للثورة الفرنسية**. وقد ظهرت أعمال أخرى بقلم عدد من المؤرخين الذين ولدوا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كالمؤرخ الاقتصادي والمصلح التربوي البولندي فرانسيشك بوياك *Franciszek Bujak* (1875ـ 1953) وأقرانه الإنجليز ر. هـ. توني *R.H. Tawney* (1880 ـ 1962) وكذلك جون ل. (1872 ـ 1949) وباربرا (1873 ـ 1961) هاموند.

ولكن آخرين من الجيل ذاته كانوا أشد تطرفا: فقد كان المؤرخ النرويجي الرائد هالفدان كوت *Halvdan Koht* (1873 ـ 1965) مثلا ماركسيا صريحا مبكرا (ولو أنه انتقد المادية الصارمة لدى ماركس)؛ كما روى المؤرخ اليوناني يانيس كورداتوس *Yannis Kordatos* (1891 ـ 1961) تاريخ ثورة بلاده بوصفها صراعا طبقيا لا إثنيا (بخلاف معظم مؤرخي القرن التاسع عشر). وقد ازدادت جاذبية الماركسية في أعقاب انهيار وول ستريت عام 1929، الذي بدا وكأنه يحقق نبوءة ماركس عن الانهيار الحتمي للرأسمالية. فقد وضع جورج لوفافر *Georges Lefebvre* (1874 ـ 1959)

الثورة الفرنسية في إطار تاريخي ماركسي، أصبحت وفقا له انتقالا ضروريا نحو الدولة البرجوازية. وقد أعيد نشر كتابه الأشهر، **ظهور الثورة الفرنسية** *The Coming of the French Revolution*، عام 1939 عند مطلع الحرب العالمية الثانية، لكن حكومة ڤيشي الحليفة للنازية أمرت بحرق كل النسخ المعروفة منه بعد هزيمة فرنسا عام 1940. وسيصبح فيما بعد نصا مفضلا لدى اليسار البريطاني بعد الحرب.

إن مداعبة العديد من المفكرين للاشتراكية والماركسية معا قبل عام 1945 قد وفرت أسسا لميل أعرض في تدوين التاريخ، سيتطور من بعد الحرب إلى تاريخ العمل، «التاريخ الراديكالي»، وما يسمى أحيانا «التاريخ من الأسفل». وأمثلة محورية أنجلو ـ أميركية على التاريخ الاجتماعي في القرن العشرين، مثل **تكوين الطبقة العاملة البريطانية** (1963) لـ إ.پ. ثومپسون *E.P. Thompson* (1924 ـ 93)، و**العمل، الثقافة، والمجتمع في أميركا الصناعية** (1977) لهربرت غوتمان *Herbert Gutman* (1928 ـ 85)، كانت نتاجا لمنظور ماركسي صريح، لكنه أميل للإنسانية وأبعد عن الصرامة والحتمية. فقد ركزت على الحياة اليومية لمستضعفي التاريخ، ونوهت بدورهم الفاعل، وهو جانب مستهان به في الماركسية التقليدية (وكذلك بأنحاء مختلفة في التأثير الآخر الأكبر في التاريخ الاجتماعي، أي مؤرخي الحوليات في عهد بروديل). وتُبُنِّيَ توجه «لين» مماثل نحو الماركسية في أرجاء أخرى من العالم، كما عند الصحفي ـ المؤرخ الهولندي يان رومين *Jan Romein* (1893 ـ 1962)، الذي يدين لصنف **تاريخ الثقافة** عند هويزينغا بقدر ما يدين لماركس، وقد أقصي عن عضوية الحزب الشيوعي الهولندي نظرا لآرائه الشاذة. وتجلى تعديل آخر للماركسية في تركة الاشتراكي الإيطالي، وسجين الفاشية الشهير، أنطونيو غرامشي (1891 ـ 19379)، الذي أصبحت **دفاتر السجن** خاصته التي بلغت 3.000 صفحة، ونشرت بعد عقد من وفاته، أحد أهم النصوص السياسية لدى اليسار. بفضل فكرته عن «الهيمنة» الثقافية، وهي العملية التي تحافظ بها النخب أو القوى الحاكمة على سلطتها بفضل التعاون الطوعي للخاضعين، فقد سما نجم غرامشي أعلى وأعلى في العقود الأخيرة، وقد استمرت أفكاره في الظهور في الكثير من الأبحاث التاريخية والتاريخ الأدبي غير الماركسي.

وإلى جانب فرنسا وإيطاليا، ما من دولة ديمقراطية أنتجت تدوين تاريخ ماركسي

بالتماسك الذي أنتجته بريطانيا، حيث غطيت معظم الفترات من العصور الوسطى وحتى مطلع القرن العشرين، وتمتع المؤرخون الاشتراكيون والماركسيون هناك بشهرة عامة غير متناسبة حقا مع أعدادهم الضئيلة نسبيا. لقد كان العديد من الماركسيين البريطانيين، مثل كريستوفر هيل Hill (1912 ـ 2003)، وهو مؤرخ الأفكار والمعتقدات الراديكالية في إنجلترا خلال القرن السابع عشر، في البدء أعضاء ناشطين في الحزب الشيوعي، لكنهم تركوه في أعقاب الغزو السوفييتي لهنغاريا عام 1956، برفقة العديد من أقرانهم الفرنسيين. أما آخرون مثل إريك هوبزباوم (1917 ـ 2012) فقد حافظوا على ولائهم للحزب لكنهم وقفوا مواقف نقدية ضد سيئات التوسعية السوفييتية. ولعل أهم مساهمة جماعية أنجزها العديد منهم كانت تأسيس مجلة **الماضي والحاضر** *Past and Present* في مطلع عقد 1950. وبعدما أثبتت نفسها بسرعة كبديل لمجلات التاريخ السياسي السائدة، فقد حققت لنفسها درجة من الشهرة الدولية تداني ما حصلت عليه مجلة **الحوليات** من قبل في فرنسا. ومن بعد تخليها عن وصفها الأصلي ‹مجلة للتاريخ العلمي› (وهو الآن فقط ‹مجلة للدراسات التاريخية›)، أصبحت مجلة **الماضي والحاضر** أميل بما يكفي إلى الوسط في أواسط عقد 1970 لدرجة فسح مجال على يسارها لمجلات أحدث مثل **مجلة ورشة التاريخ** *History Workshop Journal* (أُسِّست عام 1976).

لقد استطاع مؤرخو اليسار البريطانيون إلى حد كبير أن يتجنبوا الاضطهاد السياسي والتخريب الوظيفي الذي عاناه أقرانهم في بلدان أخرى ـ مع بضع استثناءات مهمة مثل جورج روديه *Rudé* (1910 ـ 93)، مؤرخ الحركات الثورية الذي لم يستطع أن يعثر على وظيفة في بريطانيا، وقضى مسيرته المهنية في أستراليا وكندا. ولكن هناك عدد من الأمثلة الشهيرة على الاضطهاد أو الحجب المهني. ففي عام 1956، رفض تعيين المؤرخ الأسترالي الشاب راسل وورد *Russel Ward* (1914 ـ 95) كمحاضر من قبل إدارة المعهد نظرا لصلاته ‹المنشقة› والشيوعية، مما دفع رئيس القسم (الذي لم يشارك وورد آراءه بأي حال) إلى الاستقالة احتجاجا على انتهاك الحرية الأكاديمية. وحين كلف أحد أبرز مؤرخي اليابان المحدثين، إيناغا سابورو *Ienaga Saburo* (1913 ـ 2002)، بتأليف كتاب تاريخي عام 1953، رفضت السلطات مخطوطته لأنها

بدت معارضة لنظام أسرة توكوغاوا، واعتبرت انتفاضات الفلاحين مشروعة، وبددت صفحات كثيرة في الحديث عن التاريخ الحديث لمنطقة المحيط الهادئ. ولكنه حين قدم المخطوطة من جديد، دون أن يغير كلمة، فقد قبلت دون نقاش، مما أشعره باعتباطية النظام.

وقد كان للولايات المتحدة هي الأخرى تراث طويل أيضا من ‹التاريخ اليساري›، يعود إلى المؤرخين اليساريين والجدد في مطلع القرن العشرين. وقد أدى الالتزام الجديد بعد عام 1945 بفكرتين توأمين، هما استثنائية أميركا و‹الإجماع› الذي أقيمت عليه ـ بنحو غطى على التصدعات العرقية والطبقية والجنسية (التي لم تكن قد أثيرت بعد) ـ إلى تبريد أي حوافز راديكالية في الوقت ذاته الذي شهد بداية الحرب الباردة. ولذا فكثيرا ما وجد ذوو الميول اليسارية أنفسهم أمام أسئلة صعبة حول ‹ولاءاتهم› خلال أواخر عقد 1940 و1950. وهاجر عدد منهم إلى كندا وبريطانيا ودول أخرى. حيث طرد باحث الكلاسيكيات موزس فينلي *Moses Finley* (1912 ـ 86)، وهو يهودي من نيويورك، من منصبه في جامعة راتغرز عام 1952، لينتقل من ثم إلى جامعة كامبردج حيث حظي بمسيرة علمية طويلة ناجحة، تكللت بمنحه لقب سير. وهاجرت ناتالي زيمون ديفيس إلى تورنتو في مطلع عقد 1960 مع زوجها عالم الرياضيات (الذي تعرض للاضطهاد السياسي) رغم أنها عادت لاحقا إلى الولايات المتحدة ودرّست في بيركلي وبرنستون.

وخلال عقد 1960 طرد مؤرخون ناشطون مثل هاورد زن *Howard Zinn* (1922 ـ 2010) وستوتون ليند *Staughton Lynd* (و. 1929) من مناصبهم الأكاديمية، وطرد الأخير خاصة لأنه زار مدينة هانوي احتجاجا على حرب ڤيتنام. وحتى في عام 2017 القريب، كان المشرعون في ولاية آركنسو يحاولون حظر أعمال زن، وخاصة كتابه الشهير **تاريخ شعبي للولايات المتحدة**، من الاستخدام في المدارس؛ وقد بادر حاكم ولاية إنديانا بجهد مماثل، وهو شخصيا رئيس جامعة سابق. (وللحق والإنصاف، تجدر ملاحظة أن أكاديميين زملاء، ليسوا محافظين بأجمعهم، قد انتقدوا أعمال زن على أسس علمية بحتة.)

لقد كرس المؤرخ البلجيكي أنتون دي بيتس *Antoon de Baets* (و. 1955)

قدرا كبيرا من مسيرته البحثية لتوثيق ووصف أمثلة على التدخل السياسي في الحرية الأكاديمية (وأحيانا الحرية الجسدية حرفيا) للمؤرخين؛ ونشر عام 2002 سجلا مؤسفا لهذه التدخلات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية؛ وقد صدرت ملحقات سنوية لهذه القائمة تتضمن أنظمة ديمقراطية وسلطوية معا.

بالطبع فإن الرقابة جاءت أحيانا من الاتجاه الآخر، حيث وقع الليبراليون ضحية لذوي المواقف الأشد تطرفا. ففي أواسط عقد 1960، مع هيمنة حرب ڤيتنام وحركة الحقوق المدنية على الخطاب العام، ظهر التاريخ الراديكالي مملوءا بالنقمة، ومهددا أحيانا بالعنف المستقطب. وفي صدى لهجوم الحرس الأحمر على مواقع تراثية صينية ومثقفين صينيين قبل عامين، أحرقت ملاحظات جمعها على مدى سنة أوريست رانوم *Orest Ranum* (و. 1933)، مؤرخ فرنسا الليبرالي، على يد طلاب محتجين في جامعة كولومبيا عام 1968، وسرعان ما وجد المناخ في قسمه قمعيا لدرجة أنه انتقل إلى جامعة جونز هوپكينز.

رغم أن راديكالية أواخر عقد 1960 في أميركا وأوروپا الغربية قد تلاشت خلال بضعة أعوام، فقد تركت إرثا تعليميا مهما. فالتاريخ من الأسفل، إضافة إلى تاريخ السود، تاريخ النساء، وتاريخ القبائل الأصلية، استطاع خلال أوائل عقد 1970 أن يؤسس جبهة صغيرة وراسخة في أقسام التاريخ الجامعية. وفي نهاية ذلك العقد، كان الموقف التدريسي لكل هذه المجالات أشد أمانا نسبيا ـ في الوقت المناسب لمقاومة المد المحافظ الصاعد في عقد 1980 سواء في الولايات المتحدة أو العديد من حلفائها الغربيين. أما قدرتها على مقاومة انتشار مناهضة الأكاديميا والتفكير الاختزالي والعداء للأدلة، وهي الظواهر التي لوثت الخطاب العام في الفترة الأخيرة، فتظل محل شك.

الأنواع المختلفة للتاريخ الفكري

لقد درس المؤرخون الأفكار وكذلك الأحداث طوال قرون، حيث يستوعب المصطلحان الألمانيان *Kulturgeschichte* و*Geistesgeschichte* محتوى وتأثير الفكر البشري على حد سواء في العصور الماضية. أما ضمن المنهج التاريخي الحديث، فإن ما يعرف عادة بالتاريخ الفكري قد أسس لذاته في أواسط القرن العشرين كمجال فرعي

مميز يحمل أسماء شتى وينتهج أساليب شتى: فقد كان **تاريخ الأفكار** *Ideengeschichte* عند ماينكه هو الصنف الألماني؛ وفي فرنسا اندمجت دراسة العقليات *mentalités* بمدرسة الحوليات. أما في الولايات المتحدة فإن ‹تاريخ الأفكار› كموضوع دراسة معروف قد بدأ بصدق مع آرثر أو. لوڤجوي *Arthur O. Lovejoy* (1873 ـ 1962). فقد أنتج لوڤجوي كتابا يجسد منهجه بعنوان **سلسلة الوجود العظيمة** *The Great Chain of Being* (1936): حيث يبدأ بتحديد تصور محوري أو ‹فكرة مفردة› ومن ثم تتبع سيرها للأمام في الزمن مع اندماجها وتفاعلها مع أفكار مفردة أخرى. وعبر تحالفهم مع الفلسفة والتاريخ في آن واحد ـ بمعنى أن فرز الحجج الدقيقة لمفكر ما وكذلك حياتها اللاحقة باتت أولوية لديهم ـ فقد أنتج مؤرخو الفكر أعمالا رائعة بحق خلال تلك الفترة، لكن لوڤجوي بدأ بإثارة بعض الانتقاد خلال عقد 1960.

لقد أسس لوڤجوي وحرر **مجلة تاريخ الأفكار** *Journal of the History of Ideas* (عام 1940)، ورغم أنها لم تتأقلم مباشرة مع التغيرات في موضة تدوين التاريخ، فقد وفرت معيارا لها مع ذلك. ففي العقود التي تلت تأسيسها لم تمر إلا بعدد ضئيل نسبيا من المحررين، وبدأت مؤخرا بتطعيم بنيتها التقليدية من التاريخ ‹الفكري الرفيع›، المعني بنخبة المفكرين، ببعض موضوعات ‹التاريخ الثقافي› الأوسع. وبدأت أيضا بالتخلي عن تركيزها الغربي شبه الحصري الذي كان، إلى جانب توجهها الفلسفي ‹الباطني›، قد ضيق فيما مضى من شعبية هذا الأسلوب من التاريخ الفكري في أكثر أرجاء العالم الأوسع. وقد أسست مجلات أحدث مثل **تاريخ الإنسانيات** *History of Humanities* (2015) ومراجعة **التاريخ الفكري** *The Intellectual History Review* (2007) في السنوات الأخيرة، في أعقاب تأسيس مجلة **تاريخ الأفكار الأوربية** *History of European Ideas* (1980).

ومع أن التاريخ الفكري في سياقه الأوربي والأميركي الشمالي بلغ أوج شعبيته في عقد 1950، فقد خسرها في العقدين التاليين (كضحية للصعود السريع للتاريخ الاجتماعي)، مما اضطره لصياغة ذاته تحت عنوان أقل نخبوية هو ‹التاريخ الثقافي› في عقد 1980، مما مكنه من استرداد قدر وافر من القبول. وقد توسع ‹تاريخ الأفكار› الأقدم لدى لوڤجوي من أحد طرفيه ليستوعب مجالات أحدث مثل تواريخ الكتاب

(*histoires du livre*) والمكتبات والقراءة، ومن طرف آخر لأجل البحث عن معاني المصطلحات والنصوص في سياقها اللغوي أو الاجتماعي. وقد انقسم هذا الاتجاه الأخير بدوره إلى ما يعرف بمدرسة كامبردج لتاريخ الفكر السياسي، الذي يرتبط أغلب الوقت باسم كوينتن سكينر *Quentin Skinner* (و. 1940) في بريطانيا والنيوزيلندي (الذي درس في كامبردج) ج.غ.أ. بوكوك *J.G.A. Pocock* (و. 1924) في الولايات المتحدة، وتوجه تاريخ التصورات السياسية والاجتماعية *Begriffsgeschichte* الذي دعا له الألماني راينهارت كوسيليك *Reinhart Koselleck* (1923 ـ 2006). يشترك منهج كوسيليك في الكثير مع منهج لوڤجوي، رغم أنه لا يركز على «الفكرة المفردة» وكأنها كيان سابح بلا ملامح، بل على الاستخدام الدلالي لكلمات معينة، وأهميتها ومدى صلتها بالواقع السياسي والاجتماعي المعاصر. (ومثال جيد على ذلك، ذو علاقة مباشرة بهذا الكتاب وكنا قد مررنا به في الفصل الرابع، هو ظهور كلمة «*Geschichte*» في اللغة الألمانية خلال القرن الثامن عشر، لتزيح كلمة «*Historie*» الأقدم، إلى جانب تطور ما أصبحنا نعرفه بالتاريخ بالمعنى الأبرز).

أما بوكوك فقد درس الأفكار تاريخيا، ضمن سياقاتها السياسية والفكرية المتتابعة، مع النظر للمؤلفين الكبار وهم يقارنون أو يدينون فكريا لمعاصرين وأسلاف أقل شهرة. وتحفته التي أنجزها في أواسط مسيرته، أي كتاب **اللحظة المكيافيلية** *The Machiavellian Moment* (1975)، تجسد منهجه هذا بأفضل نحو، حيث تتابع سير أفكار سياسية وتاريخية محورية مثل «الإنسانية المدنية» و«الجمهورية» إلى الوراء حتى فكر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ثم تدرس تفاعلها في سياق إيطاليا القرن السادس عشر، قبل تتبعها إلى الأمام، عبر المفكرين الإنجليز في القرن السابع عشر، حتى نصل للعالم البريطاني ـ الأميركي عبر الأطلسي في القرن الثامن عشر. وعمل بوكوك الأحدث، وهو دراسة من ست مجلدات لكتاب غيبون **انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، يضع هذا الكتاب وسط عدة تيارات مختلفة من الفكر والكتابة التاريخية، نابعة من العصور القديمة وحتى حركات التنوير الأوربية المختلفة (واستخدام «حركات» بالجمع مقصود هنا، للتمييز بين عدة تيارات متباينة من الفكر في القرن الثامن عشر).

وأما توجه كوينتن سكينر فهو شبيه بذلك عموما من حيث تأكيده دراسة الأعمال الكبرى، ليس لمجرد توليد معان متناسقة داخليا، بل وضمن سياق أعمال أخرى من عصرها ذاته، رغم أن سكينر يقيم وزنا أكبر لبعض المفكرين الرواد مثل الفيلسوف توماس هوبز من القرن السابع عشر، ثم إن كتابته تستعين بصراحة أكبر بالنظرية اللغوية. (في استعراض حديث للتاريخ الفكري، أشار ريتشارد واتمور *Whatmore* إلى عدد من الفروق المهمة الأخرى في آرائهم، لكنها لا تهمنا هنا). وقد نشر الباحث الماركسي ريموند ويليامز *Raymond Williams* (1921 ـ 88) دراسة واسعة الأثر للمعاني المتبدلة لمصطلحات معينة، بعنوان *Keywords* عام 1976، كان لها نفوذ واضح في المجال المتداخل للدراسات الثقافية.

لقد ألهمت نظريات التحليل النفسي لسيغموند فرويد (1856 ـ 1939) نوعا مختلفا للغاية من البحث في تأثير العقل في التاريخ، وهنا نقصد تأثير اللا وعي واللا عقلانية. ففي أعماله المتأخرة، وخاصة **موسى والتوحيد** (1939)، طبق فرويد نظرياته وتجربته السريرية على (تشخيص) التاريخ. فقد احتك فرويد بالتاريخ من قبل في مسيرته، مستخدما التحليل النفسي في كتاب صدر عام 1910 عن ليوناردو داڤنشي، وبنحو أشد انتظاما في كتاب **قلق في الحضارة** (1930). وكان يعرف عنه استعانته بالأرشيفات، وعدم اتكاله على المصادر الثانوية، كما في تعامله مع طرد الأرواح في القرن السابع عشر بوصفه ضربا من العصاب. وقد تصور فرويد عملية التحضر بوصفها صراعا عارما لا ينتهي بين الحب والبغض، الجنس والموت، ينبع من قتل الأب البدائي، وتدفعه إلى الأمام شخصيات قياسية مثل موسى تتصارع مع الهمج الذين تقودهم ـ ومن الصعب هنا أن نتجاهل التناغم بين أفكار فرويد وبعض الجوانب في أفكار معاصره الأكبر سنا نيتشه (الذي كانت (إرادة القوة) الفطرية عنده هي الدافع الأساسي للغاية لكل أفعال البشر).

ربما استطاع التاريخ النفسي أن يثير حماسة أكبر عند أنصاره الأشد إخلاصا، ومقتا أمرّ عند نقاده الأشد صراحة، من أي توجه نظري آخر لدراسة الماضي في العموم، بما في ذلك (المنعطف اللغوي) (انظر أدناه). حيث جاءت سنوات مجده بعد جيل من وفاة فرويد، في أواخر عقد 1950، 1960، وأوائل 1970. ففي عام 1957، استخدم

رئيس الجمعية التاريخية الأميركية ويليام ل. لانغر *William L. Langer* (1896 ـ 1977) منبرها كي يحث المؤرخين على الاتجاه نحو «المهمة اللاحقة»، أي تطبيق علم النفس على البحث التاريخي. وفي العام الذي تلاه بالضبط، نشر إريك. هـ. إريكسون *Erik H. Erikson* (1902 ـ 94)، النفساني الألماني المتمرس والهارب من النازيين، كتابه **لوثر الشاب** *Young Man Luther* الذي كان أول محاولة مطولة للتحليل النفسي لشخصية تاريخية معينة.

وعلى غرار إريكسون، لم يكن معظم المؤرخين النفسيين اللاحقين فرويديين صارمين جدا، وقد طبقوا صيغهم الخاصة من التحليل النفسي في الماضي: ففي حالة ڤيلهلم رايش *Wilhelm Reich* (1897 ـ 1957)، نراه يطبق نظريات فرويد على شعب بكامله، أي الطبقات الوسطى الدنيا من ألمانيا ڤايمار، كي يفسر الصعود المعاصر آنذاك لهتلر والنازية؛ وفي حالة باحث الكلاسيكيات الأميركي نورمان أو. براون *Norman O. Brown* (1913 ـ 2002)، فهو يفسر الحركات التاريخية بنحو أوسع من خلال عدسة التحليل النفسي. وقد طبقت أنواع أخرى على ظواهر اجتماعية ماضية مثل ملاحقات السحرة في أوائل الحداثة.

رغم أن التاريخ النفسي لم يحظ بقبول واسع إلا عند زمرة محورية من المعجبين، وفي حين أن النظريات الفرويدية ومشتقاتها المتنوعة قد أقصيت في علم النفس الحديث نظرا لصعود مجالات أحدث كعلم الأعصاب وعلم النفس الاجتماعي، فإن التوجه الفرويدي وجد له أحيانا بعض الأنصار من المؤرخين المعروفين كالمؤرخ الفكري الأميركي بروس مازليش *Bruce Mazlish* (1923 ـ 2016) والمهاجر الألماني پيتر غاي *Peter Gay* (1923 ـ 2015) الذي تدرب شخصيا على التحليل النفسي وكتب بنحو واسع عن فرويد، إضافة إلى شخصيات أقل شهرة كاللاهوتي والمنظر التاريخي ميشيل دو سيرتو.

وبنحو غير مباشر، فقد كان له أيضا تأثير معتبر في جوانب أخرى من النظرية الثقافية ـ فقد صاغ ميشيل فوكو مثلا أفكاره عن الجنسانية ردا على فرويد ـ وحتى عن ما بعد الحداثة (انظر أدناه، ص)، رغم أن هذا التوجه ـ الذي كثيرا ما يرتبط بالمنظر الفرنسي

جاك لاكان (1901 ـ 81) ـ قد تحدى حتى الإمكانية البحتة لفهم النفس البشرية، نظرا لأن الذات (أو «الذاتية») من حيث هي قد تكون سمة سيالة وكذلك صفة «مشكّلة» ضمن الثقافة الغربية. وهكذا فإن قصارى ما قد يحققه محلل خبير مثل إريكسون، هو تقديم التاريخ النفسي لمجموعة تفسيرات محتملة بديلة لأفعال فردية.

لقد استعين أيضا بأشكال أخرى من علم النفس للمساعدة في دراسة الماضي. حيث ساهم مؤرخو الحوليات في ذلك عبر تركيزهم على العقليات، ولكن علماء اجتماعيين (غير مؤرخين) أقرب عهدا، من بينهم مختصون في الإدراك البشري، بدأوا بالتساؤل إن كان السلوك في العصور الماضية، وخاصة النشاط الجماعي (أي سلوك الحشود مثلا)، يمكن أن يفسر عبر فهم الأنحاء التي يستوعب العقل من خلالها الواقع ويشكله. وذلك بنحو ما يعد تكييفا لفكرة ديلتي عن الفهم *Verstehen*، أو تصور كولينغوود القريب منه عن الاستحضار *re ـ enactment*، ومحاولة لتطبيقه على نفسيات الجماعات الماضية، ولكن باستخدام أدلة الملاحظة والتجريب المعاصرين. وهو بنحو ما يقدم صورة مرآة «علمية» تقابل الافتراض التاريخاني القائل بأنه في حين قد تختلف الثقافات والقيم، فإن عمليات الفكر البشري الجوهرية متشابهة بقدر معتبر خلال الزمن لحد سماحها بالتخمين حول السلوك الماضي استنادا للأدلة الحاضرة.

من تاريخ النساء إلى تواريخ للجندر والجنسانية

إلى جانب بعض الاستثناءات القليلة في أوائل القرن العشرين مثل أيلين پاور (انظر أعلاه، ص 279)، فإن حضور المؤرخات النساء في هذا التخصص قد انخفض واقعيا في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، وهو أمر استمر حتى عقد 1960. أما خارج أميركا الشمالية وأوروبا الغربية فإن تميز النساء في هذا المجال كان أشد تباينا، في نمط يستمر حتى يومنا هذا. ففي الصين يظل هذا التوجه حكرا على الرجال إجمالا. وفي بلغاريا كانت نسبة الربع من كل مؤرخيها منذ أواسط القرن التاسع عشر حصة للنساء، وقد تصاعدت هذه النسبة بنحو معتبر عند سقوط الشيوعية عام 1989. وعلى العكس ففي فنلندا لم تحز سوى قلة نادرة من النساء قبل عقد 1950 درجات دكتوراه في التاريخ، رغم أن عددا أكبر منهن حصل على شهادات ماجستير. وقد ظل الرجال

مسيطرين على هذا التخصص في فنلندا في العقود الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية، رغم نشاط العديد من كاتبات السير والمؤرخات الهاويات.

ولكن ممارسة التاريخ على الهامش شيء، ودخول المجال كمؤرخة أكاديمية أمر آخر - وهو هدف مهني نددت به ماري ريتر بيرد *Mary Ritter Beard* (1876 - 1958)، رغم صلاتها الجامعية الشخصية، على أساس أن قواعد الأكاديميا قد سنت كليا بأيدي الرجال. فقد اعترضت بيرد على المسار الجامعي كهدف للنساء جزئيا لأن المؤرخين المحترفين، كما أشارت في كتابها **المرأة كقوة في التاريخ** *Woman as Force in History* الصادر عام 1946، قد آثروا ببساطة - نظرا لأن معظمهم من الذكور - ألا ينظروا إلى مساهمات نصف النوع البشري في التاريخ.

كان لكتاب بيرد، بوصفه نذيرا بمجيء الطور الكبير الأول من تاريخ النساء في عقد 1970، ما يماثله في أرجاء أخرى من عالم ما بعد الحرب، خاصة في اليابان حيث نشر إينوويه كيوشي Inoue Kiyoshi (1913 - 2001)، وهو مؤرخ ماركسي، كتابه **تاريخ النساء في اليابان** *Nihon joseishi* (1948)، وتبعته النسوية الصحفية والسياسية لاحقا كاميچيكا إيچيكو *Kamichika Ichiko* (1888 - 1981) بكتابها **تاريخ الأفكار عند النساء** *Josei shisoshi*، الذي تأثر جدا بكتاب بيرد. وفي أواخر عقد 1960 لم تعد المشكلة مجرد عدم اهتمام بتاريخ النساء، أو غياب كتابات ذات أهمية حوله، بل تجسدت بغيابه عن مناهج الجامعات وخطط الأبحاث، وكذلك بالندرة الدائمة للنساء في مناصب التدريس الثابتة، مهما يكن مجال دراستها الوطني. لقد استذكرت المؤرخة البارزة لأمريكا الاستعمارية، ماري بيث نورتون *Mary Beth Norton* (و. 1943)، التي انتخبت رئيسة للجمعية التاريخية الأميركية AHA عام 2018، مؤخرا كيف انضمت لقسم التاريخ في جامعة كورنيل عام 1971 وكانت المرأة الوحيدة في القسم طوال خمس سنين، تحت إمرة رئيس قسم كان يفتتح الاجتماعات بعبارة (أيها السادة). أما بالنسبة للمؤرخات القادمات من أقليات (كالنساء السوداوات والهسپانيات)، فإن تحديات الحياة في العالم الأكاديمي كانت أقسى عليهن، لأنهن واجهن تحيزات جنسية وعرقية معا.

لقد ظلت دراسة النساء في الماضي موضوعا غير ثابت وسط التيارات الرئيسة للتاريخ العسكري، السياسي، والاجتماعي، وكان يكتب عنها ويؤلف خارج الجامعات في الأغلب. كان الحل المبدئي لهذا يبدو أنه يكمن في إقامة تاريخ النساء كمبحث فرعي مميز ومعترف به دون فصله عن المجال الاحترافي السائد، الذي تكمن فيه الجوائز والتكريمات الأكاديمية التي كانت النساء تناضل لأجل نيل حصة منها طوال خمسين عاما. ولكن الدافع نحو استقلال تاريخ النساء في عقد 1970 نتج عن نمو حركة تحرير المرأة (أو نسوية «الموجة الثانية»)، وتطور النظرات النسوية في الفلسفة والعلوم الاجتماعية، مستلهمة فكريا من نصوص محورية سابقة مثل **الجنس الآخر** (1949) لسيمون دو بوڤوار وغرفة **تخص المرء وحده** (1929) لڤرجينيا وولف. وقد كانت هناك فعلا بعض المساقات الدراسية المتفرقة حول تاريخ النساء التي تقدمها بعض الجامعات الأميركية، حيث درّست النمساوية غيردا ليرنر (1920 ـ 2013) هذا الموضوع في مؤسسات أميركية شتى منذ أواسط عقد 1960.

ولكن عاملا مهما في توطيد تاريخ النساء ضمن مناهج الجامعات، وجعله موضوع بحث قائما بذاته، ربما كان قرار العديد من المؤرخات المعترف بهن أن يغيرن اهتماماتهن أو يوسعن من تركيز أبحاثهن وتدريسهن. فقد ألفت ناتالي زيمون ديڤيس، التي كانت أبحاثها المبكرة تدور حول عمال الطباعة الفرنسيين، بحثا رائدا خلال عقد 1970 حول النساء والثقافة الشعبية في فرنسا أوائل الحداثة. (أصبحت ديڤيس لاحقا ثاني امرأة تنتخب لرئاسة الجمعية التاريخية الأميركية عام 1987، ولكن منذ ذلك الحين وحتى عام 2018 فقد شغلت المنصب أكثر من عشر نساء أخر). في حين ألفت جيزيلا بوك *Gisela Bock* (و. 1942)، وهي مؤرخة نسوية ألمانية مرموقة، كتابها الأول حول فيلسوف عصر النهضة توماس كامپانيلا قبل أن تحركها نشاطاتها السياسية لأجل مساواة العاملات في الأجور في اتجاه تاريخ النساء. وكانت أيلين پاور، المعروفة بنحو رئيس كمؤرخة اقتصادية، قد شرعت قبل وفاتها بتأليف كتاب **النساء في القرون الوسطى** *Medieval Women* الذي نشر لاحقا عام 1975. وقد نشرت الباحثة الفرنسية في شؤون أفريقيا، كاترين كوكيري ـ ڤيدروڤيتش *Catherine Coquery ـ Vidrovitch* (و. 1935) تاريخا للنساء في أفريقيا الحديثة عام 1987،

ترجم إلى الإنجليزية بعد مرور عقد. كما ظهرت عدة مشاريع نشر تعاونية حول جوانب من تاريخ النساء على مر الأعوام، مثل كتاب **تاريخ النساء في الغرب** *History of Women in the West* الواقع في عدة مجلدات، الذي حرره المؤرخان الفرنسيان جورج دوبي وميشيل پيرو (و. 1928).

لكن السجالات استمرت بالظهور خلال عقدي 1970 و1980 حول كيف وأين يمكن وضع تاريخ النساء في ‹التاريخ بحق› أو ‹السواد الأعظم›. فمن وجهة نظر بعض المؤرخين الذكور، كان تاريخ النساء هو الرمز الأبرز للتصدع المستمر لهذا المجال بحسب خطوط ‹جماعات الضغط›. أما المؤرخون ذوو النزعة الماركسية فكثيرا ما مالوا للنظر إلى تاريخ النساء بوصفه تشتيتا للأنظار عن الأجندة الرئيسة التي تتمثل بفهم آليات الطبقات وتأثيرها؛ وردت عليهم المؤرخات بأن الماركسية قد تجاهلت تماما مساهمة النساء في أي فضاء آخر سوى المنزل. ورغم تداخله الواضح مع تاريخ الأسرة والتاريخ الديمغرافي، فإن تاريخ النساء ظل ينظر إليه إجمالا وكأنه ذو أهمية هامشية، وكان طلاب الأبحاث ‹الجادون› (ويقصد بهم الذكور، أو أي امرأة كانت ترغب في الترقي الوظيفي) يتجهون لمجالات أخرى. كما لم تتفق الباحثات النساء أيضا فيما بينهن كليا على أجندة أساسية لهذا الموضوع. فهل تاريخ النساء مجرد ‹تتمة› للأجندات الرئيسة لدى المؤرخين، وإضافة إلى بحر المعرفة لإنجازات أهملت ظلما من قبل؟ هل يكفي ببساطة أن ننسب للنساء دورا كان يلصق بالرجال من قبل، أم أن نظهر للنور، كما عنونت شيلا روبوثام *Sheila Rowbotham* (و. 1943) عملها الشهير الصادر عام 1973، جنسا كاملا ‹أخفي عن التاريخ›؟ أم أن ذلك اندماج في تحليل (وكذلك أجندة) لتدوين التاريخ كان الرجال قد أسسوها في المقام الأول؟ باختصار، هل يكفي أن نكتب ‹تاريخا للمساهمة أو التعويض› ـ ثم نضيف النساء، كما يقال، ونخلط المزيج؟

ولكن نقلة مهمة حدثت بعد عام 1986، الذي نشرت فيه جَون والاش سكوت *Joan Wallach Scott* (و. 1941)، وهي باحثة أميركية تعمل على التاريخ الفرنسي، مقالة محورية بعنوان ‹الجندر: صنف مفيد في التحليل التاريخي›، حثت فيها على إعادة توجيه الانتباه بعيدا عن النساء ككائنات ذوات جوهر بيولوجي وتجاه دراسة

الجندر وبنيته الاجتماعية (واللغوية كذلك). لم تكن سكوت المؤرخة الوحيدة التي تفكر وفق هذه الخطوط، ولكن مقالتها هذه ضربت وترا حساسا. وقد استشعر تأثيرها، ولو بأنحاء متفاوتة، في سائر أرجاء العالم خلال العقدين اللاحقين، كما يشهد بذلك منتدى لعدة مؤلفين عقد حولها لأجل عدد عام 2008 من مجلة **المراجعة التاريخية الأميركية**. وقد أفضى ذلك في النهاية إلى توسعة معتبرة لمجالات الدراسة الممكنة للمؤرخين النسويين وغير النسويين. فبدلا من التركيز على اضطهاد النساء وإخضاعهن أو ضده، أي النشاط البطولي أو المتعدي في الماضي، يمكن للمرء الآن أن يركز على النحو الذي أثر به الجندر في المدى الكلي للنشاط الإنساني في الماضي، بما في ذلك تلك المجالات التي كانت حضور النساء فيها نادرا، كالحياة السياسية. ولكن سكوت نفسها لم تكتف بمجرد المناداة بمساواة الجندر مع العرق أو الطبقة كتصنيف. بل تساءلت عما يعنيه (الجندر) في سياقات معينة وكيف عمل كمحدد لظواهر أخرى. ونتيجة تأثرها بمنظرين ثقافيين فرنسيين من قبيل ميشيل فوكو (1926 ـ 84)، الذي ركزت أعماله المتأخرة على تاريخ الجنسانية، فقد أكدت سكوت أن الخطابات المكتوبة التي يولدها أي مجتمع هي أشكال من السلطة بحد ذاتها، وأنها قد خلقت وقيدت أفكار الذكورة والأنوثة، وكذلك الصفات المذكرة والمؤنثة عبر الزمن. ورغم أن سكوت نفسها قد تعرضت للانتقاد نظرا لولائها الشديد لما بعد الحداثة (انظر أدناه) على حساب الأجندات النسوية الأكثر تقليدية، فإن مقالتها كان لها مفعول أشبه بالمحفز الفوري.

خلال العقود الثلاث الأخيرة، كان تاريخ النساء يمر بتعزيز مطرد (وقد يقول البعض أنه يستبدل) على يد تاريخ الجندر، بما في ذلك دراسة الذكورية والجنسانيات البديلة: فقد استكشفت المثلية في التاريخ وخلال معظم عهوده بجهود جون بوزويل *John Boswell* (1947 ـ 94) وكذلك فوكو نفسه؛ وقد استخدمت مرينالينى سينها *Mrinalini Sinha* (و. 1960) أفكار إدوارد سعيد للبحث في (الذكورية الاستعمارية)، التي تجلت في التفاعل بين تعميمات الجندر والقوة الإمبريالية البريطانية في البنغال خلال القرن التاسع عشر.

وفي سياق مشابه، فقد درست كاثرين هول *Catherine Hall* (و. 1946) علاقات

الجندر بالطبقة والعرق، وصلاته التاريخية بالعلاقات بين ‹الحواضر› الإمپريالية والأطراف المستعمرة. كما استكشفت جوديث ر. والكويتز *Judith R. Walkowitz* (و. 1945) طبيعة المرعب والصادم في لندن العصر الڤكتوري عبر سرديات ‹الرعب الجنسي›. وقد نشرت الأسترالية سوزان ك. فولي *Susan K. Foley* (و. 1949) دراسات مهمة عن الجندر والمجتمع في فرنسا الحديثة. وأعيد النظر في موضوعات أشبعت بحثا مثل تاريخ صيد السحرة في أوروپا وأميركا، درست من قبل من أبعاد دينية، نفس ـ اجتماعية أو إناسية، هذه المرة عبر عدسة الجنس والجندر.

يمكن قياس حجم التبدلات في التوجه نحو دراسة حياة النساء وأدوارهن التاريخية في الماضي خلال بضعة العقود الماضية عبر مقارنة كتاب أيلين پاور المنشور بعد وفاتها عن النساء في العصور الوسطى، الذي صاغته في فترة ما بين الحربين، بأعمال أحدث عن الجندر في العصور الوسطى بأقلام مؤرخين مثل كارولاين وولكر باينوم *Caroline Walker Bynum* (و. 1941) وباربرا أ. هاناوالت *Barbara A. Hanawalt* (و. 1941)، أو عبر وضع دراسة أليس كلارك الكلاسيكية عن الحياة العملية لنساء القرن السابع عشر بإزاء دراسة مارجوري ك. ماكنتوش *Marjorie K. McIntosh* (و. 1940) والمؤلفة ذاتها حول نساء شعب اليوروبا في أفريقيا. فقد تغيرت البوصلة من استرجاع مساهمات وسير مفقودة إلى استكشاف الأنحاء التي يمكن استخدام الجنس والجندر بها لفهم جوانب من الحياة في العصور الوسطى، تتراوح بين الطعام والروحانية والجسد البشري. وقد جرى تحدي بعض ثوابت تاريخ النساء المبكر ـ وخاصة الفكرة القائلة بأن الحداثة مثلت انحطاطا في مكانة النساء ورفاههن عن عصر مفترض تمتعن فيه بمكانة أشد تكافؤا في الماضي القديم أو القروسطي ـ على يد باحثين أقرب عهدا مثل جوديث م. بينيت *Judith M. Bennett* (و. 1951).

مقارنة بالتهميش النسبي قبل نصف قرن، فقد أصبح تاريخ النساء وكذلك تاريخ الجندر مباحث فرعية مهمة ضمن هذا المجال (مع صلات وثيقة بموضوعات متداخلة ناهضة مثل الدراسات الثقافية، دراسات العرق والإثنية، ودراسات التنمية الدولية) في عدة من أرجاء العالم، وليس جميعها بأي حال. وكما لاحظت لورا لي داونز في كتاب صدر حديثا، فإن ‹الاستخفاف الهازئ› بتاريخ النساء أو الجندر لم يعد أمرا ممكنا.

الجندر وبنيته الاجتماعية (واللغوية كذلك). لم تكن سكوت المؤرخة الوحيدة التي تفكر وفق هذه الخطوط، ولكن مقالتها هذه ضربت وترا حساسا. وقد استشعر تأثيرها، ولو بأنحاء متفاوتة، في سائر أرجاء العالم خلال العقدين اللاحقين، كما يشهد بذلك منتدى لعدة مؤلفين عقد حولها لأجل عدد عام 2008 من مجلة **المراجعة التاريخية الأميركية**. وقد أفضى ذلك في النهاية إلى توسعة معتبرة لمجالات الدراسة الممكنة للمؤرخين النسويين وغير النسويين. فبدلا من التركيز على اضطهاد النساء وإخضاعهن أو ضده، أي النشاط البطولي أو المتعدي في الماضي، يمكن للمرء الآن أن يركز على النحو الذي أثر به الجندر في المدى الكلي للنشاط الإنساني في الماضي، بما في ذلك تلك المجالات التي كانت حضور النساء فيها نادرا، كالحياة السياسية. ولكن سكوت نفسها لم تكتف بمجرد المناداة بمساواة الجندر مع العرق أو الطبقة كتصنيف. بل تساءلت عما يعنيه (الجندر) في سياقات معينة وكيف عمل كمحدد لظواهر أخرى. ونتيجة تأثرها بمنظرين ثقافيين فرنسيين من قبيل ميشيل فوكو (1926 ـ 84)، الذي ركزت أعماله المتأخرة على تاريخ الجنسانية، فقد أكدت سكوت أن الخطابات المكتوبة التي يولدها أي مجتمع هي أشكال من السلطة بحد ذاتها، وأنها قد خلقت وقيدت أفكار الذكورة والأنوثة، وكذلك الصفات المذكرة والمؤنثة عبر الزمن. ورغم أن سكوت نفسها قد تعرضت للانتقاد نظرا لولائها الشديد لما بعد الحداثة (انظر أدناه) على حساب الأجندات النسوية الأكثر تقليدية، فإن مقالتها كان لها مفعول أشبه بالمحفز الفوري.

خلال العقود الثلاث الأخيرة، كان تاريخ النساء يمر بتعزيز مطرد (وقد يقول البعض أنه يستبدل) على يد تاريخ الجندر، بما في ذلك دراسة الذكورية والجنسانيات البديلة: فقد استكشفت المثلية في التاريخ وخلال معظم عهوده بجهود جون بوزويل *John Boswell* (1947 ـ 94) وكذلك فوكو نفسه؛ وقد استخدمت مرينالييني سينها *Mrinalini Sinha* (و. 1960) أفكار إدوارد سعيد للبحث في (الذكورية الاستعمارية)، التي تجلت في التفاعل بين تعميمات الجندر والقوة الإمبريالية البريطانية في البنغال خلال القرن التاسع عشر.

وفي سياق مشابه، فقد درست كاثرين هول *Catherine Hall* (و. 1946) علاقات

الجندر بالطبقة والعرق، وصلاته التاريخية بالعلاقات بين ‹الحواضر› الإمبريالية والأطراف المستعمرة. كما استكشفت جوديث ر. والكويتز *Judith R. Walkowitz* (و. 1945) طبيعة المرعب والصادم في لندن العصر الڤكتوري عبر سرديات ‹الرعب الجنسي›. وقد نشرت الأسترالية سوزان ك. فولي *Susan K. Foley* (و. 1949) دراسات مهمة عن الجندر والمجتمع في فرنسا الحديثة. وأعيد النظر في موضوعات أشبعت بحثا مثل تاريخ صيد السحرة في أوربا وأميركا، درست من قبل من أبعاد دينية، نفس ـ اجتماعية أو إناسية، هذه المرة عبر عدسة الجنس والجندر.

يمكن قياس حجم التبدلات في التوجه نحو دراسة حياة النساء وأدوارهن التاريخية في الماضي خلال بضعة العقود الماضية عبر مقارنة كتاب أيلين پاور المنشور بعد وفاتها عن النساء في العصور الوسطى، الذي صاغته في فترة ما بين الحربين، بأعمال أحدث عن الجندر في العصور الوسطى بأقلام مؤرخين مثل كارولاين وولكر باينوم *Caroline Walker Bynum* (و. 1941) وباربرا أ. هاناوالت *Barbara A. Hanawalt* (و. 1941)، أو عبر وضع دراسة أليس كلارك الكلاسيكية عن الحياة العملية لنساء القرن السابع عشر بإزاء دراسة مارجوري ك. ماكنتوش *Marjorie K. McIntosh* (و. 1940) والمؤلفة ذاتها حول نساء شعب اليوروبا في أفريقيا. فقد تغيرت البوصلة من استرجاع مساهمات وسير مفقودة إلى استكشاف الأنحاء التي يمكن استخدام الجنس والجندر بها لفهم جوانب من الحياة في العصور الوسطى، تتراوح بين الطعام والروحانية والجسد البشري. وقد جرى تحدي بعض ثوابت تاريخ النساء المبكر ـ وخاصة الفكرة القائلة بأن الحداثة مثلت انحطاطا في مكانة النساء ورفاههن عن عصر مفترض تمتعن فيه بمكانة أشد تكافؤا في الماضي القديم أو القروسطي ـ على يد باحثين أقرب عهدا مثل جوديث م. بينيت *Judith M. Bennett* (و. 1951).

مقارنة بالتهميش النسبي قبل نصف قرن، فقد أصبح تاريخ النساء وكذلك تاريخ الجندر مباحث فرعية مهمة ضمن هذا المجال (مع صلات وثيقة بموضوعات متداخلة ناهضة مثل الدراسات الثقافية، دراسات العرق والإثنية، ودراسات التنمية الدولية) في عدة من أرجاء العالم، وليس جميعها بأي حال. وكما لاحظت لورا لي داونز في كتاب صدر حديثا، فإن ‹الاستخفاف الهازئ› بتاريخ النساء أو الجندر لم يعد أمرا ممكنا.

وفي أميركا الشمالية على الأقل، فإن عدد النساء المثبتات في منصب الأستاذية أو الموشكات على التثبيت في أقسام التاريخ قد تزايد بنحو معتبر. فقد لاحظت نورتون عام 2018، وهي التي ذكرنا تجربتها في كورنيل خلال عقد 1970 أعلاه، أن التوزيع بين الجنسين أصبح حينئذ أقرب للتساوي، وأن النساء أكثر من الرجال بتن يشغلن مناصب أستاذية ممولة. وقد كان قسم التاريخ في الجامعة الكندية التي ارتادها كاتب هذه السطور في عقد 1970 خاليا من أي أستاذات نساء غير مساعدات خلال ثلاث من سني دراستي الأربع (بعدما توفيت أستاذة أكبر سنا وأقدم عهدا)؛ لكني الآن أستاذ في القسم ذاته بعد أربعة عقود، حيث شارفت النسبة أيضا على التساوي.

تدوين التاريخ الأفريقي بعد الحرب

مرددا افتراضات عصر التنوير حول ضرورة الكتابة لظهور تفكير تاريخي، والنظريات المرحلية عن ارتقاء العالم بعيدا عن البربرية، أثار المؤرخ البريطاني هيو تريڤر ـ روپر *Hugh Trevor ـ Roper* (1914 ـ 2003)، الذي اعتاد إثارة الجدل، زوبعة صغيرة. ففي عام 1963 صرح في سلسلة من المحاضرات التلفازية التي اشتق عنها كتاب عام 1965، بعنوان **صعود أوروپا المسيحية** *The Rise of Christian Europe*، أن من العبث أن ندرس التاريخ الأفريقي قبل الاستعمار، على أساس افتقاره ظاهرا للمصادر المتاحة وكذلك لأنه اعتبره غير مهم بالنسبة لشؤون الحداثة. فعند المؤرخين، سيكون ذلك تشتيتا عما اعتبره (الحركة الهادفة) للتاريخ (بمعناه الرئيس)، وانحرافا نحو أجزاء غير مهمة من العالم كان يعتبرها مفيدة فقط بوصفها كاشفة عن ماض استطاعت الحداثة، عبر هيمنة أوروپا بشكل رئيس، أن تفلت منه.

وسرعان ما فند العديد من الباحثين عبارات تريڤر ـ روپر. فبدءا من عقد 1960، وفي أعقاب حركة التحرر من الاستعمار بعد الحرب، شرع التاريخ الأفريقي في شق طريقه، وببطء واضح، إلى مناهج التاريخ السائد داخل أفريقيا وخارجها. فمع تراجع القوى الاستعمارية الأوروپية وتأسيس أمم مستقلة، ظهر اهتمام أعمق في اكتشاف الماضي لدى الشعوب الأفريقية، حفزته ردة فعل على عقود من التعليم في ظل تدوين تاريخ إمپريالي غريب. وقد صاحبت ذلك حاجة عاجلة لإعادة صياغة السجل

التاريخي واسترداد أدلة على العديد من الحضارات قبل الاستعمارية المهملة. كانت إحدى نتائج خروج أفريقيا من الاستعمار هي أن السرد الرئيس للتقدم على الطريقة الأوروبية قد استورد ببساطة ثم كيّف لأهداف محلية. فقد حدث الانسحاب السياسي لأوروبا بالضبط عند تلك النقطة التي بدأ فيها خلق مؤسسات أكاديمية جديدة جدا، مثلت في الأساس امتدادات للنماذج الأوروبية فيما وراء البحار، واعتمدت بقدر وافر على الطاقم الأكاديمي الأوروبي أو الجامعات المتعاونة في الخارج ـ وهو النمط الذي رأيناه من قبل في الهند البريطانية. ونظرا لهذا النفوذ الفكري المستمر، فإن السرد القومي المنتصر لتقدم هذه المستعمرة السابقة أو نضج تلك، في ظل الرعاية الحانية للإمبراطورية الرؤوفة، لتصبح عضوا حرا وكاملا في المجتمع الدولي قد ميز قدرا وافرا من الكتابة التاريخية الأفريقية الجديدة حتى عقد 1960. وقد صاحبته العديد من مزايا تدوين تاريخ «الهويغ» التقليدية قبل الحرب، مثل التطور المطرد في ماضي المؤسسات السياسية، وكذلك تمركز السلطة وتحسن الإدارة ـ وكلها سمات للدولة الغربية الحديثة.

لقد أنجزت بحوث أساسية في التاريخ الأفريقي في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) على يد باحثين مثل رولاند أوليفر (1923 ـ 2014)، وهو أحد مؤسسي **مجلة التاريخ الأفريقي** عام 1960، وكذلك البلجيكي يان ڤانسينا *Jan Vansina* (1929 ـ 2017)، وهو حجة في التراث الشفهي الأفريقي، الذي أصبح وسيلة مهمة للتوصل إلى الماضي قبل الاستعماري. إن تمحيص التراثات الشفهية بحثا عن مواد تاريخية، ناهيك بمعلومات زمنية دقيقة، كثيرا ما يكون أمرا غير مثمر (لكن هناك مؤلفات منهجية تخصصية وفيرة حول ذلك، لا يمكن أن تقيّدنا هنا). لكن الحال سيكون أفضل لو أخذنا بالاعتبار ما يمكن أن تخبرنا به عن القيم المعاصرة.

فحتى أشد الخبراء تعاطفا قد أشاروا إلى ثلاث ظواهر كبرى تضفي على الأوضاع تعقيدا، هي «التداخل *telescoping*» (أي بتر أو توسعة أنساب السلالات لأجل ملء فجوات زمنية)، و«التغذية المرتدة *feedback*» (أي تأثير الكتابة على الشهادة المحكية، وخاصة خطر تلوث تراث ما، أو تكراره ببساطة، لحقائق عرفت من مصادر أدبية استعمارية أو خارجية) و«فقدان الذاكرة البنيوي *structural amnesia*» (أي النسيان

الجماعي لتفاصيل الماضي، وشخوص التاريخ، التي لم تعد تتناسب مع الظروف السياسية الحالية).

ومن جهة أخرى، فقد قيل أيضا بأن هذه التأثيرات المشوهة يمكن أن ترشح وتفرز. فقد طبقت تقنيات التراثيين الشفهيين خارج أفريقيا، كما في دراسة ثقافات جنوب شرق آسيا، أميركا اللاتينية، ومنطقة الكاريبي، إضافة إلى الثقافات المتأصلة في أميركا الشمالية وأسترالاسيا [المنطقة التي تضم أستراليا، پاپوا غينيا الجديدة، نيوزيلندا، وسائر جزر المحيط الهادئ]. ومهما تكن نقاط ضعفه المحتملة كمصدر، فلا شك في أن التراث الشفهي قد فتح من جديد بابا إلى ماضٍ كان مغلقا من قبل جراء التحيز الجوهري لتدوين التاريخ نحو الكتابة، الذي ازداد تصلبا في أعقاب اللقاءات التي حدثت في الأميركتين أوائل عصر الحداثة.

لا يمكن بالطبع لتدوين التاريخ الأفريقي الحديث أن يكون حكرا على الأوروبيين حسني النوايا. فقد دربت الجامعات الأفريقية باحثيها الوطنيين، بالرغم من تقلبات السياسة والحروب الأهلية في العديد من الدول، وأرسلت العديد غيرهم إلى الخارج من أجل دراسة الدكتوراه. كما اجتذبت أيضا باحثين أوروبيين في صفوف مدرّسيها: فمدرسة ‹إيبادان *Ibadan*› من المؤرخين (التي بدأت في عقد 1950 في جامعة إيبادان بنيجيريا واستمر نفوذها حتى عقد 1970) تضمنت مواطنين نيجيريين وكذلك مهاجرين بريطانيين. وقد درس المؤرخ النيجيري الرائد كينيث أونووكا ديكه Kenneth Onwuka Dike (1917 ـ 83) في جامعة دورهام، أبردين، ولندن، في حين خرّج معهد *SOAS* العديد من المؤرخين البارزين أفارقة المولد، نذكر من بينهم ألبرت أدو بواهين *Albert Adu Boahen* (1932 ـ 2006) من غانا. وقد ساهم بواهين بدوره في عمل تلخيصي مبكر مهم للكتابة التاريخية بعد الاستعمارية، هو **تاريخ أفريقيا العام** لصالح اليونسكو، الذي شرع فيه عام 1964 وأكمل أخيرا في عقد 1990. وقد أشرفت على إدارته ‹لجنة علمية›، كان ثلثا أعضائها من الأفارقة، وساهم في كتابته أكثر من ثلاثمائة مؤلف كان من بينهم الكينيان علي المزروعي *Ali Mazrui* (1933 ـ 2014) وبيثويل آلان أوغوت *Bethwell Allan Ogot* (و. 1929)، وجوزيف كي زيربو *Zerbo ـ Joseph Ki* (1922 ـ 2006) من بوركينا فاسو (ڤولتا العليا سابقا) والنيجيري ج.ف. آدي أجايي *J.F. Ade Ajayi* (1929 ـ 2014). يذكرنا

تطور تدوين التاريخ الأوربي في أفريقيا خلال القرن الماضي مجددا بالكتابة التاريخية في الهند خلال العصر ذاته: فقد تبنى المستعمرون أدوات وأفكار القوى الاستعمارية أولا لتقبل تلك القوى ومن بعد لمقاومتها، دعما لهدف قومي (استحال في عهد أقرب إلى ماركسي طبقي).

المنعطف اللغوي: ما بعد الحداثة

في أواخر عقد 1960، ومع صعود نجم التاريخ الاجتماعي، كان بعض المؤرخين المحترفين يفكرون بعمق حول علاقتهم التي استمرت آلاف السنين مع عالم الأدب. فقد كانت الأغلبية الغامرة من قراء التاريخ وكتابه تتقبل واقع أن هناك فرقا جوهريا بين أعمال الخيال والتاريخ الذي يروي قصة حقيقية. ولكن ذلك بدأ بالتغير خلال العقد التالي، في نفس الوقت الذي شهد، جزئيا كنتيجة للاضطرابات والتحرر العاجل من الاستعمار حول العالم، ظهور مساءلة مستجدة للأجندة العقلانية و(التنويرية) للقرون الثلاثة السابقة. وباختصار فإن شكوكا حول التاريخ و(التأريخ) (وحول الصلة بينهما بنحو متزايد)، أثيرت من قبل في السنوات الأولى من القرن الماضي لكنها همشت إجمالا خلال الحرب العالمية الثانية ومن بعدها، باتت تعاود الظهور في عالم ما بعد القنبلة الذرية ووسط مجال بات أشد تصدعا مما كان عليه أبدا. وقد ظهر تحدٍّ مبكر (للتجريبية) التاريخية الصارمة (وهو لفظ أفضل نسبيا من (الوضعية)) عام 1961 على هيئة كتاب صغير مثير للجدل ذي شهرة ذائعة، للمؤرخ البريطاني المختص بروسيا السوفيتية إ.هـ. كار *E.H. Carr* (1892 ـ 1982)، بعنوان **ما هو التاريخ؟** *What is History?*، أشار إلى دور المؤرخ في انتقاء الأدلة وصياغتها. وقد اشتهرت عنه دعوته للطلاب لأن «يدرسوا المؤرخ قبل أن يبدأوا بدراسة الحقائق».

إن هذه الأرضية من التشكك المعتدل، بالإضافة إلى التصدع التخصصي، قد مهدت الأساس ضمن مجال الدراسات التاريخية لمجيء ما بات يعرف بالمنعطف اللغوي. ولكنه نشأ في الواقع خارج المجال تماما، بل ضمن الفلسفة والنظرية الأدبية، لدرجة أنه يخلط أحيانا مع (منعطف ثقافي) موازٍ ومتأثر بالإناسة، وكلاهما يرتبط في الغالب بالحركة النظرية الأوسع في عالم الإنسانيات التي تعرف بما بعد

الحداثة *postmodernism*، أو بنحو أشد ندرة، ‹ما بعد البنيوية *poststructuralism*› (فقد نظر المنظر التاريخي إرنست برايزاخ *Ernst Breisach* [1923 ـ 2016] لما بعد البنيوية كصنف جزئي ضمن ما بعد الحداثة، ولكننا سنكتفي بالمصطلح الأول لغرض البساطة).

لقد تأثرت ما بعد الحداثة بالخصوص بأعمال الفرنسيين ميشيل فوكو، جان فرانسوا ليوتار (1924 ـ 98) وجاك دريدا (1930 ـ 2004)، والألماني مارتن هايدغر (1889 ـ 1976)، وتلميذه السابق عالم التأويل هانز غيورغ غادامر (1900 ـ 2002)، إضافة إلى المثقف الألماني الناشط قبل الحرب والتر بنيامين (1892 ـ 1940)، وأبعد منهم جميعا: فريدريش نيتشه. وقد استبق الفيلسوف مايكل أوكشوت (انظر أعلاه، ص 251) أحد جوانب ما بعد الحداثة حين أكد عام 1933 أن التاريخ لا يمكن أن يوجد خارج التجربة الإنسانية له ـ أي أن «مسار الأحداث بحد ذاته ليس تاريخا، لأنه ليس بشيء إطلاقا»، وأن «شغل المؤرخ ليس الاكتشاف أو إعادة التشكيل أو حتى التفسير؛ بل هو الخلق والبناء» (على أن أوكشوت، شأنه شأن كار، لم يصر أبدا على لا واقعية حقائق التاريخ). وإن رغب المرء في تتبع ‹نسب› ما بعد الحداثة (وهو مصطلح مفضل في الأعمال المتأخرة لفوكو ـ الذي اشتقه من نيتشه ـ على مصطلح ‹الأسباب›، أو على استخدامه السابق للفظ ‹الحفريات›) بنحو أبعد من ذلك، فقد يعود إلى مساجلات القرن الثامن عشر وعصر النهضة حول مزايا التاريخ على الأدب المتخيل، وينتهي به الأمر عند **كتاب الشعر** لأرسطو.

ورغم أن المنعطف اللغوي لم يتقيد حصرا بهذه المسألة، فإن إحدى نتائجه كانت تقويض الحواجز المعتادة بين التاريخ والخيال ـ الذي لم يعن أصلا، كما تلاحظ سارة مازا، أمرا زائفا بل أمرا مكونا ومشكلا. وبفعل ذلك، فقد تحدى ادعاء التفوق الذي تبناه التاريخ على الخيال زهاء قرنين، استنادا لزعم المؤرخين أنهم يقدمون أحداثا واقعية لا متخيلة. نذكر من رواد الأنصار لهذه الفكرة الأميركيين هايدن وايت *Hayden White* (1928 ـ 2018)، هانز كيلنر *Hans Kellner* (و. 1945) ودومينيك لاكابرا *Dominick Lacapra* (و. 1939)، والفيلسوف الهولندي ف.ر. آنكرسميت *F.R. Ankersmit* (و. 1945)، والمنظرين البريطانيين كيث جنكينز *Keith Jenkins*

(و. 1943) وألون مونزلو *Alun Munslow* (و. 1947). ومع أن أصوله غربية، فقد انتشر في السنوات الأخيرة في الخطاب التاريخي الآسيوي، بفضل تناقل الأفكار والأشخاص الأكثر تحررا منذ أواخر عقد 1980؛ وقد ارتبط هناك بالانتقادات المعرفية للتاريخ أكثر من الجهود الساعية لوضع الماضي الآسيوي على مسار يؤدي لأشكال بديلة من الحداثة، مستقلة عن تلك التي اتسم بها الغرب.

كان المقصد الرئيس لجزء كبير من ما بعد الحداثة في تدوين التاريخ هو تحويل التاريخ من مكانته في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين كشكل متميز من **المعرفة** إلى شكل من **السرد**. وفي هذا الصدد فقد كان لأعمال هايدن وايت، ابتداء ببحثه المعروف بعنوان ‹عبء التاريخ› الذي نشر عام 1966، نفوذ واسع. وعمله الأهم المنشور عام 1973، **الميتا - تاريخ: الخيال التاريخي في أوربا القرن التاسع عشر** *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth - Century Europe* (الذي يستعير عنوانه، ولو بقصد مختلف، مصطلحا استخدمه كولينغوود أول مرة بنحو الاستخفاف، كي يصف أمثال توينبي وشپنغلر)، يسعى عبر دراسة فاحصة لسلسلة من فلاسفة ومؤرخي القرن التاسع عشر، من رانكه وبوركهارت وحتى نيتشه وكروتشه، لإثبات أنه ما من فرق جوهري بين كتابة التاريخ وفلسفة التاريخ والخيال، مجادلا بنحو عملي بأنه لا يمكننا التوصل إلى ماض ‹حقيقي› خارج تمثيلنا له.

ولكن وايت لم يؤكد أن الماضي لم يوجد أبدا أو أنه متخيل بالكامل - بل فقط أنه لا يمكن التوصل إليه مباشرة إلا عبر النصوص التي تتوسط اللغة بينها وبيننا؛ ولا توفر الوثائق الأصلية وصولا مباشرا لأنها أيضا مقتطفات من حياة ماضية، يتوسط لها مؤلفوها، ولأنها لا تملك أي معنى ذاتي غير ما يضفيه عليها تفسير المؤرخ. فكل سرد أو تفسير للماضي يدخل المؤرخ في سلسلة من العمليات العقلية التي تتطلب فعلا شاعريا من التخيل، يحيل بدوره القصة التي ‹ستكتشف› ومن ثم تصاغ في سرد متماسك. وهذا التركيز على اللغة يلمح إلى قرابة ما بالمؤرخين الفكريين المذكورين أعلاه، أي پوكوك وسكينر. ولكن أي صلة كهذه ستكون سطحية. فكما لاحظ مايكل أ. روث، فإن تصيد سكينر لمقاصد الكاتب في كتابته لنصوص معينة، واستكشاف پوكوك للسياقات الفكرية التي تؤلف النصوص ضمنها، مختلفة جذريا عن رؤية وايت

القائلة بأن محتوى النصوص يكاد يتأخر في الرتبة عن الشكل الأدبي الذي تتخذه، وأن قرارات المؤلف في الكتابة هي في الأغلب غير واعية ولا مقصودة.

جادل وايت، مستعيرا من ڤيكو، بأن السرديات التاريخية تتشكل عبر أربع أدوات أو صور بلاغية رئيسة (هي المجاز، الكناية، المجاز المرسل، والمفارقة) تخلق ماضيا ذا معنى من المواد الأولية التي تمثل ‹الحقل التاريخي› غير المعالج. وهذه الأدوات بدورها تساعد في تحديد خيارات المؤلف بين ثلاث ستراتيجيات مختلفة للسرد، يستحيل عبرها ما قد يكون مجرد تتابع للأحداث مرتب زمنيا أو **سجل وقائع إلى قصة**: هي أنماط الحبكة (نوع القصة التي تروى)، أنماط الحجج الصورية (النحو الذي تتفاعل وفقه الأحداث والأشخاص ضمن العالم التاريخي، لتؤثر في الأحداث وتقود إلى نتيجة)، وأنماط الدلالة الإيديولوجية (أي المغزى المستمد من القصة).

ولكن الأمر الأشد نفوذا (وإثارة للجدل أيضا) من البنية المعقدة التي شيدها وايت لدراسة نصوصه المختارة ربما كان استنتاجه، الذي فصله في أبحاث لاحقة، القائل بأنه لا فرق جوهريا بين كتابة الخيال وكتابة التاريخ من حيث إن كليهما يرويان القصص ـ الأول يصور أحداثا متخيلة والثاني يقص أحداثا يعتقد بأنها وقعت حقا في الماضي ولكن، تحديدا لأنها ماضٍ، فهي لم تعد ‹حقيقية› بالمعنى الوجودي. وقد بدا أن ر. ج. كولينغوود قد لمح إلى هذه النظرة ‹السردية› نحو التاريخ قبل ثلاثين عاما، لكن وايت ذهب لأبعد من ذلك. فنظرا لتأثره بالفيلسوف الأميركي (والناقد لكولينغوود) لويس أو. مينك *Louis O. Mink* (1921 ـ 83) ومدرسة النقد الفرنسي (وخاصة رولان بارت وفكرته عن ‹تأثير الواقع›)، لا يقول وايت حقا إن التاريخ والخيال هما الشيء ذاته بالضبط، كما لا يقترح أن على المؤرخ أن يلجأ لاختلاق الوثائق والشخصيات التاريخية مثلما يخلق الروائي شخوصه، ولكن حججه تفضي إلى إذابة بعض الافتراضات الرئيسة التي كانت تدعم التمييز بين التاريخ والخيال طوال قرون. ونظرا لذلك فقد أصبح عمله نقطة محورية في السجال ما بعد الحداثي الذي يختص بالتاريخ، حيث يحفز المدافعين الناشطين (الذين كثيرا ما يأخذون حجج وايت إلى نقاط أشد تطرفا مما قصد هو) والنقاد الموازين لهم في الشراسة كالمؤرخين البريطانيين آرثر مارويك *Arthur Marwick* (1936 ـ 2006) وجيفري إلتون *Geoffrey Elton*، حيث

مثل أي حركة في تدوين التاريخ، فإن لما بعد الحداثة نقاط ضعفها وتطرفها. ففي حماستها المفرطة لتشويه كل خصومها بوصفهم ‹وضعيين› (بالمعنى الأعم للكلمة)، عقلانيين، أو سذجا ببساطة، قام العديد من أتباعها ـ في مفارقة غريبة ـ بتشكيل ‹الآخر› المريح لهم، كعدو معرفي مختلق يعد بحد ذاته مثالا على التعميم والاختزال. ثم إنهم، مع بعض الاستثناءات، قد نسبوا لسرديات ‹عصر التنوير› سمات فضفاضة وكلية القدرة، مازجين بين تيارات فكرية شتى من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كانت أقل تجانسا وانسجاما مما صوروها عليه ككيان واحد، وانطوت بدورها على عناصر من المقاومة والتفنيد. من الجدير بالذكر أن خصوم ما بعد الحداثة وتركيزها على اللغة جاؤوا من اليسار التقليدي بالإضافة إلى اليمين: فقد نظر بعض مؤرخي الماركسية والعمل إلى الولع باللغة والخطاب بوصفه انتكاسة مؤسفة عن الأجندة الرئيسة للتحليل الطبقي نحو المجالات الغائمة للأفكار والتجريد، وخيانة للمادية والتحليل الاجتما ـ اقتصادي الذي يستند إليه التاريخ التقدمي أو الراديكالي.

بالرغم من نقاط تطرفها في بعض الأحيان، ينبغي للمرء أن يقر بأن ما بعد الحداثة و‹منعطفها الثقافي› قدما تذكيرا مفيدا لكل المؤرخين بأن الوثائق والنصوص لا ‹تفصح عن نفسها› أبدا. بل يفسرها المؤرخون في الواقع، وحتى الوثائق الأشد ‹حيادا› ستظل في النهاية أُثرا من صنع إنسان، حركته افتراضات، ضغوط اجتماعية، وتقاليد لغوية في عصره ـ وقد طبق مؤرخون نصيون مثل غابرييل شپيغل *Gabrielle Spiegel* (و. 1943) هذه البصيرة بنحو مفيد على تفسير سجلات الوقائع في العصور الوسطى. بعبارة أخرى، فإن المصادر بحد ذاتها تقوم بتفسير الماضي حين يواجهها المؤرخ أول مرة، وقلة من المؤرخين اليوم قد يؤيدون مقولة فوستيل دو كولانج المتفائلة لجمع من الطلاب في القرن التاسع عشر، أنه ليس من يتحدث إليهم بل ‹التاريخ الذي يتحدث من خلالي›. ومع أن ما بعد الحداثة حظيت بنفوذ كبير في أقسام الأدب واللغة، فقد ظلت في أفضل الأحوال صوتا معترضا في معظم أقسام التاريخ؛ ولكنها وجدت جمهورا يصغي إليها بين مؤرخي الجندر، وبين المؤرخين الثقافيين الجدد الذين وفرت لهم زمرة من التصنيفات كي يستبدلوها بتلك التي اشتقت من ماركس فيما مضى.

إزاحة الغرب عن المركز: ما بعد الاستعمار

لقد تقاطع وتداخل المشروع ما بعد الحداثي مع حركة فكرية معاصرة هي دراسات ما بعد الاستعمار *postcolonial studies*. ولكنهما ليسا بالشيء ذاته ولكل منهما أصول وأجندات مختلفة، على أنهما يظهران بعض الصفات المشتركة. فما بعد الاستعمارية، مثل ما بعد الحداثة، مصطلح عريض نسبيا يتضمن توجه (دراسات التابع *subaltern studies*) الهندي (الذي كان في أيامه المبكرة أشبه برد من جنوب آسيا على فكرة (التاريخ من أسفل) عند إ.پ. ثومپسون) ونقد (الاستشراق) لدى الباحث الفلسطيني إدوارد سعيد (1925 ـ 2003). وما بعد الاستعمارية، كما لاحظ پراسنجيت دوارا *Prasenjit Duara* (و. 1950) المختص بالصين، ليست نظرية بقدر ما هي نقد (للآخر) الماثل أمامها ـ الذي كثيرا ما يعرّف على أنه أجندة (ما بعد التنوير) التي تمتاز بالعقل والتقدم والتزايد المطرد في الهيمنة الثقافية والاقتصادية الغربية، وحتى الفكرة الزائفة عن استقرار الدولة القومية. ومع أنها استبقت في أواسط القرن على يد كتاب كاريبيين مثل فرانز فانون (1925 ـ 61) وس.ل.ر. جيمس *C.L.R. James* (1901 ـ 89)، فقد باتت ما بعد الاستعمارية مرتبطة في الإجمال بإدوارد سعيد (الذي يعد كتابه **الاستشراق**، الصادر عام 1978، نصا محوريا) وعدد من المؤلفين البارزين الذين ولدوا في الهند (وكثير منهم ينتمي لمجالات أخرى عدا التاريخ) كالنقاد الأدبيين هومي ك. بهابها (و. 1949) وگاياتري چاكراڤورتي سپيڤاك *Gayatri Chakravorty Spivak* (و. 1942)، وعالم السياسة پارثا چاترجي *Partha Chatterjee* (و. 1947) والنفساني والناقد الاجتماعي أشيس ناندي *Ashis Nandy* (و. 1937).

لقد استغلت ما بعد الاستعمارية كأداة نقدية بأوسع نحو في دراسات الهند أو الشرق الأوسط، وتداخلت مع ما بعد الحداثة لامتلاكهما هدفا مشتركا هو زعزعة، أو تقويض، أو إزاحة السرديات المهيمنة القائمة (وخاصة تلك التي خلقتها وفرضتها القوى الاستعمارية أو حلفاؤها من النخب الأصيلة) لصالح السرديات المحلية المهمشة سابقا، وقراءة نصوص ووثائق (ضد التيار) للتعرف على ما لا تقوله بقدر ما تقوله. فقد غيرت ما بعد الاستعمارية اتجاه الأبحاث المهتمة بالمستعمرات السابقة

كالهند نحو الجموع المخضعة بدلا من حكامها الإمپرياليين وخلفائهم السياسيين من النخبة الهندية.

وتعد مجموعة دراسات التابع، وهي (مدرسة) في تدوين التاريخ الهندي أسسها راناجيت گوها (و. 1922)، مثالا بارزا على هذا الخط الأخير، الذي لا يكتفي بانتقاد تدوين التاريخ قبل الاستقلال، بل وإعادة كتابة التاريخ بعد عام 1947 ليصبح مجرد تاريخ مضاد مع قلب الأدوار، يركز فقط على النخب السياسية المحلية متجاهلا تسعة أعشار السكان. وتركز أجندة التابع على المقهورين والصامتين، والمحليين والمناطقيين بدلا من الوطنيين ـ و(التابع) بهذا المعنى مصطلح مشتق من أنطونيو غرامشي. لقد وسعت سپيڤاك، وهي من المنظرين الأدبيين المرتبطين بهذه الجماعة (وحلقة وصل مهمة مع ما بعد الحداثيين بوصفها مترجمة لجاك دريدا)، من توجه التابع ليشمل شؤونا نسوية. وفي الأعوام الأخيرة، انشق باحثون مبكرون في شؤون التابع مثل المؤرخ الاجتماعي سوميت سركار *Sumit Sarkar* (و. 1939) عن هذه الحركة جراء راديكاليتها المتزايدة وصلاتها بما بعد الحداثة. لكن عددا وافرا من الآخرين، قد تركوا أصناف التحليل الماركسية مفضلين عليها اهتمام ما بعد الحداثيين بتفكيك لغة الاستعمار. بل إنهم في بعض الأحيان يرفضون التاريخية الغربية ذاتها كأداة للسيطرة الإمپريالية، تولدت عن الأجندة التقدمية لعصر التنوير، ومكنت (السيادة دون هيمنة) على شعور الهند (والدول المستعمرة الأخرى بالطبع) الحقيقي بالماضي، وهو شعور ينبغي أن يتحرر من قصة التقدم نحو ظهور الأمة التي عدها هيغل شبه حتمية.

إن هذا الاستنكار للتاريخية الغربية عند نقاد بعد ـ استعماريين هنود ليس بالأمر الجديد. فقد جاءت صيغة مبكرة قوية لهذا الموقف، قبل وقت طويل من النقاشات الحالية هذه، من شخص بأهمية موهانداس ك. غاندي (1869 ـ 1948)، الذي لم يكتف برفض الحكم البريطاني بل والكثير من الثقافة الغربية لاحقا، بما فيها التاريخ. فقد نظر المهاتما إلى التحديث الأوربي كجزء من مشكلة الهند، وليس كحل لها، وكان يرى أن الهنود سيصبحون أفضل حالا دون تاريخ. حيث قال «إن نظريتي المفضلة تقول بأن أسلافنا الهندوس حلوا هذه المشكلة لنا عبر تجاهل التاريخ كما نفهمه اليوم والاستناد إلى أحداث طفيفة لبناء هيكلهم الفلسفي». فالملاحم القديمة مثل **المهابهاراتا** ليست،

كما يقول السير ويليام جونز، شبيهة عن بعد بالتاريخ: بل هي **أفضل** من التاريخ، حيث تتضمن حقائق أبدية في صيغة أمثال. بل إن العالم بأسره لا الهند فحسب، كما يقول غاندي، قد ينتفع من قدر أقل من التاريخ، لأن التاريخ في أفضل الأحيان سجل مرضي للأمور التي آلت للفساد. فالتاريخ لا يستطيع توثيق الوئام والسلم والحب لأنه سيركز بالضرورة على الشقاق والانقسام بدلا من اللا عنف الذي نادى به غاندي.

وهكذا فإن موقف غاندي تباعد عن موقف حليفه اللصيق نهرو، والروائي القومي السابق لهما بانكيم چاترجي، وكذلك الشاعر طاغور (انظر أعلاه، ص 262)، بالإضافة إلى مؤرخين قبل الاستقلال في النظام الاستعماري مثل جادوناث سركار، كان التاريخ لديهم جميعا (على اختلاف رؤاهم نحو كيف ينبغي تأليفه) مكونا جوهريا في تشكيل الأمة. وهو بهذا يستبق ما سمته گاياتري سپيڤاك 'بالعنف الإپستيمي'، أي المشروع الإمپريالي القاصد لمحو الأشكال الأصيلة للمعرفة وتغريب وتقييد الشروط والظروف ذاتها التي يمكن أن يكتب التاريخ 'الحقيقي' في ظلها. وهذه نفس التهمة التي أطلقها مختصون بأميركا اللاتينية مثل والتر د. مينيولو *Walter D. Mignolo* (و. 1941)، الباحث الأرجنتيني في جامعة ديوك، ضد الموجة الأولى من الإمپريالية الأوربية وراء البحار في القرن السادس عشر، وهي اللحظة الحاسمة التي أصبح فيها الشكل الأوربي من 'الحداثة' مهيمنا، ومقصيا لما فضل تسميته بالبدائل 'اللا استعمارية'. كما قال باحث أميركي آخر في أميركا اللاتينية، هو الإناسي نمساوي الأصل إريك ر. وولف (1923 ـ 99)، في كتابه المنشور عام 1982 (الذي أصبح عنوانه أشبه بالمثل السائر) **أوربا والشعب بلا تاريخ** *Europe and the People without History*، إن تدوين التاريخ السائد قد تجاهل دور الشعوب المخضعة في توسع أوربا منذ القرن الخامس عشر، ولم يوفق لذكرهم ضمن الكتابة التاريخية.

لقد انتشرت الأجندة ما بعد الاستعمارية لمدى أبعد بكثير من أرجاء العالم التي تمخضت عنها، لتتداخل مع انتقادات للاستعمار أقدم بقليل وأكثر تركيزا على الاقتصاد مثل 'نظرية الاتكال *dependency theory*'، وهي نموذج قدم في عقد 1960 لتفسير العلاقة غير المتكافئة بين شمال استعماري متطور وجنوب مستعمر غير متطور، وخاصة أميركا اللاتينية وأفريقيا. فقد بات مؤرخو أميركا اللاتينية المتأخرون

مثلا ينظرون إلى الأبحاث التاريخية الغربية بوصفها أشد تحجرا وغرابة مما كان يظنه أسلافهم في القرن التاسع عشر. ولكن النقد الشرس للمشروع الإمبريالي التغريبي كانت له أصول أقدم عهدا، ماركسية الطابع في المعظم، كما في تدوين تاريخ 'الشتات' الأفريقي والكاريبي. حيث يمكن العثور على موازيات لاستخدام الهنود في أوائل القرن العشرين للمناهج التاريخية الأوروبية ضد الاستعمار البريطاني، عند المؤرخ والسياسي الترينيدادي إريك ويليامز (1911 ـ 81) ومعلمه السابق س.ل.ر. جيمس.

فاستنادا إلى إرثه الفكري الذي يعود إلى ميشيليه (الذي أعجب جدا بمعالجته المتعاطفة للثورة الفرنسية)، قدم جيمس في كتابه **اليعاقبة السود** *The Black Jacobins* (1938) تحليلا ماركسيا لتمرد العبيد في هاييتي أواخر القرن الثامن عشر، وصلته بالأحداث المعاصرة له في فرنسا. وحين راجع كتابه في مطلع عقد 1960، في أعقاب ثورة فيديل كاسترو الناجحة في كوبا ورغم يأسه من معظم جزر الهند الغربية الأخرى (التي ما زالت تهيمن عليها أقليات بِيض ثرية، مستبدون تدعمهم أميركا، وطبقات وسطى سوداء متعاونة)، فقد استبق جيمس نقد نظرية التابع بقرابة عشرين عاما، حيث أعلن أنه لم يكد يتغير شيء في تدريس التاريخ منذ انسحاب الأوروبيين، وأنه ما يزال أداة دعائية للطبقات الحاكمة وليس وسيلة للتعامل بصراحة مع الماضي. وقد أشار باحث نرويجي في شؤون أفريقيا، هو فين فوغلشتاد *Finn Fuglestad* (و. 1942) إلى نقطة مماثلة حول تدوين التاريخ الأفريقي، مؤكدا أن ردود زملائه على التصريح المستفز لهيو تريڤر ـ روپر (انظر أعلاه، ص 336) قد وقعت في 'فخ' الاتفاق مع تريڤر ـ روپر على أن 'الحركة الهادفة' في التاريخ هي وحدها الجديرة بالدراسة، وبالتالي فقد صححت آراؤه أوروپية المركز ووطدت فرض تدوين التاريخ على النمط الأوروپي على ثقافات ذات علاقة مختلفة جدا بالماضي.

حروب التاريخ، التنقيحية، والعلاقات الإشكالية بين 'الذاكرة' و'التاريخ'

إن ما بعد الحداثة، في أكثر نسخها تطرفا، تستحضر النزعة البيرونية في عصر النهضة، وذلك لإنكارها المتشدد لثبات أي معنى تاريخي، أو وجود أي واقع خارجي يتجاوز اللغة، واستحالة إصدار تصريحات 'حقيقية' عن الماضي. وهو أحد أنواع ما

أطلق عليه المؤرخون لفترة طويلة جدا اسم (التنقيحية)، مع اختلاف مهم واحد: فعلى عكس المؤرخين التنقيحيين المعروفين، الذين يشككون في تفسيرات معينة للأحداث لكنهم يتشاركون عموما مفردات مشتركة وكذلك مجموعة من النقاط المرجعية (عادةً ما تتمثل بالأحداث الرئيسية، الأفراد، أو البنى)، يتساءل ما بعد الحداثيون عن المعايير ذاتها التي يمكن أن تنتج عنها حجة ذات مغزى. وفي حين أن الاستنتاج المستمد من هذا ـ أن أي تفسير للتاريخ ليس أكثر أو أقل صحة من تفسير آخر ـ يبدو ليبراليا، فهو أيضا يفتح الباب لإضفاء الشرعية على مواقف إشكالية أخلاقيا مثل التشكيك في المحرقة. وهذه هي المواقف التي يُفترض أن معظم ما بعد الحداثيين لا يرغبون في المطالبة بها، والرد التوفيقي (الذي عبر عنه هايدن وايت) هو أن **حقيقة** المحرقة لا جدال فيها، لكن **معناها** سيتغير مع مرور الوقت من وجهات نظر مختلفة، وفي ضوء مخاوف حالية كالصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

لقد برزت تاريخية المحرقة ـ أي حدوثها في مقابل أهميتها ـ إلى الواجهة في السنوات الأخيرة من خلال عدد من القضايا الشهيرة التي لم يكن لها أي علاقة تقريبا بتنظير ما بعد الحداثة، ولعل الأشهر من بينها هي قضية التشهير التي رفعها في عقد 1990 المشكك في المحرقة ديڤيد إيرڤنغ *David Irving* (و. 1938)، وهو كاتب غزير الإنتاج خارج الوسط الأكاديمي، ضد المؤرخة الأمريكية ديبورا ليپشتات *Deborah Lipstadt* (و. 1947). كانت ليپشتات قد اتهمت إيرفينغ بالانتقائية المتعمدة، إساءة قراءة الأدلة، وتحريفها لدعم نظرياته. وقد تضمنت المحاكمة المدنية التي تلت ذلك المؤرخ ريتشارد إيڤانز (و. 1947) وفريقا من طلاب الدراسات العليا الذين قاموا بفحص أبحاث إيرڤنغ بشكل مكثف، وكانت نتائجها تقويضا لحجج إيرڤنغ وتأييدا حاسما لليپشتات وناشرها.

إن الشك في المحرقة مثال ضخم ومثير عن المشكلة التي تواجهنا حين تتعارض تصورات الماضي، المشحونة بآراء أخلاقية عن الصواب والخطأ بقدر كبير، مع شعور المؤرخين بحقهم في (قول الحقيقة كما يرونها) ـ شيء كان يمثل توترا في التأريخ تقريبا ما دام هناك مؤرخون. نادرا ما يلجأ إيرڤنغ والمشككون في المحرقة عموما إلى ما بعد الحداثة أو النسبية في صياغة حججهم: فليس الأمر، في مثل هذه الحالات، أن تصح

أتاتورك (بشكل غريب إلى حد ما، بالنظر إلى رغبة أردوغان الواضحة في التراجع عن الكثير من إصلاحات أتاتورك العلمانية).

لقد شهد عقدا 1980 و1990 عددا متزايدا من مثل هذه المواقف حول العالم. ففي كندا، أدى مسلسل تلفازي ظهر عام 1992 عن الحرب العالمية الثانية، وشكك في ضرورة حملة القصف المكثفة للحلفاء، إلى إثارة غضب المحاربين القدامى، مما دفع بالبرلمان إلى إدانة منتجي البرنامج وكتابه. وقد أدى مؤخرا معرض أقيم في متحف الحرب الكندي الجديد إلى تأجيج المشاعر مرة أخرى، حيث اشتكى قدامى المحاربين من جوانب مختلفة في تمثيله للحرب العالمية الثانية، كتصوير حملة القصف، أو عرض اللوحات التي تظهر جنودا كنديين مساهمين في الفظائع. إن المتاحف، نظرا لإمكانية وصول الجمهور إليها على نطاق واسع، وهم الذين لن يقرأ كثير منهم كتابا تاريخيا أبدا، تعد عرضة بشكل خاص للنقد الشعبي من حيث الأنحاء التي تقدم بها الماضي. فهي بصرية للغاية، لكن اختيارها للمعارض، والأوصاف المبسطة والموجزة للغاية التي ينبغي لها أن تقدمها، يمكن أن تثير ردود فعل بسهولة إذا كان الموضوع الذي يناقش على أي علاقة بحدث سابق مثير للجدل.

وليس شرطا أن نختار موقفا حديثا: فقد كانت الخطط المزمعة في أرجاء مختلفة من العالم للاحتفال بالذكرى السنوية الخمسمائة لرحلة كولومبوس عام 1492 شديدة الاستقطاب، حيث لم يجد النقاد شيئا جديرا للاحتفال به في غزو الأميركتين وإخلائهما من السكان. ومع ذلك، ففي كثير من الأحيان تكون الأحداث المزعجة أقرب عهدا، ويقود الناجون الأحياء جموع النقاد، كما في المواقف الكندية سالفة الذكر. وهذه الخلافات تقع في المنطقة الرمادية بين الذاكرة والتاريخ. حدث مثال مشهور في الولايات المتحدة في عام 1994 مع تخطيط مؤسسة سميثسونيان لإقامة معرض يحيي الذكرى الخمسين لإسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما. وكانت الإشارة التي تضمنها المعرض ـ أن قرار إسقاط القنبلة معقد أخلاقيا وربما غير ضروري ـ قد أثار غضب قدامى المحاربين في سلاح الجو الأمريكي والسياسيين المحافظين. ومن دون جدوى، فقد حاول القيمون عليها الربط بين إنشاء معرض من شأنه أن يجعل المحاربين القدامى (يشعرون بالرضا) وبين المعرض الذي يمكن

أن يناقش أيضا الأثر طويل الأجل لإنشاء واستخدام الأسلحة الذرية. وقد تلت ذلك محاولات فاشلة لإعادة كتابة النص التاريخي، وبحلول الوقت الذي انتهت فيه القضية، فقد استقال أعضاء اللجنة الاستشارية احتجاجا على تخفيف المعايير الأكاديمية، كما استقال مدير المتحف الوطني للطيران والفضاء. وفي النهاية، ألغي المعرض نفسه في أوائل عام 1995.

ولا تقتصر مثل هذه الخلافات على المتاحف. فمن حين لآخر، فإن التأريخ الأكاديمي، الذي يضمن أمانه في معظم الأوقات داخل برجه العاجي، يجد نفسه تحت بقعة الضوء العلنية بشكل غير مريح. ويعد نزاع المؤرخين الألماني المذكور أعلاه أحد الأمثلة على ذلك، ومثال آخر هو (حروب التاريخ) الأسترالية. فقد بدأت هذه مع الذكرى المئوية الثانية لتأسيس البلاد عام 1988 واستمرت لثلاثة عقود لاحقة. وكان للنزاعات الأسترالية أيضا جانب يخص المتاحف، لكنها تجاوزت ذلك لتشمل مجموعة واسعة من القضايا والمواد التاريخية. وضعت هذه (الحروب) المؤرخين الليبراليين ويسار الوسط ضد خصومهم الإيديولوجيين داخل التخصص وخارجه، وأصبحت الحكومة الائتلافية الليبرالية القومية برئاسة جون هوارد مشاركا نشطا في هذا الصراع. وفي أعقاب فوزه الانتخابي عام 1996، استنكر هوارد نفسه ما أسماه المؤرخ القومي جيفري بلايني *Geoffrey Blainey* (و. 1930) (تاريخ عصابة اليد السوداء)، بوصفه تطورا (خبيثا) في الحياة السياسية الأسترالية يسعى (لإعادة كتابة التاريخ الأسترالي لخدمة قضية سياسية حزبية). كان العديد من المؤرخين يرسمون لبعض الوقت صورة نقدية إلى حد ما لمعاملة البيض للسكان الأصليين في القرن التاسع عشر. وقد أدى الخوف من أن هذا سيضع أستراليا في مصاف بلدان أخرى ذات تاريخ من الإبادة الجماعية، إلى جانب المقارنات مع المحرقة، إلى رد فعل حاد. فقد تدخل مؤرخون مثل كيث ويندشاتل *Keith Windschuttle* (و. 1942، كان يساريا من قبل أصبح محافظا، وكان أيضا ناقدا صريحا لما بعد الحداثة والنسوية) ليدلوا تفسيرات بديلة للتراجع السكاني مثل المرض والعنف الداخلي، محاولين إثبات أن أعداد القتلى من السكان الأصليين على أيدي البيض مبالغ فيها من خلال الدعاية، ومهاجمين اعتماد المعارضين الواضح على التقاليد الشفوية للسكان الأصليين. وقد

ادعى أحد الصحفيين الأستراليين أن منهج التاريخ المدرسي قد اختطفه مؤدلجون يساريون صوابيون سياسياً. وكان يرغب في إعادته إلى (المجتمع) الذي تنتمي إليه ـ دون أي وعي منه بحقيقة أن المجتمع نفسه لم يكن بالكيان المتجانس أبدا.

لقد تضمن هذا الجدل الأسترالي محاولة منهجية من قبل حكومة منتخبة ديمقراطياً والصحافة المحافظة للحد من المناقشة، ولتصحيح التحيز الليبرالي ـ اليساري المتصور للتخصص وكذلك تأثير المصالح الخاصة. قد يتفق المرء أو يختلف مع هذا المنظور، ويقلق في نفس الوقت بشأن التحكم في الكتب المدرسية كتهديد عالمي بفتح الحوار التاريخي وتدريب الطلاب على التفكير النقدي حول الماضي. ومع ذلك، فإن استعارة (الماضي كملكية)، في حد ذاتها، ليست خارجة حقا عن السياق، فهي تثير، كما يحق لها، أسئلة أخلاقية يجدر بنا على الأقل أن نتأمل فيها. فالعديد من هذه الخلافات تتلخص في شكل من أحد هذه الأسئلة: (من يمتلك الماضي؟) أو (لمن يعود التاريخ، على أي حال؟) هل لأفراد جماعات من أصناف شتى حق أقوى أو حصري حتى في أن يكونوا مؤرخين أصلاء لماضيهم المشترك؟ لماذا ينبغي السماح للآراء البديلة للغرباء بأن (تسرق أصوات) الموتى؟ هل ينبغي السماح حتى للغرباء المتعاطفين بالاستفادة من الظلم والبؤس في الماضي من أجل بيع الكتب وتحقيق التقدم الوظيفي؟ وهل أن بعض المواقف ـ كالمحرقة مثلا ـ تبلغ من الترويع وتجاوز حدود التجربة البشرية العادية حد أنها لا يمكن وصفها تاريخيا ببساطة؟ وماذا عن الصراع بين الذكريات الشخصية للمشاركين والأدلة التي استخدمها المؤرخون: فهل للميجر سميث حق، بصفته مقاتلا مكرما في حرب فوكلاند، في وجهة نظره هو ورفاق سلاحه، يتفوق على الحرية الأكاديمية للپروفسور جونز في استخدام الأدلة لبناء تفسير مخالف لتفسير سميث؟

تنطبق الأسئلة ذات الصلة على أي تاريخ تقريبا يُعَرَّف حسب شروط مجموعة معينة: فإلى أي درجة يجب أن يكون المرء من تلك المجموعة حتى يتمكن من دراسة ماضيها وإبداء الرأي حوله؟ هل يحق للرجال العمل على تاريخ المرأة، وهل يسوغ للرجل الأبيض البحث في تاريخ الشعوب الأصلية أو تاريخ السود في أميركا؟ لقد تعرض العديد من مؤرخي العبودية البيض للهجوم من قبل باحثين سود في عقد

المعاكسة، التي تفرض تصنيفات أوربية على السجلات الأصلية التي تشبه سجلاتنا بشكل سطحي، ولكنها تختلف عنها اختلافا جوهريا وتحاول دمجها في النوع نفسه من التاريخ، ولنفس الأغراض التي نمارسها عادة.

وقد حدث مثال على المغالطة الأخيرة عندما جادلت عالمة بيضاء، هي هيلين بليش *Helen Blish*، بأن كراسة رسم (آموس باد هارت بول *Amos Bad Heart Bull* (1868 ـ 1913) حول قبيلة الأوگلالا سيو *Oglala Sioux* كانت دليلا على أن غرضه كان نفس غرض هيرودوتس ـ أي أنه كان (يحاول الحفاظ على سجل حياة شعب) و(بالتالي **فهو يستحق لقب مؤرخ**). ربما كان لدى (باد هارت بول) عدة نوايا مختلفة، يشبه بعضها إلى حد كبير نوايا هيرودوتس (وفي الواقع فإنه، بنحو أقرب إلى سيما چيان، كان يواصل وظيفة مارسها والده لصالح القبيلة). لكن من المشكوك فيه أنه كان يحاكي النمط اليوناني القديم، حتى دون وعي، أو أنه كان سيرى إسباغ (لقب المؤرخ) عليه بعد وفاته تكريما مرغوبا فيه. في الواقع، ترك (باد هارت بول) دفتر الرسم الخاص به لأخته، ودفن معها بعد وفاتها، وفقا لعادات الأوگلالا، مما يشير إلى أن آخر ما كان يدور في ذهن مؤلفه هو إنشاء سجل دائم. لقد حظي تاريخ السكان الأصليين، وكذلك وعيهم التاريخي، باهتمام كبير، لا سيما من قبل المؤرخين الإثنيين (الذين غالبا ما يعملون في مجال الإناسة بدلاً من أقسام التاريخ) خلال الجيل الماضي، مع حساسية أكبر أوليت لوظائفهم الاجتماعية، والتي غالبا ما تكون ذات طابع ديني أو شعائري، بدلاً من الطابع التذكاري أو التوضيحي.

ومع ذلك، لا يزال هناك قدر كبير من الشك بين المستعمَرين والمستعمِرين، أو الشعب المحتل والقوة المحتلة، تجلى في الموجة الأخيرة من محاولات (الحقيقة والمصالحة). وهذه الأسئلة تصبح أكثر تعقيدا عند التعامل مع الماضي الذي لا يزال ضمن الذاكرة الحية: كالاستغلال الياباني (لنساء المتعة) الكوريات؛ اضطهاد عصر الفصل العنصري في جنوب إفريقيا؛ الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994؛ والمدارس الداخلية للسكان الأصليين في كندا. لقد أدت حروب التاريخ في كل قارة تقريبا إلى زيادة الوعي بالعلاقة الوطيدة بين التاريخ والذاكرة، التي ظهرت في السنوات الأخيرة كموضوع بحث قائم ذاتها. وقد اتخذ هذا أشكالا مختلفة، ربما كان أشهرها هو تحليل

ما يمكن تسميته «ثقافات الذاكرة» الوطنية. كان عمل عالم الاجتماع موريس هالبڤاكس *Maurice Halbwachs* (1877 ـ 1945)، الذي توفي في معتقل بوخنڤالد، أساسيا في تطوير مفاهيم مثل «الذاكرة الجماعية»، «الذاكرة الاجتماعية»، و«الذاكرة المشتركة» وما إلى ذلك. أما الآن فهناك أعمال وفيرة حول هذا الموضوع، بالإضافة إلى مجلة مخصصة له (**التاريخ والذاكرة** *History and Memory*، أسست عام 1989)، حيث مثلت الذاكرة نقطة تقاطع جديدة للتاريخ مع الفلسفة وعلم الإناسة وعلم النفس وعلم الاجتماع. لقد تجاوزت دراسة الذاكرة أجندات ما بعد الحداثة بشكل متزايد، لا سيما فيما يتعلق بالمواقف «الصادمة» من الماضي مثل المحرقة، التي لا تشير إلى استمرارية «التاريخ» المحبوبة منذ القرن الثامن عشر، بل إلى الانقطاعات والتمزقات والانعطافات الراديكالية، التي تؤكدها «حفريات المعرفة» عند فوكو وكذلك الاهتمام المعاصر باستعادة الجانب «السامي» من التجربة التاريخية، في علاقة مباشرة وقوية وانفعالية وحتى ساحقة مع الماضي، تفرض نفسها ضد المسافة «الموضوعية» الحذرة التي فضل معظم المؤرخين الحفاظ عليها منذ نهاية العصر الرومانسي.

كانت هناك دراسات مفيدة حول أهمية تدمير أو إزالة المواد الأرشيفية في ذاكرة «المجتمع». وقد يفترض أن لكل دولة حديثة ذاكرة وطنية قوية، بمعنى المعتقدات المشتركة حول ما حدث في العقود الأخيرة، وحتى في أوقات أبعد، مع ما قد يعنيه ذلك. ومع ذلك، لا يبدو أن الحال كذلك حقا. ففي فرنسا، شدد بيير نورا *Pierre Nora* (و. 1931) على أهمية «مواقع الذاكرة *lieux de mémoire*» في تعزيز الشعور القوي بالماضي. وهو يعني بها مواقع منتشرة في جميع أنحاء الريف، أو في المدن، لتمييز أحداث معينة. قد تكون محلية مثل نصب تذكاري للحرب أو كنيسة أو تمثال، أو وطنية أو عالمية بقدر سوح المعارك المشهورة مثل واترلو أو غيتيسبيرغ؛ ويمكن أن تكون طبيعية أو من صنع الإنسان. ولكن السمة الرئيسية التي تشترك فيها هذه المواقع هي الارتباط بحدث أو سلسلة أحداث من الماضي. وإضافة إلى ذلك، فإن الكثير من الماضي الذي يستذكر بات يعتمد، بمرور الوقت، على المكان أو المجتمع أكثر من اعتماده على الأمة، حيث اختلط بالتقاليد الشفهية، وهو أمر كان الأثريون والمبشرون في أوائل عصر الحداثة يعرفونه جيدا.

تظل العلاقة الدقيقة بين الذاكرة والتاريخ غامضة، وغالبا ما يعود النظر فيها إلى القضايا المنهجية الأخرى والأقدم مثل القيمة النسبية للمصادر المكتوبة والشفهية، أو فعالية التاريخ الشفهي كوسيلة لالتقاط ذكريات الماضي من الذين عاشوها قبل أن يغادروا الحياة. كانت العقود الخمسة أو الستة الأخيرة التي سبقت حاضرنا كمؤرخين موضع اهتمام كبير في أحيان مختلفة، حيث أصبح ‹التاريخ الشفهي› مجالا خاصا، لا سيما في التعامل مع الغالبية العظمى من الناس، المنتمين في المعظم إلى الطبقة العاملة، الذين لن يدونوا تجاربهم على الورق. على الرغم من اشتراكهما في بعض الميزات، يجب علينا تمييز التاريخ الشفهي الحديث عن دراسة التقليد الشفهي الذي رأيناه في هذا الفصل والفصول السابقة (بالرغم من أنهما قد يجمعان في بعض الأحيان بعنوان ‹تاريخ شفهي›).

يتعامل التقليد الشفهي مع الفترات البعيدة التي تتجاوز ذاكرة الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة، ليتجاوز بالتالي أجيالا متعددة. وعلى النقيض من ذلك، فإن التاريخ الشفهي عبارة عن مجموعة من المنهجيات، صيغت بشكل أساس خلال عقدي 1960 و1970، لإجراء مقابلات مع أشخاص أحياء واستخراج ذكرياتهم الشخصية عن أحداث معينة في التاريخ عاشوا خلالها، أو تسجيل أوصافهم الخاصة بهم عن حياة وخبرات الماضي فحسب. ومع انفتاحه على بعض الاعتراضات التي توجه بدورها إلى التقاليد الشفهية، ولا سيما الميل البشري الطبيعي لرؤية ماضي المرء عبر منظور أزمان متداخلة، أو الخطأ في التذكر ببساطة، فإن التاريخ الشفوي لديه الآن مجموعة راسخة من المعايير أو ‹ممارسات أفضل› لأجل الخروج بشهادة دقيقة وأخلاقية من الأشخاص الأحياء. لقد أُنشِئ عدد من الأرشيفات المهمة للمقابلات الشفهية في جميع أنحاء العالم للاحتفاظ بشهادات مجموعات معينة ـ كالناجين من المحرقة على سبيل المثال، كما وثقت ذلك مئات الساعات من المقابلات التي أجراها كلود لانزمان *Claude Lanzmann* (1925 ـ 2018) لفيلمه **المحرقة** *Shoah* المنتج عام 1985 ـ قبل أن تصمت إلى الأبد. بل يمكن القول بأن هذه هي الطريقة الوحيدة الصادقة تماما لتجسيد شيء مروع كالمحرقة. لقد اقترح المؤرخ الإسرائيلي الأمريكي سول فريدلندر *Saul Friedländer* (و. 1932)، وهو أحد أوائل دعاة التاريخ النفسي، أن الحل النهائي

النازي كان مميزا وفريدا من نوعه من حيث النية والتنفيذ معا، لدرجة أنه يقاوم التمثيل السردي أو حتى محاولات «الإدماج في التاريخ». لكن من غير المحتمل أن يستمر هذا الشعور ما إن يتلاشى الحدث تماما من الذاكرة الحية، كما سيحدث خلال عقد أو عقدين آخرين.

الخلاصة

تعليقا على كتابات ميشيل فوكو عام 1979، لاحظ المؤرخ الفكري ألان ميغيل *Allan Megill* (و. 1947) أنه في حين لا يمكن أخذ هذا الكاتب الفرنسي على محمل الجد «كمؤرخ» (أي كشخص ملتزم بتمثيل الماضي **كما حدث حقا** ***wie es eigentlich gewesen***)، فينبغي أن يؤخذ على محمل الجد «كدلالة على أين يقف التاريخ الآن». بل ذهب ميغيل لأبعد من ذلك، قائلا إنه «رغم أن تدوين التاريخ المستقيم ما يزال يوسع مدى موضوعاته ويصقل منهجيته أكثر فأكثر من حيث التقنية والبراعة، فقد كانت هناك حركتان مضادتان لذلك: حيث بدأت الأسس الفكرية العليا للتاريخ بالتحطم، ومدى تفهمه ومباشرته يمران الآن بانحطاط». وبعد مضي جيل، فإن هذه الميول قد تسارعت أكثر في العصر الرقمي الذي تلا الحرب الباردة.

لقد استعرض هذا الفصل مساحة واسعة جدا. ولكنه بالرغم من طوله لم يتناول ـ من حيث الزمن ـ سوى شطر ضئيل من الفترة الكاملة التي يغطيها هذا الكتاب. وذلك انعكاس لتأثير المعاصرة ـ فهو يصف عالم تدوين التاريخ الذي يحيط بنا الآن، بخلاف ثقافة رانكه، أو غيبون، أو موتوئوري نوريناغا، ناهيك بابن خلدون. أما الثقافة التاريخية المقابلة لذلك في عصر الأنتيك فهي بهذا المعيار بعيدة بقدر مذهل، رغم أن العديد من قراء هذا الكتاب في الواقع قد يعرفون المزيد عن هيرودوتس وتاسيتوس مقارنة بالعديد من هذه الأسماء الأحدث عهدا، خاصة تلك القادمة من خارج التراث الأوربي لتدوين التاريخ. وذلك يعود جزئيا لأننا نقف عند نهاية عصر أطول بكثير لم يوجد خلال معظمه سوى قلة نسبية من المؤرخين، ثم إن الأسماء التي وصلتنا من عصور أبعد حظيت بمزية الانتشار والألفة المطولة. وقد يتساءل المرء كم من الأسماء المذكورة في هذا الفصل (وهم نزر يسير من المبرزين الذين يمكن الإشارة إليهم)

سيحظون بالقدر عينه من خلود الذكر. وذلك يثير سؤالين أكبر من ذلك: الأول، ترى أي مستقبل سيكون لتلك الفروع وفروع الفروع المتنوعة في مباحث التاريخ؛ والثاني، هل هناك خطر في أننا، بعد قرابة خمسة وعشرين قرنا من التاريخية المتزايدة (بل والمتزايدة في التشظي والتفتت في عصرنا الأحدث)، قد استنفدنا ببساطة الماضي ذاته وكذلك قدرتنا على استيعابه أو الاعتناء به؟ فهل نحن على مقربة، بعبارة أخرى، من ‹نهاية التاريخ›؟ سنحاول تقديم إجابة عن ذلك في الفصل الأخير.

أسئلة للمناقشة

1- هل بعض موضوعات التاريخ أميل لإثارة الجدل من سواها؟ ما هي بعض الأمور التي أوقعت المؤرخين في مشكلات خلال العقود الستة أو السبعة الأخيرة؟
2- هل تقبل ادعاءات بعض ما بعد الحداثيين القائلة بأنه (أ) لا توجد حقيقة موضوعية واضحة يمكن التوصل إليها حول الماضي؛ (ب) وأن التاريخ في جوهره غير منفصل عن الأدب ـ وأن الفعل التاريخي لرواية قصة ما في ذاته وبحد ذاته يشوه الواقع الفعلي للماضي؟
3- ما هي بعض الأدوار التي لعبها التاريخ في ‹التحرر من الاستعمار› عالميا من بعد الحرب العالمية الثانية؟ وهل تقبل بالفكرة القائلة إن التاريخ الأكاديمي السائد كان أداة مهمة لتأسيس الإمبراطوريات وكذلك التحرر منها؟
4- هل يمكن للتاريخ أن يلعب دورا في ‹المصالحة› بين أمم متنازعة في الماضي، أو بين الحكام والشعوب المهمشة تاريخيا؟
5- بأي أنحاء يتفاعل التاريخ مع ‹الذاكرة الجمعية›؟ وبأي أنحاء كان الحس الأكاديمي ‹بما حدث فعلا› يتضارب مع المعتقدات الشعبية أو الرسمية حول ذلك؟
6- هل بات التاريخ الآن متشظيا إلى تخصصات أكثر من أي وقت مضى؟ وهل كان هناك عصر كانت فيه دراسة الماضي أشد تماسكا من حالها اليوم، ومتى حدث إجماع أعرض على الموضوعات اللائقة؟
7- كيف لك أن تقيم مزايا التاريخ الدقيق بإزاء التاريخ الوطني؟ وماذا عن نقاط ضعف كل منهما؟

8. لماذا يعد تدوين التاريخ الماركسي شبه ميت في بعض الدول وحيا نشطا في دول أخرى؟
9. كيف تعاملت المجالات الواقعة خارج التاريخ معه في العقود الأخيرة، وماذا كانت منافع ذلك؟ وما هي التحديات أمام ممارسة التاريخ 'المتداخل'؟
10. ما أهمية أن يكون المؤرخون أفرادا من المجتمعات أو الجماعات التي يدرسونها؟ هل يجب أو يمكن لباحث أبيض أن يكتب حول تاريخ السود؟ وهل يمكن لرجل أن يكتب تاريخا للنساء؟

لمزيد من القراءة

مصادر عامة

- Ferro, Marc, *The Use and Abuse of History, or, How the Past is Taught to Children*, trans. N. Stone and A. Brown, rev. edn (New York and London, 2003)
- Green, Anna and Kathleen Troup (eds), *The Houses of History: A Critical Reader in Twentieth – Century History and Theory* (New York and Manchester, 1999)
- Iggers, Georg G., *Historiography in the Twentieth Century: From Scientific Objectivity to the Postmodern Challenge* (Middletown, CT, 1997)
- Lambert, Peter and Phillipp Schofield (eds), *Making History: An Introduction to the History and Practices of a Discipline* (London and New York, 2004)
- Maza, Sarah, *Thinking about History* (Chicago, IL, 2017)
- Schneider, Axel and Daniel Woolf (eds), *The Oxford History of Historical Writing, Vol. 5: Historical Writing Since 1945* (Oxford, 2011)

مؤرخو الحوليات: التاريخ الدقيق

- Brooks, James F., Christopher R. N. DeCorse and John Walton (eds), *Small Worlds: Method, Meaning, and Narrative in Microhistory* (Santa Fe, NM, 2008)

- Burguière, André, *The Annales School: An Intellectual History* (Ithaca, NY, 2009)
- Burke, Peter, *The French Historical Revolution: The Annales School, 1929_2014*, 2nd edn (Stanford, CA, 2015)
- Clark, Stuart (ed.), *The Annales School* (London, 1999)
- Fink, Carole, *Marc Bloch: A Life in History* (Cambridge, 1989)
- Magnússon, Sigurður Gylfi and István M. Szijártó, *What is Microhistory? Theory and Practice* (Abingdon, 2013)
- Tendler, Joseph, *Opponents of the Annales School* (Basingstoke and New York, 2013)

التاريخ والعلوم الاجتماعية

- Barzun, Jacques, *Clio and the Doctors: Psychohistory, Quanto _ history, and History* (Chicago, IL, 1974)
- Burke, Peter, *History and Social Theory*, 2nd edn (Ithaca, NY, 2005)
- Fogel, R. W. and G. R. Elton, *Which Road to the Past? Two Views of History* (New Haven, CT, 1983)
- Hempel, Carl G., 'The Function of General Laws in History', *Journal of Philosophy* 39.2 (1942): 35 _ 48
- Mahoney, James and Dietrich Rueschemeyer (eds), *Comparative Historical Analysis in the Social Sciences* (Cambridge and New York, 2003)
- Monkkonen, Eric H. (ed.), *Engaging the Past: The Uses of History across the Social Sciences* (Durham, NC and London, 1994)
- Roseberry, William R., *Anthropologies and Histories: Essays in Culture, History, and Political Economy* (Rutgers, NJ, 1989)

- Thomas, Keith, 'History and Anthropology', *Past and Present* 24.1 (1963): 3 _ 24

التاريخ في ظل النظم المستبدة والسلطوية

- Baets, Antoon de, *Censorship of Historical Thought: A World Guide, 1945 _ 2000* (Westport, CT, 2002)
- Barber, John, *Soviet Historians in Crisis, 1928 _ 1932* (Basingstoke, 1981)
- Berger, Stefan, *The Search for Normality: National Historical Consciousness in Germany since 1800* (London, 1997)
- Brunnbauer, Ulf (ed.), *(Re)Writing History: Historiography in Southeast Europe after Socialism* (Münster, 2004)
- Dirlik, Arif, *Revolution and History: The Origins of Marxist Historiography in China, 1919 _ 1937* (Berkeley, CA, 1978)
- Enteen, George M., *The Soviet Scholar _ Bureaucrat: M. N. Pokrovskii and the Society of Marxist Historians* (University Park, PA, 1978)
- Feuerwerker, Albert (ed.), *History in Communist China* (Cambridge, MA, 1968)
- Knowlton, James and Truett Cates (trans.), *Forever in the Shadow of Hitler? Original Documents of the Historikerstreit, the Controversy Concerning the Singularity of the Holocaust* (Atlantic Highlands, NJ, 1993)
- Low, A. D., *The Third Reich and the Holocaust in German Historiography: Toward the Historikerstreit of the mid _ 1980s* (Boulder, CO, 1994)
- Maier, Charles S., *The Unmasterable Past: History, Holocaust, and German National Identity* (Cambridge, MA, 1988)
- Markwick, Roger D., *Rewriting History in Soviet Russia: The Politics of Revisionist Historiography, 1956 _ 1974* (Basingstoke and New York, 2001)

- McGregor, Katharine E., *History in Uniform: Military Ideology and the Construction of Indonesia's Past* (Honolulu, 2007)
- Nozaki, Yoshiko, *War Memory, Nationalism, and Education in Postwar Japan, 1945 – 2007: The Japanese History Textbook Controversy and Ienaga Saburo's Court Challenges* (London, 2008)
- Plokhy, Serhii, *Unmaking Imperial Russia: Mykhailo Hrushevsky and the Writing of Ukrainian History* (Toronto, 2005)
- Saaler, Sven, *Politics, Memory and Public Opinion: The History Textbook Controversy and Japanese Society* (Munich, 2005)
- Schneider, Laurence A., *Ku Chieh – kang and China's New History: Nationalism and the Quest for Alternative Traditions* (Berkeley, CA, 1971)
- Schönwälder, Karen, 'The Fascination of Power: Historical Scholarship in Nazi Germany', *History Workshop Journal* 43 (1997): 133 – 53
- Wang, Q. Edward and Georg G. Iggers (eds), *Marxist Historiographies: A Global Perspective* (Abingdon and New York, 2016)

التاريخ من الأسفل

- Eley, Geoff, *A Crooked Line: From Cultural History to the History of Society* (Ann Arbor, MI, 2005)
- Hill, Christopher, R. H. Hilton and E. J. Hobsbawm, 'Past and Present: Origins and Early Years', *Past and Present* 100 (1983): 3 – 14
- Hobsbawm, Eric, *On History* (London, 1997)
- Kaye, Harvey J., *The British Marxist Historians: An Introductory Analysis* (Cambridge and Oxford, 1984)
- *The Education of Desire: Marxists and the Writing of History* (New York, 1992)

- Thompson, E. P., *The Making of the English Working Class* (London, 1963)

الأنواع المختلفة للتاريخ الفكري

- Burke, Peter, *What is Cultural History?* (Cambridge, 2004)
- Friedländer, Saul, *History and Psychoanalysis: An Inquiry into the Possibilities and Limits of Psychohistory* (New York, 1978)
- Gay, Peter, *Freud for Historians* (New York, 1985)
- Grafton, Anthony, 'The History of Ideas: Precept and Practice, 1950 – 2000 and Beyond', *Journal of the History of Ideas* 67.1 (2006): 1 – 32
- Hunt, Lynn, 'Psychology, Psychoanalysis and Historical Thought', in Lloyd Kramer and Sarah Maza (eds), *A Companion to Western Historical Thought* (Oxford, 2002), 337 – 56
- Kelley, Donald R., *The Descent of Ideas: The History of Intellectual History* (Burlington, VT, 2002)
- Kren, George M. and Leon H. Rappoport (eds), *Varieties of Psychohistory* (Englewood Cliffs, NJ, 1976)
- Loewenberg, Peter, *Decoding the Past: The Psychohistorical Approach*, 2nd edn (New Brunswick, NJ, 1996)
- McMahon, Darrin M. and Samuel Moyn (eds), *Rethinking Modern European Intellectual History* (Oxford, 2014)
- Megill, Allan, 'Intellectual History and History', *Rethinking History 8.4* (2004): 549 – 57
- Moyn, Samuel and Andrew Sartori (eds), *Global Intellectual History* (New York, 2013)

- Nakamura, Hajime, *Parallel Developments: A Comparative History of Ideas* (Tokyo and New York, 1975; rev. edn 1986)
- Panikkar, K. N., 'The Intellectual History of Colonial India: Some Historiographical and Conceptual Questions', in Sabyasachi Bhattachaya and Romila Thapar (eds), *Situating Indian History* (Delhi, 1986), 403 _ 33
- Pernau, Margrit and Dominic Sachsenmaier (eds), *Global Conceptual History: A Reader* (London and New York, 2016)
- Stannard, David E., *Shrinking History: On Freud and the Failure of Psychohistory* (New York, 1973)
- Whatmore, Richard, *What is Intellectual History?* (Malden, MA and Cambridge, 2016)

من تاريخ النساء إلى تواريخ للجندر والجنسانية

(راجع أيضا العناوين الواردة في الفصل السابق)

- Alberti, Johanna, *Gender and the Historian* (Harlow, UK and New York, 2002)
- Beard, Mary Ritter, *Woman as Force in History: A Study in Traditions and Realities* (New York, 1946)
- Bennett, Judith M., *History Matters: Patriarchy and the Challenge of Feminism* (Philadelphia, PA, 2006)
- Bynum, Caroline Walker, *Fragmentation and Redemption: Essays on Gender and the Human Body in Medieval Religion* (New York and Cambridge, MA, 1991)
- Carroll, Berenice (ed.), *Liberating Women's History: Theoretical and Critical Essays* (Urbana and Chicago, IL and London, 1976)

- Downs, Laura Lee, *Writing Gender History*, 2nd edn (London and New York, 2010)
- Duby, Georges and Michelle Perrot (gen. eds), *A History of Women in the West*, 5 vols (Cambridge, MA, 1992 _ 4)
- Foley, Susan K., *Women in France since 1789: The Meanings of Difference* (Basingstoke, 2004)
- Germer, Andrea, 'Feminist History in Japan: National and International Perspectives', *Intersections: Gender, History and Culture in the Asian Context* 9 (2003) http://intersections.anu.edu.au/issue9/germer.html (accessed 18 April 2018)
- Lerner, Gerda, *The Creation of Patriarchy* (Oxford and New York, 1986)
- *The Creation of Feminist Consciousness: From the Middle Ages to 1870* (Oxford, 1993)
- McIntosh, Marjorie K., *Working Women in English Society, 1300 _ 1620* (Cambridge and New York, 2005)
- Meriwether, Margaret Lee, *A Social History of Women and Gender in the Modern Middle East* (Boulder, CO, 1999)
- Morgan, Sue (ed.), *The Feminist History Reader* (London, 2005)
- Nadell, Pamela S. and Kate Haulman (eds), *Making Women's Histories: Beyond National Perspectives* (New York, 2013)
- Norton, Mary Beth, 'Numbers Matter', in 'The Awakening: Women and Power in the Academy', *Chronicle of Higher Education* 64.28 (23 March 2018), https://www.chronicle.com/interactives/theawakening?cid=wcontentgrid_hp_6 (accessed 6 April 2018)
- Rowbotham, Sheila, *Hidden from History: 300 Years of Women's*

Oppression and the Fight Against It (London, 1973)

- Scott, Joan Wallach, *Gender and the Politics of History*, 30th anniversary edn (1988; New York, 2018)
- Smith, Bonnie G. (ed.), *Women's History in Global Perspective*, 3 vols (Urbana, IL, 2004 _ 5)
- Sonbol, Amira El _ Azhary, *Beyond the Exotic: Women's Histories in Islamic Societies* (Syracuse, NY, 2005)
- White, Deborah Gray (ed.), *Telling Histories: Black Women Historians in the Ivory Tower* (Chapel Hill, NC, 2008)
- Zinsser, Judith, *History and Feminism: A Glass Half Full* (New York, 1993)

تدوين التاريخ الأفريقي بعد الحرب

- Boahen, Adu, *Africa in the Twentieth Century: The Adu Boahen Reader*, ed. Toyin Falola (Trenton, NJ, 2004)
- Fage, J. D. (ed.), *Africa Discovers her Past* (London, 1970)
- Falola, Toyin (ed.), *African Historiography: Essays in Honour of Jacob Ade Ajayi* (Harlow, UK, 1993)
- Falola, Toyin and Saheed Aderinto, *Nigeria, Nationalism, and Writing History* (Rochester, NY and Woodbridge, UK, 2010)
- Harneit _ Sievers, Axel (ed.), *A Place in the World: New Local Historiographies from Africa and South Asia* (Leiden, 2002)
- Temu, Arnold and Bonaventure Swai, His*torians and Africanist History _ A Critique: Post _ Colonial Historiography Examined* (London, 1981)
- Vansina, Jan, *Oral Tradition as History* (Madison, WI, 1985)

المنعطف اللغوي: ما بعد الحداثة

- Ankersmit, F. R., Meaning, *Truth, and Reference in Historical Representation* (Leuven, 2012)
- Appleby, Joyce, Lynn Hunt and Margaret Jacob, *Telling the Truth about History* (New York, 1994)
- Breisach, Ernst, *On the Future of History: The Postmodernist Challenge and its Aftermath* (Chicago, IL, 2003)
- Clark, Elizabeth A., History, *Theory, Text: Historians and the Linguistic Turn* (Cambridge, MA, 2004)
- Elton, G. R., *Return to Essentials: Some Reflections on the Present State of Historical Study* (Cambridge, 1991)
- Ermarth, Elizabeth D., *History in the Discursive Condition: Reconsidering the Tools of Thought* (Abingdon and New York, 2011)
- Evans, Richard J., *In Defence of History* (London, 1997)
- Gunn, Simon, *History and Cultural Theory* (London, 2006)
- Jenkins, Keith, *The Postmodern History Reader* (London, 1997)
- Jobs, Sebastian and Alf Lüdtke (eds), *Unsettling History: Archiving and Narrating in Historiography* (Frankfurt and New York, 2010)
- Klein, Kerwin Lee, *From History to Theory* (Berkeley, CA, Los Angeles and London, 2012)
- LaCapra, Dominick, *History, Literature, Critical Theory* (Ithaca, NY, 2013)
- Marwick, Arthur, 'Two Approaches to Historical Study: The Metaphysical (Including «Postmodernism») and the Historical', *Journal of Contemporary History* 30 (1995): 5 _ 35

- McCullagh, C. Behan, *The Logic of History: Putting Postmodernism in Perspective* (New York, 2004)
- Megill, Allan, 'Foucault, Structuralism, and the Ends of History', *Journal of Modern History* 51.3 (1979): 451 _ 503
- *Prophets of Extremity: Nietzsche, Heidegger, Foucault, Derrida* (Berkeley, CA, 1985).
- Palmer, Bryan D., *Descent into Discourse: The Rei fication of Language and the Writing of Social History* (Philadelphia, PA, 1990)
- Paul, Herman, *Hayden White: The Historical Imagination* (Cambridge, 2011)
- Poster, Mark, *Cultural History and Postmodernity: Disciplinary Readings and Challenges* (New York, 1997)
- Roth, Michael S., 'Cultural Criticism and Political Theory: Hayden White's Rhetorics of History', in Roth (ed.), *The Ironist's Cage: Memory, Trauma, and the Construction of History* (New York, 1995), 137 _ 47
- Spiegel, Gabrielle M. (ed.), *Practicing History: New Directions in Historical Writing after the Linguistic Turn* (New York, 2005)
- White, Hayden, 'The Burden of History', *History and Theory* 5 (1966): 111 _ 34
- *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth _ Century Europe* (Baltimore, MD, 1973)
- *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation* (Baltimore, MD, 1987)
- 'Response to Arthur Marwick', *Journal of Contemporary History* 30 (1995): 233 _ 46

- Windschuttle, Keith, *The Killing of History: How Literary Critics and Social Theorists are Murdering our Past* (New York, 1997)
- Zagorin, Perez, 'Historiography and Postmodernism: Reconsiderations', *History and Theory* 26.3 (1987): 263 _ 74

إزاحة الغرب عن المركز: ما بعد الاستعمار

- Chakrabarty, Dipesh, *Provincializing Europe: Postcolonial Thought and Historical Difference* (Princeton, NJ, 2000)
- Chatterjee, Partha, *The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories* (Princeton, NJ, 1993)
- Dirlik, Arif, Vinay Bahl and Peter Gran (eds), *History after the Three Worlds: Post _ Eurocentric Historiographies* (Oxford, 2000)
- Duara, Prasenjit, *Rescuing History from the Nation: Questioning Narratives of Modern China* (Chicago, IL, 1995)
- Fuglestad, Finn, 'The Trevor _ Roper Trap or the Imperialism of History: An Essay', *History in Africa* 19 (1992): 309 _ 26
- Guha, Ranajit, *An Indian Historiography of India: A Nineteenth _ Century Agenda and its Implications* (Calcutta and New Delhi, 1988)
- Lal, Vinay, *The History of History: Politics and Scholarship in Modern India* (Oxford and New Delhi, 2003)
- Nandy, Ashis, 'History's Forgotten Doubles', *History and Theory* 34.2 (1995): 44 _ 66
- Said, Edward, *Orientalism* (London, 1978)
- Trouillot, Michel _ Rolph, *Silencing the Past: Power and the Production of History* (Boston, MA, 1995)

- Young, Robert, White Mythologies: Writing History and the West (London, 1990)

حروب التاريخ، التنقيحية، والعلاقات الإشكالية بين ‹الذاكرة› و‹التاريخ›

- Barkan, Elazar, *The Guilt of Nations: Restitution and Negotiating Historical Injustices* (Baltimore, MD, 2000)
- Carey, David Jr, *Our Elders Teach Us: Maya – Kaqchikel Historical Perspectives* (Tuscaloosa, AL, 2001)
- Confino, Alon, *Germany as a Culture of Remembrance: Promises and Limits of Writing History* (Chapel Hill, NC, 2006)
- Friedländer, Saul, *Memory, History, and the Extermination of the Jews of Europe* (Bloomington, IN, 1993)
- Hein, Laura and Mark Selden (eds), *Censoring History: Citizenship and Memory in Japan, Germany, and the United States* (Armonk, NY and London, 2000)
- Henige, David, *Oral Historiography* (London and New York, 1982)
- Hill, Jonathan D. (ed.), *Rethinking History and Myth: Indigenous South American Perspectives on the Past* (Urbana and Chicago, IL, 1988)
- Hutton, Patrick, *History as an Art of Memory* (Burlington, VT, 1993)
- LaCapra, Dominick, *Representing the Holocaust: History, Theory, Trauma* (Ithaca, NY, 1994)
- *Writing History, Writing Trauma* (Baltimore, MD, 2001)
- Lepore, Jill, *The Whites of their Eyes: The Tea Party 's Revolution and the Battle over American History* (Princeton, NJ and Oxford, 2010)
- Linenthal, Edward T. and Tom Engelhardt (eds), *History Wars: The Enola Gay and Other Battles for the American Past* (New York, 1996)

- Macintyre, Stuart and Anna Clark, *The History Wars* (Carlton, Australia, 2003)
- Morris – Suzuki, Tessa et al., *East Asia Beyond the History Wars: Confronting the Ghosts of Violence* (Abingdon and New York, 2013)
- Nabokov, Peter, *A Forest of Time: American Indian Ways of History* (Cambridge, 2002)
- Nash, Gary B., Charlotte Crabtree and Ross E. Dunn, *History on Trial: Culture Wars and the Teaching of the Past* (New York, 1997)
- Nora, Pierre, 'Between Memory and History: Les Lieux de Mémoire', *Representations* 26 (1989): 7 – 25
- Novick, Peter, *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession* (Cambridge, 1988)
- Olick, Jeffrey K. (ed.), States *of Memory: Continuities, Conflicts, and Transformations in National Retrospection* (Durham, NC, 2003)
- Rappaport, Joanne, *The Politics of Memory: Native Historical Interpretation in the Colombian Andes*, rev. edn (Durham, NC, 1998)
- Thompson, Paul, *The Voice of the Past: Oral History*, 3rd edn (Oxford, 2000)
- Vickers, Edward and Alisa Jones (eds), *History Education and National Identity in East Asia* (New York and London, 2005)
- Whitehead, Neil L. (ed.), *Histories and Historicities in Amazonia* (Lincoln, NE and London, 2003)
- Wiener, Jon, *Historians in Trouble: Plagiarism, Fraud, and Politics in the Ivory Tower* (New York, 2005)
- Windschuttle, Keith, *The Fabrication of Aboriginal History, Vol. 1: Van Diemen's Land, 1803 – 1847* (Sydney, 2002)

الفصل السابع

إلى أين نتجه من هنا؟

تأملات، اتجاهات جديدة، وتوقعات

إن السمة المؤسفة لتاريخ الإنسان هو أنه، رغم خضوع أجزائه المنفصلة للتمحيص بتمكن معتبر، قلما حاول أي شخص أن يجمعها في كيان واحد، ويتأكد من النحو الذي يترابط به بعضها مع بعض... لم يدرك المؤرخون بمجموعهم ضرورة دراسة واسعة وأساسية كهذه، بحيث تمكنهم من فهم موضوعهم من حيث كلية علاقاته الطبيعية. ومن هنا ينشأ المشهد الفريد لمؤرخ ما يجهل الاقتصاد السياسي؛ وآخر لا يعرف شيئا عن القانون، وآخر لا يعي شيئا عن الشؤون الكنسية وتبدلات الآراء؛ وآخر يهمل فلسفة الإحصاء؛ وآخر يتجاهل علم الفيزياء ـ رغم أن هذه الموضوعات هي الأشد أساسية مطلقا، بالنظر لكونها تشكل الظروف الرئيسة التي يتأثر بها مزاج وشخصية النوع البشري، وكذلك يظهران من خلالها.

— هـ. ت. باكل، **تاريخ الحضارة في إنجلترا**، الجزء الأول (لندن، 1857)، ص 3 ـ 4.

من بين الكلمات المختلفة التي تصف تدوين التاريخ خلال العقود القليلة الماضية، لا بد أن يكون أبرزها هو **التشظي** *fragmentation* ـ أو ‹التشوش الباهر› كما يصوغه جيريمي د. بوبكن *Jeremy D. Popkin* في عمل تاريخي حديث حول التراث الغربي للكتابة التاريخية، لكن وصفا أشد لطفا لذلك ربما يكون ‹التنوع *diversity*›، أو بنحو أشد حيادا: ‹التخصص *specialization*›. وذلك مصدر قلق ليس بالجديد. حيث كان هناك دوما أشخاص في كل التراثات العالمية التي تصفحناها في هذا الكتاب، نادوا باندماج قطع التاريخ المتشتتة في بنية كلية ذات مغزى. حتى إن رانكه، ولو مع رؤية أضيق لما اعتبره المجال اللائق للتاريخ مما يتعارف عليه اليوم، كان قلقا تجاه التخصص

لدرجة أنه قضى سنواته الأخيرة وهو يحاول صياغة تاريخ عالمي *Weltgeschichte*؛ وكذلك فعل مؤرخ العصور القديمة تيودور مومسن *Theodor Mommsen* (1817 ـ 1903)، معاصره الأصغر سنا وناقده في بعض الأحيان. ثم إن هنري توماس باكل، الذي اقتبسنا عنه في مطلع هذا الفصل، هو صاحب النداء الأشد صراحة في القرن التاسع عشر لأجل ما قد نعتبره اليوم فهما متداخلا للتاريخ البشري، يتضمن طيفا من الموضوعات يتراوح بين العلوم الطبيعية والإحصاء من جهة، والقانون والسياسة والاقتصاد من جهة أخرى.

بغض النظر عن أي فروق إيديولوجية قد يملكونها، فقد بات المؤرخون اليوم يعرفون أنفسهم بشكل تلقائي كمؤرخين في السياسة، العسكرية، العائلة، الجندر، الاقتصاد، الاجتماع، البيئة، الفكر أو الثقافة. ذلك أن توسع أقسام التاريخ في الجامعات في أرجاء العالم في عقدي 1960 و1970، إضافة إلى الضغط المتزايد على الأكاديميين منذ عقد 1980 لأجل نشر المزيد وبنحو عاجل، قد شجع على ظهور درجة عالية من التخصص الدقيق، إضافة إلى تنامي عدد المجلات وسلاسل الكتب (الذي لا يبدو أن ظهور الإنترنت الحديث نسبيا قد يبطئه على الإطلاق، نظرا لأنه استطاع توفير بديل زهيد الثمن للطباعة المعتادة). ورغم أن الماركسية باتت أقل انتشارا في أقسام التاريخ في جامعات أميركا الشمالية، فإنها ما زالت مزدهرة في أوروبا، أميركا الجنوبية، وكذلك آسيا. واحتُفظ بالتاريخ الاجتماعي بالرغم من تفككه اليوم إلى فروع وشُعَبٍ من الفروع.

هناك جهود تظهر بين حين وآخر لأجل لم شمل التاريخ مجددا، مثل تأسيس جمعية تاريخية جديدة في أواخر عقد 1990 في الولايات المتحدة على يد يوجين جينوفيز *Eugene Genovese* (1930 ـ 2012) الذي كان يساريا وأصبح محافظا، وغيره الكثير، لمعالجة مشكلة تفتيت التاريخ وربطه بسياسة الهوية. كما أطلق المؤرخ الكندي ج.ل. غراناتشتاين *J.L. Granatstein* (و. 1939) نداءات مماثلة. ولكن (لم الشمل) هذا كثيرا ما كان كناية مؤدبة عن القول بأن الأجندة ينبغي أن تضيق وتركز من جديد على (شؤون تقليدية) كالتاريخ السياسي والعسكري، وينسب ذلك جزئيا على الأقل لكون هذه الموضوعات أكثر شيوعا بين القراء العابرين من غيرها من الأعمال الأشد تخصصا.

كما أصبحت الكتابة الاصطلاحية الغامضة بدورها هدفا (له ما يبرره طبعا، رغم افتراضه أن التاريخ الأكاديمي ينبغي أن يكون مجالا أسهل فهما من سائر التخصصات، وخاصة بإزاء المجالات العلمية التي تمتاز باصطلاحاتها التقنية الخاصة) لانتقادات من يعتقدون بأن المؤرخين الجامعيين قد فقدوا القدرة على التواصل بوضوح، وباستخدام جمل يفهمها أي قارئ غير متخصص لكنه متعلم بما يكفي. ولكن الشكاوى من أسلوب المؤرخين ليست بالجديدة أبدا ـ تذكر شكاوى ليو جيجي *Liu Zhiji* ضد ديوان تاريخ التانغ لاتباعه منهج التأليف على يد لجنة، أو شكاوى العديد من إنسانيي عصر النهضة من عسر قراءة سجلات الأخبار العائدة للعصور الوسطى، أو شكاوى فلاسفة التنوير من المجلدات المشحونة بالحقائق التي دونها أهل العلم. فقد تصور كل من توماس كارلايل والسير والتر سكوت شخصية خيالية، سمياها «درياسدوست»، تكتفي بتقديم الحقائق دون مشاعر. وقد لخص الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا إي غاسيت *Jose Ortega y Gasset* (1883 ـ 1955) هذه المشاعر في النصف الأول من القرن العشرين، حيث أنحى باللائمة على فشل المؤرخين في الحفاظ على جمهور. فهو القائل «أعتقد بحزم بأن الله لن يغفر للمؤرخين. فحتى الجيولوجيون استطاعوا إيقاظ شغفنا بالأحجار الميتة؛ أما المؤرخون، الذين يملكون أشد الموضوعات أسرا بين أيديهم، فلم يوفقوا إلا في جعل التاريخ يُقرأ اليوم في أوربا أقل مما كان من قبل» (الاقتباس من K. Weintraub, Visions of Culture, 1966, p. 285). وفي تصريح أقرب عهدا، علق المؤرخ الفكري الأميركي ديڤيد هارلان *David Harlan* في أواخر عقد 1990 على «التكاثر غير المنضبط للموضوعات التاريخية الجديدة، النظرات الجديدة، التفسيرات الجديدة، والنظريات وأساليب التقديم الجديدة».

ولكن هل التشظي أمر سيئ بالضرورة؟ لقد كان للعملية المستمرة للانقسام إلى موضوعات وموضوعات أدق (وما صاحبها من خلق مجلات أكاديمية ومجالات ثانوية أدق) أثر حميد هو الإبقاء على هذا المنهج حيا ونشطا. فقد سمحت، خلال العقود الخمس أو الست الماضية، بظهور نظرات جديدة إلى الماضي ـ رغم أنها لا تملك حصانة من الاعتراض أكثر من تلك التي تعترض عليها ـ ساهمت بشكل رئيس في إغناء فهمنا، لا إفقاره، لكل من الماضي والحاضر. ففي أعمال باحثين مثل روبرت

روزنستون *Robert Rosenstone* (و. 1936)، وهو بعد ـ حداثي صريح، استطاعت أن تفتح لنا باب دراسة الماضي عبر مصادر بديلة كالسينما. فقد اقترح روزنستون، الذي يساند أشكالا تجريبية وغير خطية من السرد التاريخي، أن «السينما تمنحنا شكلا جديدا من التاريخ، يمكن أن نسميه بالتاريخ كرؤية»، وربطه بالأشكال الشفهية الأقدم من القصص والحكاية. كما أثبت آخرون أن أشكالا معتادة من الثقافة المادية ـ مثل الأقمشة ـ يمكن أن تمنحنا بصائر إلى حياة السابقين لا يمكن للوثائق توفيرها (وعلماء الآثار معتادون بالطبع العمل مع البقايا المادية أكثر من النصية). ولعل التاريخ لن يتطلب منا في الواقع توجها موحدا، وقد لا يتوصل إليه أصلا. بل إن إحدى ركائز هذا الكتاب هي القول بأن الوجود المثالي لإجماع قائم متخيل على ‹كيف نمارس التاريخ/ علام يدور التاريخ›، وهو إجماع يستذكر أحيانا بكل أسى، ليس بحد ذاته أكثر من صنيعة للحداثة الغربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. فقد كان رانكه شخصية هائلة التأثير، ولكن آراءه لم تكن فوق النقاش حتى في ألمانيا على أيامه.

هذا إذن هو حال ادعاء التشظي وضيق الأفق. ولكن ماذا عن تهمة عدم الأهمية؟ لقد نشر المؤرخان الأميركيان جو غولدي *Jo Guldi* وديفيد آرميتاج *David Armitage* عام 2014 كتابا قصيرا بعنوان **البيان التاريخي** *The History Manifesto*، لم يكونا فيه مهتمين بتضييق **أفق** البحث التاريخي بل بتضييق **مداه** الزمني، حيث نددا ‹بنزعة **الأمد** القصير› (أي دراسة فترات وجيزة جدا من الزمن) وأيدا العودة إلى ما يشبه **الأمد الطويل** *longue durée* لدى مؤرخي الحوليات الأوائل. ففي رأي غولدي وآرميتاج، تخلى المؤرخون عن القدرة على قول ‹الحقيقة في وجه السلطة› وتنصلوا كذلك من أي نية للتنبؤ بالمستقبل على أساس خطوط الماضي، وهما دوران مهمان تتطلبهما أوضاع العالم الحالية من برجنا العاجي. (إن السؤال عن كيف يخاطب المؤرخون الجمهور سؤال ذو تاريخ طويل: فقد يفكر المرء في موقف الفقيه اللغوي جاك كوجاس *Jacques Cujas* الذي لم يجد أي صلة بين دراسته للشرع الروماني والسياسة المعاصرة، وبالضد منه بعض أفراد الجيل اللاحق له مثل جان بودان Jean Bodin وفرانسوا هوتمان *François Hotman* الذين صاغوا معرفتهم بالماضي عن عمد في هيئة تدخلات في الشؤون الراهنة). ولكن نمو برامج ‹التاريخ الشعبي› في العديد من

المؤسسات يخفف هذا القلق إلى حد ما. وكذلك يخفف منه إقرار نسبة متزايدة من طلاب الدراسات العليا وكذلك (مع تردد أكبر) مشرفيهم الجامعيين، بأن هناك منافع جيدة بحق لشهادة الدكتوراه في التاريخ في (العالم الواقعي)، بما في ذلك العمل في القطاعات اللا ربحية ومنظمات المجتمع المدني. حتى إن قطاع الأعمال بحاجة إلى المؤرخين، وينبغي أن يقال أيضا: بحاجة إلى وعي بصنع القرار الذي أدى لكوارث اقتصادية في الماضي.

بمعنى ما، فإننا نعود في مدارنا بحذر إلى بيئة القرن التاسع عشر، التي كثيرا ما كان المؤرخون فيها مثقفين شعبيين يرون أن دورهم يتمثل في إعداد المواطنين أولا وإنتاج الأبحاث (المهمة) ثانيا. وذلك تطور مشكور، خاصة في بيئة يحظى فيها جزء كبير من البحث والتدريس التاريخي بتمويله من الخزانة العامة. والدعوة لاستعادة الأهمية تذكّرنا بفكرة سيسرو القديمة عن دور التاريخ كمعلّم للحياة *magistra vitae* وكذلك تستدعي في المؤرخين حسا أكبر بالمسؤولية الأخلاقية، و(بدين الأحياء للأموات) بتعبير كروتشه، والتزاما بحماية الماضي من التدخل والتلاعب. وهي أيضا نداء لتفعيل دور التاريخ مجددا لرد المظالم العالمية، وهو أمر ينبغي أن يكون - في عالم من الإبادات والهجمات الإرهابية والجشع التجاري المتفشي - دافعا ملزما لنا كما كان ملزما لأسلافنا. ولكن آخرين قد اقترحوا أن على التاريخ أن (يتخفف) ويكف عن أخذ نفسه على محمل الجد. فقد علقت بيڤرلي كينغستون *Beverley Kingston*، وهي تكتب في قلب حروب التاريخ الأسترالية (انظر أعلاه، ص 352-353)، قائلة بأن عامل الخطر للتاريخ الرديء ليس عاليا بما يكفي لتبرير بعض الخطابات السياسية المستثارة التي تندد بإمكانية إساءة استخدامه. وقال هايدن وايت، في حوار مع المؤرخ ديرك موزس، أن المؤرخين المحترفين ببساطة ليسوا في موقع إطلاق الأحكام الأخلاقية حول أحداث مثيرة للجدل كالمحرقة (أو المساهمة في حل شؤون حديثة ذات صلة، كالصراع الفلسطيني - الإسرائيلي) لأن عقودا من تدريبهم كي يصبحوا (علميين) قد جردتهم من القدرة على تحديد (المعنى) كنقيض (للواقعية) المحضة. وباختصار، فلا يوجد إجماع على أن التاريخ (على الأقل كما يمارس أكاديمياً) يمكن أن يكون معلّما ودافعا نحو الأفضل في الحاضر - حتى لو كان بعض أنصاره يأملون أن يصبح الحال كذلك.

كما لاحظنا في الفصل السابق، فقد أنتجت الأعوام الأربعون الماضية عددا من ردود الفعل ضد شتى الأعداء الظاهريين لكليو، ربة التاريخ - كتاريخ جماعات الضغط، التنقيحية، النظرية الاجتماعية، النسوية، ما بعد الاستعمارية، وأهمها جميعا: ما بعد الحداثة. وقد زاد الأمر تفاقما تصاعد الاستقطاب داخل الجامعات بين نقاد ‹الصواب السياسي› وأنصار حرية التعبير غير المقيدة من جانب، و‹أنصار العدالة الاجتماعية› من طلاب وأعوان لهم من طاقم التدريس (كثيرا ما يأتون من أقسام الإنسانيات والعلوم الاجتماعية) الذين ينادون بأجندة التنوع ومناهضة الاستعمار والاضطهاد. وقد كان رد اليمين السياسي على التحديات التي أدركها بنفس حد اليسار وهو ينادي بمطالبه. حيث أثارت محاولة تعيسة الحظ عام 1994 لخلق ‹معايير وطنية للتاريخ› في الولايات المتحدة، ومعالجة هبوط ظاهر في معرفة الطلاب بالتاريخ، غضب مقدمي البرامج المحافظين، ولين تشيني الرئيسة السابقة للمنحة الوطنية للإنسانيات، وأخيرا مجلس الشيوخ الأميركي. وقد كان مستوى الخطاب في العديد من تلك الحوارات سطحيا لدرجة العبث أحيانا، ويستند إلى افتراض أن التاريخ ذاته يمكن أن يختزل في ‹حقائق› مجردة (المفترض أنها ليست في ذاتها مثار شك) ينبغي ألا تتطرق المراجعة أو حتى التساؤل إلى تفسيرها. وقد قام مايكل غوف، وزير التعليم البريطاني السابق، عام 2013 بجهد مماثل لإصلاح منهاج التاريخ في المدارس، مع تأكيد مستجدّ للتواريخ والفترات الزمنية، وتركيز على الماضي الوطني، لكنه واجه مقاومة هائلة من قبل المعلمين والأكاديميين على حد سواء.

لكن هذا الشكل من الاختزالية قد أضرّ باليسار بقدر ما أضر باليمين، وقد تضخم أثره في العقد الماضي بفضل قوة الإنترنت وخاصة الوسائط الاجتماعية. فمنذ عام 2015، شهدت العديد من الجامعات الأميركية والكندية نزاعات حول أمور مثل ‹شرطة الفكر› والتنديد بالصراخ أو الاحتجاج ضد متحدثين مثيرين للجدل. حيث ثارت أزمات داخل الجامعات وخارجها بخصوص نصب علنية لشخصيات تاريخية ذات ماض مثير للجدل. وأبرز الأمثلة العنيفة على ذلك هو ما حصل في مدينة شارلوتسفيل، فرجينيا في أغسطس 2017، بخصوص نصب الجنرال الكونفدرالي روبرت إي. لي. حيث كانت المشكلة أكبر من تاريخية نظرا لأن من أشعل فتيل الأزمة هم نشطاء

يمينيون بيض خرجوا تأييدا للخطاب السياسي القادم من العاصمة واشنطن. ولذا فقد تجاوزت تداعيات هذا الحادث حتى ما تفتقت عنه المناظرات حول «التنقيحية الصائبة سياسيا» التي جرت قبل عدة أشهر في جامعة أكسفورد وپرنستون، بخصوص تخليد ذكرى شخصيتين أخريين اعتبرهما قادة الطلاب عنصريتين، وهما رجل الأعمال سيسيل رودز والرئيس الأميركي وودرو ويلسون.

وبغض النظر عن الأسباب التي دفعت متظاهري شارلوتسڤيل، فإن الأسئلة حول متى نستذكر أو لا نستذكر ليست غير مشروعة **بحد ذاتها**. فهي جزء لا يتجزأ من التعامل والانتفاع بعبء الماضي كما يراه نيتشه، ويمكن الاستدلال على ضرورة «الاعتراف» بالجوانب السيئة من ماضينا وكذلك بإدانتها لتذهب طي النسيان. فقلما تجد أحدا سوى بعض النازيين الجدد المهمشين قد يوافق اليوم على تكريس نصب أو بناية لهتلر ـ رغم أنه بالنظر إلى عودة التمجيد والإعجاب الشعبي الحادث مؤخرا في روسيا بالمستبد المعاصر له، أي جوزيف ستالين، والتبجيل الجماهيري المستمر في الصين للزعيم ماو، فإن المرء يتساءل كم سيطول الأمر قبل حصول ذلك. فمثلما تعرّف الكوميديا أحيانا بأنها «تراجيديا زائدَ زمنٍ»، فإن التاريخ على المدى البعيد يبدو أنه يغتفر أو يتناسى حتى أفظع الجرائم، وقد أشار غڤرييل روزنفلد *Gavriel Rosenfeld* في كتاب حديث له إلى «تطبيع» الماضي النازي في الذاكرة المعاصرة. وحتى في عام 1949 فإن المؤرخ الهولندي پيتر غايل *Pieter Geyl* قد توقع هذا التطور في كتاب يوضح تقلب وجهات النظر تجاه ناپليون ـ وهو شخصية مماثلة في نظر غايل ـ عند مؤرخي القرن التاسع عشر، كما خشي الفيلسوف إشعيا برلين *Isaiah Berlin* (1909 ـ 97) من أن مؤرخي المستقبل سيفشلون في التنديد بأشرار التاريخ. ولكن معظم الشخصيات التاريخية تقع في مساحة أشد رمادية من هتلر أو ستالين، أو حتى ناپليون، حيث نجد حياتهم المعتبرة مرقطة ببعض المواقف والأفعال التي تثير النفور في مشاعرنا الحالية لكنها ليست استثناء عن معاصريهم. ترى أين إذن نرسم الخط؟

إن أحد الأسباب وراء درجة ما من الاختزالية والتبسيط المفرد في العديد من هذه المساجلات حول الماضي، هو أن منهج التاريخ نفسه يتخاذل أحيانا عن الانحياز لجانب ما، بل حتى عن توفير النصيحة. فالمؤرخون، كسائر المحترفين، يجبرون أحيانا

على القيام بخيارات صعبة بين تقديم رؤى شديدة الدقة والرقي للعالم (في حاضره وماضيه) ستثير التشوش والإحباط في الجمهور، وبين تبسيط المسائل المعقدة في هيئة تأكيدات سهلة الفهم لدى جمهور القراء، ومناسبة لمقاطع صوتية من 15 ثانية، أو تغريدات من 140 رمزا. وقد وفرت الوسائط الاجتماعية مجالا لبعض المجادلات التاريخية مفرطة الضراوة. وأحد تلك المجادلات هو ما اندلع في تويتر عام 2017 حول إن كانت بريطانيا الرومانية ذات تعداد ‹متنوع›. وبعيدا عن ‹المخربين› الجهال الذين لا مفر منهم، فقد شاركت في ‹الجدال› أستاذة كلاسيكية معتبرة من كامبردج هي ماري بيرد *Mary Beard* (و. 1955؛ لا صلة لها بماري ريتر بيرد)، قالت بأن هناك أدلة فعلا على وجود سكان من غير البيض في بريطانيا الرومانية، ضد خصومها الذين اعتبروا ذلك تنقيحية صائبة سياسية بلا معنى. حتى إن الجدال القديم حول طبيعة المعرفة التاريخية بإزاء تجريبية العلوم الطبيعية قد ثار مجددا حين قال أحد علماء الجينات بأن العلم يوفر السبيل المشروع الوحيد لفهم الماضي، بدلا من ‹هراء المؤرخين السماعي› (وهو موقف سرعان ما فنده عالم جينات آخر على الأقل). لكن الموضوع نفسه لم يكن ذا زخم كبير بقدر النحو الذي حصل به ذلك ‹الجدال›. فمستوى الإساءات وغياب الحوار المتحضر في نقاشات تويتر (الذي جانبته بيرد نفسها، حيث أبدت قدرا معتبرا من الكرامة وضبط النفس) وفي التعليقات في سائر أرجاء الإنترنت، كان سيثير الحرج حتى في أشد مراجعي الكتب حدّة في أي مجلة أكاديمية. لا تمنحنا النبرة المتعصبة ولا الرغبة في اختزال التعقيد إلى درجة العبث أي أمل يذكر في ‹دمقرطة› التاريخ على الإنترنت، إن لم يكن بالإمكان إجراء الحوار بشكل عقلاني ومحترم.

وفي الوقت ذاته، فقد وفر الإنترنت منفعة هائلة في أنحاء أخرى. فالعديد من مشاريع التعاون الدولي تحدث بشكل يتجاوز الحدود والمحيطات بإيقاع مذهل، مما يعني ظهور كوزموپوليتية جديدة وكذلك التزام دولي بالمشاريع واسعة النطاق. وبغض النظر عن الاستخدامات الواضحة (كالتواصل شبه الفوري عبر الإيميل مع أكاديميين زملاء في الجهة الأخرى من العالم، في حين كان المرء يعتمد سابقا على بطء وعدم وثاقة البريد الدولي)، فإن الشبكة العالمية قد جعلت مصادر كانت فيما مضى غير متاحة ـ إلا بالسفر إلى خزائن أرشيفية بعيدة ـ متاحة بنحو أكثر يسرا

لأغراض التدريس والبحث معا. هناك بالطبع شيء مفقود في عدم (العودة للمصادر) في موقعها الجغرافي ـ لا أقل من التجربة الحسية للتعامل مع المستندات الأصلية التي اعتبرها ميشليه عنصرا جوهريا في ربط المؤرخ بالماضي ـ أو الشعور (الرفيع) المستمد من زيارة مواقع الخرائب والنصب المتهدمة.

ففي كتابه المعروف، **الماضي بلاد غريبة** ***The Past is a Foreign Country*** (1985)، الذي كتب قبل الثورة الرقمية، يعلق ديڤيد لوڤنتال ***David Lowenthal*** (1923 ـ 2018) على (تأثير المباشرة) في تلمس المستندات الأصلية، أو زيارة المواقع الموصوفة بالضبط، وكيف يمكن لذلك أن يثري سرد المؤرخ ذاته للأحداث (على أنه يضيف قائلا بأنه في معظم الأغراض، بما فيها التجميع، فإن المستند أو الغرض طبق الأصل لن تقل قيمته عن الأصلي). كما أوردت المؤرخة الفرنسية آرليت فارج *Arlette Farge* (و. 1941) نقطة ذات صلة في كتاب أحدث، يمكن ترجمة عنوانه الأصلي إلى (مذاق) الأرشيف. ولكن يجدر بنا تذكر أنه ليس كل مستند متاحا بسهولة (وخاصة تلك المغرقة في القدم والتفكك) وأن ما قد يراه المرء على النت يمكنه فيما بعد زيارته شخصيا: فإن لم يكتف بالبحث، فبوسعه أيضا التحديق. كما ساهم تطور محركات البحث أيضا بشكل هائل في تحديد مواقع المصادر أو الولوج إلى قواعد بيانات موجودة. فالبحث عن المستندات وعناوين الكتب ذات العلاقة الذي قام به المؤلف كطالب دكتوراه شاب في أوائل عقد 1980، وهو محني الظهر على فهارس البطاقات في مكتبة البودليان بأكسفورد، استغرق منه ثلاثة أشهر من العمل الشاق؛ أما اليوم فإن أي طالب ثانوية مسلح بأحدث هاتف ذكي يمكنه الإتيان بنفس النتيجة خلال دقائق، وفي أي مكان من العالم يملك برج هاتف نقال تقريبا.

لا يبدو أن هذا هو قصارى ما تستطيع التقنية الرقمية تقديمه من عون للبحث التاريخي، أو تطبيق لمناهج قادمة من مجالات أخرى. (فالبيانات الضخمة)، التي تحظى برواج هائل في القطاع العام والخاص، لا تعد فكرة جديدة في تدوين التاريخ، كما أثبت لنا مؤرخو الحوليات والقياس التاريخي *cliometrics* في القرن الماضي. لكن القدرات الاحتسابية الحالية ينبغي أن تسمح لذلك بمزيد التقدم وتكشف عن أنماط لم تعرف من قبل ضمن أشكال متفاوتة جدا من الأدلة. وإن استطعنا تجاوز

حراس حدود التخصصات، فيمكن لذلك أن يغني البحث التاريخي بتقنيات أحدث طورها علماء الجينات (بغض النظر عن العراك القريب على تويتر بخصوص بريطانيا الرومانية)، علماء الأحياء الدقيقة، علماء البيئة والإحاثة، إضافة إلى مجالات أقرب وأوثق صلة تقليديا كعلم الآثار.

وبهذا المعنى فقد ظهرت في العقد الماضي آخر حلقة من الشكل النهائي للتكامل في تدوين التاريخ، وهي السعي لإعادة تصور ماضي الكوكب بأكمله، غير متقيد بالتخيلات الميتافيزيقية لأمثال هيغل أو تخمينات أمثال توينبي أو شپنغلر. فالقارئ العابر الذي يمتاز بضيق الوقت ووفرة الفضول سينحاز غريزيا نحو «الصورة الكبرى». إن رواج الموجة الحديثة الأولى «للتاريخ العالمي *world history*» خلال عقدي 1960 و1970 قد أنتج شريحة مبكرة من المساقات التمهيدية المعدّلة في مناهج الجامعات، باتت تتنافس مع المساقات القديمة أوريية المحور، التي تستعرض «الحضارة الغربية» أو «*Plato to NATO*» [من أفلاطون حتى حلف الناتو].

وقدساهم أكاديميون متمرسون مثل جيري هـ. بنتلي *JerryH. Bentley* (1949 ـ 2012)، ويليام هـ. مكنيل *William H. McNeill* (1917 ـ 2016)، وابنه المؤرخ البيئي ج. ر. مكنيل *J.R. McNeill* (و. 1954)، بكتب معروفة في هذا المجال. وكانت الطليعة الأولى من تلك الأعمال، التي ظهرت في عقدي 1960 و1970، قد تزامنت مع فترة أوج علم الاجتماع التاريخي، ومع تباشير مع يعرف أحيانا «بنظرية الأنظمة العالمية»، التي فصّلها علماء اجتماع مثل الاجتماعي التاريخي الأميركي عمانوئيل والرشتاين *Emmanuel Wallerstein* (و. 1930) الذي تتلمذ على فرناند بروديل، والأعمال المقارنة لزملائه الاجتماعيين بارينغتون مور الابن *Barrington Moore, Jr* (1913 ـ 2005) وثيدا سكوكپول *Theda Skocpol* (انظر أعلاه، ص 306).

وشهدت الفترة ذاتها الظهور المبكر للتاريخ الطبي الحديث واهتماما بالتناقل البيولوجي والبيئي (مثال على ذلك عمل ألفريد و. كروسبي *Alfred W. Crosby* الرائد **تبادل عصر كولومبوس** *The Columbian Exchange*، أو عمل مكنيل الأقدم **أوبئة وشعوب** *Plagues and Peoples*) وطفرة واضحة في شعبية تاريخ أمريكا اللاتينية

وأفريقيا بين طلاب الجامعات (أحيانا بوصفه جزءا من برامج متداخلة التخصص كدراسات التنمية الدولية أو الدراسات البيئية). وقد بات المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية، الذي يلتقي كل خمسة أعوام في مواقع مختلفة، يدرج بانتظام ثيمات من التاريخ العالمي في برامجه ويجتذب مؤرخين من أرجاء العالم. كما باتت المجلات الأكاديمية تنشر بشكل متزايد مقالات مكرسة لموضوعات عابرة للبلدان، وظهرت أيضا مجلات جديدة مثل **مجلة التاريخ العالمي** *Journal of World History* (1990) و**مجلة التاريخ الكوكبي** *Journal of Global History* (2006). وحتى أشد الفروع الدقيقة غربيّة وانعزالا، أي التاريخ الفكري، بات ينظر إليه مجددا من زاوية عالمية. ولكن هناك مشككون أيضا، كانوا يشيرون إلى تشابهات سطحية أحيانا يذكرها المقارنون المتحمسون في حين يتغاضون عن فروق جوهرية. فلم يكن ر. ج. كولنغوود، وهو مؤرخ صارم أوريي المركز، ليولي أهمية للمقارنة، بل اعتقد بأنها لا تضيف شيئا إلى فهمنا لحدث ما.

إن نهضة «التاريخ الكوكبي *global history*» بشكله الجديد خلال العقدين الماضيين، في الوقت الذي بات فيه أكثر العالم مقسما بنحو مختلف عما كان عليه خلال الحرب الباردة، قد منح تلك الجهود المبكرة أهمية جديدة. فهناك عدة تحولات في النظرة تجدر بنا ملاحظتها. أولا، استفادت جهود حديثة في التاريخ الكوكبي من عمل باحثين بعد استعماريين مثل ديپش چاكرابرتي (و. 1948) على «النظر لأوربا كمقاطعة» (أي إزاحتها عن المركز) في التفكير التاريخي، أو رسم عدة طرق إلى الحداثة وحتى تخيل حداثات مختلفة عن الحداثة الغربية المهيمنة، قطع الطريق على العديد منها جراء نجاح الإمبريالية الغربية من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر، ولعلها تتفتق اليوم مجددا بما أن الهيمنة الاقتصادية والسياسية الأورو ـ أميركية باتت تذوي. (وقد استبق عالم الإسلاميات الأميركي مارشال هودجسون *Marshall Hodgson* [1922 ـ 68]، وهو مؤرخ عالمي وناقد مبكر لأوربية المركز، ظهور هذا الموقف حين اقترح أن الهيمنة الغربية ليست أمرا مقدرا، فلعل اقتراب الصين من ثورة صناعية في عصر السونغ [960 ـ 1279] كان سيفضي لحداثة مختلفة للغاية).

ثانيا، فإن ممارسة التاريخ الكوكبي بحد ذاتها قد اكتسبت أساسا نظريا أصلب،

بعدما توفرت تصحيحات نافعة لبعض اندفاعاتها على يد نقاد متعاطفين كالمقارنين الألمان سباستيان كونراد *Sebastian Conrad* ودومنيك زاكسنماير *Dominic Sachsenmeier*، والباحثين الأميركيين پاتريكماننغ *Patrick Manning* (أحد دعاة استخدام «البيانات الضخمة» في تحليل التاريخ الكوكبي) وپاميلا كايل كروسلي. فقد أشار ماننغ وكروسلي إلى أن تاريخا «كوكبيا» بحق ينبغي أن يفلت من أسر التحقيب *periodization* المتعارف عليه، الذي يقوم بشكل كبير على أساس تدوين التاريخ الأوربي، الذي يقسم التاريخ البشري إلى قطع ـ يعود بعضها إلى النزعة المرحلية في القرن الثامن عشر ـ هي «الرعوي» و«الزراعي»، أو «الإقطاعي» و«الصناعي». كما لفت عالم العصور الوسطى الفرنسي جاك لو غوف *Jacques Le Goff* (1924 ـ 2014) الانتباه في كتابه الأخير إلى التأثير المشوِّه الذي فرضه التحقيب لمدة طويلة على مناقشة التحول من العصور الوسطى إلى الحديثة مثلا، بنحو يركز على التغيرات ويهمل الاستمرارية. ثم إن التواتر المتزايد «للتواصل»، الذي كان جوهر عمل الراحل جيري بنتلي حول التاريخ العالمي، هو بدوره مثار جدل كتفسير مرضٍ للتغير. وفي وقت أقرب شكك كونراد في الدرجة التي تفاعلت بها الحضارات في الماضي بشكل ذي بال حقا، وتحت أي ظروف، نظرا لعدم الحراك الذي كان يهيمن على معظم السكان الماضين.

ثالثا، فإن التاريخ الكوكبي قد ولد دون قصد طفلين أشد طموحا منه، يمتد أفقهما لما وراء «اللوازم» الاعتيادية للمؤرخ، أعني بها السجلات المكتوبة. وأولهما هو «التاريخ العميق *Deep History*»، الذي حمل لواءه دانيال لورد سمَيل *Daniel Lord Smail*، وهو يسعى إلى إدماج التاريخ بعلم الآثار، والإحاثة، وبيولوجيا الأعصاب لتوجيه معرفتنا بالماضي نحو أصول الجنس البشري. أما الثاني، أي «التاريخ الكبير *Big History*»، فيمتد لما هو أبعد من ذلك. فدعاته من أمثال ديڤيد كريستيان *David Christian*، المؤرخ الأسترالي أميركي المولد الذي يدين له هذا المصطلح بصياغته، يضعون ومضة التاريخ البشري ضمن القصة الأشد طولا للكون وصولا حتى للانفجار الكبير، مستفيدين من أحدث التطورات في مجالات شديدة البعد ظاهرا عن التاريخ، كالفيزياء الفلكية. بمعنى ما، فإن ذلك هو **الأمد البعيد** عند بروديل بعد مده من بضعة

قرون حتى يشمل أحقابا وآبادا؛ لكنه أيضا يعيد تنظيم قرون الحياة البشرية بنحو مختلف عن التقسيم المعتاد (عتيق ـ وسيط ـ حديث)، ليخلق بالخصوص فكرة حقبة «الأنثروبوسين» (عصر البشر؛ من أواخر القرن الثامن عشر فصاعدا)، التي تعرّف بأنها العصر الذي عاش فيه البشر بأعداد كافية وتوصلوا كذلك لتقنيات قادرة على إحداث آثار دائمة، ضارة في أغلبها، في بيئة الكوكب. (وكما يلاحظ چاكرابرتي، فقد حولنا ذلك من مجرد فاعلين «بيولوجيين» إلى فاعلين «جيولوجيين»، حتى إنه ـ من ناحية تدوين التاريخ ـ قد محا الفرق الراسخ بين التاريخ «البشري» و«الطبيعي»). يرفض مؤرخو التاريخ الكبير والعميق معا فكرة أن ظهور الكتابة هو ما يرمز «البداية» العصر التاريخي، بوصفه انبثاقا عن حقبة «قبل تاريخية» لا متغيرة، يفوق طولها بشكل هائل طول الماضي المدوّن.

من المسلّي أن نفكر بأن «التاريخ الكوني *Universal history*»، وهي فكرة وتصنيف استخدمه المؤرخون القدماء والقروسطيون، واستحال خلال عصر التنوير إلى «تاريخ الإنسان»، قد استطاع أخيرا ـ بفضل التاريخ الكبير ـ أن يصبح الآن كونيا **بحقّ**! ولكن فكرتنا عن حجم الكون بحد ذاته هي بدورها تطور حديث بالطبع. فضمن التراث المتطور «للتاريخ الكوني» الذي يعود من تاريخ العالم *Weltgeschichte* في القرن الثامن عشر ليمر بكتاب قروسطيين مثل رشيد الدين الهمداني (1247 ـ 1318) حتى يصل إلى پوليبيوس، ساهم عصرنا هذا بنصيبه اللائق. ففي اللغة السائدة عن التواريخ «العابرة للدول» و«المتشابكة» (*histoire croisee*)، التي يراها أنصارها خطوة أبعد من مجرد «المقارنة»، يمكن للمرء أن يلاحظ صدى معاصرا لفكرة المؤرخ القديم عن التشابك *symploke*. وفي حين يبدو التاريخ الكوكبي بحد ذاته حاليا لا أكثر من مجرد نافذة أخرى أوسع على الماضي، بدلا من منزل يمكن أن يجمع تحت سقف واسع كل أبناء كليو الناشزين المتنازعين، فلعله يستطيع أن يحقق هدفا أشد أهمية في تشجيع البشرية، في وجه اضطرابات سياسية كبيرة وكارثة بيئية محدقة، على الالتفات للأمور التي نشترك فيها قبل أن يفوت الأوان حقا.

***

منذ نشر رواية هـ. ج. ويلز **آلة الزمن** عام 1895، بات السفر عبر الزمن أداة مفضلة في أفلام الخيال العلمي وأحيانا الروائيين التاريخيين. ومن المغري أن نتساءل عما قد يحدث لو أن پوليبيوس أو سيما چيان، الذي يقاربه زمنا من الصين في عصر الهان (وربما الاثنان معا) قد تجسدا فجأة في عصرنا هذا، ووجدا أنفسهما في قسم تاريخ (بعد؟) حداثي. لا شك أن قدرا كبيرا من المناقشات التي يسمعانها وكذلك سياقها الحديث، سيصيبهما بالحيرة. كما سيعانيان (إلى جانب مشكلات اللغة) من بعض الصعوبة في فهم نظرة كل منهما إلى الماضي. ولكن هناك نشاطا جوهريا سيتشاركانه فيما بينهما ومعنا أيضا: وهو فهم أن التاريخ يخبرنا، أو ينبغي أن يطمح لإخبارنا، بقصص حقيقية عن الماضي؛ وشعور بأنه أيما تكن الأحكام الأخلاقية التي قد يقحمها المؤرخ، فعليه أن يلتزم بتقديم الأدلة دون تشويه أو اختلاق؛ وقناعة بأن قلة مختارة من بين التواريخ الأفضل تدوينا لن تظل مجرد أوعية للأدلة على الماضي، بل قد تصبح بدورها (كما قصد ثوسيديدس) إرثا للأجيال اللاحقة، وآثارا أدبية تقرأ في العصور القادمة.

وهذا يثير تساؤلا طرح بشكل متواتر في مقالات المجلات والمؤتمرات التخصصية، حول ما قد يفضي إليه مستقبل التاريخ. فقد وصف هذا الكتاب عملية استمرت لثلاثة آلاف سنة، تطور خلالها التاريخ كتوجه منظم لتصوير وتمثيل الماضي تدريجيا إلى جانب مهم من الحياة التعليمية والثقافية للعالم الحديث، ومن ثم كيف أزاح تدريجيا نمط معين من التاريخية، ظهر في أوربا بعد عصر التنوير وكذلك مشتقاتها المباشرة، تلك البدائل الراسخة التي تطورت في شرق آسيا، العالم الإسلامي، والعديد من الثقافات الأخرى التي لم تذكر أبدا في هذا الكتاب. وقد ارتبطت هذه الفكرة بصراحة ‹بفتح› أوربا الموازي للمؤسسات الثقافية الأوسع في سائر أرجاء العالم، وصاحبها في العديد من الحالات إخضاع سياسي على شكل الاستعمار، وأحيانا رغبة من المصلحين الاجتماعيين المحليين والسياسيين الليبراليين في تبني تدوين تاريخ إصلاحي كوسيلة ‹لتحديث› الحضارة المحلية التي رأوا أنها تتلكأ في أعقاب الغرب.

ولذا فليس من محض الصدفة أن يحدث الموقفان المفصليان في هيمنة التاريخ ‹الحديث› (أو ما كان يعرف، بثقة القرن التاسع عشر المعهودة، ‹بالعلمي›) في نقاط

التوسع الإمبريالي الطموح، بدءا في القرن السادس عشر والسابع عشر، وعودا في القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وكذلك فليس من الصدفة أن التاريخية الغربية نفسها قد تأثرت بعمق باتصالها بأمثلة (أخرى) في تدوين التاريخ، ليس لأنها تبنت تلك البدائل حقا (فقد تركتها في معظم الحالات) بل لأن فهمها وانتقادها قد أوصلها لمستوى من الوعي الذاتي حول ما الذي جعل التوجه الغربي نحو الماضي مميزا ولماذا ـ في عقول الأوربيين على الأقل، وكذلك معجبيهم من الآسيويين والمستعمَرين ـ وهو الذي منحها حقا في ادعاء التفوق. وأخيرا، فليس من الصدفة أيضا أن لحظة الانتصار العالمي الظاهر للتاريخية الغربية في القرن التاسع عشر كانت وجيزة في خضم **الأمد الطويل** لهذه الحكاية، وأن حق التاريخ في تكوين إمبراطورية بفضل المعرفة بالماضي قد أصبح، خلال القرن العشرين، عرضة للشقاق والعصيان والانقسام والدمقرطة الداخلية تماما كتلك الإمبراطوريات التي مكّنته من الهيمنة في المقام الأول، والتي دعمتها وساهمت في إدامتها تلك السرديات الكبرى التي نسجها مريدو الربة كليو.

فإن كانت الأعوام الستون الماضية قد شهدت عملية تفكيك للاستعمار **حرفيا** في أرجاء العالم، فقد بدأت أيضا تشهد عملية موازية من تفكيك الاستعمار **عبر تدوين التاريخ**، أي بالتحرر من المواقف والطرق والأمثلة الغربية الحديثة. وفي الوقت ذاته، ما يزال المؤرخون الأكاديميون راسخين في الظرف ما بعد الحداثي كما يصفه ليوتار *Lyotard*، ويخامرهم الشك من السرديات الكبرى القديمة والجديدة، بل كثيرا ما يصرون بنحو تلقائي على مقاومة التعميم عبر طرح الفوارق والقيود والأمثلة المضادة مهما صغرت. وذلك يتضارب مع ميول معظم القراء الذين سيصابون بالجزع من الإبهام والمواربة المستمرين؛ وحتى المؤرخ الذي يتهكم لا إراديا على تعميمات الآخرين سيضطر بالطبع إلى التعميم، خاصة حين يعلق على مجالات هي أبعد ما تكون عن ساحة خبرته. وقد حاول هذا الكتاب أن يبسّط ويوثق ويعمم موضوعه بطرق يراد منها معونة القارئ المبتدئ، لكنه بفعل ذلك قد اضطر لتقليص الشوارد، وتحاشى خفايا الفروق، وتخلى عن قدر كبير من التعقيد.

هناك سببان على الأقل للتحلي بالأمل تجاه آفاق التاريخ الواعدة. الأول، الذي نوقش سلفا، هو التشابك الدولي أو (العولمة) الأشد عمقا للبحث التاريخي الذي كان

وما زال يحدث خلال العقود الثلاثة الماضية منذ نهاية الحرب الباردة. ورغم أن قلة من المؤرخين قد يدعمون اليوم أوربية المركز، أو المحافظة، أو الإصرار على أولوية الدولة والسياسة عند ليوپولد فون رانكه، فمن اللافت للنظر أن بعض قيم التاريخ الكوكبي الجديد، وخصوصا إصراره على معاملة الحضارات الأخرى وفق ضوابطها هي ومنحها قيمة مكافئة، تستذكر على الأقل روح أفكار ذلك الألماني العظيم حول التاريخ، إن لم تكن أكثر ممارساته الفعلية. والثاني، أن التاريخ ما يزال يحتفظ بأهمية اجتماعية وشعبية عريضة بالرغم مما اعتبره أورتيغا إي غاسيت، الذي اقتبسنا منه في أعلاه، أفضل جهودنا الأكاديمية لتجريده من كلتا الصفتين. ففي حين خسر التاريخ الأكاديمي مكانته الرفيعة (كمجال رئيس)، التي تمتع بها لفترة وجيزة في القرن التاسع عشر (حين كانت تربطه بعد صلة طفيفة بالأدب)، فإن الاهتمام الشعبي بالماضي لم يقل حرارة، من التلفاز (ببرامجه الوثائقية والخيالية) والأفلام، إلى الروايات الأدبية (هيلاري مانتل *Hilary Mantel*) والشعبية (ديانا غابالدون *Diana Gabaldon*، جين پليدي *Jean Plaidy*) والتمثيليات العلنية الأسبوعية. ثم إن المبيعات الوفيرة لكتب جادة بأقلام مؤلفي (الصورة الكبرى) مثل جاريد دياموند *Jared Diamond*، تدلنا على عدم وجود خطر وشيك لنسيان التاريخ. أما إن كان مفهوما بشكل دقيق، فضلا عن كونه مهما بحق في تشكيل مستقبلنا، فذلك بحث آخر.

إن لم يكن التفكير التاريخي صفة عالمية بحق لدى الثقافات السابقة، فهناك رغم ذلك اهتمام شبه غريزي بالماضي في العالم المعاصر، سواء كان تجاه السير الذاتية، الأنساب، أو الآثار. فالولع القروسطي بأصول الشعوب وأنساب الأسر الحاكمة قد لحقه في عصرنا الحاضر شغف لا ينطفئ كما يبدو (وتشهد عليه رفوف التاريخ في أي متجر كتب كبير، حيث تقبع كتب كهذه وسط كتب لا تزال شائعة حول الحروب والفظائع السابقة) نحو فهم أصول العالم المعاصر، وكذلك همومه ومخاطره. فمن ضبط السلاح إلى حقوق الإنسان، ومن التقنية إلى خطر الكارثة البيولوجية، وأي مشكلة عالمية تبدو بلا حل، نجد أنفسنا نخضع الشؤون الراهنة للتاريخ سواء أفادنا فعل ذلك أو لا. لقد كان كروتشه محقا في قوله إن الماضي يرافقنا دوما وإن تجربتنا للحاضر مثقلة بالإشارات والتركات والتراثات التي ورثناها عما وجد من قبل. وكذلك

أصاب نيتشه في إشارته إلى أن مجموع ذلك بأسره قد يصبح أيضا ثقلا تنوء به ظهور البشر الأحياء المعاصرين. ولعل قدرا أقل من التذكر وقدرا أكثر من النسيان قد يكون مفيدا من حين لآخر، وتفهم سلسلة الأحداث التي أوصلتنا إلى المضايق الحالية لا يماثل أن نبصر طريقا براغماتيا للخروج منها.

يحدث التاريخ في كل مكان: من الصور العائلية إلى عروض التحفيات، ومن الفيديوهات المنزلية إلى بحث الهواة في الأنساب. وهو هواية بقدر ما هو رسالة. وما يزال التاريخ رائجا في المساقات الجامعية الأولية وكذلك في العالم الأرحب لدرجة أن حركة نشر الكتب الموجهة لجمهور عام، حتى لو ترجّحت بعض الشيء نحو الأحداث القريبة أو الصراعات العسكرية، لا تظهر أي علامات على التباطؤ. وما يزال التاريخ يوفر موردا جاهزا للحجج حول أصول هذا الجانب أو ذاك من الحداثة، سواء من اليمين (الذي يقول بأن ما ينبغي الاحتفاء به في الحاضر لا بد أن تكون له سوابق محترمة) أو من اليسار (الذي يقول بأن ما يظل مزعجا وخبيثا وفي حاجة بذاته إلى التغيير الجذري يملك أصولا تاريخية). وليس لهذه الحجج قيمة تذكر إلا لو افترض المرء أن لدى جمهور القراء وعيا تاريخيا أساسيا أو كان يؤمل فيهم أن يملكوا وعيا كهذا.

بل إن نجاح التاريخ في إخبار الجمهور الأوسع **بما حدث فعلا**، وفي تحديد الأحداث والنقاط الكبرى التي تبرز في وعينا الجمعي، وحتى في إقناع الجمهور بما ينبغي أن يفكروا فيه حول ظهور الحداثة بدلالات تاريخية، قد أدى في السنوات الأخيرة لتدفق مطرد من مجموعات المقالات والروايات المكرسة لاستكشاف **ما كان سيحدث** بدل ذلك. تعود هذه التمرينات (المنافية للواقع) لعدة قرون ـ فقد تساءل عالم الرياضيات واللاهوت الفرنسي بليز پاسكال (1623 ـ 62) في القرن السابع عشر حول شكل أنف كليوپاترا وتأثيره في التاريخ الروماني، ثم إن شخصا بمكانة نيتشه اعتبرها أداة مهمة في تقييم التداعيات السببية. ولكنها في السنوات الأخيرة أصبحت أشبه ما تكون بألعاب الحانات لدى المؤرخين. يبدو أن المواقف المنافية للواقع تمنح المؤرخين فرصة للتأمل فيما كان سيحدث لو لم يتم اغتيال الرئيس كينيدي، لو أن شارل مارتل خسر أمام المسلمين في معركة تور عام 732، لو أن يسوع المسيح لم يصلب،

أو ـ كما يفضل العديد من الروائيين وقراؤهم ـ لو انتصر النازيون في الحرب العالمية الثانية. وقد أشار ريتشارد إيڤانز أنه في حين تظل هذه التخمينات مسلية وآسرة للقارئ العابر، فإن قيمتها في فهمنا للماضي، وكذلك إثبات أو دحض أهمية أحداث معينة في سلسلة سببية أطول، تظل مثار شك.

لعل الأمر كذلك. ولكن في الختام، لنقم بتمرين منافٍ للواقع من عندنا. آمل أني قد استطعت إثبات أنه، لو كان هناك بالفعل ميل طبيعي أو متوارث لدى البشر إلى استرجاع الماضي بشكل ما ـ أو (ميمة) تاريخية، مستعيرا هذا اللفظ من عالم الأحياء التطورية ريتشارد دوكينز ـ فإنه ما من هدف واحد للسعي وراء استرجاع للماضي كهذا، ولا نمط ضروري لهذا السعي، ولا مجموعة (صحيحة) بالضرورة من الطرق، النظريات، أو التوجهات، ولا وسيط (طبيعي)، سوى الصوت البشري، لأجل تقديمه. وبالنظر لكل هذا، فمن الممكن أن نتخيل (كما فعل بعض المؤرخين الكوكبيين) صيغة بديلة من قصة البشرية لم يستطع فيها الغرب الوصول إلى الهيمنة، ومن الممكن بنفس القدر أن نتخيل وضعا ناتجا تتمكن فيه أصناف التاريخ التي مارسها سيما چيان وخلفاؤه تدريجيا من إزاحة أنماط التفكير والكتابة حول الماضي التي كنا نألفها طوال الأجيال. هكذا تبلغ وثاقة الصلة بين التاريخ والهيمنة السياسية ـ أو القوّة كما كان فوكو سيقول. في ظروف كهذه، كيف سيبدو قسم التاريخ (الحديث)؟ هل سيصبح التاريخ أصلا موضوعا جامعيا؟ هل سيصبح نشاطا تتحكم به نخبة معيّنة حكوميا؟ وهل سيكون شكله السردي شبيها بالرواية الزمنية المعتادة ذات السرد الواحد التي بتنا مرتاحين حيالها؟ ستظل الأسئلة وأجوبتها الممكنة بلا نهاية بالطبع، وكأي مثال منافٍ للواقع، فهي محض تخمينات.

ولكن ما نعرفه، من دون حاجة لتجربة كهذه، هو أن ظهور تدوين التاريخ الحديث (والحداثة ذاتها، كما تذكّرنا پينيلوپي ج. كورفيلد *Penelope J. Corfield*، تتحرك مع سهم الزمن ـ ولذا فإن الممارسات التاريخية اليوم قد لا تبدو (حديثة) جدا بعد قرن من الآن) كان بحد ذاته قصة معقدة، تحظى بتاريخها الخاص، وتتضمن العديد من المنعطفات، والعديد من اللقاءات بين الثقافات، والعديد من المعاودات بين أخذ ورد للعديد من الأسئلة ذاتها (مثل علاقة

المحلي بالعالمي، أو حتى الكوكبي اليوم؛ أو الحدود بين التاريخ والخيال، أو منفعة التاريخ كمعلّم للحياة (*magistra vitae*)، وكذلك التجارب المتكررة، في عدة لغات، مع الصنف والشكل الأدبي. وباختصار، فإن تاريخ التاريخ ذاته كان ذا صلة حميمة بماضي الإنسانية الأوسع. ونجاحاته وإخفاقاته كانت على الأقل نتيجة الظروف المحلية والجيوسياسية بقدر ما كانت نابعة من البصيرة الفكرية أو البراعة الأدبية لبعض أعظم ممارسيه.

أسئلة للمناقشة

1. هل أصبح التاريخ شديد التخصص؟ أم أن التخصص ببساطة علامة على نضج المجال؟
2. هل يجدر بالمؤرخين أن يشغلوا دورا عاما ويتدخلوا في الشؤون السياسية الراهنة؟
3. طوال قرون، اعتقد معظم المؤرخين والقراء بأن المرء يستطيع التعلم من التاريخ. ولكن منذ عصر هيغل ورانكه لم يعد هناك اتفاق واسع على هذا الأمر. ما رأيك؟
4. هل يمكن للتمرينات المنافية للواقع أن تفيد التفكير التاريخي الجاد؟
5. أي نقاط قوة وضعف يتسم بها التاريخ الكوكبي؟ وماذا عن 'التاريخ الكبير'؟
6. لقد ظهرت حركات تنادي بإزالة نصب وتذكارات أخرى لشخصيات تاريخية مثار للجدل، وبإعادة تسمية مبان تحمل أسماءهم. هل هذه 'إعادة كتابة للتاريخ' كما يقول البعض، أم هي اعتراف مبرر بأن أولئك الذين حملوا قيما تعتبر الآن منبوذة ينبغي ألا يحظوا بالتكريم، حتى وإن كانت القيم التي حملوها شائعة في عصرهم؟ أين يجرّ المرء الخط؟ هل هناك فرق بين نصب لجنرال أميركي كونفدرالي من الحرب الأهلية مثلا، وآخر لأدولف هتلر؟
7. ما هي التطورات الأبرز التي حدثت في الدراسات التاريخية منذ مطلع القرن الحالي؟ وإلى أين ترى مجال التاريخ يتجه خلال العقد القادم أو ما يليه؟
8. أي تداعيات تحمل 'دمقرطة' المواد التاريخية (كتوافرها المباشر عبر الإنترنت) لمستقبل هذا المجال وأهمية المستودعات الأرشيفية التقليدية؟

لمزيد من القراءة

- Baets, Antoon de, *Responsible History* (New York and Oxford, 2009)
- Bentley, Jerry H., 'The New World History', in Lloyd Kramer and Sarah Maza (eds), *A Companion to Western Historical Thought* (Oxford, 2002), 393 _ 416
- Black, Jeremy, *Clio's Battles: Historiography in Practice* (Bloomington, IN, 2015)
- Blouin, Francis X. Jr and William G. Rosenberg, *Processing the Past: Contesting Authority in History and the Archives* (Oxford, 2011)
- Burton, Antoinette (ed.), *Archive Stories: Facts, Fictions, and the Writing of History* (Durham, NC, 2005)
- Carr, David, Thomas R. Flynn and Rudolf A. Makkreel (eds), *The Ethics of History* (Evanston, IL, 2004)
- Chakrabarty, Dipesh, 'The Climate of History: Four Theses', *Critical Inquiry* 35.2 (2009): 197 _ 222
- Christian, David, *Maps of Time: An Introduction to Big History* (Berkeley, CA and Los Angeles, 2004)
- Conrad, Sebastian, *What is Global History?* (Princeton, NJ, 2016)
- Corfield, Penelope J., *Time and the Shape of History* (New Haven, CT, 2007)
- Crossley, Pamela Kyle, *What is Global History?* (Cambridge, 2008)
- Dougherty, Jack and Kristen Nawrotzki (eds), *Writing History in the Digital Age* (Ann Arbor, MI, 2013)
- Evans, Richard W., *Altered Pasts: Counterfactuals in History* (Waltham, MA, 2014)

- Farge, Arlette, *The Allure of the Archives*, trans. T. Scott – Railton (New Haven, CT, 2013)
- Ferguson, Niall (ed.), *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals* (London, 1997)
- Guldi, Jo and David Armitage, *The History Manifesto* (Cambridge, 2014)
- Harlan, David, *The Degradation of American History* (Chicago, IL, 1997)
- Hill, Christopher L., *National History and the World of Nations: Capital, State, and the Rhetoric of History in Japan, France, and the United States* (Durham, NC and London, 2009)
- Hodgson, Marshall G. S., *Rethinking World History: Essays on Europe, Islam, and World History*, ed. E. Burke, III (Cambridge and New York, 1993)
- Iggers, Georg G., *Historiography in the Twentieth Century: From Scientific Objectivity to the Postmodern Challenge*, rev. edn (Middletown, CT, 2005)
- Kaye, Simon T., 'Challenging Certainty: The Utility and History of Counterfactualism', *History and Theory* 49.1 (2010): 38 – 57
- Kingston, Beverley, 'A Plea from the Peripheries for Modesty', in Stuart Macintyre (ed.), *The Historian's Conscience: Australian Historians on the Ethics of History* (Carlton, Victoria, Australia, 2004), 75 – 83
- Le Goff, Jacques, *Must We Divide History into Periods?*, trans. M. B. DeBevoise (New York, 2015)
- Lowenthal, David, *The Past is a Foreign Country – Revisited* (1985; Cambridge, 2013)
- Manning, Patrick, *Navigating World History: Historians Create a Global Past* (Houndmills, Basingstoke, 2003)

- Manning, Patrick (ed.), *Global Practice in World History: Advances Worldwide* (Princeton, NJ, 2008)
- Mazlish, Bruce and Akira Iriye (eds), *The Global History Reader* (New York, 2005)
- Megill, Allan, 'Fragmentation and the Future of Historiography', *American Historical Review* 96.3 (1991): 693 _ 98
- *Historical Knowledge, Historical Error: A Contemporary Guide to Practice* (Chicago, IL, 2007)
- Morris _ Suzuki, Tessa, *The Past Within Us: Media, Memory, History* (London and New York, 2005)
- Moses, A. Dirk, 'The Public Relevance of Historical Studies: A Rejoinder to Hayden White', *History and Theory* 44.3 (October 2005): 339 _ 47
- Moyn, Samuel, *Human Rights and the Uses of History*, 2nd edn (London and New York, 2017)
- Munslow, Alun and Robert A. Rosenstone, *Experiments in Rethinking History* (New York and London, 2004)
- Olstein, Diego, *Thinking History Globally* (Basingstoke and New York, 2015)
- Popkin, Jeremy D., *From Herodotus to H_Net: The Story of Historiography* (Oxford, 2016)
- Rosenfeld, Gavriel D., *Hi Hitler! How the Nazi Past is Being Normalized in Contemporary Culture* (Cambridge, 2015)
- Rosenstone, Robert A., *Visions of the Past: The Challenge of Film to Our Idea of History* (Cambridge, MA, 1995)

- *History on Film/Film on History* (Harlow, UK, 2006)
- Shryock, Andrew and Daniel Lord Smail, *Deep History: The Architecture of Past and Present* (Berkeley, CA, 2011)
- Smail, Daniel Lord, *On Deep History and the Brain* (Berkeley, CA and Los Angeles, 2008)
- Wallerstein, Immanuel, *The Modern World System*, 3 vols (New York, 1974 _ 89)
- White, Hayden, 'The Public Relevance of Historical Studies: A Reply to Dirk Moses', *History and Theory* 44.3 (October 2005): 333 _ 38
- Woolf, Daniel, 'Concerning Altered Parts: Reflections of an Early Modern Historian', *Journal of the Philosophy of History* 10 (2016): 415 _ 34



يقودنا المؤلف البريطاني، دانيال وولف، في هذا الكتاب في رحلة طويلة موجزة عبر التاريخ ناظرًا في أقدم أشكال الكتابة التاريخية التي ظهرت في الشرق الأدنى وآسيا وأوربا وإفريقيا والأميركيتَيْن، وكاشفًا عن التطورات التي حصلت أثناء هذه الفترات الطويلة في مفاهيم التاريخ وتدوينه وعناصره، ومن ثم ينتهي بالقرنين العشرين والحادي والعشرين متناولًا فيهما مفاهيم كـ«التاريخ الكبير» و«التاريخ العميق» وتأثير التكنولوجيا الرقمية في تدوين التاريخ، ولا يُسقط أيضًا نقاش التحولات السياسية المعاصرة التي كان لها تأثير واضح في هذا المجال وفي محتواه.

هذا وإن المؤلف يقدم في هذا الكتاب مسردًا قصيرًا لأهم المصطلحات التقنية، ويذيّل كل فصل بمجموعة ثمينة من المصادر ذات الصلة بموضوع الفصل للاستزادة والتوسع، إلى جانب طرح عدد من الأسئلة النقاشية المناسبة للطلاب والباحثين تتناول أهم مفاصل ونقاط الفصول. كل هذا يجعل الكتاب الذي بين أيدينا شاملًا جامعًا وعالميًا بحق، مفيدًا للقراء والطلاب والباحثين معًا.


ISBN 978-9-9226437-0-0
9 789922 643700
daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين